تفسير القرآن الكريم

المسمى

ضياء التأويل في معاني التنزيل

تأليف

العلامة أبي محمد عبد الله بن محمد بن عثمان

الملقب بفودي بن عثمان بن صالح

رحمه الله تعالى

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر

الحاج محمد علي أبجي

كانو نيجيريا

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأعراف

مكية ـ إلا (واسألهم عن القرية ...) الثمان أو الخمس آيات
مائتان وخمس أو ست آيات

{ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . المص } الله أعلم بمراده به ، هذا { كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ } يا محمد وجملة أنزل صفة كتاب { فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ } ضيق { مِنْهُ } من تبليغه مخافة أن تكذب به أو شك فإن الشاك حرج الصدر ، أو قصور في القيام بحقه ، ووجه النهي إليه المبالغة ، والفاء تحتمل العطف والجواب فكأنه قال إذا أنزل إليك فلا يحرج صدرك منه { لِتُنْذِرَ بِهِ } متعلق بأنزل أي للإنذار أو بلا يكن لأنه إذا أيقن أنه من عند الله جسر على الإنذار { وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ } به عطف على تنذر لكونه مصدراً في المعنى ، أو يقدر له فعل من جنسه ، أي وتذكر ذكرى ، ويحتمل الرفع عطفاً على كتاب ، أو خبر محذوف . وقل للمؤمنين جميعاً { اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ } القرآن والسنة { وَلَا تَتَّبِعُوا } تتخذوا { مِنْ دُونِهِ } أي الله ، أي غيره { أَوْلِيَاءَ } تطيعونهم في معصيته { قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } بالخطاب والإدغام للجمهور وبالياء قبل التاء لابن عامر وبسكون الذال لحمزة والكسائي وحفص وما زائدة لتأكيد القلة أي لو تذكرتم حق التذكر لما تركتم ولاية الله أو دينه ، أو ما مصدرية ، والعامل في « قليلا » الفعل المذكور ، إذ ليس المؤول بالمصدر في حكمه من كل وجه { وَكَمْ } خبرية مفعول { مِنْ قَرْيَةٍ } أريد أهلها { أَهْلَكْنَاهَا } أردنا إهلاكها { فَجَاءَهَا بَأْسُنَا } عذابنا { بَيَاتًا } ليلا { أَوْ هُمْ قَائِلُونَ } نائمون بالظهيرة عطف على « بياتاً » ، وإنما حذف الواو الحالية كراهة الجمع بين حرفي العطف وخص الوقتين لأنهما وقتا الدعة والاستراحة : فوقوع العذاب فيهما أفظع ، والقيلولة : استراحة نصف النهار وإن لم يكن معها نوم ، أي مرة جاءها ليلا ومرة نهاراً { فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ } قولهم { إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ } أي إلا الاعتراف ببطلان ما هم عليه تحسراً لندمهم أن الوقت ليس قابلا للاستئناف { فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ } الأمم عن إجابتهم الرسل وعملهم فيما بلغهم { وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ } عن

الإبلاغ، والمراد بهذا السؤال توبيخ الكفرة، والمنفى فى «لا يسأل عن ذنوبهم المجرمون» سؤال الاستعلام قاله البيضاوى. وفى غاية الأمانى: والقول بأن المنفى سؤال استعلام سهو: لأن الاستعلام على علام الغيوب محال. اهـ. قلت لم يتبين لى جعله سهواً إذ لم يدع إثباته بل نفيه تأمل والمنفى كما يكون ممكناً يكون ممتنعاً لمعلومية امتناعه والله أعلم. قال فى الجواهر: فأما الأنبياء والمؤمنون فيعقب جوابهم رحمة وكرامة. وأما الكفار ومن نفذ عليه الوعيد فيعقب جوابهم عذاب وتوبيخ، وعن مالك أن العلماء يسألون يوم القيامة كما تسأل الأنبياء يعنى عن تبليغ العلم. وعن النبى صلى الله عليه وسلم. «ما من عبد يخطو خطوة إلا يسأل عنها ماذا أراد بها» وعنه «يوقف العبد بين يدى الله فيسأله عن جاهه كما يسأله عن عمله» ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ لنخبرنهم عن علم بما فعلوه والضمير للرسل إليهم أو الرسل أو لهما معاً، أو لنخبرنهم بمعلومنا منهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم فيخفى علينا شىء من أحوالهم تأكيد وتخصيص للعلم بالحضورى الذى لا يقبل شبهة ولا يحوم حوله ريب ﴿وَالْوَزْنُ﴾ للأعمال أى مقابلتها بالجزاء، والجمهور على أن صحائف الأعمال توزن بميزان له لسان وكفتان كالسماء والأرض عظما كما ورد كل ذلك فى الأحاديث الصحاح كائن ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أى يوم السؤال المذكور والوزن مبتدأ ويومئذ خبره ﴿الْحَقُّ﴾ العدل السوى صفة الوزن أو هو الخبر لأنه بمعنى كائن أو خبر محذوف ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ حسناته جمع موزون أو ما يوزن به جمع ميزان والأول أوجه وعلى الثانى: جمعه للتفخيم أو لكثرة الموزون فيه وهو الأصح أو متعدد تعدد الأمم أو الأشخاص كما هو معلوم فى كتبنا الأصولية ولشيخ شيوخنا طاهر بن إبراهيم فى نظم الكبرى فى السمعيات كلام بليغ رصين جزل نصيح ينبغى النظر فيه لمن أراد ذلك ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالنجاة والثواب ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم﴾ بتصييرها إلى النار ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ بالتكذيب وغيره وضع موضع يكذبون للدلالة على أن تكذيب الآيات ظلم ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ﴾ يا بنى آدم ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ جعلنا لكم مكاناً تسكنونه أو جعلناكم متمكنين تتصرفون فيها كيف شئتم ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ بالياء أسباباً تعيشون بها جمع معيشة وهى لفظة تعم المأكول الذى يعاش به والمحترف الذى يؤدى إليه ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ لتأكيد القلة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ فيما أنعمت عليكم أى شكراً أو زماناً قليلا ثم نبه على أصل النعم عليهم بقوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أى أباكم آدم طيناً غير مصور ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أى صورناه فأحسن تقويم صورة إنسان وأنتم فى ظهره ونزل خلقه وتصويره منزلة خلق الكل وتصويره لأنه الأصل أو خلقناكم بمعنى قدرناكم فى علمنا ثم صورناكم فى ظهر آدم ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وثم على بابها على هذين التقديرين أو خلقناكم ثم صورناكم فى بطون أمهاتكم ثم أخبرناكم أنا قلنا للملائكة ثم لترتيب الإخبار بهذه الجمل لا لترتيب الجمل فى أنفسها والله أعلم ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ﴾ تعالى ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لا مزيدة لتأكيد معنى الفعل لحذفها فى قوله ما منعك أن تسجد

لما خلقت يدىّ ، وقيل الممتنع من الشيء مضطر إلى خلافه كأنه قيل ما اضطرك إلى عدم السجود وفى قوله إذ أمرتك دليل على أن مطلق الأمر للوجوب والفور وسؤاله عن مانع السجود للتوبيخ ولإظهار معاندته بالفخر بأصله وحسده لآدم ولذا لم يقل منه ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ تعليل لخيريته ، وأخطأ من وجوه : لأنه لم يلاحظ الأمر بل المأمور وهو جهل وقاس مع النص وهو مردود وحسن وقبح بالعقل وهو فاسد ولو سلم له لم يتم ما رامه لنقضه بوجوه عديدة بل اقتضت الحكمة أزلا أن يكون معذباً بما افتخر به قدوة للأشقياء ولم يتب حتى يتدارك بالغفران والله المستعان ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ من الجنة وقيل من السموات ﴿ فَمَا يَكُونُ ﴾ لا يصح ﴿ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾ فإنها مكان الخاشع المطيع وفيه تنبيه على أن التكبر لا يليق بأهل الجنة وأن إبليس طرد لتكبره لا لمجرد عصيانه بترك السجود ﴿ فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ ممن أهانه الله لتكبره . قال عليه السلام « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله » والهبوط الإنزال من فوق على سبيل القهر والهوان استكبر عدو الله فابتلاه الله بالصغار والذلة والهبوط من الجنة والخروج من السماء ﴿ قَالَ أَنظِرْنِى ﴾ أخرنى ﴿ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى الناس لئلا تعجل عقوبتى ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ وفى آية أخرى « إلى يوم الوقت المعلوم » أى وقت النفخة الأولى على الأصح الذى عليه الجمهور ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ أى بإغوائك لى والباء للقسم أو للسببية متعلقة بفعل القسم المحذوف أى بسبب إغوائك إياى بواسطة بنى آدم ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ ﴾ جواب القسم ﴿ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى على الطريق الموصل إليك نصب على الظرف أو على حذف الجار أى لأجتهدن فى إغوائهم ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ أى من كل جهة فأمنعهم عن سلوكه كما هو شأن قطاع الطريق على السابلة وعدى الأولين بمن لأنه فيهما متوجه إليهم من تينك الجهتين والأخيرين بعن التى للتجاوز لأنه منحرف عنهم . وعن ابن عباس من بين أيديهم من قبل الآخرة بالتشكيك ومن خلفهم من جهة الدنيا بالترغيب وعن أيمانهم من قبل الحسنات بالتثبيط والتخليط وعن شمائلهم من جهة الشهوات بالتزيين ولا يستطيع أن يأتى من فوقهم لئلا يحول بين العبد وبين رحمة الله تعالى وقيل فيما مضى من أعمارهم لا يتوبون عما فعلوا فيه وفيما بقى لا يتداركونه بالطاعات وفى أيمانهم أى أموالهم لا ينفقونها ولا يشكرون عليها وفى الفقر لا يصبرون والله أعلم . ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ لك على نعمك التى أنعمت عليهم ﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً ﴾ بالهمز معيباً أو ممقوتاً من ذأمه إذا ذمه وحقره وقرئ مذوماً كقول من مسئول أو كقول فى مكيل من ذامه يذيمه ذيما : عابه ﴿ مَدْحُوراً ﴾ مطروداً مبعداً عن الرحمة ﴿ لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴾ من الناس واللام للابتداء وموطئة للقسم وهو ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى منك بذريتك ومن الناس وفيه تغليب الحاضر على الغائب وفى الجملة معنى جزاء من الشرطية أى من تبعك أعذبه ﴿ وَ ﴾ قلنا ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ وقرئ هذى

وهو الأصل إذ الهاء بدل الياء ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ تصيرا من جملتهم جزم على العطف أو نصب على الجواب ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ﴾ لأجلهما ﴿ الشَّيْطَانُ ﴾ فعل الوسوسة ، وهو الصوت الخفي ﴿ لِيُبْدِيَ ﴾ ليظهر ﴿ لَهُمَا ﴾ علة للوسوسة . ولا ينافي قصد إضلالهما وإيقاعهما في المعصية ﴿ مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا ﴾ ليسوأهما بذلك وبغيره ، أو اللام للعاقبة ، وسوءاتهما عوراتهما . دليل على تقبيح كشف العورة ولو في الخلوة وعند الزوج من غير حاجة لأنه مخل للمروءة ، وفي الصحيح عن عائشة « ما رأيت منه ولا رأى مني » تريد رسول الله ﴿ وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا ﴾ كراهة ﴿ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ اللذين لا يفتران عن ذكره ولا يحتاجان إلى الأكل ولوازمه ، وقرئ بكسر اللام ، أي ذوي ملك لا يبلى ﴿ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ في الجنة ﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ حلف لهما بالله ﴿ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ وأخرج على المفاعلة مبالغة ، أو حلفا له بالقبول بعد ما حلف لهما بالنصح ، أو أقسما عليه بالله إنه لمن الناصحين فأقسم لهما ﴿ فَدَلَّاهُمَا ﴾ حطهما إلى أكل الشجرة عن منزلتهما ﴿ بِغُرُورٍ ﴾ ماغرهما به من الوسوسة والقسم بالله ظناً منهما أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً ، والتدلية إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل . قال ابن عطية يشبه عندي أن تكون هذه استعارة من الرجل يدلي آخر في هوة بحبل رميم أو سبب ضعيف يغتر به فإذا تدلى به وتورك عليه انقطع به وهلك ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ ﴾ أي أكلا منها ﴿ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ﴾ أي تطاير عنهما لباسهما فانكشفت عوراتهما من شؤم الذنب ، سمي القبل والدبر سوأة لأن انكشافه يسوء صاحبه ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ ﴾ أخذا يلزقان ﴿ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ ورقة فوق ورقة ليستترا به ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ عتاب على مخالفة النهي ، وفيه دليل على أن معالق النهي للتحريم إلا لصارف ، وأشار إليها بما يدل للقريب أولا وللبعيد ثانياً لأنهما بعد وقوع ما وقع فزا من الشجرة فكانت بعيدة عنهما ﴿ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ توبيخ على الاغترار ، وقوله ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ بمعصيتنا ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ اعتراف وتوبة وطلب ستر ورحمة ، وخوف على الخسران بسبب الذنب ﴿ قَالَ اهْبِطُوا ﴾ أي آدم وحواء بما اشتملتما عليه من ذريتكما ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ حال أي متعادين ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ تنقضي آجالكم ﴿ قَالَ فِيهَا ﴾ الأرض ﴿ تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ بالبعث ، بالبناء للمفعول للجمهور ، والفاعل لحمزة والكسائي وابن ذكوان ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا ﴾ أي أسبابه ، مجاز لغوي مرسل ، أو خلقناه لكم ﴿ يُوَارِي ﴾ يستر ﴿ سَوْءَاتِكُمْ ﴾ التي قصد الشيطان إبداءها ﴿ وَرِيشًا ﴾ وقرئ رياشاً بالجمع ونسبه صاحب الجواهر لأبي عمرو وعاصم وفيه نظر ، وهو فاخر اللباس ، وهو ما يتجمل به منه أو المال ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ﴾ بالنصب لنافع وابن عامر والكسائي عطفاً على لباساً وهو العمل الصالح أو السمت الحسن والرفع لغيرهم . مبتدأ خبره جملة ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ وقيل لباس التقوى : لباس الحرب ، وقيل :

خشية الله ، وقيل : لباس الورع كالصوف ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإنزال أو تنويع اللباس ﴿ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ الدالة على كمال قدرته وفضله ورحمته ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ نعمته ويشكرون ، ويتورعون عن القبائح ، والتفت إلى الغيبة إشعاراً بذهولهم عن تصور ذلك الإحسان فضلا عن القيام بشكره ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ﴾ يضلنكم ﴿ الشَّيْطَانُ ﴾ عن طريق الحق فيمنعكم دخول الجنة ، أو عن ستر العورات كما يفعله غير الحُمْسِ فى الطواف ﴿ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ ﴾ بفتنته ﴿ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ فى الزلة الموجبة للخروج ، وإسناده إليه مجاز بعلاقة السببية وإنما استأنف الكلام ولم يعطف القصة لأنه شروع فى نوع آخر من الكلام وإسناد النهى إلى الشيطان مبالغة فى التحذير ، كما تقول : لا يذن منك الأسد ، والكاف فى موضع نصب ، أى مثل فتنة إخراج أبويكم تحذير بليغ بأن من فتن أباكم يفتنكم بالأولى إن لم تحذروه غاية الحذر ﴿ يَنْزِعُ ﴾ حال ﴿ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ ﴾ أى الشيطان ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ ﴾ جنوده ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ غالباً ولا يقتضى امتناع رؤيتهم وتمثلهم لنا فقد رآهم جماعة من الصحابة . كما فى أحاديث رواها البخارى وغيره ، وإنه تعليل للنهى وتأكيد للتحذير ، وأصل القبيل الجماعة فوق ثلاثة إذا كانوا أشتاتاً ، وعطف على المرفوع المستتر لتأكيده بالمنفصل ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ ﴾ أعواناً وقرناء ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ بتمكينهم من إضلالهم ، وهذا أبلغ فى التحذير من الأول ولذا لم يعطفه عليه وأتى بإنّ المؤكدة ، وصرح بأن من يوالى الشيطان ليس بمؤمن ، وأسند الجعل إلى نفسه دلالة على كونه حتما مقضياً ، والحاصل أن الآية هى مقصود القصة وذلك الحكاية ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا ﴾ نحلة ﴿ فَاحِشَةً ﴾ قبيحة كالشرك والطواف بالبيت عراة قائلين لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها فنهوا عنها ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴾ فاقتدينا بهم ﴿ وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ أيضاً فالأول من أعذارهم اقتداء بالجهال ، والثانى افتراء على ذى الجلال ، فأعرض عن رد الأول لظهور فساده ورد الثانى بقوله ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ التى ينفر عنها العقل المستقيم لأنه تعالى يختار لعباده محاسن الأعمال لا لأنها قبيح منه إذ لا يتصور منه لأنه المالك المطلق ، وليس فى الآية دليل على التقبيح العقلى ولا بطلان التقليد مطلقاً ، بل ما قام البرهان على خلافه . قال عبد الوهاب الشعرانى : واعلم أنه كما أن الله لا يأمر بالفحشاء كذلك لا يريدها لأن كونها فاحشة ليس هو عينها بل هو حكم الله فيها وحكم الله فى الأشياء غير مخلوق وما ليس بمخلوق لا يكون مراداً لأن الإرادة لا تتوجه على القديم ، فالزنا مثلا أراده الله من حيث إدخال الذكر فى فرج الزانية ، ولا يقال أراد ذلك من حيث كونه فاحشة وحراما لأنهما حكمان لله تعالى فافهم . وقال : وقد طلب منى كتابة هذا الكلام الشيخ ناصر الدين اللقانى المالكى وقال هذا كلام يكتب بنور الأحداق . اهـ . ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أنه قاله استفهام إنكار يتضمن النهى عن افتراء مثله ، وإيماء إلى أن القول بلا علم مذموم وإن لم يكن منسوباً إليه تعالى ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل المنجاف عن طرفى التفريط والإفراط أو بالتوحيد ﴿ وَأَقِيمُوا ﴾

معطوف على معنى « بالقسط » أى قال أقسطوا وأقيموا ﴿ وُجُوهَكُمْ ﴾ أى وجهوها إلى القبلة ﴿ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ فى كل وقت صلاة . وقيل وجهوها إلى الله ، أى أخلصوا له النية فى سجودكم غير عادلين إلى غيره من المعبودات ، كما تقول « وجهت وجهى لله » أو صلوا فى كل مكان أدركتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم ﴿ وَادْعُوهُ ﴾ أى اعبدوه ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أطلق الدعاء على العبادة لأنه منها ، ولأن العابد حين الدعاء يتوجه إلى معبوده ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ ﴾ ولم تكونوا شيئاً ﴿ تَعُودُونَ ﴾ أحياء يوم القيامة فيجازيكم بأعمالكم فأخلصوا له العبادة والتشبيه لتقرير القدرة على الإعادة أو للبدء من التراب والعود إليه أو للبدء حفاة عراة غرلا والعود كذلك ، أو مؤمناً وكافراً والعود كذلك ، ويؤيده قوله ﴿ فَرِيقًا هَدَى ﴾ فوفقهم للإيمان الموصل إلى السعادة ﴿ وَ ﴾ خذل ﴿ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ بمقتضى القضاء السابق وإنما أسند الهداية إلى ذاته دون الإضلال إشارة إلى سبق رحمته وسعتها وأن الأدب إسناد الخير إليه وإن كان كلٌّ منه ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ غيره تعليل لازوم الضلالة وتحقيق لها ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ فلا يلتفتون إلى مرشد . وفيه دليل على عدم العذر بالخطأ فى الكفر ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ ﴾ أى محلها وهو الثياب الساترة لعوراتكم من إطلاق الحال على المحل ﴿ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ أى ما يحل فيه وهو الصلاة والطواف من إطلاق المحل على الحال وفيه دليل على وجوب ستر العورة فى الصلاة وأقل الواجب للرجل ما بين سرته وركبته وقيل السوءتان والأفضل تغطية جميع الجسد والأمة كالرجل وأقل ما يجزئ الجرة ثوب يستر جميع جسدها ويجب ستر العورة عن عيون الناس إجماعا ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة للصلاة وأجمل ثياب للجمع والأعياد ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ ماشئتم من الحلال لحما ودسما وغير ذلك ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ بتحريم الحلال أو بالتعدى إلى الحرام أو بإفراط الطعام والشرب عليه بالزيادة على قدر الحاجة فنه مكروه وحرام أو بإظهار الخيلاء بأكل المستلذات على الفقراء المحاويج . وعن ابن عباس كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة : أى تكبر واستحقار الناس بذلك . وعن على بن الحسين جمع الله الطب فى نصف آية « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين حد الاعتدال وعن مجاهد لو أنفقت مثل أحد ذهبا فى طاعة الله لم يكن سرفا ولو أنفقت درهما فى معصية الله كان سرفا ﴿ قُلْ ﴾ إنكارا عليهم ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ من النبات كالقطن والكتان ومن الحيوان كالأوبار والأشعار ومن المعادن كالدروع ﴿ وَالطَّيِّبَاتِ ﴾ المحللات ، هذا تفسير الجمهور . وقال الشافعى : المستلذات من الحلال ليخرج المستقذرات كالزرع ونحوها فانه يقول هى من الخبائث الحرام ﴿ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ المآكل والمشارب . قال البيضاوى وفيه دليل على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة قال فى غاية الأمانى : والإباحة إنما علمت من هذا النص ولا دلالة فيه أن الأصل فيها الإباحة قبل الشرع . اه . وقال ابن العربى فى الأحكام وكل لذة وإن لم تكن محرمة فاستدامتها والاسترسال عليها مكروه : والزيادة على قدر الحاجة قبل

حرام وقيل مكروه وهو الأصح فإن قدر الشبع يختلف باختلاف الأبدان والبلدان والأزمان والطعمان انتهى ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ بالاستحقاق وإن شاركهم فيها غيرهم ﴿خَالِصَةً﴾ من الكدر أو خاصة بهم بالرفع لنافع خبر بعد خبر وبالنصب لغيره حال ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ قبل الجنة ولذا لم يقل فى الآخرة ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ بينها ، ذلك التفصيل ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون بها زاد لفظ قوم إشارة إلى كمال من قام به العلم ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ ﴾ ما تزايد قبحه من الأفعال والأقوال وقيل ما يتعلق بالفروج وعبر بصيغة الحصر توكيداً لإباحة ما تقدم والمعنى قل لهؤلاء المشركين الذين يتجردون من الثياب عراة ويحرمون الطيبات مما أحل الله إن الله لم يحرم ماتحرمونه بل أحله وإنما حرم الفواحش ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ خفى ﴿ وَالْإِثْمَ ﴾ كل ذنب ، تعميم بعد تخصيص ﴿ وَالْبَغْيَ ﴾ الكبر أو الظلم على الناس فى الأنفس والأموال والأعراض ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ متعلق بالبغى مؤكد له معنى للتنفير عنه ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ ﴾ بإشراكه ﴿ سُلْطَانًا ﴾ حجة بل اخترعتموه سفاهة ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من تحريم مالم يحرم وغيره ، وعطف الثلاثة على الإثم تخصيص بعد تعميم لبيان زيادة قبحها على غيرها ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ مدة مقدرة لأعمارهم أو لنزول العذاب بهم ، وعيد لأهل مكة وأمثالهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ آخر المدة المقدرة ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ عليه ، والمراد بالساعة أدنى ما يتصور من الزمان لا المتعارفة ، والعطف على الشرط لا الجزاء لعدم استقامة المعنى ، والسين للتأكيد ، وقيل لشدة الهول لا يطلبون التقدم والتأخر ﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ ويأتينكم مستقبل وضع موضع ماض ليفهم أن الإتيان باق إلى وقت الخطاب ، وهو فعل شرط أوثر له لفظ إن التى للشك وإن كان محققا للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب ، وضمت ما إلى إن لتأكيد معنى الشرط جبرا لما فات من معنى إذا ، ولذا أكد أيضا فعله بالنون ، وجوابه ﴿ فَمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ الشرك ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ عمله ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فى الآخرة ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وإدخال الفاء فى الجزاء الأول دون الثانى للمبالغة فى الوعد والمسامحة فى الوعيد ، لأن الفاء تدل على سببية السابق ﴿ فَمَنْ ﴾ لا أحد ﴿ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ تقوله مالم يقله ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ أى كذب ما قاله سوى بين الأمرين فى القباحة فالويل لمن قال فى الدين قولا بغير علم ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ حظهم ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ ما كتب لهم من الأرزاق والآجال ، وقيل الكتاب اللوح المحفوظ أى مما أثبت لهم فيه فلا يمنع كفرهم أن ينالهم هذا ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا ﴾ الملائكة ﴿ يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴾ يقبضون أرواحهم غاية لنيلهم ، وحتى هذه هى التى يبتدأ بعدها الكلام ﴿ قَالُوا ﴾ لهم تبكيتا جواب إذا ﴿ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ هذا يوم الحاجة إلى المعبود ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ غابوا فلم نرهم ،

وهو إقرار منهم بعبادتها وهو كفر ، ولذا قال ﴿ وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ زيادة على توبيخهم ﴿قَالَ﴾ الله لهم يوم القيامة ﴿ ادْخُلُوا ﴾ كائنين. ﴿ فِي ﴾ جملة ﴿ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ﴾ متعلق بادخلوا ، وفيه إشارة إلى أن دخولهم فى زمرة من ذكر أشد عليهم من عذاب النار ، ولذا قدمه كما قال فى النفس المطمئنة « فادخلي فى عبادى وادخلي جنتى » لأن دخولها فى تلك الطائفة أشرف من دخول الجنة سرا ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ ﴾ النار ﴿ لَعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ التى تقدمتها لضلالها بها ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا﴾ تلاحقوا ﴿ فِيهَا جَمِيعًا ﴾ الأتباع والقادة ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ ﴾ دخولا أو منزلا وهم الأتباع ﴿ لِأُولَاهُمْ ﴾ لأجلهم إذ الخطاب مع الله لا مع الأولى ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ بأن سنوا لنا الضلال والكفر والتكذيب فاقتدينا بهم ﴿ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا ﴾ مضعفا على عذابنا ﴿ مِّنَ النَّارِ ﴾ لأنهم ضلوا وأضلوا ﴿ قَالَ ﴾ تعالى ﴿ لِكُلٍّ ﴾ منكم ومنهم ﴿ ضِعْفٌ ﴾ عذاب مضعف ، أما القادة فللضلال والإضلال ، وأما الأتباع فللكفر والتقليد ولأنهم ضالون مضلون أيضا ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لعاصم فى رواية شعبة ما لكل فريق ﴿ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ فإنا وإياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب ، قال تعالى لهم ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ جميعا أو هو من قول المتقدمة أى بجرائمكم لا بجرائمنا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا ﴾ عن الإيمان بها ﴿ لَا تُفَتَّحُ ﴾ بفتح الفاء مع تشديد التاء الثانية للجمهور ، وبسكون الفاء مع تخفيف التاء الثانية لأبى عمرو ، وبالياء فى الأولى مع سكون الفاء لحمزة والكسائى ﴿ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ عند دعائهم أو لعروج أعمالهم أو أرواحهم بعد الموت بل يهبط بها إلى سجين ؛ بخلاف المؤمن فتفتح له ويصعد بروحه إلى السماء السابعة ، كما ورد فى حديث رواه الطبرى وغيره ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ﴾ يدخل ﴿ الْجَمَلُ فِي سَمِّ ﴾ ثقب ﴿ الْخِيَاطِ ﴾ الإبرة والخياط والمخيط ما يخاط به ، وهو غير ممكن لوجوب أخذ كل جرم قدره من الفراغ فكذا دخولهم ، لعلم الله أنه لا يكون . وقول صاحب غاية الأماني : تعليق بالمحال عادة ، فيه نظر ، وخص الجمل بالذكر لأنه أكبر سائر الحيوانات جسما عند العرب ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ الجزاء ﴿ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين الكاملين فى الإجرام ، وإنما عبر عن الكفر بالإجرام تقبيحا له وزجرا عن ارتكابه ، وإنما أعاد الكلام مؤكدا له بالتأكيدات البالغة لئلا يتوهم من الخلود المكث الطويل ، ولترتب عليه شديد العذاب الذى خلت عنه الآية السابقة من قوله ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ ﴾ فراش فعال بمعنى مفعول ﴿ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ أغطية من النار جمع غاشية ، وتنوينه عوض من الياء المحذوفة ، ولم يجمع الأول لأنه مصدر فى الأصل ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ وهذا الحكم أخص من الأول : إذ لا يلزم من عدم دخول الجنة دخول النار ، عبر عنهم بالمجرمين تارة وبالظالمين أخرى إشعارا بأنهم اتصفوا بجميع هذه الأوصاف الذميمة ، وذكر الجرم مع الحرمان من

الجنة والظلم والتعذيب بالنار تنبيها على أنه أعظم الإجرام ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ مبتدأ وقوله ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ طاقتها من العمل ، اعتراض بينه وبين خبره وهو ﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وعد بعد وعيد ، وفائدة جملة الاعتراض الترغيب فى العمل الصالح الموصل إلى النعيم المقيم بأنه مع كونه موزنا لتلك السعادة سهل التناول ، وقيل محل الجملة رفع بالخبرية والعائد محذوف أى لانكلف نفسا منهم ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ﴾ حقد كان بينهم فى الدنيا إتماما للنعمة ، فإن من فى صدره غلّ لا يخلو عن حرج وإن كان فى كل نعمة ، يعنى لا يكون بينهم إلا التوادد . وعن على رضى الله عنه : إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم . وفى لباب التأويل : أزلنا الأحقاد التى كانت لبعضهم على بعض لايحسد بعضهم بعضا على شىء خصه الله به ، ومعنى نزع الغل تصفية الطباع وإسقاط الوساوس ومنعها أن ترد على القلب . اه . وفى البخارى عن أبى سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا أذن الله لهم فى دخول الجنة فوالذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى إلى منزله فى الجنة منه بمنزله فى الدنيا » اه . فبإزالة الحقد والحسد من قلوب أهل الجنة تكمل اللذات والسرور ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ﴾ تحت قصورهم ﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ تونيرا لحظ الباصرة مع زيادة اللذة والسرور بذلك ﴿ وَقَالُوا ﴾ عند الاستقرار فى منازلهم ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ لعمل هذا جزاؤه ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ بواو للجمهور وبحذفه لابن عامر ﴿ لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ حذف جواب لولا لدلالة ما قبله عليه ، وفيه دليل على أن الهداية من الله ، وقالوا لما رأوا إنجاز المواعيد ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ اعتراف بأن ما عرفوه علم اليقين صار لهم عين اليقين ﴿ وَنُودُوا ﴾ من الله أو من الملائكة بأمره ﴿أَنْ﴾ مخففة أى أنه ، أو مفسرة فى المواضع الخمسة ﴿ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ ﴾ التى كانت الرسل وعدتكم بها ، والإشارة بلفظ البعيد باعتبار ما كانوا يعلمون فى الدنيا بالوصف أو تعظيم لها ، والقول بأنه يقال لهم ذلك قبل الدخول يرده قوله « الحمد لله الذى هدانا لهذا » فإن هذا النداء بعد ذلك القول ، قاله فى غاية الأمانى . قلت : يحتاج هذا لدليل إذ العطف بالواو لا يدل عليه ، لكن فى مسلم عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا » فذلك قوله عز وجل ونودوا أن تلكم الجنة ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أعطيتموها بسبب أعمالكم ، وهو حال من الجنة والعامل فيها معنى الإشارة أو خبر والجنة صفة تلكم ، وعبر عن الإعطاء بالإيراث لأنه أقوى أسباب الملك لحصوله من غير اختيار وشعور ، وقيل ورثوها من الكفار ، لما ورد فى الحديث « لكل مؤمن موضع من النار يضاف إلى نصيب واحد من الكفار ولكل كافر موضع فى الجنة يضاف إلى حظ واحد من أهل الجنة » وهذا أوفق بالمقام لمحاورة الطائفتين فى

قوله ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾ تقريرا وتبكيتا ﴿ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا ﴾ من الثواب ﴿ حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ ﴾ من العذاب ﴿ حَقًّا ﴾ وأتى بلفظ الوعد فى العذاب مشاكلة ، ولم يضفه لعلم ذلك من الأول ، أو لأن ما وجدوه لم يكن كله مخصوصاً بهم كالبعث والحساب ﴿ قَالُوا نَعَمْ ﴾ إقرار بالوجدان ، والجمع إذا قابل الجمع وزع الفرد على الفرد ، فكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه فى الدنيا ويحصل المحاورة ، بأن يشرفوا عليهم فيخلق الله الإدراك فى الأسماع والأبصار فيصير البعيد كالقريب والله على كل شىء قدير ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ نادى منادٍ ، قيل هو إسرافيل بعد انقضاء المحاورة ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ بين الفريقين أسمعهم ﴿ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ وإخبار هذا تنفير للسامع عن الظلم . وقرأ ابن عامر وابن كثير وحمزة والكسائى هنا أنّ بالتشديد ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه ﴿ وَيَبْغُونَهَا ﴾ يطلبون السبيل ﴿ عِوَجًا ﴾ عيباً وميلا عما هى عليه ، والعوج بكسر العين عيب المعانى وما لا انتصاب له ، وبالفتح عيب الأجسام المنتصبة كالحائط والرمح ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴾ منكرون ولذا ارتكبوا الظلم بلا مبالاة ﴿ وَبَيْنَهُمَا ﴾ أى أصحاب الجنة والنار ﴿ حِجَابٌ ﴾ حاجز يمنع وصول أثر أحد الفريقين إلى الآخر هو سور الأعراف الذى بين الجنة والنار باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ ﴾ أعراف ذلك السور أى أعاليه جمع عُرف مستعار من عُرف الفرس والديك وعن ابن عباس : هى تل مرتفع بين الجنة والنار ﴿ رِجَالٌ ﴾ مؤمنون استوت حسناتهم وسيئاتهم كما فى الحديث ، وفيهم أقوال غير هذا لا نطوّل بها إذ لا قول لأحد مع قول النبى صلى الله عليه وسلم ، كما قال ابن عطية . ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا ﴾ من أهل الجنة والنار ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ بعلامتهم ، وهى بياض الوجوه للمؤمنين وسوادها للكافرين لرؤيتهم لهم إذ موضعهم عال ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ يا أهل الجنة إما حين الدخول أو بعده ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا ﴾ أى أصحاب الأعراف الجنة ﴿ وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ فى دخولها . قال الحسن : لم يطمعهم إلا لكرامة يريدها بهم . وروى الحاكم عن حذيفة قال : بينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربك فقال قوموا ادخلوا الجنة فقد غفرت لكم ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ ﴾ أى أصحاب الأعراف ﴿ تِلْقَاءَ ﴾ جهة ﴿ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ فنظروا ما فيه من سواد الوجوه والعذاب ﴿ قَالُوا ﴾ نعوذ بالله ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا ﴾ فى النار ﴿ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ بالشرك والمعاصى ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا ﴾ من أصحاب النار من رؤساء الكفرة ﴿ يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ ﴾ من النار ﴿ جَمْعُكُمْ ﴾ المال أو كثرتكم ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى واستكباركم عن الحق أو على الخلق ويقولون لهم مشيرين إلى ضعفاء المسلمين ﴿ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ فإن صناديد الكفار كانوا يحلفون أن الفقراء لا يدخلون الجنة وليسوا بأهل لها ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ أى أن قد قيل لهم ادخلوا الجنة ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ وقرئ « أدخلوا » بالبناء للمفعول ودخولها لجملة التى حال ، أى مقولا لهم ذلك

﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ بعد دخول أهل الأعراف الجنة واستقرار كل طائفة فى مستقرها وقد رأوا قراباتهم فى الجنة وعرفوهم ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ من الطعام، وفيه دليل على أن الجنة فوق النار ﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى منعهما، استعارة تبعية إذ لا تكليف هناك ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾ من قول أصحاب الجنة أو من قول الله ﴿ وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ خدعهم عاجل ما هم فيه من خفض العيش وشغلهم عن الآخرة حتى أتتهم المنية وهم على طمع طول العمر وحسن العيش وكثرة المال ونيل الشهوات ﴿ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ ﴾ نتركهم فى العذاب المهين جياعاً عطاشاً ترك الناسى للشىء ﴿ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ بتركهم العمل له، أى نجازيهم بمثل مافعلوا ﴿ وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أى وكما جحدوا أنها من عند الله ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ ﴾ قرآن ﴿ فَصَّلْنَاهُ ﴾ بينا معانيه يفهمها من يخاطب به وهى العقائد والأحكام والأخبار والوعد والوعيد ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ حال أى عالمين بما فصل فيه، وفيه دليل على أن الله عالم بالعلم أو مشتملا على علم فيكون حالا من المفعول ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ حال من الهاء ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ به ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ ما ينتظرون ﴿ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ ما يكون أمر الكتاب إليه من وقوع ما نطق به من الوعد والوعيد والضمير للمكذبين المستكبرين وقصة أصحاب الأعراف كانت استطراداً للترغيب والترهيب ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ هو يوم القيامة ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ تركوا الإيمان به ندماً وتحسراً ﴿ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى تبين لنا أن ماجاءوا به كان حقا ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ اليوم ﴿ أَوْ ﴾ هل ﴿ نُرَدُّ ﴾ إلى الدنيا: عطف فعلية على إسمية، وقرئ بالنصب عطفاً على « فيشفعوا » والمعنى على الرفع تمنى الشفاعة أو الرد، وعلى النصب تمنى الشفاعة بدون الرد أو مع الرد، ويجوز أن يكون أو بمعنى إلى كقولك: لألزمنك أو تعطينى حقى، فيكون التمنى فى الشفاعة المفضية إلى الرد ﴿ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ نوحد الله ونترك المعاصى، أى ليس لنا خلاص إلا أن يشفع لنا شفيع عند ربنا فيخلصنا أو نرد إلى الدنيا فنعمل غير الذى كنا نعمل. فيقال لهم: لا. قال تعالى ﴿ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ إذ صاروا إلى الهلاك ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ بطل عنهم ما يكذبون به من المعبودات الباطلة. ولما بين حال الفريقين فى المعاد كر إلى ذكر المبدأ وكيفية وجود الكائنات على النمط الذى فطرت عليه إرشاداً للضالين، وتثبيتاً للمهتدين فقال ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ أى أوقات، أو قدر ستة أيام إذ لم يكن ثم شمس وفيه دليل الاختيار وإرشاد العباد إلى التأنى فى الأمور إذ لو شاء لخلقهن فى لمحة ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ هو فى اللغة سرير الملك استواء يليق به على الوجه الذى عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن أو هو تمثيل لإجراء أحكامه على الموجودات بعد خلقها بحال ملك جلس على سرير ملكه بعد التمكن للنظر فى شأن من كان تحت حكمه. قال فى غاية الأمانى: والقول بأن العرش جسم محيط بسائر الأجسام مما لا دليل عليه شرعاً،

وإن ثبت أن عرش الرحمٰن فوق السموات جسم نورانى عظيم ﴿ يُغْشِى الَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ مخففاً للجمهور ومشدداً لحمزة والكسائى وأبى بكر عن عاصم . يغطى كلا منهما بالآخر ﴿ يَطْلُبُهُ ﴾ يطلب كل منهما الآخر طلباً ﴿ حَثِيثًا ﴾ سريعاً ، ويجوز أن يكون حالا من الفاعل أو المفعول ، أى حاثاً أو محثوثاً ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ ﴾ بالنصب للجمهور عطفاً على السموات والرفع لابن عامر مبتدأ وخبره ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ بالنصب حال على قراءة الجمهور والرفع خبر : مذللات ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بقضائه وقدرته ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ ﴾ جميعاً ﴿ وَالْأَمْرُ ﴾ كله فإنه الموجد والمتصرف ﴿ تَبَارَكَ ﴾ تعاظم ﴿ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ وصف له بزيادة التفضل فى ترتيب الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والنجوم ، فالبركة النماء والزيادة وقوله « ألا له الخلق » إلى آخر الآية فذلكة لأولها ونتيجة له إذ بين أنه خلق العالم على ترتيب قويم وتدبير حكيم يإبداع الأفلاك العلوية وتسخير النيرات فيها ، وخلق الأجرام السفلية ومنافعها دليلا على تفرده بالألوهية والربوبية فيها ثم أمر الخلق أن يدعوه متذللين مخلصين فقال ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا ﴾ حال : تذللا ، أى ذوى تضرع ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ سرًا ، فالإخفاء فى الدعاء أقرب إلى الإخلاص وفيه نوع من الانكسار الملائم للضراعة وفى الحديث : يفضل دعاء السر على الجهر بسبعين ضعفاً . وقرأ أبو بكر بكسر الخاء ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ المتجاوزين الحد فى الدعاء بطلب ما لا يليق به كرتبة الأنبياء أو بتكلف الفصاحة فيه وهو التشدق ورفع الصوت ، وفى الحديث « سيكون قوم يعتدون فى الدعاء . وحسب المرء أن يقول : اللهم إنى أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ببعث الرسل وشرع الأحكام ﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا ﴾ من عقابه نظراً إلى قلة أعمالكم وعدم الإخلاص فيها وكبرياته ﴿ وَطَمَعًا ﴾ فى رحمته بالنظر إلى بحر كرمه وعموم عطائه ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ المطيعين ترجيح للطمع وتنبيه على ما توسل به إلى الإجابة وتذكير قريب الخبر به عن الرحمة لإضافتها إلى الله أو لأنها بمعنى الرحم أو تشبيهاً له بفعيل الذى بمعنى المفعول ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لابن كثير وحمزة والكسائى ﴿ نُشُرًا ﴾ بضم النون والشين للجمهور ولابن عامر بالتسكين حيث وقع ولحمزة والكسائى بفتح النون حيث وقع مصدر لعاصم بضم الموحدة بدل النون ومفرد الأولى نشور كرسول والأخيرة بشير أى متفرقة أو مبشرة ﴿ بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى قدام مطره فإن الجنوب تدر السحاب والشمال تجمعه والصبا تثيره والدبور تفرقه ﴿ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ ﴾ حملت الرياح ورفعت ﴿ سَحَابًا ﴾ جمع سحابة على حد تمر وتمرة ﴿ ثِقَالًا ﴾ بالماء ﴿ سُقْنَاهُ ﴾ أى السحاب أفرد الضمير باعتبار اللفظ وفيه التفات عن الغيبة ﴿ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ لا نبات به أى لإحيائه أو إليه والبلد مرادف الأرض وخفف الميت ابن كثير وأبو عمر وابن عامر وأبو بكر ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ﴾ بالبلد أو السحاب أو بالسوق أو بالريح فالباء للإلصاق فى الأول والظرفية فى الثانى والسببية فى الباقى ﴿ الْمَاءَ ﴾ وكذلك الضمير فى ﴿ فَأَخْرَجْنَا

بِهِ ﴾ أو بالماء ﴿ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ بعضاً من كل نوع وإنما لم يذكر الحبوب لأن الثمرات أبدع وشأنها أغرب أولأن الحبوب من ثمرات الأرض أيضاً ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الإحياء والإخراج ﴿ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴾ من قبورهم بالإحياء ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعلمون أن من قدر على ذلك قادر على هذا ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ ﴾ الأرض الكريمة التراب ﴿ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ ﴾ حسناً ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ بمشيئته وتيسيره عبر به عن كثرة النبات وحسنه ﴿ وَ ﴾ البلد ﴿ الَّذِي خَبُثَ ﴾ ترابه ﴿ لَا يَخْرُجُ ﴾ نباته ﴿ إِلَّا نَكِدًا ﴾ قليل الخير أو عسراً بمشقة . مثل ضربه الله لمن يسمع المواعظ وينتفع بها ومن لم يتأثر بها . وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى مثل غيث أصاب أرضاً منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ومنها طائفة أجادب أمسكت الماء فنفع الله الناس به فشربوا وسقوا وزرعوا ومنها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ فذلك مثل من فقه في دين الله فنفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع لذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» رواه البخاري ومسلم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثل هذا التصريف الجلي ﴿ نُصَرِّفُ ﴾ نبين سائر ﴿ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ الله فيؤمنون . ولما ذكر الله قصة آدم وشرح أحوال أهل الجنة والنار ودلائل توحيده وقدرته أتبعه بقصص الأنبياء مع أممهم تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإيضاحاً بصحة نبوته في إخباره ذلك مع كونه أمياً ولم يتمكن أحد من علماء أهل الكتاب من إنكار شيء من ذلك وبدأ بنوح لأنه أول مبعوث عُذب قومه . قال ابن العربي في الأحكام من قال إن إدريس كان قبله فقد وهم واتبع الإسرائيليات انتهى . فقال ﴿ لَقَدْ ﴾ جواب قسم محذوف ﴿ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ ابن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ بن يرد بن مهلابيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم بينه وبين آدم ألف وماتتا سنة بعث ابن أربعين أو خمسين وعاش ألف سنة على الأصح ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ بالرفع للجمهور بدل من محل إله والجر للكسائي صفة له ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن عبدتم غيره ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ لعظم ما فيه والإسناد مجازي هو يوم القيامة أو الطوفان وفيه وعيد وبيان الداعي إلى عبادته ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي أشرافهم لأنهم يملأون العيون رعباً ولم يذكر الفاء كما في سائر السور إشارة هنا إلى أنهم لفرط جهلهم كأن كلامهم لم يعقب كلامه إذ ردوا نصحه من غير تأمل بقولهم ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ واضح ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ هو أعم من الضلال ففيها أبلغ من نفيه كأن قيل له عندك تمر فقال ما عندي تمرة ﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ استدراك بحسب المعنى كأنه قال ولكني على هدى لأني رسول من رب العالمين فالرسالة والضلالة متنافيان ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي ﴾ استئناف لبيان كونه رسولا ، أبلغكم بالتشديد للجمهور والتخفيف لأبي عمرو في الموضعين وجمع الرسالات باعتبار الوقائع والأشخاص والعقائد والأحكام ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ ﴾ أريد الخير لكم ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من صفاته وشدة بطشه واستئصاله لكم إن لم تؤمنوا . وعجب بليغ لهم

لكونهم آمنين لأن العذاب لم يحل بأحد قبلهم ﴿أ﴾ كذبتم ﴿وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ وعظ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ تعرفونه بالأمانة لاعتقادهم أن الله لا يرسل بشراً ﴿لِيُنْذِرَكُمْ﴾ بأس الله لمن كفر وعصى ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ الله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ذكره بلفظ الترجي إشارة إلى أنه فضل من الله ولئلا يتمد العاملون على عملهم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ صريحا في دعوى الرسالة لأن قولهم « إنا لنراك في ضلال مبين » غير صريح ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من الغرق بالطوفان ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهم ثمانون نصفهم رجال ونصفهم نساء، واشتهر في كتب الحديث كالترمذي وغيره أن جميع الخلق الآن من ذرية نوح من أولاده الثلاثة سام وحام ويافث . وسيأتي إن شاء الله عند قوله تعالى « وجعلنا ذريته هم الباقين » ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالطوفان ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق عمى القلب وهو جار مجرى التعليل ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَى عَادٍ﴾ الأولى اسم حيّ من العرب أولاد عاد بن أوص بن إرم بن سام بن نوح وعلمهم باليمن بالأحقاف رمل بين عمان وحضرموت ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ هو ابن عبد الله بن رباح بن جلوز بن عاد في الراجح في نسبه كما قال السيوطي ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله، لم يعطف قال كما في قصة نوح لأنه جاء على طريق الاستئناف كأنه قيل ما قال لهم وكذلك جوابهم ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ دل على أن من الملأ من كان مؤمنا ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ جهالة وخفة عقل حيث فارقت دين قومك ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في رسالتك والظن بمعنى العلم ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ كما زعمتم ولم يتعرض لرد الكذب لأن منشأه السفاهة وحيث لا سفاهة لا كذب ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتقديم الضمير المفيد للتقوى وإيثار الاسمية يدل على فرط عنادهم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ تنبيه على أنهم عرفوه بالأمرين ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ سبق تفسيره؛ وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام الكفرة عن كلماتهم الحق بما أجابوا والإعراض عن مقابلتهم كمال نصح وهضم نفس وحسن مجادلة وهكذا ينبغي لكل ناصح ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي في مساكنهم، أو في الأرض بأن جعلكم ملوكا، فإن شداد بن عاد ممن ملك معمور الأرض من رمل عالج إلى بحر عمان، خوّفهم من عقاب الله، ثم ذكرهم بإنعامه ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ قوة وطولا، كان طويلهم مائة ذراع وقصيرهم ستين، وقيل قوة في المال كانوا غاية في الثروة، ولما بنى شداد بن عاد قرية بلبن الذهب والفضة وأجرى فيها أنهارا من عسل ولبن وغير ذلك ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ تعميم بعد تخصيص ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي يفضي بكم ذكر النعم إلى شكرها المؤدي إلى الفلاح ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ استبعدوا ذلك أنهما كانا في التقليد، ومعنى المجيء الإقدام على تبليغ الرسالة، أو كان معتزلا عنهم كما هو دأب الصالحين ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب المدلول عليه بقوله « أفلا تتقون » ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيه ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ وجب

﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ أو نزل على أن المتوقع كالواقع ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ ﴾ عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب ﴿ وَغَضَبٌ ﴾ يؤدى إلى عذاب الأبد ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ ﴾ فى استحقاق عبادتها ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ آلهة وليس فيها معنى الألوهية إظهار لفرط غباوتهم ، وقد يستدل به على أن الاسم هو المسمى ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ برهان على استحقاقها العبادة ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ العذاب ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ لعذابكم ونجاتى بتكذيبكم لى ، فأرسلت عليهم الريح العقيم فأهلكتهم ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ أى هودا ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ من المؤمنين وهم ثلاثة آلاف ﴿ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ استأصلناهم ، ودابر القوم من يأتى آخرهم فإذا لم ينج فغيره أولى ، فقدم هود ومن معه مكة وعبدوا الله إلى أن قضوا نحبهم ، وعاش هود مائة وأربعا وثلاثين سنة ﴿ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ عطف على كذبوا (و) أرسلنا ﴿ إِلَى ثَمُودَ ﴾ بترك الصرف مرادا به القبيلة وهم قبيلة أخرى من العرب ساكنهم الحجر إلى واد القرى بين الحجاز والشام سموا باسم أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام ابن نوح ﴿ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ هو ابن عبيد بن آسف بن ماسج بن عبيد بن حاذر بن ثمود ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ ﴾ معجزة ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ على صدق ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ استئناف لبيان البينة ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ بيان لمن الآية ، وآية نصب على الحال والعامل فيها معنى الإشارة ، ويجوز أن يكون « ناقة الله » بدلا أو عطف بيان ولكم خبرا عاملا فى آية والإضافة للتشريف ، وكانوا سألوه أن يخرجها لهم من صخرة عينوها فلما خرجت منها ولدت سقبا يقربها فى العظم ، قيل مابين جنبتى الناقة مساحة مائة واثنين وعشرين ذراعا ثم قامت وسقبها يتبعها ، فقال لهم صالح : لكم شرب يوم ولها شرب يوم وكانت ترد الماء غبا فإذا وضعت رأسها فى البئر شربت الماء بأسره فشق ذلك عليهم فأرادوا قتلها ، فقال لهم صالح ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ العشب ليس عليكم رعيها إزاحة للعذر عن التعرض لها ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ ﴾ فضلا عن الضرب والعقر ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ نصب على الجواب ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ ﴾ فى الأرض ﴿ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ ﴾ أسكنكم ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض الحجر واللام للعهد ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا ﴾ تسكنونها فى الصيف جمع سهل ضد الجبل ﴿ وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا ﴾ تسكنونها فى الشتاء ، ونصبه على الحال المقدرة أو المفعول على أن التقدير بيوتا من الجبال ، أو تنحتون بمعنى تتخذون فالمنصوبان مفعولاه ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ قَالَ الْمَلَأُ ﴾ ولابن عامر وقال الملأ ﴿ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الايمان ﴿ مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ أى من قومه بدل مما قبله بإعادة الجار ، فتركوا مخاطبة صالح استهانة له وخاطبوا الضعفاء بقولهم ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ إليكم ﴿ قَالُوا ﴾ نعم ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ وإنما عدلوا إلى هذا وتركوا نعم لأن الإقرار بالرسالة لا يستلزم الإيمان لجواز الجحود ،

أو لأن الإيمان بما جاء به مستلزم له فكان أبلغ ، إذ فيه تنبيه أن إرساله مما لا يشك فيه عاقل ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ لم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون ، إذ هو اعتراف بالرسالة ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ عقرها قدار بن سالف بأمرهم بأن قتلها بالسيف فهرب سقبها إلى الجبل فأسرعوا خلفه فلم يلحقوه فدخل الصخرة التي خرجت أمه منها بعد أن رغى ثلاث رغاءات فقال لهم صالح سيأتيكم العذاب بعد ثلاث ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ تجاوزوا عنه وأبوا عن امتثال قول صالح « فذروها » ﴿ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ به من العذاب على قتلها ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ الزلزلة الشديدة من الأرض مع الصيحة من السماء بعد ثلاثة أيام ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ باركين على الركب ميتين ﴿ فَتَوَلَّىٰ ﴾ أعرض صالح ﴿ عَنْهُمْ ﴾ بعد عقر الناقة قبل نزول العذاب إذ روى أنه خرج من بينهم قبل العذاب وهو الذي يقتضيه الخطاب ، أو خاطبهم بعد هلاكهم على ظاهر السياق كما خاطب عليه الصلاة والسلام أهل قليب بدر والفائدة حث كل من سمع على القبول قبل أن يصيبه ما أصابهم ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ فذهب صالح بمن آمن معه إلى مكة يعبدون الله إلى أن مات بها وهو ابن ثمان وخمسين سنة وقبره عليه الصلاة والسلام في المسجد الحرام بين دار الندوة والحجر . وقد مر عليه السلام مع المسلمين ببلاد ثمود في غزوة تبوك فقال « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم » ثم قنع رأسه وأسرع السير . قال أبو موسى : ولقد ذرعت مبرك الناقة فوجدته ستين ذراعاً والله أعلم[(١)] ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ لُوطًا ﴾ أو اذكر لوطاً وهو ابن هاران بن آزر بن أخي إبراهيم ، هاجر مع عمه إبراهيم إلى الشام فنزل إبراهيم أرض فلسطين ولوطاً أرض الأردن ، فأرسله إلى أهل سدوم يدعوهم إلى الله ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ بدل من اذكر المقدر أو أرسلناه وقت قوله لهم ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ أدبار الرجال واللام فيها للعهد كأنها علم بين الفواحش لا يذهب الذهن إلى غيرها ، والاستفهام للتوبيخ أي الفعلة الخبيثة التي في غاية القبح ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ الإنس والجن ، والباء للتعدية و « من » الأولى لتأكيد النفي والاستغراق والثانية للتبعيض والجملة استئناف مقررة للإنكار ، كأنه وبخهم أولا بإتيان الفاحشة ثم باختراعها فإنه أسوأ ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بالإخبار لنافع وحفص استئناف ، وبالاستفهام للباقين بيان لقوله « أتأتون الفاحشة » ﴿ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً ﴾ من أتى المرأة غشيها ﴿ مِّن دُونِ النِّسَاءِ ﴾ فائدته قطع المعذرة ودفع توهم الضرورة ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ متجاوزون الحلال إلى الحرام ، إضراب عن الإنكار إلى بيان الحال التي أوجبت ارتكاب الفاحشة ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا

(١) مسألة في نصّ ضروع الناقة وحساب قوم صالح لأن قوم صالح اثنا عشر قبيلة وهم سبعون ألف رجل ، وكانت الناقة تكفيهم جميعهم وعيالهم ، وضروعها أربعون وفي كل ضرع منها اثنا عشر ثديا من ثدي إلى ثدي اثنا عشر ذراعاً . اه .

أخرجوهم ﴾ لوطاً وأتباعه ، أى لم يتأملوا ماقاله ولم يلتفتوا إلى نصحه بل غاظهم ذلك وأمروا بإخراجه مع من آمن به ﴿ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ يبالغون فى الطهارة من الفواحش ، قالوه استهزاء وتهكما ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ ﴾ المؤمنين ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ الباقين فى العذاب لأنها تسر الكفر استثناء من أهله ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ﴾ أى نوعاً منه عجيباً وهو حجارة من سجيل فأهلكتهم ، والغالب استعمال أمطر فى الشر ومطر فى الخير ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ والمراد نظر القلب وهو التدبر ، والخطاب عام فليعتبر كل أحد بإهلاكهم ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى ﴾ أهل ﴿ مَدْيَنَ ﴾ اسم قبيلة أو بلدة سميت باسم بانيها مدين بن إبراهيم أى إلى أولاده الساكنين فيها ﴿ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ بن ميكيل بن يسخن بن مدين وهو من أولاد ابنة لوط أيضاً إذ هى أم ميكيل ، وكان يقال له خطيب الأنبياء لفصاحته فى الدعاء إلى الله وحسن مراجعته قومه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ معجزة دالة على نبوتى ، وليست بمذكورة فى القرآن ولم أرها فى التفاسير ، وما يذكر له فى عصى موسى وفى ولادة الغنم لا يستقيم حمل ما فى الآية عليه لتأخرها عن هذه المقالة ﴿ فَأَوْفُوا ﴾ أتموا ﴿ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ أى آلة الكيل لتقارنه مع الميزان على الإضمار أو مجاز من إطلاق الكيل على المكيال ، وحمل الميزان على المصدر بعيد غير مستعمل ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا ﴾ تنقصوا ﴿ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ تعميم بعد تخصيص وتصريح بما علم ضمناً ، وذكر الكيل والميزان لفرط احتياج الناس إلى المكيل والموزون وكانوا مكاسين لا يدعون شيئاً لم يمكسوه ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ ببعث الرسل وشرع الشرائع ، أو بعد الإصلاح فيها إضافة إلى الفاعل مجازاً كمكر الليل ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ أى العمل به ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ ومعنى الخيرية الزيادة المطلقة إذ لا خير فيما كانوا عليه ، أو خير لكم فى الكسب والربح إذ لا بركة مع الخيانة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ بما أقول ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ ﴾ طريق من طرق الحق كالمعارف والحدود والأحكام ﴿ تُوعِدُونَ ﴾ الناس ، وكانوا إذا رأوا أحداً قام إلى شىء منها منعوه ، وقيل يقطعون الطريق بأخذ الثياب والمكس ، وقيل يتفرقون على الطرقات ويترصدون لمن يقصد شعيباً للإيمان به يوعدونه بالقتل وسائر العذاب ، وهذا القول أوجه لقوله ﴿ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ بالله أو بالسبيل ، ومن مفعول تصدون ويقدر لتوعدون إذ لو كان الإعمال للأول لقيل تصدونهم ، والمضارعان فى موضع الحال من فاعل تقعدوا ﴿ وَتَبْغُونَهَا ﴾ تطلبون لسبيل الله ﴿ عِوَجًا ﴾ معوجة بإلقاء الشبه فيها ، أو تريدون اعوجاج الطريق عن الحق ﴿ وَاذْكُرُوا ﴾ بقلوبكم لعلكم تشكرون ﴿ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا ﴾ فى العدد والمدد ﴿ فَكَثَّرَكُمْ ﴾ بالبركة فى النسل والمال ﴿ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ قبلكم بتكذيبهم رسلهم أى آخر أمرهم من الهلاك « وما قوم لوط منكم ببعيد » ﴿ وَإِنْ ﴾ اختلفتم فى رسالتى و ﴿ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ به ﴿ فَاصْبِرُوا ﴾

تربصوا ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ﴾ بإنجاء المحق وإهلاك المبطل ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ ﴾ أعدلهم فيستحيل فى حقه الظلم ولا معقب لحكمه ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ عن الإيمان ولم يلتفتوا إلى نصحه بل قابلوه على دأب السفهاء بما يكره ، وهو أحد أمرين مؤكداً بالقسم لفرط الاهتمام به بقولهم ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾ دينا ، غلبوا فى الخطاب الجمع على الواحد لأن شعيبا لم يكن فى ملتهم قط وعلى نحوه أجاب ﴿ قَالَ أَ ﴾ نعود فيها ﴿ وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ لما استفهام إنكار ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾ وقد افترينا استئناف فيه معنى التعجب وأدخل عليه قد للتحقيق لا للتقريب من الحال ، وقيل قسم محذوف اللام ، وإن عدنا شرط حذف جوابه لدلالة ما تقدم عليه ، وإذ بمعنى أن مصدرية . والمعنى إن همنا بالعود فى المستقبل فنحن فى الحال مفترون باعتقاد حقية ما أنتم عليه وبطلان ما نحن فيه ﴿ وَمَا يَكُونُ ﴾ ما يصح ﴿ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ ذلك فيخذلنا ، فيه حسم طمعهم فى العود واستسلام لمشيئة الله ، فلم تزل الأنبياء والأكابر يخافون العاقبة وانقلاب الأمر ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ وسع علمه كل شىء ومنه حالى وحالكم ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر لأن الألوهية تلائم التوكل والتفويض ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ ﴾ احكم ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ من فتح : قضى وحكم ، أو أظهر أمرنا عليهم حتى يتميز المحق من المبطل ، من فتح المشكل إذا بينه ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ ﴾ على المعنيين لعدم تصور الجور منك ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ قال بعضهم لبعض ﴿ لَئِنِ ﴾ لام قسم ﴿ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا ﴾ وتركتم دينكم ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ دينكم لأنكم على الحق وهو على الباطل ، ودنياكم لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ الصيحة مع الزلزلة الشديدة التى يرجف الفؤاد لأجلها وهى عذاب من فوقهم ومن تحتهم ﴿ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ باركين على الركب ميتين ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا ﴾ مبتدأ خبره ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا ﴾ يقيموا ﴿ فِيهَا ﴾ فى القرية التى كانوا يريدون إخراج شعيب منها من غنى بالكسر إذا أقام بقنعم كناية عن استئصالهم ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ الكاملين فى الخسران لذهاب الدين والدنيا عنهم رأساً لا من اتبع شعيباً كما زعموا ، استأنف مرتين وصدر الإحميتين بالموصول مبالغة فى تشويه حالهم وتقبيح مآلهم ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ بعد هلاكهم ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ فلم تقبلوا ، اعتذار لعدم حزنه عليهم ، ولذا قال ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ ﴾ أحزن ﴿ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾ المعنى : بذلت وسعى فى النصح والإشفاق فلم تصدقونى فكيف آسى عليكم ، ولما وصفهم بالكفر عدل عن الخطاب تبعيداً لهم وبياناً لسبب الهلاك ، وبعد هلاكهم سار شعيب ومن معه حتى سكنوا مكة إلى أن ماتوا بها كما فعل هود وصالح ، وفيه أنه ينبغى للمسلم أن يتنحى مواضع هلاك الكفار ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ ﴾ فكذبوه ﴿ إِلَّا أَخَذْنَا ﴾ عاقبنا ﴿ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَاءِ

وَالضَّرَّاءِ ﴾ مصدران بمعنى البؤس والضر فى الأبدان والأموال ﴿ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾ يتذللون فيؤمنون ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا ﴾ أعطيناهم ﴿ مَكَانَ السَّيِّئَةِ ﴾ مايسوء صاحبه طبعاً كالشدة والمرض ﴿ الْحَسَنَةَ ﴾ ما يستحسنه طبعاً كالغنى والصحة ﴿ حَتَّىٰ عَفَوْا ﴾ كثروا عدداً وعُدداً ، يقال عفا النبات والشعر إذا كثر ومنه إعفاء اللحى . قال مجاهد : حتى كثرت أموالهم وأولادهم ﴿ وَقَالُوا ﴾ كفراً للنعمة ﴿ قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ كما مسنا ، وهذه عادة الدهر وليست بعقوبة من الله فكونوا على ما أنتم عليه ، قال تعالى ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ بَغْتَةً ﴾ فجأة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بنزول العذاب ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ﴾ المكذبين ﴿ آمَنُوا ﴾ بالله ورسلهم ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ الكفر والمعاصى ﴿ لَفَتَحْنَا ﴾ بالتخفيف للجمهور والتشديد لابن عامر ﴿ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ بالمطر ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ بالنبات ﴿ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا ﴾ الرسل ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصى ، وفائدة لفظ كان الدلالة على استمرارهم فى ذلك وتكامل جناياتهم ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ ﴾ المكذبون لنبينا محمد ﷺ وما حولها . عطف على مقدر دل عليه أخذناهم دخله الاستفهام ، أى أبعد ما علموا حال أولئك وما نزل بهم أمنوا . تعجب من تماديهم فى الغفلة ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿ بَيَاتًا ﴾ ليلا ﴿ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ غافلون عنه ، وبياتاً مصدر فى موضع الحال ، أى مبيتين أو وقت بيات ، أو بمعنى التبييت كالسلام بمعنى التسليم « وهم نائمون » حال من المستتر فيه إن كان حالا وإلا فمن المنصوب فى يأتيهم ﴿ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ نهاراً ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ لاهين عن أمر الآخرة فهم كاللاعبين ، والضحى وقت ارتفاع النهار قدر رمح ، وهو فى الأصل ضوء الشمس سمى به الوقت المذكور لتكامل شعاع الشمس حينئذ . وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر أو بسكون الواو عطفاً بأو ، والباقون بالواو العاطفة بعد همزة الاستفهام ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴾ استدراجه إياهم بالنعم وأخذهم بغتة ، وإنما عطف الثانى بالواو والأول والثالث بالفاء لأن المعنى أخذناهم بغتة لما صنعوا ماصنعوا أبعد ذلك أمن أهل هذه القرى من مجىء بأسنا بياتاً وأمنوا إتيانه ضحى ، فالمنكر أمنهم إتيان البأس فى هذين الوقتين من غير ترتيب . وأما الثالث فتكرير للأول على طريقة الجمع بعد التقسيم مبالغة فى التحذير ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون فى الخسران بالكفر وترك النظر ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴾ يتبين ﴿ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ ﴾ بالسكنى ﴿ مِنْ بَعْدِ ﴾ هلاك ﴿ أَهْلِهَا أَنْ ﴾ فاعل مخففة واسمها محذوف أى أن الشأن ﴿ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ ﴾ بالعذاب ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ كما أصبنا من قبلهم من المصرين وفيه الاتعاظ بحال من سلف من المهلكين ﴿ وَ ﴾ نحن ﴿ نَطْبَعُ ﴾ نختم ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ قلوب هؤلاء المصرين : كلام مستأنف على طريق الاعتراض ، وعطف على ما دل عليه الكلام السابق ، أى يغفلون عن الهداية ، ولا يستقيم عطفه على جواب لو لإفضائه إلى انتفاء الطبع الذى دل على وجوده قوله ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ الموعظة سماع تدبر ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ ﴾ التى مر ذكرها مبتدأ وخبر ، والقرى نعت ، والخبر ﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ يا محمد

﴿ مِنْ أَنْبَائِهَا ﴾ أخبار أهلها من إصرارهم وما لحقهم من العذاب بعده ، و« نقص » على الأول حال و « من » للتبعيض أى نقص عليك بعض أنبائها مما فيه مصلحة دينية ودنيوية ولها أنباء غيرها لا نقصها عليك ، وفى تلك الأنباء تحذير للكفار وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات الظاهرات إلزاماً للحجة وقطعاً للمعذرة ﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ عند مجيئهم ﴿ بِمَا كَذَّبُوا ﴾ كفروا به ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل مجيئهم ، بل استمروا على الكفر لا تؤثر فيهم الآيات ، أو من قبل حين أخرجوا من ظهر آدم ، أو من قبل فى علم الله ، وزيد لفظ كان ولام الجحد مبالغة فى نفى الإيمان عنهم لمنافاته لحالهم فى التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الطبع ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ والتفت إلى الغيبة لأن الطبع صفة قهر يناسب لفظ الجلالة الدالة على الألوهية والقهر ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ ﴾ أى الناس ﴿ مِنْ عَهْدٍ ﴾ أى وفاء به : اعتراض بين قصة أصحاب القرى ، أى لأكثر الأمم المار ذكرهم ، والعهد ما أقروا به فى جواب « ألست بربكم » أو ما عاهدوا الله عليه عند الوقوع فى الشدة من قولهم لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة أى إن الشأن ﴿ وَجَدْنَا ﴾ علمنا ﴿ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ خارجين عن الطاعة متمردين ، والوجدان بمعناه العلم لدخول اللام الفارقة المستلزمة للبتدأ والخبر . وعند الكوفيين أن إن للنفى واللام بمعنى إلا ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى الرسل المذكورين ﴿ مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ معجزاتنا ، وإنما لم يدرج قصة موسى فى تلك القصص ولم يسقها على ذلك النمط لاشتمالها على وقائع كثيرة وغرائب عظيمة ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا ﴾ كفروا ﴿ بِهَا ﴾ مكان الإيمان الذى هو من حقها لوضوحها ولهذا المعنى وضع « ظلموا » موضع كفروا ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بالكفر من إهلاكهم ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إليك وإلى قومك أى أرسلنى خالق الخلق ومالكهم وإنما وصفه برب العالمين ليدخل فرعون فيهم ، واختار لفظة الرب إشارة إلى أنه منعم يجب الإيمان به شكراً للنعمة ، فكذبه فرعون فقال ﴿ حَقِيقٌ عَلَيَّ ﴾ بتشديد الياء لنافع مبتدأ خبره ﴿ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ أى واجب علىّ أداء الرسالة على الوجه المطابق لنفس الأمر ، وبسكون الياء الباقين على أن « على » بمعنى الباء لإفادة التمكن كقولهم : رميت على القوس ، وجئت على حال حسنة : أو ضمن « حقيق » معنى حريص ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ معجزة واضحة ، عرض لدليل نبوته على فرعون ﴿ فَأَرْسِلْ مَعِيَ ﴾ إلى الشام ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لأرجع بهم إلى أوطان آبائهم ، لأنهم جاءوا مصر فى زمان يوسف ، وبين دخول يوسف مصر ودخول موسى أربعمائة سنة ، وفى جميع ما تقدم غاية التلطف فى الدعاء إلى الإيمان واللين الذى أمر به ﴿ قَالَ ﴾ فرعون له مستدعياً لخرق العادة الدال على صدق موسى ﴿ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ ﴾ على دعواك ﴿ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فيها ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ ﴾ حية عظيمة ﴿ مُبِينٌ ﴾ واضح لكل أحد لا يشك فى أنه ثعبان . روى أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشعر فاغراً فاه ،

بين لحييه ثمانون ذراعاً ، وضع لحيه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ، ثم توجه نحو فرعون فوثب فرعون عن سريره وهرب وأحدث ، وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألف إنسان ونادى فرعون يا موسى بالذى أرسلك خذه وأنا أومن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذه فإذا هو عصا مثل ما كان . روى أن بطن فرعون استطلق لذلك وكان قبل لا يحدث لأنه يستفرغ ما يأكله . قيل أحدث فى ذلك اليوم أربعمائة مرة ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ ﴾ أخرجها من جيبه أو من تحت إبطه ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ ﴾ ذات شعاع يغلب شعاع الشمس ﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ أى بياضها خارجاً عن العادة يجتمع عليه الناظرون خلاف ما كانت عليه من الأدمة لأن موسى كان آدم شديد الأدمة ، ولم يذكر هنا قصة ولادته وتبنى فرعون له وفراره منه بعد قتل القبطى لكونه مستوفى فى القصص ولم يتعلق بذكره هنا غرض ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فائق فى علم السحر . وفى الشعراء أنه من قول فرعون نفسه ، فكأنهم قالوه معه على سبيل التشاور ، أو من بعد قوله تبليغاً للعامة عنه كما هو شأن الملوك ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ تشيرون أن نفعل ، وعلى هذا فقوله «فماذا» من قول فرعون لهم أو الأمر على الحقيقة إن كان من جملة كلام الملإ له ، وجمعوا ضميره للتعظيم وهو الظاهر ، والأول أوضح وأوفق لقوله ﴿ قَالُوا ﴾ جواباً لقول فرعون « فماذا تأمرون » أو قالوا له ذلك لما اتفق رأيهم عليه بعد التشاور ﴿ أَرْجِهِ ﴾ بكسر الهاء بلا همز من أرجيت بالياء لنافع مع وصل كسر الهاء بالياء لورش عنه ﴿ وَأَخَاهُ ﴾ أخر أمرهما ، ولابن كثير بالهمزة ساكناً مع ضم الهاء الموصولة بالواو ، وكذا أبو عمرو إلا أنه لم يصل الضم ، ولهشام عن ابن عامر مالأبى عمرو ولابن ذكوان بالهمز وكسر الهاء دون وصل من أرجأت بالهمز ، ولعاصم وحمزة بسكون الهاء دون الهمزة ، وللكسائى بكسر الهاء مع الصلة كورش ﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ جامعين للسحرة . وحكى النقاش أن فرعون لايجالس ولد غية وإنما كان جلساؤه أشرافا ، ولذا أشاروا بالإرجاء وترك العجلة بالقتل ، وقالوا إن قتلته دخلت على الناس شبهة ولكن أغلبه بالحجة ثم تفعل ما تريد ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ ﴾ وقرأ حمزة والكسائى سحار : هنا وفى يونس ، ويؤيدهما الاتفاق عليه فى الشعراء ﴿ عَلِيمٍ ﴾ يفضل موسى فى علم السحر فجمعوا ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ ﴾ قيل كانوا سبعين ألفاً مع كل منهم حبل وعصى ، وفى التفاسير غير هذا من العدد وكل ذلك لاسند له ، والمعلوم أنهم جمع عظيم ﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴾ إن لنا بالإخبار لنافع وابن كثير وعاصم فى رواية حفص جزماً بوجوب الأجر لعظم الأمر ، وبالاستفهام للباقين ليقرى باعثهم فيكون أدعى للنصح ، ويؤيده الجواب بقوله ﴿ قَالَ نَعَمْ ﴾ جواب عن الاستفهام ، أو تصديق لذلك الخبر على الأول ﴿ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ عطف على ما دل عليه « نعم » زادهم على ما تصوروه تحريضاً لهم ، أى لا أقتصر لكم على الأجر بل أزيدكم عليه المنزلة الرفيعة بأن أجعلكم من المقربين ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ عصاك ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ

ٱلْمُلْقِينَ) ما معنا . خيروه كما هو دأب المتماثلين فى المناظرة مراعاة للأدب وإظهاراً للجلادة ، لكن تغييرهم نظم الكلام بتعريف الخبر وتوسيط ضمير الفصل أو تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل يدل على أنهم كانوا راغبين فى البداءة بهم ، ولذا أجابهم إلى ذلك بقوله ﴿ قَالَ أَلْقُوا ﴾ تحقيراً لشأنهم وثقة بما عنده وتكرماً معهم وهو أمر للإذن بتقديم إلقائهم توسلا إلى إظهار الحق وليس بأمر منكر ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ حبالهم وعصيهم ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ صرفوها عن حقيقة إدراكها بتخييل ما لا حقيقة له ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ خوفوهم حيث خيلوها حيات تسعى ﴿ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ روى أنهم ألقوا حبالا غلاظاً وخشباً طوالا وجعلوا فيها الزئبق فتوهم أنها تتحرك وأنها حيات عظام بعضها راكبة فوق بعض ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فألقاها فإذا هي حية ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴾ بحذف إحدى التاءين من الأصل كتناول وتبتلع ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ ما يقلبون ويصرفون بتمويههم من الإفك ، وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه ويجوز أن تكون « ما » مصدرية وهي مع الفعل بمعنى المفعول ، ووضع المضارع موضع الماضى استحضاراً لتلك الحالة الهائلة . روى أنها لما تلقفت حبالهم وعصيهم وابتلعتها أقبلت على الحاضرين فهربوا وازدحموا حتى هلك جمع عظيم ، ثم أخذها موسى فصارت عصى كما كانت ، فقال السحرة لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا . وقرأ حفص عن عاصم « تلقف » هنا وفى طه والشعراء بالتخفيف ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ ظهر بعد ما كان خفياً ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من السحر ظهر بطلانه بحيث لم تبق فيه شبهة ﴿ فَغُلِبُوا ﴾ فرعون وقومه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ فى ذلك المكان أو الزمان ﴿ وَٱنْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ صاروا ، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ مبالغة فى سرعة خرورهم وشدته ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ لم يعطفه إيماء إلى شدة ملاصقته لسجودهم ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ أبدلوه من رب العالمين لئلا يتوهم أنهم أرادوا به فرعون ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ بالله أو بموسى . وفى الهمزتين ما علم فى « أأنذرتهم » وأمثاله ﴿ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الذى صنعتموه ﴿ لَمَكْرٌ ﴾ حيلة ﴿ مَكَرْتُمُوهُ ﴾ أنتم مع موسى ﴿ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ فى مصر قبل أن تخرجوا الميعاد ﴿ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ﴾ القبط وتخلو لبنى إسرائيل ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما ينالكم منى ، تهديد مجمل تفصيله ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ تقطيعاً ناشئاً ﴿ مِنْ خِلَافٍ ﴾ مخالفة من كل شق طرفاً ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ تفضيحاً لكم وتنكيلا لأمثالكم ، دلت لفظة « ثم » على أنه بعد القطع لم يصلبهم على الفور ، بل تركهم زمانا مطروحين على الأرض احتقاراً لشأنهم ، ولما أفاد هذا المعنى هنا ذكره فى سائر السور بالواو اختصاراً . روى أن فرعون أول من سن هذا التعذيب ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا ﴾ نحن وأنت ﴿ مُنْقَلِبُونَ ﴾ بالموت لا محالة فيحكم بيننا فلا نبالى بوعيدك لأنك إن فعلت ذلك يكون وصلة إلى لقاء ربنا ﴿ وَمَا تَنْقِمُ ﴾ ما تعيب وتنكر ﴿ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴾ وهو خير الأعمال فلا ينكره إلا أحق ،

إيماء إلى فرط حماقة فرعون حيث جعل الإيمان سببا للقتل ، ثم لجئوا إلى الله فقالوا ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾ عند فعل ما توعده بنا لئلا نرجع كفارا ، أى أفض علينا صبرا يغمرنا ويطهرنا من الآثام من أفرغت الماء عليه غمرته به استعارة تبعية . وفى البخارى لم يعط أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر ﴿ وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لقضائك ، قيل إنه فعل بهم ما أوعدهم به ، وقيل إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى « أنتما ومن اتبعكما الغالبون » وعن ابن عباس لما آمنت السحرة آتبع موسى ستمائة ألف من بنى إسرائيل فهال القبط ذلك ، فقال أشرافهم لفرعون ما أخبر الله بقوله ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ﴾ له ﴿ أَتَذَرُ ﴾ تترك ﴿ مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴾ المتبعين له ﴿ لِيُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ بدعاء الناس إلى مخالفتك وتغييرهم عليك ﴿ وَيَذَرَكَ ﴾ عطف على ليفسدوا ﴿ وَآلِهَتَكَ ﴾ كان من فرط عتوه جعل لقومه أصناما وأمرهم أن يعبدوها تقربا إليه على عادة عبدة الأصنام ، ولذا قال أنا ربكم الأعلى ﴿ قَالَ سَنُقَتِّلُ ﴾ بالتخفيف لنافع وابن كثير والتشديد للباقين وهو أوفق بالمقام ﴿ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ المولودين ﴿ وَنَسْتَحْيِي ﴾ نستبق ﴿ نِسَاءَهُمْ ﴾ كفعلنا بهم من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر ، ولا يتوهم أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ وهم مقهورون تحت أيدينا إلى الآن ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ لما شكوا إليه ما سمعوا من توعد فرعون بالقتل ، وقيل فعل بهم ذلك فشكوه ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ على اذاهم تسكين لهم وتشجيع ثم سلاهم بقوله ﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فلا اعتبار بمقالة فرعون : تقرير للأمر بالاستعانة بالله والتثبت فى الأمر ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الله الجامعين بين الطاعات واجتناب المعاصى ، وفرعون وقومه ليسوا فى شىء من ذلك ، ولم يقل والعاقبة لنا دفعا لتزكية النفس وعضبا لها ، وهذا من موسى وعد لهم بالنصر وهلاك العدو وتوريث ديارهم تخفيفا للإذاية عليهم . واللام فى الأرض تحتمل الجنس أو العهد أى أرض مصر . ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا ﴾ بالرسالة بقتل الأبناء والاستعباد ﴿ وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ بإعادة ذلك فنحن إذا أظهرنا الجزع فلنا فيه معذرة ، ويحتمل أنهم لما وعدهم موسى بزوال الشدة ظنوا أن ذلك يكون على الفور فلما رأوا أنه قد زادت الشدة عليهم قالوا ذلك استبطاء لزوالها . قال ابن عطية : وبالجملة فهو كلام يجرى مع المعهود من بنى إسرائيل من اضطرابهم وقلة يقينهم ، ولذا استعطف عليهم موسى بقوله ﴿ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فيها ، أتشكرون ما من به عليكم من الإمارة بعد الرق والعبودية أم تكفرون فيجازيكم على حسب ما يوجد منكم ؟ وهو تصريح بما كنى عنه أولا لما رأى أنهم لم يقبلوا بذلك . قال ابن عطية وهو يدل على أنه يستدعى نفوسا نافرة كما هو عادتهم فى غير ما قصة ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ﴾ بالقحوط لقلة الأمطار والمياه ، والسنة غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ بكثرة العاهات أو بقلة الثمار حتى روى أن النخلة من نخلهم

لاتحمل إلا ثمرة واحدة ، وقيل السنون للبوادى ونقص الثمرات لأهل الأمصار ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أن ذلك بسبب كفران النعم فيسارعوا إلى التوبة لأن الشدة ترقق القلوب ، ثم بين تعالى أن ذلك لم يزدهم إلا تمردا بقوله ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾ الخصب والغنى ﴿ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ﴾ أى نستحقها ولم يشكروا عليها ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ جدب وبلاء ﴿ يَطَّيَّرُوا ﴾ يتشاءموا ﴿ بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ﴾ من المؤمنين ، والعرب تسمى الشؤم طيرا أو طيرة لتشاؤمهم بنعيق الغراب ونحوه ، وهذا إغراق فى وصفهم بالغباوة والقساوة ، وهو أنهم بعد مشاهدة الآيات والانهماك فى الغى يدعون الاختصاص بالنعم وينسبون السيئة إلى من شكر النعم وأمر ونهى ، وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات ، ونكر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ ﴾ شؤمهم ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ بقدرته ومشيئته يأتيهم به لكفرهم ، أو سبب شؤمهم وهو أعمالهم عند الله مكتوب ، ولتماديهم فى الغفلة صدر الجملة بحرف التنبيه والحصر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن ما يصيبهم من عند الله لأجل أعمالهم ، أولا يعلمون الأمور على وجهها ليؤديهم ذلك إلى العلم بأن الأمر كله لله ، والقيد بالأكثر يدل على أن قليلا منهم كانوا عالمين بذلك ولكن تابعوا الأكثر فى هواهم ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا ﴾ أصله ما الشرطية زيد عليها ما للتأكيد ، ولاستثقال التكرار قلب الألف هاء ، ومحلها الرفع على الابتداء أو النصب بفعل يفسره ﴿ تَأْتِنَا بِهِ ﴾ أى شىء تحضرنا به ﴿ مِنْ آيَةٍ ﴾ بيان لما ، وتسمية ما جاء به آية تهكم أو على زعمك ، ولذا قالوا ﴿ لِتَسْحَرَنَا بِهَا ﴾ تشبه علينا ، والضمير فى به وبها لهما باعتبار اللفظ والمعنى ﴿ فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إقناط لموسى وردع له عن الاشتغال بإظهار المعجزات ، فدعا عليهم موسى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾ مصدر كالغفران ، وهو ماء طاف بهم وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل مع ظلمة شديدة لايقدرون على الخروج ، وامتلأت بيوت القبط فقط ووصل إلى حلوق الجالسين سبعة أيام ، فاستغاثوا بموسى على الإيمان فدعا لهم فارتفع عنهم فآمنوا شهرا ثم نقضوا ، ﴿ وَالْجَرَادَ ﴾ فأكل زرعهم وثمارهم وثيابهم وأبوابهم وسقوفهم كذلك ﴿ وَالْقُمَّلَ ﴾ كبار القراد ، أو أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها يتبع ما تركه الجراد من العروق ويدخل بين الأثواب والجلود يمصها كذلك ﴿ وَالضَّفَادِعَ ﴾ ملأت بيوتهم ومضاجعهم وأثوابهم وأطعمتهم كذلك ﴿ وَالدَّمَ ﴾ فى مياههم فصارت دماء كذلك ﴿ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾ مبينات لايشك العاقل أنها من آيات الله ، أو فصل بعضها عن بعض حال توبتهم إذ بين العذاب والعذاب شهر كما قدمنا ، يريهم موسى الآيات ويدعوهم إلى الله يتوبون تارة وينقضون أخرى ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا ﴾ عن الإيمان بها بعد الكشف ﴿ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾ مستمرين على الإجرام ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ﴾ العذاب المفصل ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ﴾ من كشف العذاب عنا إن آمنا ، أو بعهده عندك وهو النبوة ، أو بالذى عهده إليك إن دعوت

به يجبك من الأسرار والأسماء، وعلى الوجهين الباء صلة وحال أى متوسلا بما عهده عندك، أو الباء للقسم جوابه ﴿ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ روى أنه لما انكشف العذاب قال فرعون لموسى اذهب ببنى إسرائيل حيث شئت فخالفه بعض ملئه فرجع إلى قوله ونكث، كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا ﴾ بدعاء موسى ﴿ عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ ينقضون العهد ويصرون على كفرهم، والجملة جواب لما و « إذا » سدت مسد الفاء ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أى أنزلنا الانتقام بهم، والفاء للتفسير فى قوله ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ البحر المالح، واليم معرب معناه البحر الذى لايدرك قعره وقيل لجته ﴿ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ مستمرين على الغفلة، إشارة إلى أن ماحلّ بهم ليس ناشئا عن التكذيب وحده بل مع عدم التوبة ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ ﴾ بذبح الأبناء والاستعباد ﴿ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ﴾ أى جميع جهاتها، وأل فى الأرض للعهد، أى أرض الشام ومصر، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة وتمكنوا فى نواحيها، وقيل الأرض كلها مجازا لملكهم أكثرها الذى غيره باعتباره كلا شىء، أو حقيقة فى زمان سليمان والأول أرجح لقوله ﴿ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ بالماء والشجر صفة للأرض، وهى الشام إلى مصر ففيها من سعة العيش مالبس فى غيرها ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى ﴾ بالنصر والتمكين فى الأرض، وهى قوله « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا » إلى آخره ﴿ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ على دينهم وأذى قومهم. قال ابن عطية رأيت للحسن البصرى انه احتج بقوله وتمت إلى آخرها على أنه ينبغى للمرء أن يصبر على أذى ملوك السوء فإن الله يدمرهم، ورأيت لغيره أنه إذا قابل الناس البلاء بمثله وكلهم الله إليه وإذا قابلوه بالصبر أتاهم الله بالفرج. اهـ. ﴿ وَدَمَّرْنَا ﴾ خربنا ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ﴾ من القصور والبيوت وباقى العمارات ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ بكسر الراء للجمهور، وضمها لابن عامر وأبى بكر من الجنان، أو يرفعون من البنيان كصرح هامان. وهذا آخر قصة فرعون وقومه فليعتبر بها العاقل، ثم ذكر الله ما أحدثه بنو إسرائيل بعد هذه النعم مع موسى تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم، وإيقاظا للمؤمنين حتى لايغفلوا ويتبعوا سبيلهم فقال ﴿ وَجَاوَزْنَا ﴾ عبرنا ﴿ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ يوم عاشوراء بعد هلاك فرعون وقومه فصامه موسى شكراً لله ﴿ فَأَتَوْا ﴾ فرُّوا ﴿ عَلَى قَوْمٍ ﴾ من لخم أو من العمالقة ﴿ يَعْكُفُونَ ﴾ بضم الكاف للجمهور، وكسرها لحمزة والكسائى يقيمون ﴿ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴾ على عبادتها، وكانت تماثيل بقر وذلك أول شأن العجل ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا ﴾ صنما نعبده ﴿ كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ يعبدونها، ظنوا أن ذلك لايضر الدين لجهلهم ولذا ردهم موسى بقوله ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ حيث قابلتم نعم الله عليكم بما قلتموه، وقيل كان ذلك من بنى إسرائيل كفرا والأول أصح، ويقوى الثانى قولهم فى العجل هذا إلهكم وإله موسى. قال الثعالبى فى الجواهر الحسان: الذى يجب أن يعتقد أن مثل هذه المقالات إنما صدرت من أشرارهم

وقريبي العهد بالكفر .اهـ. وفي الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى غزوة حنين مر بشجرة يعظمها المشركون يقال لها ذات أنواط ، فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال سبحان الله هذا كما قال قوم موسى « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ القوم ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مدمر ومهلك ﴿مَا هُمْ فِيهِ﴾ يعني أن الله يهدم دينهم ويكسر أصنامهم ﴿وَبَاطِلٌ﴾ مضمحل ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتها وإن قصدوا بها التقرب إلى الله وفي الكلام مبالغات بتأكيد اسم الإشارة بإنّ ، والإخبار عما هم فيه بالتبار وعما فعلوا بالبطلان ، وتقديم الخبرين في الجملتين الواقعتين خبرا لإنّ للتنبيه على أن الدمار لاحق لما هم فيه لا محالة ، وأن الإحباط الكلي لازب لعملهم تنفيرا وتحذيرا عما طلبوا ، ثم بعد التجهيل أنكر عليهم على سبيل التعجيب بقوله ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ معبودا وأصله أبغي لكم ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في زمانكم بما ذكره في قوله ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَنجَيْنَاكُمْ﴾ ولابن عامر أنجاكم ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ يكلفونكم ويذيقونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أشده وهو ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أفلا تتعظون فتنتهون عما قلتم ﴿وَوَاعَدْنَا﴾ بألف ودونها وتقدم ﴿مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ نكلمه عند انتهائها بأن يصوموها وهي ذو القعدة فصامها ، فلما تمت أنكر خلوف فمه فاستاك فأمره بعشرة أخرى ليكلمه بخلوف فيه كما قال تعالى ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ من ذي الحجة وهذا تفصيل لما أجمله في البقرة بقوله وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ وقت وعده بكلامه إياه ﴿أَرْبَعِينَ﴾ حال ﴿لَيْلَةً﴾ تمييز فكلمه تعالى يوم النحر وأنزل عليه التوراة في الألواح ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ عند ذهابه إلى الجبل للمناجاة ﴿اخْلُفْنِي﴾ كن خليفتي ﴿فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ من أمرهم ما يجب أن يصلح أو كن مصلحا ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بموافقتهم على المعاصي ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ﴾ أي حضر ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ أي للوقت الذي وعدناه بالكلام فيه ، واللام للاختصاص ، أي اختص مجيئه لميقاتنا ، وقيل يقدر مضاف أي لآخر ميقاتنا أو لانقضاء ميقاتنا ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير واسطة كلاما مغايرا لهذه الحروف والأصوات قديما قائما بذاته خلق له إدراكه فسمعه من كل جهة ، وجواب لما قوله ﴿قَالَ﴾ لما سمع كلام ربه واشتاق إلى رؤيته ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ ذاتك ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ بأن تجعلني متمكنا من رؤيتك في هذا الوقت ﴿قَالَ لَن تَرَانِي﴾ أي في هذا الوقت على هذا الحال : لا تقدر على رؤيتي ، أي فالمانع الآن من جانبك فإني غير محجوب ، وإنما الحجاب منك بكونك فانياً في فانٍ ، وأنا باقٍ ووضعي باقٍ ، فإن جاوزت قنطرة الفناء ووصلت إلى دار البقاء فزت بمطلوبك ، والتعبير بلن ترآني دون لن أُرى يفيد إمكان الرؤية : فسؤال موسى للرؤية دليل على جوازها ، إذ سؤال المستحيل على الأنبياء محال ، و « لن » لا تفيد تأبيد النفي ، ثم أشار إلى عدم القدرة في ذلك الوقت على الرؤية بقوله ﴿وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الذي هو أقوى منك ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ﴾

ثبت ﴿مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ تثبت لرؤيتي وإلا فلا طاقة لك، وفي تعليق الرؤية على استقرار الجبل دليل للجواز، ضرورة أن المعلق على الممكن ممكن ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ أظهر من نوره قدر نصف أنملة الخنصر كما في حديث صححه الحاكم ﴿لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ بالقصر للجمهور، والمد لحمزة والكسائي، أي مدكوكا مستويا بالأرض، قيل ساخ حتى وقع في البحر فهو يظهر فيه، وقيل صار رملا سائلا، وقيل هو الذي صار حجر الكحل المضيء لأنه احترق بالنور لا بالنار والله أعلم ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ مغشيا عليه لهول ما رأى ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لك ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أن أطلب الرؤية في الدنيا أو بغير إذنك ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنها لا تطلب في الدنيا أو بغير الإذن. قال ابن عطية: ويحتمل عندي أن «تبت إليك» لفظ قاله لشدة هول المطلع، ولم يعن التوبة من شيء معين، ولكنه لفظ لائق بذلك المقام. اهـ. ﴿قَالَ﴾ تعالى له ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أهل زمانك ﴿بِرِسَالَاتِي﴾ بالإفراد لنافع وابن كثير وبالجمع للباقين ﴿وَبِكَلَامِي﴾ بتكليمي إياك ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ من الرسالة والتقريب ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لأنعمي، فيه تأديب وتقنيع، وحمل على جادة السلامة لكل أحد في كل حالة، فإن جميع النعم من عند الله بمقدار، فليشكر كل ما أعطي وليقنع به. روي أن سؤال الرؤية كان يوم عرفة، وإعطاء التوراة كان يوم النحر ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ التوراة وكانت من سدر الجنة أو زبرجد أو زمرد سبعة أو عشرة طول كل لوح اثنا عشر ذراعا ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدين. روي أن التوراة وزن سبعين بعيرا يقرأ الجزء منها في سنة لم يحفظها إلا موسى ويوشع وعزير وعيسى ﴿مَوْعِظَةً﴾ بدل من محل المجرور ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأحكام فالأول للاعتقاد والثاني للعمل ﴿فَخُذْهَا﴾ أي الألواح قيل قلنا مقدرا ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة كما هو شأن أولي العزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ وهو الأحوط أو الأولى، فالقصاص مثلا حسن والعفو أحسن منه، والانتصار حسن والصبر أحسن منه ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ فرعون وأتباعه وهي مصر، أو العمالقة وهي الشام لتعتبروا بهم، وعد للمؤمنين ووعيد للفاسقين، أو المراد سأورثكم دارهم ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ عن فهمها وتصديقها أو عن تدبرها ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ صلة يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل أو حال من فاعله أي يتكبرون غير محقين فإن المستحق للكبرياء هو الله، والآيات هنا كل كتاب منزل، أو الدلائل الدالة على الوحدانية، وصرفهم عنها عقوبة على تكبرهم، أو المراد صرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كاجتهاد فرعون في إبطال معجزات موسى، وهو أيضا وعد لنبي إسرائيل بأن ينصروا على كل من قام لإبطال الدين ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ﴾ منزلة أو معجزة ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لعنادهم واختلال عقولهم بالانهماك في الهوى والتقليد ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ الهدى الذي جاء من عند الله ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لاستيلاء الشيطنة عليهم. وقرأ حمزة والكسائي «الرشد» بفتحتين ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ الضلال

﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لأنهم عمى يقودهم الشيطان إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الصرف ومابعده ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أى لقائهم الدار الآخرة أو ما أعد الله فيها من إضافة المصدر إلى المفعول أو الظرف ﴿حَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ ما عملوه فى الدنيا من خير كصلة رحم وصدقة فلا ثواب له لعدم شرطه ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ إلا جزاء أعمالهم من التكذيب والمعاصى، ثم أشار إلى نوع آخر من قبائح بنى إسرائيل بعد قولهم: اجعل لنا إلها إلى آخره، فقال ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ﴾ أى بعضهم ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ بعد ذهابه إلى الطور للمناجاة ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ الذى استعاروه من قوم فرعون بعلة عرس فبقى عندهم، وهو جمع كثدى وثدىّ. وقرأ حمزة والكسائى بكسر الحاء إتباعا ﴿عِجْلًا جَسَدًا﴾ بدل: لحما ودما بعد ما صاغه لهم السامرى وكان صائغا ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ صوت يسمع: انقلب كذلك بوضع التراب الذى أخذه من حافر فرس جبريل فى فمه فإن أثر الحياة فيما يوضع فيه ومفعول «اتخذ» الثانى محذوف أى إلها ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ فكيف يتخذ إلها؟ تقريع على فرط غباوتهم ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إلها ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ باتخاذه وهو لا ينفع ولا يضر، وترك عبادة الله الذى أنعم عليهم نعما لا تحصى، أعاد «اتخذ» مقيدا بما يفيد زيادة التوبيخ أى ليس ذلك الاتخاذ أول منكر وقع منهم، بل دأبهم الاستمرار على وضع الأشياء فى غير موضعها ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أى ندموا أشد الندم على عبادته، لأن النادم المتحير يعض يده، وأصل التركيب سقط أفواههم فى أيديهم حتى كأنهم لم يتمالكوا، بل عضوا الأيدى من غير اختيار منهم، كناية إيمائية وهى التى توجد من زبدة الكلام لا من مفرداته ﴿وَرَأَوْا﴾ علموا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بها أى ظهر لهم ضلالهم ظهور المحسوس وذلك بعد رجوع موسى ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بإنزال التوراة وقبول التوبة ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ما صدر منا. قرأ حمزة والكسائى الفعلين بالخطاب ونصب «ربنا» على النداء ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الكاملين فى الخسران ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ﴾ من المناجاة ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ وقد أعلمه الله أنه فتن قومه من بعده وأضلهم السامرى ﴿غَضْبَانَ﴾ على قومه لعبادتهم العجل ﴿أَسِفًا﴾ حزينا بما فتنوا به. قال الواحدى: فإذا جاء ما تكره من هو دونك غضبت أو فوقك حزنت، فهو غضبان من جهة قومه حزين من جهة الفتنة ﴿قَالَ بِئْسَمَا﴾ أى بئس خلافة ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾ ها ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ خلافتكم هذه حيث أشركتم، والخطاب للعبدة، أو قتم مقامى حيث لم تكفوا العبدة، والخطاب لهارون والمؤمنين معه، و «ما» نكرة موصوفة تفسر المستكن فى بئس، والمخصوص محذوف أى خلافتكم. قال البيضاوى: ومعنى من بعدى من بعد انطلاقى أو من بعد ما رأيتم منى من التوحيد والحمل عليه والكف عما ينافيه. اهـ. وقال فى غاية الأمانى: حملُ البعدية على بعدية الانطلاق يأباه لفظ الخلافة، وجعله من قبيل أبصرته بعينى لا يناسب المقام. اهـ. وفى لباب التأويل: بعد فراقى إياكم، وهو يقوى ما فى البيضاوى، والله أعلم ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أتركتموه غير تام أى ما أمركم به من الانتظار أربعين يوما، يقال عجل زيد عن أمره تركه غير

تام ، فكأن عجل ضمن معنى سبق ، أو حذف منه الجار ، أو أعجلتم أمر ربكم ، أو أعجلتم وعد ربكم الذى وعدتيه من الأربعين وقدرتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم . روى أن موسى وعدهم بالرجوع فى أربعين يوماً فعدوا عشرين يوماً أربعين اعتداداً بالليالى لفرط بلادتهم . وفى لباب التأويل : معنى العجلة التقدم بالشىء قبل وقته ولذلك صارت مذمومة ، والسرعة غير مذمومة لأن معناها عمل الشىء فى أول وقته اهـ . وقيل معناه أعجلتم بخطر بكم . ثم ذكر الله ما أوجبه غضب موسى بقوله ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ التى كانت فيها التوراة غضباً لربه وحمية للدين ، وكان شهيراً بالشدة وهارون باللين ، ولذا ظن أنه قصر . روى أن التوراة كانت سبعة أسباع فى سبعة ألواح فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباعها وكان فيها تفصيل كل شىء وبقى سُبع كان فيه المواعظ والأحكام ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أى بشعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ ظناً منه أنه قصر فى كفهم ، وكان هرون أكبر منه بثلاث سنين ، وكان ليناً ، ولذا كان أحب إلى بنى إسرائيل ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ بفتح الميم لنافع وابن كثير وأبى عمر وعاصم فى غير رواية شعبة وكسرها للباقين ، أراد أمى وذكرها أعطف لقلبه وهما شقيقان ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ إزاحة لتوهم التقصير فى حقه والمعنى : بذلت وسعى فى كفهم حتى قهرونى وقاربوا قتلى . قال ابن العربى فى الأحكام : فيه دليل على أن لمن خشى القتل عند تغيير المنكر أن يسكت عنه ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ تفرح ﴿بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ بإهانتك إياى ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ بعبادة العجل أو التقصير فى الكف فلست منهم ﴿قَالَ﴾ موسى لما ظهر له براءة أخيه هرون ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ ما صنعت بأخى ، وما فرط منى فى إلقاء الألواح المسطور فيها كلامك ﴿وَلِأَخِي﴾ إن بدر منه نوع تقصير تعلمه ، أشركه فى الدعاء إرضاء له ودفعاً للشماتة ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ تقوية لطمع الداعى فى نجاح طلبه ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إلها ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ عذاب ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهو ما أمرهم به من قتل أنفسهم ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بخروجهم من ديارهم ، لأن ذل الغربة شديد ، وهذا على جعلهم التائبين وإن كانوا غير التائبين منهم فالمراد عذاب الآخرة ، وقيل المراد ما سينال أباءهم بنى قريظة والنضير زمن نبينا صلى الله عليه وسلم : من القتل والجلاء والجزية إلى يوم القيامة ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما جزيناهم بفريتهم : هذا إلههكم وإله موسى ﴿نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ على الله بالإشراك وغيره . قال أبو قلابة : هى جزاء كل مفتر إلى يوم القيامة أن يذله الله . وقال سفيان ابن عيينة : هذا فى كل مبتدع ، وقال مالك بن أنس : ما من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلة ثم قرأ هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الكفر والمعاصى ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ إلى الله منها ﴿وَآمَنُوا﴾ أخلصوا الإيمان ومقتضاه من الأعمال الصالحة ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ بعد التوبة ﴿لَغَفُورٌ﴾ ستار لتلك المعاصى ﴿رَحِيمٌ﴾ وإن عظم الذنب كعبادة العجل يبدل سيئات من تاب حسنات ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سكن ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ باعتذار أخيه وتوبة قومه ، وفى الكلام مبالغة

وبلاغة من حيث أنه جعل الغضب الحامل له على ما فعل كالآمر به والمغرى عليه حتى عبر عن سكونه بالسكوت ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ التي ألقاها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ أي مانسخ فيها أي كتب فعلة بمعنى مفعول ﴿هُدًى﴾ بيان للحق ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ إرشاد إلى الصلاح والخير ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يخافون، دخلت لام التقوية على المفعول لضعف الفعل بالتأخر، والمفعول محذوف واللام للتعليل أي يرهبون المعاصي لله لا لأمر آخر. قال فخر الدين: وظاهر قوله أخذ الالواح أنها لم تنكسر ولم يرفع من التوراة شيء. اهـ. ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ ممن لم يعبدوا العجل بأمره تعالى ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ للوقت الذي وعدنا بإتيانهم فيه ليعتذروا من عبادة أصحابهم العجل فخرج بهم ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة، قال ابن عباس: لأنهم لم يزايلوا قومهم حين عبدوا العجل، قال: وهم غير الذين سألوا الرؤية وأخذتهم الصاعقة. قلت: والمفسرين في هذه القصة اضطراب واختلاف، وخلاصة ماذكره في غاية الأماني: أن الله أمر موسى أن يأتيه إلى الطور في سبعين من قومه من كل سبط فرقة ليسمعوا كلامه موسى بالأوامر والنواهي فيكون ذلك أدعى لهم إلى الطاعة، فاختار من كل سبط ستة نفر فزاد اثنان فتشاحوا في التخلف فقال موسى: من تخلف له أجر من حضر، فآثر يوشع وكالب التخلف، فخرج موسى متقدما قومه كما أخبر عنه «وما أعجلك عن قومك يا موسى» وقبل قدومهم وحضورهم كان سؤال رؤيته وماجرى له من الصاعقة واندكاك الجبل وإنابته فسأله الله بعد ذلك عن تقدمه على قومه يعني السبعين مع أنه كان مأمورا باستصحابهم فأجاب بأن موجب ذلك التقدم هو المسارعة إلى مرضاته، فقال إنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى إلى قومه يعني ومعه ألواح التوارة غضبان أسفا، وجرى له مع أخيه وقومه ما حكاه الله في كتابه، ثم عاد إلى الطور معه السبعون، فلما دنا من الجبل غشيته غمامة فدخل موسى بهم الغمامة وخروا سجدا فسمعوا كلام موسى بالأوامر والنواهي، فلما انكشف الغمام قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة أو رجفة الجبل فصعقوا. وأما قوله «فأخذتهم الصاعقة بظلمهم بما اتخذوا العجل» ثم لترتيب الإخبار للاتفاق على أن اتخاذ العجل كان قبل مجيء موسى بالتوراة، ولأنه في سورة البقرة ذكر قصة العجل قبل أخذ الصاعقة والقرآن يفسر بعضه بعضا. اهـ. ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ قبل خروجي بهم ليعاين بنو إسرائيل ذلك ولا يتهموني ﴿وَإِيَّايَ﴾ أو المراد لو شئت هلاكنا قبل خروجنا لفعلته لأنك قادر على ذلك ولما لم تفعله فنحن نرجو رحمتك ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ من طلب الرؤية عيانا أو عبادة العجل: استفهام استعطاف أي لا تعذبنا بذنب غيرنا، أو الاستفهام على حقيقته لأنه يفعل ما يشاء في ملكه. قال في غاية الأماني: وتفسير ما فعل السفهاء بعبادة العجل ليس بشيء، لأن التوبة عن عبادة العجل لم يكن لها ميقات بل التوبة عنها كان بقتل أنفسهم، ولما تقدم من أن اختيار موسى السبعين كان قبل عبادة العجل ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي الفتنة

﴿ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ ابتلاؤك حين أسمعتهم كلامك حتى طمعوا فى رؤيتك ، أو إلقاء حب العجل فيهم فتك العفو أيضا يرتجى ﴿ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ ﴾ إضلاله ﴿ وَتَهْدِي ﴾ بها ﴿ مَنْ تَشَاءُ ﴾ هدايته . قال الواحدى : وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التى لا يبقى لهم معها عذر ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا ﴾ متولى أمورنا لا غيرك ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ﴾ ما فرط منا ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ تفضل علينا بعد العفو بنعمتك ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ تكتب بعد التوبة مكان السيئة الحسنة ، وفى الحديث « من هم بسيئة ولم يعملها كتب له حسنة » وإنما فصل الآية الأولى بأرحم الراحمين لأن غضبه كان لله ، وظهرت براءة أخيه ، بخلاف سؤال الرؤية من قومه فإنها جريمة عظيمة تناسب الغفران : وحكى أنهم لم يموتوا بالرجفة بل أشرفوا على الهلاك فدعا موسى فكشفها الله عنهم ، والله أعلم . ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ عيشة طيبة وموافقة طاعة ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ بدخول الجنة والفوز بلقائك ﴿ إِنَّا هُدْنَا ﴾ تبنا ﴿ إِلَيْكَ ﴾ من هاد يهود إذا تاب ، وهو كالعلة للسؤال السابق ، وأصل الهود الرجوع برفق ﴿ قَالَ ﴾ تعالى جوابا عن قوله إن هى إلا فتنتك ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ تعذيبه لا علة لصنعى وليس لأحد علىّ اعتراض ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ ﴾ عمت ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فى الدنيا لم تخل عنها ذرة ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا ﴾ أثبتها فى الآخرة ﴿ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الكفر والمعاصى من بنى إسرائيل وغيرهم ، فخرج إبليس وأتباعه ﴿ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ خصها بالذكر لأنها كانت أشق عليهم ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا ﴾ كلها ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ فلا يكفرون بشىء منها ولا يفرقون بين أحد من رسله ، فخرج من بقى على اليهودية والنصرانية . وقيل ما تقدم لأمة موسى ، وهذا فى أمة محمد ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ ﴾ من الله ﴿ النَّبِيَّ ﴾ المخبر عن الله ، والموصول خبر مبتدإ محذوف ، أو مبتدأ خبره يأمرهم ، أو بدل من الموصول القريب بدل الكل لا البعض ، وقدم الرسول مع كونه أخص والقياس - تأخيره - تقديما لأشرف الوصفين ؛ ولكونه رسولا من الله نبيئا مخبرا لأمته ﴿ الْأُمِّيَّ ﴾ محمدا صلى الله عليه وسلم : منسوب إلى الأم أى من هو على جبلته لا يكتب ولا يقرأ ، صفة كمال منه نافى الريب عما أتى به فكمال علمه مع حاله إحدى من معجزاته ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ باسمه ونعته وجميع علاماته ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ يحتمل أن يكون هذا أيضا فى التوراة والإنجيل ، أو هو مدح له ابتداء منه تعالى ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ مما حرم عليهم كالشحوم ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ من الميتة والدم ولحم الخنزير والربا والرشوة ونحوها ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ ﴾ ثقلهم وهو الإثم أو العهد بالعمل بأحكام التوراة . وقرأ ابن عامر آصارهم بالجمع ﴿ وَالْأَغْلَالَ ﴾ الشدائد ﴿ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ جمع غلّ وهو القيد شبهت بها التكاليف الشاقة فى شريعة موسى من بت القضاء بالقصاص ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وقطع موضع النجاسة فى الثوب والعضو ، وترك العمل فى السبت ، ولذا قال عليه السلام « بعثت بالحنيفية السهلة السمحاء » ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ﴾ منهم ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ عظموه بالتقوية ﴿ وَنَصَرُوهُ ﴾ على أعدائه ، من عطف العام على

الخاص ، أو أريد بالتعزير لازمه وهو التوقير ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ أى القرآن ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل بغية ، والمراد بالإنزال معه إنزاله مع نبوته ، أو الظرف متعلق باتبعوا أى القرآن مع أتباع النبى فى أقواله وأفعاله ، فيكون إشارة إلى اتباع الكتاب والسنة ، وهذه الآية معللة بشرف هذه الأمة المتبعة لهذا النبى الكريم ، ويتفاوتون فى الشرف بحسب تفاوتهم فى الاتباع . قال الغزالى فى الإحياء : وإنما أمته صلى الله عليه وسلم من اتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة ، فإنه مادعا إلا إلى الله واليوم الآخر ، وماصرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة اهـ . وقال الثعالبى فى الجواهر الحسان فى هذا المحل : إن أردت أتباع النبى صلى الله عليه وسلم : فابحث عن سيرته وخُلقه فى كتب الحديث والتفسير ، فإنه ملك من أقصى اليمن إلى أقصى الحجاز ثم توفى وعليه دين ودرعه مرهونة فى طعام أهله ، ولم يترك دينارا ولا درهما ، ولا شيد قصرا ولا غرس نخلا لنفسه ، يأكل على الأرض ويجلس على الأرض مع المساكين ، ويمشى فى الأسواق ، لا يضرب عبده ، ولا يمنع رفده ، ولا ضرب إلا فى سبيل الله ، قام لله حتى ورمت قدماه عليه وعلى آله صلاة دائمة . ﴿قُلْ﴾ خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ إشهار بأن شأنه مباين لسائر الأنبياء فإنه مبعوث إلى الناس كافة . وفى البخارى « بعثت إلى الأحمر والأسود » وكان كل نبى يبعث إلى قومه ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ صفة لله أو بدل ، أو مدح مرفوع أو منصوب ، أو مبتدأ خبره ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بيان لما قبله على الوجوه الأول ، فإن من ملك العالم كان هو الإله لاغيره ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ زيادة تقرير لاختصاصه بالألوهية ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ القرآن أو كتبه المنزلة ، وفى هذا الوصف ترغيب لهم فى الإيمان به فإنه مصدق بالكتب المنزلة على سائر الأنبياء : وإنما التفت إلى الغيبة إشارة إلى أن المأمور باتباعه هو هذا الموصوف كائنا من كان إظهارا للنصفة ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ فيما يأمركم به ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ علق رجاء الاهتداء على الإيمان به واتباعه تنبيها على أن من صدقه ولم يتابعه بالتزام شرعه فهو بعد فى خطط الضلالة ، وإنما ختم الآية الأولى بالفلاح وهذه بالاهتداء لأن مضمون تلك أن المتصف بتلك الصفات مفلح ، ومضمون هذه الأمر بالاتباع للاهتداء الموصل إلى ذلك الفلاح . وقدمه فى الذكر لأنه المقصود بالذات ، ثم رجع إلى قصة بنى إسرائيل بعد الاستطراد فقال ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ بنى إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ طائفة على الحق ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس ﴿بِالْحَقِّ﴾ بكلمة الحق أو محقين ﴿وَبِهِ﴾ بالحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بينهم فى الحكم ، والمراد بهم الثابتون على الإيمان من أهل زمان موسى ، أتبع ذكرهم ذكر أضدادهم على عادة القرآن ، أو هم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه ، والقول بأنهم قوم منهم وراء الصين مر بهم رسول الله ليلة المعراج فآمنوا به : ضعيف لا يلتفت إليه ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ﴾ فرقنا بنى إسرائيل أو صيرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ حال أو مفعول ثان لقطع لتضمنه معنى صيّر ،

والتأنيث للحمل على الأمة أو القطعة ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل منه ولذا جمع : أى قبائل ، أو تمييز وجمع لأنه بمعنى القبيلة لأن السبط ولد الولد ، فلو قيل اثنتى عشرة سبطاً لفهم منه اثنا عشر فرداً وليس كذلك ، فالأسباط والقبيلة كالمترادفين ﴿أُمَمًا﴾ بدل مما قبله : جماعات ، أو كل قبيلة منهم كانت أمة عظيمة ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ فى التيه ﴿ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ فضربه ﴿ فَانْبَجَسَتْ ﴾ انفجرت ﴿ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ بعدد الأسباط ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ وقلنا لهم ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ تقدم تفسير كلّ فى البقرة ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ بيت المقدس ﴿ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا ﴾ أمرنا ﴿ حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ منحنين ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ بالنون مبنياً للفعول لنافع وابن عامر ، وبالنون وكسر الفاء للباقين ﴿ خَطِيئَاتُكُمْ ﴾ بالجمع الصحيح مرفوعاً لنافع ، وبالإفراد والرفع لابن عامر ، وخطاياكم بجمع التكسير لأبى عمرو ، والباقون بجمع مصحح منصوب ﴿ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بالطاعة ثواباً ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ تقدم فى البقرة فراجعه إن شئت هناك ﴿ وَاسْأَلْهُمْ ﴾ يا محمد سؤال توبيخ ليذكروا لك قبيح فعل أصولهم ، ويظهر أن لهم فى الطغيان سلفاً غير صالح ﴿ عَنِ الْقَرْيَةِ ﴾ شأن أهلها مجاز بالحذف ﴿ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ كانت على شاطئه وهى أيلة من أعمال مصر بين مدين والطور ، وقيل هى مدين وقيل هى طبرية من أعمال الشام ، وفى الإخبار بهذه القصة معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه أمى ﴿ إِذْ يَعْدُونَ ﴾ يتجاوزون حدود الله بالصيد ﴿ فِي السَّبْتِ ﴾ وقد أمروا بتركه فيه ، ظرف لكانت أو حاضرة ، أو بدل اشتمال من المضاف المحذوف ﴿ إِذْ ﴾ ظرف ليعدون ﴿ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ ﴾ تعظيمهم أمر السبت ، مصدر سبتت اليهود إذا عظمت سبتها بالتجرد للعبادة ، وقيل اسم اليوم والإضافة لاختصاصهم بأحكام فيه ﴿شُرَّعًا﴾ ظاهرة على الماء رافعة رءوسها وهم ينظرون إليها ، ويوم سبتهم بدل من بدل أو بعد بدل ، وشرّعا جمع شارع من شرع علينا إذا دنا وأشرف ﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ﴾ لا يعظمون السبت وهو سائر الأيام ﴿ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ ابتلاء من الله ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى مثل ذلك البلاء الشديد من تحريم العمل والصيد فى السبت وإظهار الحيتان فيه لا فى غيره ﴿ نَبْلُوهُمْ ﴾ ونحن أعلم بحالهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب خروجهم عن طاعة الله ، أمرهم بتعظيم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا فيه بالتأويلات الباطلة وقيل كذلك متصل بما قبله أى لا تأتيهم مثل إتيانهم يوم السبت ، والباء متعلق يعدون . روى أن الشيطان وسوس إليهم : إن الله إنما نهاكم عن الصيد فى السبت لا الحيلة فيه فاتخذوا حياضاً تدخلها الحيتان يوم السبت ويصطادونها يوم الأحد . ثم تجرءوا على السبت وقالوا ما نرى السبت إلا قد حل لنا فاصطادوا وأكلوا وباعوا فيه ، فافترقت القرية أثلاثاً ثلث صادوا معهم ، وثلث أمسكوا ونهوا عن الصيد ، وثلث

أمسكوا عن الصيد والنهى وإليهم أشار بقوله ﴿ وَإِذْ ﴾ عطف على إذ يعدون ﴿ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ ﴾ لم تصد ولم تنه لمن نهى ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ فى الدنيا أو فى الآخرة ، ومن ذلك الوعظ فلعلهم ارتدعوا فإن الله لا يخفى عليه الحيل ، وإنما علموا أحد الأمرين من سنة الله فى المجرمين ﴿ قَالُوا ﴾ وعظنا ﴿ مَعْذِرَةً ﴾ نعتذر بها ﴿ إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ لئلا ننسب إلى تقصير فى ترك النهى . وقرأ حفص عن عاصم معذرة بالنصب مفعولا مطلقاً أو له ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ الصيد إذ ما داموا أحياء يرجى منهم ﴿ فَلَمَّا نَسُوا ﴾ تركوا ﴿ مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ولم يرجعوا ﴿ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ﴾ المنكر كالصيد ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالاعتداء ﴿ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ شديد ، كميس لنافع ، وكخذر لابن عامر وكرئيس للباقين ، إلا أن شعبة له وجه كضيغم ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ بسبب فسقهم ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا ﴾ تكبروا ﴿ عَنْ ﴾ ترك ﴿ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ صاغرين ، فكانوها وهلكوا بعد ثلاث ، وظاهر الآيتين يقتضى أن الله عذبهم أولا بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فمسخهم . ويجوز أن تكون الآية الثانية تفصيلا للأولى . قال ابن عباس : ما أدرى ما فعل بالفرقة الساكتة . وقال له عكرمة : لم تهلك لأنها كرهت مافعلوه وقالت : لم تعظون ... إلى آخره . وروى الحاكم عن ابن عباس أنه رجع إليه وأعجبه . وقال ابن زيد : نجت الناهية وهلكت الفرقتان ، وهذه الآية أشد آية فى ترك النهى عن المنكر ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ ﴾ تفعل بمعنى أفعل أى أعلم ﴿ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ ﴾ أى اليهود ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ بالذل وأخذ الجزية ، فبعث الله عليهم بعد سليمان ملوك الروم وملوك فارس كبختنصر يذلونهم بتخريب الديار وقتل الرجال وسبى النساء والذرارى وضرب الجزية على من بقى منهم ، وكانوا يؤدونها إلى المجوس إلى أن بعث نبينا صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ لمن عصاه ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ ﴾ لأهل طاعته ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بهم ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ ﴾ فرقنا بنى إسرائيل بعد ذهاب ملكهم بعد سليمان ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ فى أقطارها بعد اجتماعهم بالشام فلا تجد قطراً إلا وفيه طائفة منهم ، وذلك أيضاً من سخط الله عليهم لئلا يجتمعوا على كلمة فيحصل منهم ضرر وشوكة ﴿ أُمَمًا ﴾ مفعول ثان أو حال ﴿ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ ﴾ وهم الذين لم يحرفوا وآمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ناس ﴿ دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى منحطون عن الصلاح وهم الكافرون والفاسقون ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ ﴾ بالنعم ﴿ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ النقم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن فسقهم ، فإن تقلب الأحوال يورث الإنسان بصيرة وسلامة أخلاق ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ بسكون اللام بدل سوء : مصدر نعت به ولذا يقع على الواحد والجمع وهو شائع فى الشر ، والخلف بفتح اللام فى الخير ، والمراد به الذين كانوا فى عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ أى التوراة عن آبائهم ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ ﴾ متاع ﴿ هَذَا ﴾ الشىء ﴿ الْأَدْنَى ﴾ من الدنو أو الدناءة والمراد به عيش الدنيا من حلال أو حرام فإنها أدنى شىء ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ ما فعلناه من أخذه ، وجملة

« يأخذون » حال من فاعل « ورثوا » ، و « يقولون » يحتمل العطف والحال والفعل مسند إلى الجار والمجرور أو مصدر يأخذون ، وقولهم دعوى بلا دليل ﴿ وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ أى هم مستمرون على الكبائر وهو استبعاد لما قالوا ، والجملة حال أى يرجون المغفرة وهم عائدون إلى ما فعلوا مصرون عليه ، وليس فى التوراة وعد المغفرة مع الإصرار ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ ﴾ استفهام تقرير ﴿ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ الإضافة بمعنى فى ، أى فى التوراة ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ بيان للميثاق أو متعلق به أى بأن لايقولوا على الله إلا الحق ، فخالفوا وقالوا الباطل ومنه سيغفر لنا ، والمراد توبيخهم على البت بالمغفرة مع عدم التوبة ، والدلالة على أنه افتراء على الله وخروج على ميثاق الكتاب ، وأهل السنة وإن جوزوا المغفرة لم يقطعوا بها ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ قطع لمعذرتهم : عطف على « ألم يؤخذ » معنى ، أى قد أخذ عليهم الميثاق ودرسوا ما فى الكتاب ، أو على « ورثوا » وما بينهما اعتراض ﴿ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ الحرام مما يأخذ هؤلاء ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالخطاب لنافع وابن عامر وحفص عن عاصم ، وبالغيبة للباقين ، أى ولو عقلوا لعلموا أنها خير وآثروها على الأدنى﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لأبى بكر ﴿ بِالْكِتَابِ ﴾ منهم ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ كعبد الله بن سلام وأصحابه ، والموصول عطف على الموصول قبله ، أو مبتدأ خبره ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ أى أجرهم ، وضع الظاهر موضع المضمر إعلاماً بأن المصلحين هم المتمسكون بالكتاب وأن المانع من الإضاعة هو الإصلاح ، وأفرد إقامة الصلاة إنافة لها على سائر أنواع المتمسكات والله أعلم ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ رفعناه من أصله ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ وأصل النتق الجذب ﴿ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ سقيفة وهى كل ما أظلك ﴿وَظَنُّوا﴾ أيقنوا ﴿أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت فى الجو ، ولوعد الله إياهم بوقوعه إن لم يقبلوا أحكام التوراة وكانوا أبوها لثقلها فقبلوا . وقلنا لهم ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ بجد واجتهاد ﴿ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ ﴾ بالعمل به ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق ، فخروا ساجدين على حاجبهم الأيسر ينظرون بعينهم اليمنى فرقاً من سقوطه ، فلذا ترى اليهود يسجدون على الجانب الأيسر ويقولون هى السجدة التى كانت سبباً لرفع العذاب عنا . ولما ذكر نقض اليهود العهد الخاص بهم والميثاق المكتوب عليهم فى التوراة أردفه بالميثاق العام فى عالم الذر فقال ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ ﴾ حين ﴿ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ بدل اشتمال مما قبله بإعادة الجار . قاله السيوطى ، أو بدل بعض قاله البيضاوى ﴿ ذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ بالجمع لنافع وأبى عمرو وابن عامر وبالإفراد للباقين ، بأن أخرج بعضهم من صلب بعض من صلب آدم نسلا بعد نسل أحياه من ثقب المسام إذ تحت كل شعرة سم كنحو ما يتوالدون كالذر بنعمان يوم عرفة ، ونصب لهم دلائل على ربوبيته وركب فيهم عقلا ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ قال ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ أنت ربنا ، أى فأقروا بذلك بالنطق لا بكلام الحال والتزموه ، وأعلمهم أنه سيبعث الرسل إليهم مذكرة

لهذا العهد . وقيل هو من باب التمثيل أى تشبيه الحال بالحال ، وذلك أن الله لما ركب فيهم البصائر والعقول المميزة بين الحسن والقبيح ونصب لهم دلائل التوحيد وبثها فى الآفاق والأنفس بحيث لم يبق لهم معذرة فكأنه خاطبهم شفاهاً وأقروا له كفاحاً ، وهذا الإقرار هو الفطرة التى يولد عليها كل مولود ، وهذا القول الثانى هو قول أهل الكلام والنظر . والأول كما فى لباب التأويل هو المختار لأنه مذهب جمهور المفسرين من السلف وردت الأحاديث بذلك ، وما تقدم من أن العهد كان بنعمان كسحبان «واد وراء عرفة» وهو نعمان الأراك هو مما روى عن ابن عباس . وقيل كان بالهند ، وقيل فى الجنة . قال الشعرانى : وكل هذه محتملة ولا يضرنا الجهل بالمكان بعد صحة الاعتقاد بأخذ العهد ، وهل الذرات صورت بصور الإنسان أم لا لم يبلغنا دليل فى ذلك ، وهل ردهم إلى ظهر آدم أحياء أم قبض الأرواح ثم ردهم أمواتاً وهو الظاهر قياساً على ردهم إلى الأرض ورجعت الأرواح إلى حيث كانت كالذرات . وقد جاء فى الحديث أن كتاب العهد أودع فى باطن الحجر الأسود وأن للحجر الأسود عينين وفماً ولساناً . اهـ . ﴿ شَهِدْنَا ﴾ على أنفسنا بهذا الإقرار فهو من كلام الذرية ، وقيل من الملائكة قال الله لهم اشهدوا فقالوا شهدنا على إقرارهم . والإشهاد ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ لأن لا أو كراهة أن تقولوا بالتاء للجمهور والياء لأبى عمرو فى الموضعين ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا ﴾ التوحيد ﴿ غَافِلِينَ ﴾ لا نعرفه ولا عتاب على الغافل ؛ وإنما نسى بعضنا العهد لأن تلك البينة تغيرت أحوالها بمرور الزمان عليها فى أصلاب الآباء وأرحام الأمهات . وقال على بن أبى طالب : إنى لأتذكر العهد الذى عهد إلىّ ربى . وكذا كان يقول سهل بن عبد الله وزاد بأنه يعلم تلامذته من ذلك اليوم والله أعلم ﴿ أَوْ تَقُولُوا ﴾ عطف على أن تقولوا ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ قبلنا ﴿ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ ولم يسعنا إلا الاقتداء بهم ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا ﴾ تعذبنا ﴿ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ من آبائنا بتأسيس الكفر ، المعنى لا يمكنهم الاحتجاج بذلك مع إشهادهم على أنفسهم بالتوحيد والتذكير به على لسان صاحب المعجزة لأنه قائم مقام ذكره فى النفوس ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى مثل هذا التفصيل البليغ لما تقدم من الميثاق وغيره ﴿ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ نبينها ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ عن التقليد واتباع الباطل . والضمائر إما لكافة الناس لاندراج بنى إسرائيل فيهم ، أو خاصة ببنى إسرائيل لأن سوق الكلام لهم ، والمقصود بالآيات إلزامهم الميثاق العام بعد إلزامهم بالميثاق المخصوص بهم والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية ومنعهم عن التقليد وحملهم على النظر والاستدلال ﴿ وَاتْلُ ﴾ يا محمد ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على بنى إسرائيل ﴿ نَبَأَ ﴾ خبر ﴿ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ﴾ هو أحد علماء بنى إسرائيل ، أو أمية بن الصلت كان قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل رسولا فى ذلك الزمان فلما بُعث محمد حسده وكفر به ، أو هو بلعم بن باعوراء من الكنعانيين أوتى علم بعض كتب الله كصحف إبراهيم ﴿ فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها . قيل سئل بلعم أن يدعو على موسى لما أقبل إلى قومه بالغزو وأهدى إلى بلعم مال فدعا فانقلب عليه واندلع لسانه على

صدره ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ ﴾ فأدركه فصار قرينه ﴿ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ الضالين . وفى قصة بلعم روايات كثيرة لا يصح إسنادها ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ ﴾ إلى منازل العلماء ﴿ بِهَا ﴾ بأن نوفقه للعمل ﴿ وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ ركن وسكن ومال إلى الدنيا وشهواتها ، والدنيا كلها هى الأرض إذ فيها المدن والضياع والمعادن والنبات الذى يعاش به ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ فى الدعاء إليها بإيثارها ، واسترضاء قومه والإعراض عن مقتضى الآيات ، فوضعناه لإيثاره الفانى على الباقى ﴿ فَمَثَلُهُ ﴾ صفته وحاله الخسيسة ﴿ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ كحاله ﴿ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ ﴾ بالطرد والزجر ﴿ يَلْهَثْ ﴾ يدلع لسانه ﴿ أَوْ ﴾ إن ﴿ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ لضعف فؤاده وليس غيره من الحيوان كذلك . والشرطية فى موضع الحال ، والمعنى لاهثاً فى الحالتين ، وكذلك الضلال فى المشبه لازمه بمقتضى مشيئة الله تعالى وعظ أو لم يوعظ ، هذا هو المراد بالتشبيه عند الجمهور ، وهو التشبيه فى الوضع والخسة بقرينة الفاء المشعرة بترتب ما بعدها على ماقبلها من الميل إلى الدنيا واتباع الهوى . وقال السدى : التشبيه على ظاهره لأنه لما دعا على موسى خرج لسانه حتى وقع على صدره ، ويؤيد الأول قوله ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى كل من كذب بآيات الله هذا مثله فهو ضال فى كل حال ﴿ فَاقْصُصِ ﴾ على اليهود ﴿ الْقَصَصَ ﴾ التى فيها الغيوب التى لا يعلمها إلا من وقف على الكتب الماضية ولست منهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فى ذلك فيؤمنون ، أو لعلهم يتفكرون فى قصة من انسلخ من الآيات فإنهم على وصفه فيؤديهم إلى الحذر من سوء العاقبة . قال عبد الحق الاشبيلى : اعلم رحمك الله أن لسوء الخاتمة أسباباً أعظمها الإكباب على الدنيا والإعراض عن الأخرى . ولما شبه من انسلخ من آيات الله لحطام الدنيا بحال الكلب أردفه بما وضع لإنشاء الذم مبالغة فى التحذير فقال ﴿ سَاءَ ﴾ بئس ﴿ مَثَلًا الْقَوْمُ ﴾ أى مثل القوم ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها ﴿ وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ بالتكذيب ، عطف على كذبوا داخل فى الصلة ، أى جمعوا بين التكذيب وظلم أنفسهم ، أو منقطع ، والمعنى لم يظلموا بالتكذيب إلا أنفسهم لا يتخطاها وباله ، ولذا قدم المفعول ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وهو كالبيان لقوله « ولو شئنا لرفعناه بها » وأفرد الضمير فى الأول وجمع فى الثانى باعتبار اللفظ والمعنى ، إشارة إلى أن المؤمنين كواحد لاتحاد طريقهم ، وفى الاقتصار على الاهتداء إيماء إلى أنه وصف شريف لايحتاج إلى أمر آخر ، وهذا كاللف المعكس لقوله « ومن خلقنا أمة يهدون بالحق » ، وقوله ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا ﴾ خلقنا ﴿ لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ هم أهل الطبع والريب الذين حقت عليهم كلمة العذاب . قال فى باب التأويل : وفى الآية دليل لمذهب أهل السُّنة أن الله خلق أعمال العباد جميعها خيرها وشرها ؛ لأن الله تعالى بيّن بصريح اللفظ أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار ، ولا مزيد على بيان الله ؛ لأن العاقل لا يختار لنفسه دخول النار ، وكلما عمل بما يوجب عليه دخول النار علم أن له من يضطره إلى ذلك العمل الموجب لدخول النار وهو الله . اهـ .

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ ﴾ أى عقول من إطلاق المحل على الحال ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الحق ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ دلائل قدرة الله بصر اعتبار فى الآفاق والأنفس ﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ فى عالم الفقه ، والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو فى أن مشاعرهم متوجهة إلى أسباب التعيش مقصورة عليها ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ من الانعام لأنها تطلب منافعها وتهرب من مضارها غاية جهدها وهؤلاء يقدمون على النار معاندة بارتكاب مسالكها مع العلم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الكاملون فى الغفلة كالتأكيد للأولى ولذا لم يدخل العاطف ، وإنما قدم البصر هنا والسمع فى سائر الآيات لكون الآية مسوقة للتشبيه بالأنعام وهى بفقد البصر أشد تضررا من فقد السمع لأن مدار تعيشها فى طلب الماء والكلإ على حاسة البصر : والآية تذييل لقصة اليهود وفيها تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم من الذين لاتنجع فيهم الآيات والنذر لكونهم مخلوقين للنار ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ التسعة والتسعون الوارد بها الحديث ، والحسنى مؤنث الأحسن لأنها تدل على أحسن المعانى ، وفيه أن الاسم غير المسمى لأن الأسماء جمع والله واحد ، والاسم عبارة عن اللفظ الدال على الشىء المسمى به فهو غيره ، والمراد بالأسماء هنا حينئذ الألفاظ ، وقيل الصفات القائمة فإنها يطلق عليها الاسم يقال طار اسمه فى الآفاق والمراد وصفه الحسن ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ سموه بتلك الأسماء التى سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله : ففيه دليل على أن أسماء الله توقيفية لااصطلاحية تسميته جواداً لاسخيا وعالما لاعاقلا ومن أسمائه ماورد فى القرآن ومنها ماورد فى الحديث وتواتر ، وهذا هو الذى ينبغى أن يعتمد عليه ، أو المراد فاسألوه بها وقولوا يا رحيم ارحمنا يا رزاق ارزقنا يا هادى اهدنا ، وللدعاء شرائط : منها أن يعرف الداعى معانى الأسماء التى يدعو بها ، ويستحضر فى قلبه عظمة المدعو سبحانه ، ويخلص النية فى دعائه مع كثرة التعظيم ، ويعزم المسألة مع اعتقاد الإجابة ، ويعترف لله بالربوبية وعلى نفسه بالعبودية ﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ ﴾ من ألحد للجمهور ولحد لحمزة : اتركوا الذين يميلون عن الحق ﴿فِي أَسْمَائِهِ﴾ فى تسميته بمالا توقيف فيه ، كقول أجلاف العرب له يا أبا المكارم ، أو مايوهم معنى فاسداً كقولهم يا أبيض الوجه ، أو اشتقاق أسماء منها لآلهتهم كاللات من الله والعزى من العزيز ومناة من المنان : أى لاتوافقوهم عليه ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ فى الآخرة جزاء ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وعيد وتهديد لمن ألحد فى أسمائه ، ولما ذكر أنه خلق طائفة ضالين ملحدين عن الحق للنار ذكر أنه خلق أيضا للجنة أمة هادين بالحق عادلين فى الأمر بقوله ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما فى حديث عن ابن عباس ، والتركيب يدل على قلتهم . وفى الصحيحين « لايزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » قال فى لباب التأويل : وفى الآية دليل على أنه لا يخلو زمان من قائم بالحق يعمل به ويهدى إليه اه . قلت هذا الحديث أوضح فى ذلك والله أعلم . ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ القرآن من أهل مكة وغيرهم ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ ﴾

سنستدنيهم إلى الهلاك قليلا وأصل الاستدراج الاستصعاد أو الاستنزال درجة ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يراد بهم ، وذلك بأن تتوافر النعم عليهم فيظنوا أنها لطف من الله بهم استحقوها لمعنى فيهم ، فيزدادوا بطراً وانهماكا فى الغىّ حتى يحق عليهم كلمة العذاب ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ﴾ أمهلهم ليزدادوا إثما ﴿ إِنَّ كَيْدِى ﴾ أخذى ﴿ مَتِينٌ ﴾ شديد لا يطاق يسماه كيدا لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان ، والمتين مأخوذ من المتن وهو الظهر لشدة أعظمه ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ فيعلموا ﴿ مَا بِصَاحِبِهِمْ ﴾ محمد ﴿ مِنْ جِنَّةٍ ﴾ حالة ما من الجنون ، وعبر عنه بالصاحب لأن المصاحبة تظهر ما كمن من الأخلاق فلو كان به جنون لم يخف عليهم بعد طول الصحبة ، رد على من قال من الكفار إن صاحبكم بات يصوّت إلى الصباح ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ واضح الإنذار بحيث لا يخفى على ناظر ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ نظر استدلال ﴿ فِى مَلَكُوتِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ملكهما الأعظم ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىْءٍ ﴾ بيان لما أى من الأجناس التى لا يمكن حصرها فيستدلوا بذلك على قدرة صانعه ووحدانيته من جهات شتى ، والاستفهام فى الموضعين للتعجيب من حال المكذبين وتماديهم فى الغفلة ﴿ وَ ﴾ فى ﴿ أَنْ ﴾ أنه ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ ﴾ قرب ﴿ أَجَلُهُمْ ﴾ فيموتوا كفارا فيصيروا إلى النار ، أى أفلا ينظروا هذا فيبادروا إلى الإيمان ﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ ﴾ القرآن ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذا لم يؤمنوا به وهو النهاية فى البيان ، كأنه إخبار عنهم بالطبع والتصميم على الكفر بعد إلزام الحجة والإرشاد إلى النقل ، أو الضمير فى بعده للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو للأجل أى بعد الأجل إذ لا عمل بعد الموت ، ثم ذكر علة إعراضهم عن الإيمان على الحقيقة فقال ﴿ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ ﴾ كالعلة لما تقدم ﴿ وَنَذَرُهُمْ ﴾ بالنون مع الرفع استئنافا للجمهور والياء لأبى عمرو وعاصم مع الرفع أيضا والجزم عطفا على محل ما بعد الفاء لحمزة والكسائى ﴿ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يترددون تحيرا ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ﴾ الوقت الذى يموت فيه جميع الخلائق وهى القيامة ، غلبت عليها لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها أو لأنها على طولها كساعة عند الله ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ متى ثبوتها ووقوعها ، وأيان فعلان من أى لأن معناه أىّ وقت ولا يستفهم به إلا شىء عظيم الشأن فى زمان مستقبل ﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ﴾ استأثر به لم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ﴿ لَا يُجَلِّيهَا ﴾ لا يظهر أمرها ﴿ لِوَقْتِهَا ﴾ أى فيه ﴿ إِلَّا هُوَ ﴾ أو المعنى الخفاء مستمر على غيره إلى وقت وقوعها فاللام للتأنيث ﴿ ثَقُلَتْ ﴾ عظمت ﴿ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ على الملائكة والثقلين لهولها وكأنه إشارة إلى حكمة إخفائها ، وإنما ثقلت عليهم لأن فيها فناؤهم وذلك ثقيل على القلوب ؛ إذ السماء تنشق ، والأرض تندك ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ لجأة لحديث الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها » الحديث ، والحكمة فى ذلك استدامة الخوف والحذر

فى كل لمحة ﴿ يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ ﴾ مبالغ فى السؤال والبحث ﴿ عَنْهَا ﴾ حتى علمتها أو فرح بالسؤال عنها والحال أنك تكره ذلك أو مكرم لهم بتعليم وقتها لقرابتهم والحال لو حصل لك علمها لم تكن تخص بها كما فى سائر الأحكام، وعلى التقديرين الآخرين فعنها صلة يسئلونك ، يقال حفى به كرضى حفاوة وحفاية بالغ فى إكرامه وأظهر السرور والفرح وأكثر السؤال عن حاله فهو حاف وحفىّ كغنىّ انظر القاموس، وعلى كل التقادير «كأنك» فى موضع الحال ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ كرره تأكيدا لكثرة سؤالهم عنها ، وليس فى يسئلونك تكرار لأن الأول غير مقيد بقيد الثانى ، أو لأن الأول عن وقت قيامها والثانى عن أحوالها فى ثقلها وشدائدها . وقال فى جواب الأول عند ربى وفى الثانى عند الله لأنه أعظم فجىء فيه بالاسم الأعظم ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن علمها عنده ؛ أولا يعلمون السبب الذى لأجله أخفى علمها ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا ﴾ أجلبه ﴿ وَلَا ضَرًّا ﴾ أدفعه فإذا لم يكن لى علم بما يتعاقب على نفسى التى هى أقرب الأشياء إلىّ فكيف العلم بالساعة ، وهذا منه إظهار للعبودية والتبرى عن ادعاء علم الغيب وهو الواجب على كل مسلم ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ من ذلك فيلهمنى إياه ويوفقنى له ، استثناء منقطع أو متصل على التأويل وسبق أمثاله ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ ما غاب عنى قبل إطلاع الله ﴿ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ ﴾ من الأشياء النافعة فى الدين والدنيا فقط ﴿ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ الضر والفقر والجوع لأنى أدفعه قبل حصوله بأسباب دافعة أى لما عرض مرض يمنعنى عن العبادة ونحوها ، وقدم استجلاب الخير على دفع الضر مع أن دفع المفاسد مقدم لأن النفوس القدسية مطمح نظرها الأمور الدينية ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ للكافرين بالنار ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالجنة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى لا يخالف حالى حال الناس إلا فى هذين الوصفين ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ آدم ، هذا قول الجمهور أو المراد بالنفس الجنس خطاب لمشركى مكة بما فيه الامتنان على الوجهين ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء خلقت من ضلعه الأعوج وكل رجل امرأته منه أى من جنسه ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ ويألفها ويميل إليها فإن الشىء إلى جزئه أو جنسه يميل ، وذكر الضمير العائد إلى النفس ذهابا إلى المعنى إذ المراد آدم وليناسب قوله ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ جامعها لأن الغشيان كناية عن الوقاع وهو فعل الزوج ﴿ حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ خف عليها حمله لم تتعب به كسائر الأحمال أو محمولا خفيفا وهو النطفة ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ ذهبت وجاءت لخفته أو استمرت به من غير إزلاق ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ ﴾ صارت ذات ثقل لكبر الولد ﴿ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا ﴾ ولدا ﴿ صَالِحًا ﴾ ذا صلاح ودين أو سويا لانقص فى خلقه ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ لتلك النعمة ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا ﴾ ولدا ﴿صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ بكسر الشين والتنوين أى شريكا لنافع وأبى بكر ، ولغيرهما شركاء بضم الشين جمع ﴿ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ قال المفسرون بتسميته عبد الحارث والحارث اسم إبليس ، ولا ينبغى أن يكون عبداً إلا لله ، وليس بإشراك فى العبودية لعصمة آدم . وأيد ذلك السيوطى وغيره بحديث سمرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان

لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته فعاش فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ، والترمذي وقال حسن غريب . اهـ . قال ابن العربي في الأحكام : هذا الحديث ونحوه مذكور في ضعيف الحديث في الترمذي وغيره وفي الإسرائيليات التي لا يعول عليها من له قلب ، فإن آدم وحواء وإن غرهما بالله الغرور فلا يلدغ مؤمن من جحر مرتين . والقول الأشبه بالحق هو أن المراد جنس الآدميين فإن من حالهم في الحمل إذا ثقل عليهم نذروا فيه كل نذر وإذا ولد لهم الولد جعلوا فيه لغير الله شركا إلا من عصمه الله . قال الثعالبي : ينزه آدم وحواء عن طاعتهما إبليس ، ولم أقف على صحة ماروى في هذه القصص ولو صح لوجب تأويله . اهـ . وفي غاية الأماني : والأولى في تفسير الآية تقدير مضاف أي جعل أولادهما له شركا ، وإنما أسند الجعل إليهما لعلاقة السببية ، والمعنى وفيا بموجب الشكر ولكن تسببا في إحداث الشركاء ، وعلى هذا يظهر وجه قراءة شركاء ممدودا ويتضح تفريعه ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي الأولاد ، وعلى الأول فالفاء فصيحة والضمير لأهل مكة أي ما يشركون به من الأصنام ، والجملة مسببة عطف على خلقكم وما بينهما اعتراض . قلت وعلى تقدير المضاف درج البيضاوي ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ به في العبادة ﴿ مَالَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ استبعاد لأن يكون مثله معبودا ، وإنما أتى بضمير العقلاء لزعمهم الألوهية فيها ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ الأصنام ﴿ لَهُمْ ﴾ للمشركين ﴿ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ بمنعها ممن أراد بهم سوءا من كسر أو غيره ، وفيه الترقي في العجز ، والاستفهام للتوبيخ ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ ﴾ أي الأصنام ﴿ إِلَى الْهُدَى ﴾ الاهتداء إلى اتباعكم ﴿ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ﴾ بالتخفيف لنافع والتشديد لغيره أي إلى مرادكم لا يجيبوكم كما يجيبكم الله لعدم الإدراك فيها فهي عن الهداية والألوهية أبعد ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾ لدى الحاجات والمخاوف ﴿ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ مستمرون على الصمت ، وإنما عدل إلى الاسمية لأن الدعاء لا يكون إلا في أوقات الحوائج بخلاف الصمت ، وقيل الخطاب للمؤمنين أي إن تدعوا الكفار إلى الهدى والإسلام لا يتبعوكم لأن الله أضلهم والله أعلم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ ﴾ مملوكة ﴿ أَمْثَالُكُمْ ﴾ مسخرون لعبادته « وإن من شيء إلا يسبح بحمده» ﴿ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ فيما تدعونهم إليه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أنها آلهة : وفيه إشارة إلى الفارق ، أي وإن كانوا مثلكم في نفس العبودية لكنها دونكم في الإدراك وصدور الأفعال . ثم صرح بذلك فقال ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ﴾ إلى النصرة إذا دعوا ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾ المخاصم عند الحضور ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ للتوقي عن المكائد ﴿ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ المشاورة بعد نقد الآلات فيوردون ما عندهم من الرأي : استفهام إنكار أي ليس لهم شيء من ذلك مما هو لكم فكيف تعبدونهم وأنتم أتم حالا منهم ، ولا يخفى عليك الترتيب على هذا النمط لم كان ؟ لأن المدعو للنصرة أول ما يحتاج إليه آلة المشي وهي الرجل ثم آلة الضرب وهي اليد ثم آلة التوقي عن المكائد وهي البصر ثم آلة المؤامرة إن فقدت الآلات والله أعلم

﴿ قُلِ ﴾ لهم يا محمد ﴿ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ إلى إهلاكي تهكم بهم ﴿ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ تمهلوني فإني لا أبالي بكم لوثوقي بولاية الله وحفظه ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ﴾ الذي يتولى أموري هو ﴿ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ﴾ المعجز فهو قادر على إعجاز من يخاصمني ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ دائماً فكيف بالأنبياء والرسل فلا يضرهم من عاداهم وكادهم بشر ، وفي هذا مدح الصالحين بأن الله تولى حفظهم فلا يضرهم شيء ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ فكيف أبالي بهم فهو من تمام التعليل لعدم المبالاة ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ ﴾ أي الأصنام أو الكفار ﴿ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ ﴾ يقابلونك كالناظر ﴿ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ يشبهون الناظر صورة ولا إبصار لهم ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ السهل من الأمور ولا تفتش للناس في أفعالهم وأخلاقهم ، خذ ما عفا ودع ما يشق ولا تبحث عن أخلاقهم وهو أدعى إلى الاتباع ، أو خذ العفو عن المذنبين ، أو الفضل من أموال الناس في الصدقات ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ المعروف من الدين ولا تتركه لموافقة أحد ، واكتفى به عن ذكر النهي عن المنكر إذ هو داخل فيه ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ إن بدا منهم شيء يسوءك ولا تقابلهم بسفههم إن لم يكن فيه هتك حرمات الله ، فالآية جامعة لمكارم الأخلاق ، وجاء في تفسيرها عن الله : أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك . قال عبد الرحمن الثعالبي في جواهره : هذه الآية وصية من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم تعم أمته ، وأخذ بجميع مكارم الأخلاق . قال الجمهور معنى خذ العفو : اقبل من الناس في أخلاقهم وأفعالهم ومعاشرتهم ما أتى عفواً دون تكلف ، إلى أن قال : فني الآية كل خلق حسن ، لأن في أخذ العفو صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين . وفي الأمر بالمعروف تقوى الله وطاعته وصلة الرحم ، وصون الجوارح عن المحرمات . وفي الإعراض : الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن مخاطبة السفيه وغير ذلك من الأفعال المرضية . اهـ . ولما قدم عيينة بن حصن للوصول إلى عمر بن الخطاب قال لابن أخيه حر بن قيس بن حصن : استأذن لي على عمر ، وكان ابن أخيه من القراء الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته ، فاستأذن له فأذن له عمر ، فقال : هي يا ابن الخطاب : فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل . فغضب عمر حتى هم به ، فقال له الحر : يا أمير المؤمنين إن الله قال لنبيه خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافاً عند كتاب الله ، أخرجه البخاري . وقوله هي بكسر الهاء وسكون الياء كلمة تهديد ، والجزل : العطاء الكثير ، ومعنى وقافاً عند كتاب الله : لا يتجاوز حكمه والعمل به . وعن عائشة : لما نزلت قال عليه السلام « كيف والغضب يعتري الإنسان » فنزل ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ ﴾ أي ينخسنك نخس بمعنى صرفك عما أمرت به صارف بوسوسته ، وأصل النزغ الطعن ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ جواب الشرط وجواب الأمر محذوف أي يدفعه عنك ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ ﴾ للقول ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بالفعل فيجازي عليه ، أو سميع

استعاذتك ، عليم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه فيغنيك عن الانتقام ومشايعة الشيطان ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ ﴾ أصابهم ﴿ طَائِفٌ ﴾ ولابن كثير وأبي عمرو والكسائي طيف ، أي شيء ألمّ بهم ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ ﴾ المراد به الجنس ولذا جمع الضمير بعد ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾ عقاب الله وثوابه أو ما أمر الله به ونهى عنه ﴿ فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ بذلك التذكر مكائد الشيطان ومواقع الخطأ فيحترزون عنها ولا يتبعونه فيها . وعبر عن العلم الحاصل بعد التذكر بالإبصار مبالغة في تيقنهم به . والآية تعليل للأمر بالاستعاذة . وبأنه عادة قديمة لعباده المتقين وتأكيد لما قبلها ، وكذا قوله ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ ﴾ أي إخوان الشياطين من الكفار والفساق الذين لم يتقوا ﴿ يَمُدُّونَهُمْ ﴾ أي الشياطين ﴿ فِي الْغَيِّ ﴾ في الضلالة بالتزيين . قرأ نافع يمدونهم بضم الياء من أمده والباقون بفتحها من مده بمعنى واحد ، يقال : مد النهر الساقية ، وأمدها زادها ، بمعنى تعينهم الشياطين بالتزيين وهم يعينونها بالاتباع والامتثال ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ الإخوان والشياطين معاً : لا يكفون عنه بالتبصر كما تبصر المتقون ، ولا يمسك الشياطين عن إغوائهم حتى يوردوهم مورد الهلاك ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ ﴾ أي أهل مكة ﴿ بِآيَةٍ ﴾ مما اقترحوا ﴿ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ﴾ أنشأتها من قبل نفسك ، يقال اجتبى الكلام : اختلقه ، أو من الجباية إخراج الشيء من مظنته ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ﴾ وليس من شأني الاختراع واقتراح الآيات ﴿ هَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ بَصَائِرُ ﴾ حجج ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ولما ذكر أن القرآن رحمة المؤمنين دلهم على طريق الوصول إليه وهو الاستماع إليه والإنصات بقوله ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ عن الكلام ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ نزلت في منع الكلام في الصلاة ، كانوا يتكلمون فيها ، وعبر عنها بالقرآن لاشتمالها عليه ، وقيل في قراءة القرآن مطلقاً لأن الآية تتضمن تعظيم القرآن ، فيجب الإنصات والاستماع على كل حال ، وقيل في الخطبة للجمعة وهو ضعيف ، لأن الآية مكية ولم تكن الخطبة إلا بالمدينة ، وقيل في القراءة في الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورجح المالكية والحنبلية القراءة خلف الإمام في السرية لا في الجهرية للآية وعمل أهل المدينة ، ورجح الشافعية قراءة الفاتحة مطلقاً ، والحنفية عدم القراءة خلف الإمام مطلقاً ولكل أدلة ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ ﴾ بجميع الأذكار من القراءة والدعاء والتسبيح والتقديس وغير ذلك ﴿ فِي نَفْسِكَ ﴾ سراً بملاحظة جلال الله وعظمته وهو ذكر القلب ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ تذللا ﴿ وَخِيفَةً ﴾ خوفاً منه ﴿ وَ ﴾ اذكر ربك أيضاً فوق السر ﴿ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ أي قصداً بينهما وهذا هو ذكر اللسان وهذه مرتبة السر ، والمخافتة بأن تسمع نفسك ولا يسمعك غيرك فإنه أبعد من الرياء وأقرب إلى القبول وأدخل في الخشوع والإخلاص . وقال الفخر : المراد بقوله في نفسك كونه عارفاً بمعاني الأذكار التي يقولها بلسانه مستحضراً لصفات الجلال والعظمة . اهـ . وقال في لباب التأويل : وها هنا لطيفة وهي الإشعار بقرب العبد من الله وهو مقام الرجاء ، لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والرحمة والفضل والإحسان ، فإذا تذكر العبد

إنعام الله عليه وإحسانه إليه فعند ذلك يقوى عنده مقام الرجاء ، ثم أتبعه بقوله « تضرعاً وخيفة » وهذا مقام الخوف فإذا حصل الخوف والرجاء فى قلبه قوى إيمانه . والمستحب أن يكون الخوف أغلب عليه فى الصحة والقوة فإذا قارب الموت بعلاماته غلب الرجاء . دخل النبى صلى الله عليه وسلم على شاب وهو فى الموت فقال : كيف تجدك ؟ قال أرجو الله وإنى أخاف ذنوبى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لايجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله مايرجو منه وأمنه مما يخاف . أخرجه الترمذى اه ﴿ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أوائل النهار وأواخره لأنهما أشرف الأوقات ومظان الإجابات ، وقيل فى جميع الأوقات عبر عنها بذكر الطرفين ويدل عليه قوله ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ عن ذكر الله وعن كل ما أمرت به ، وينبغى أن لايغفل الإنسان لحظة عن استحضار جلال الله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية ، لأن بين الروح والبدن علاقة ، فكل أثر حصل فى البدن يصعد منه نتائج إلى الروح . قال بعض الحكماء :

الرُّوحُ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَرْشِ مَبْدَؤُهُ ۞ وَتُرْبَةُ الْأَرْضِ أَصْلُ الْجِسْمِ وَالْبَدَنِ
قَدْ أَلَّفَ الْمَلِكُ الْجَبَّارُ بَيْنَهُمَا ۞ لِيَصْلُحَا لِقَبُولِ الْأَمْرِ وَالْمِحَنِ
فَالرُّوحُ فِى غُرْبَةٍ وَالْجِسْمُ فِى وَطَنٍ ۞ فَلْتَعْرِفَنَّ ذِمَامَ النَّازِحِ الْوَطَنِ

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ مكانة ومنزلة لا مكاناً ومنزلا وهم الملائكة ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴾ ينزهونه عما لا يليق به ﴿ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ أى يخصونه بالخضوع والعبادة فكونوا مثلهم . وفى التقديم إفادة الحصر والتعريض بمن يشرك فى عبادته ، وذكر التسبيح والسجود وإن دخلا فى العبادة ليخبر عن صفة عبادتهم وينبه على أعمال القلوب بالتسبيح الذى هو تنزيه الله بالقلب وعلى أعمال الجوارح بالسجود الذى هو أفضل ما يقرب بين العبد وربه ؛ ولذا أمرنا بالسجدة فى هذا المحل وهو أول سجدة فى القرآن . وسجود التلاوة سُنة عند مالك والشافعى ، وأوجبه أبو حنيفة بشرط الطهارة إجماعاً بلا إحرام ولا سلام عند الأئمة الأربعة . وفقنا الله لما يحبه ويرضاه .

تم تفسير سورة الأعراف

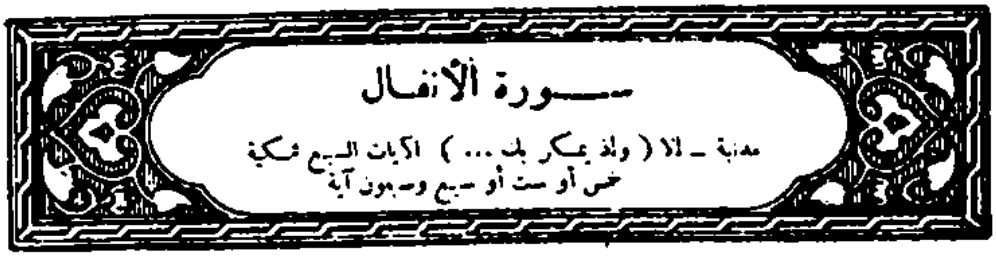

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ) لما اختلف المسلمون فى غنائم بدر فقال الشبان هى لنا لأنا باشرنا القتال ، وقال الشيوخ كنا ردءا لكم تحت الرايات ولو انكشفتم لفئتم إلينا فلا تستأثروا بها : نزل (يَسْأَلُونَكَ) يا محمد (عَنِ الْأَنفَالِ) الغنائم لمن هى ، جمع نفل بفتحتين وأصله الزيادة لأنها زيادة شرف لهذه الأمة ، لأنها كانت محرمة على من قبلها (قُلِ) لهم (الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ) يجعلانها حيث شاءا فقسمها صلى الله عليه وسلم بينهم على السواء ، رواه الحاكم فى المستدرك . وفى البخارى عن ابن عباس : سورة الأنفال نزلت فى بدر . وفى أبى داود والنسائى : لما كان يوم بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا فتسارع فى ذلك شبان الرجال وبقى الشيوخ تحت الرايات فلما كانت الغنائم جاءوا يطلبون الذى جعل لهم فقالت الشيوخ لا تستأثرون علينا فإنا كنا ردءا لكم لو انكشفتم ، فأنزل الله يسئلونك عن الأنفال - إلى قوله - إن كنتم مؤمنين . اهـ . وفى مسلم والترمذى وأبى داود عن سعد بن أبى وقاص « لما كان يوم بدر جئت بسيف فقلت يا رسول الله إن الله قد شفى صدرى من المشركين هب لى هذا السيف ، فقال : هذا السيف ليس لى ولا لك ، فقلت عسى أن يعطى من لا يبلى بلائى ، فجاءنى الرسول فقال إنك سألتنى وليس لى وإنه قد صار لى فهو لك ، فنزلت « يسئلونك عن الأنفال » الآية . اهـ وقال محمد بن إسحق : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فى العسكر فجمع فاختلف المسلمون فيه ، فقال من جمعه : هو لنا ، وقال الذين يقاتلون العدو : لولا نحن ما أصبتموه ، وقال الذين يحرسون الرسول والرايات خفنا على رسول الله وقمنا دونه فما أنتم بأحق به منا ، فنزلت هذه الآية . وقال عبادة بن الصامت : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله فقسمه بيننا على سواء ، وكان فيه تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين كما قال تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ) أى حقيقة ما بينكم بالمودة وترك النزاع وتسليم أمر الغنائم إلى الله ورسوله ، أو الحال التى بينكم بالمساواة فيما رزقكم الله . قال ابن عطية : وقع فى نفوس أهل بدر ما يقع فى نفوس البشر من إرادة الأثرة لا سيما من أبلى ، فأنزل الله الآية فرضى المسلمون وسلموا فأصلح الله ذات بينهم ورد عليهم غنائمهم ، وكان هذا الحكم لرفع الشغب ، ثم نسخ

بقوله تعالى « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه » وهذا أولى الأقوال وأوضحها . اه . ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ حقا فإن الإيمان يقتضي طاعة الأوامر واتقاء المعاصي وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان . ثم بين صفات المؤمنين بقوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي الكاملون في الإيمان ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ ﴾ أي وعيده ﴿ وَجِلَتْ ﴾ خافت ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ فرقا من جلاله واستعظاما لسطوته ، ولا ينافيه قوله « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » لأن ذلك باعتبار صفة جماله وسعة رحمته ، ولذا كان العبد واقفا بين الخوف والرجاء ، وقيل المراد إذا همّ الرجل منهم بمعصية فقيل له اتق الله انزجر عنها خوفا من عقابه . وفي لباب التأويل : إنما للحصر ، والمعنى ليس المؤمنون الذين يخالفون الله ورسوله إنما المؤمنون الصادقون في إيمانهم الذين إلى آخره .اه ، وفي الجواهر «إنما» لفظ لا يفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع ويصلح مع ذلك للحصر بحسب القرينة ، فقوله هنا «إنما المؤمنون» ظاهرها المبالغة والتأكيد فقط ، أي الكاملون . اه. وقال الساحلي واعلم أن الإنسان مطلوب بطهارة نفسه ، وطرق التزكية وإن كثرت فطريق الذكر أسرع نفعا وأقرب مراما وعليه درج أكثر مشايخ التربية . والذكر ضد النسيان والمطلوب منه عمارة الباطن بالله في كل زمان مع كل حال ، وذكر الأجور للعامة ذكر للثواب ، وذكر الحضور للخاصة لطهارة النفس من كل خلق ذميم .اه. قلت أنشد في هذا المعنى بعضهم فقال :

الذِّكْرُ أَقْرَبُ بَابٍ أَنْتَ دَاخِلُهُ ... فِيهِ فَاجْعَلْ لَهُ الْأَنْفَاسَ حُرَّاسَا

ومن كلام صاحب الحكم الفارقية إن تيقظت يقظة تلبية لم تر في وقتك سعة غير ذكر ربك والإقبال على طاعته فما في وقت العاقل فضلة في غير ما خلق له من عبادة خالقه والاهتمام بمصالح آخرته ، أعرف العبيد بجلال مولاه أخلاهم عما سواه وأكثرهم لهجا بذكره وتعظيما لأمره وشوقا إلى لقائه .اه. وإنما كنت أطول بهذا وأمثاله لكثرة غفلتنا ، لعل الله أن ينبهنا لأن مقصودنا بهذا التفسير إن شاء الله فهم ما قاله الله ورسوله وما قال أولياء الله للعمل به ، من الله علينا بذلك بمنه وكرمه . ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ بزيادة المؤمن به ، أو لاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلة ، أو بالعمل بموجبها وهو قول من قال الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بناء على أن العمل داخل فيه . قال في غاية الأماني : والحق أن نفس التصديق أيضا قابل للزيادة وأن مراتب اليقين متفاوتة ، ولذا يقولون علم اليقين فوقه عين اليقين ثم حق اليقين . قال مالك : الإيمان يزيد ولا ينقص لأن المؤمن إذا سمع حكما من أحكام الله فآمن به زاد إيمانا إلى سائر ما قد آمن به : إذ لكل حكم تصديق خاص ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ به يثقون لا بغيره في مصالح الدنيا والآخرة من نصر أو رزق أو غيره بعد امتثال الأوامر ، لعلمهم أن لا مؤثر إلا قدرته ولا موجب إلا إرادته ، ففوضوا إليه الأمور لا يخشون ولا يرجون إلا إياه . ولما ذكر الوجل عند ذكر الله وزيادة الإيمان عند تلاوة القرآن والتوكل على الله والثلاثة من أمهات أعمال القلوب أشار

إلى أمهات أعمال الجوارح بقوله ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ يأتون بها بحقوقها ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أعطيناهم ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ فى طاعة الله فى الزكاة وفى الحج والجهاد والصدقة وغير ذلك من أنواع البر ﴿ أُولَـٰئِكَ ﴾ الذين ضموا مع الإيمان الخشية والإخلاص والتوكل والصلاة والصدقة ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إيمانا ﴿ حَقًّا ﴾ صدقا بلا ريب ، صفة مصدر محذوف أو مصدر مؤكد للجملة كقولك زيد قائم حقا . وبهذا استدل من منع الاستثناء فى الإيمان لكون المرء محققا إيمانه . ولا يجوز أن يقول المتحرك أنا متحرك إن شاء الله وكذا القائم والقاعد ، ولأن إن شاء الله تشكيك . وقيل يجوز لأن الإيمان اعتقاد وإقرار وعمل وكون المرء آتيا بالأعمال المقبولة مشكوك فيه ، أو لأن إن شاء الله بهذا ليس للشك بل للأدب والتبرك ، وقيل لا خلاف فى المعانى ، فمن جوزه نظر إلى الخاتمة فهى غير معروفة فى الحال ، ومن منع نظر إلى الحال لا ريب له فى إيمانه ولا طريق له إلى العلم بالخاتمة والله أعلم . ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ ﴾ منازل فى الجنة ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فى جواره ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ عما فرط منهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ شريف لا آفة فيه ولا انقطاع فى الجنة ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ ﴾ للجهاد ﴿ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ ﴾ بالمدينة ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بأخرج ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ الخروج ، والجملة حال من كاف أخرجك و«كما» خبر مبتدإ محذوف أى كراهة بعضهم تسويتك فى الغنائم مثل إخراجك فى حال كراهتهم وقد كان خيرا لهم فكذلك هذا القسم خير لهم ، وذلك أن أبا سفيان أقبل من الشام فى عير فيه تجارة عظيمة معها أربعون راكبا ، فأخبر جبريل عليه السلام ذلك رسول الله ، فأخبر به المسلمين فخرج مع من خف من أصحابه ليغنمها ، وتقدم عددهم ، وثقل قوم فكرهوا الخروج ، وأسرع رسول الله لا يلوى على من تعذر ولا ينتظر من غاب ، وبلغ خروجه أهل مكة فخرجوا ليذبوا عن عيرهم وهم النفير ، وأخذ أبو سفيان بالعير طريق الساحل فنجت . وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قبل خروج قريش بثلاثة ليال رأت فى النوم ملكا نزل من السماء وأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها رمياً فلم يبق بيت فى مكة إلا أصابه شىء منها ، فبلغ أبا جهل فتوعد بنى هاشم ، ثم جاء الخبر فخرج إلى بدر فقيل له ارجع قد نجت عيركم فأبى ووصل إلى بدر ، فشاور صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال إن الله وعدنى إحدى الطائفتين إما العير أو النفير ، فكره بعضهم لقاء النفير وقالوا له عليك بالعير فإنا لم نستعد للقتال وإنما خرجنا للعير ، قال إن العير مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل ، فقام أبو بكر فتكلم وأحسن وشجع ثم عمر فأحسن ثم مقداد بن عمرو فأحسن ثم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فأحسنا ، فقالوا كلهم : والله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا واحد ، فسرّ رسول الله بذلك فقال : سيروا على بركة الله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم وهم بوادى ذفران بكسر الفاء قرب وادى الصفراء . وقيل التشبيه راجع إلى قوله فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم أى فذلك خير لكم كما أن إخراج الرسول إلى الجهاد خير لكم ، أو إلى قوله لهم درجات أى وعده لهم بذلك حق كإخراجه وإنجاز الوعد بالنصر . وقيل راجع إلى ما بعده وهو قوله

﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ ﴾ لقاء العدو لإظهار الحق ، أى كما أخرجك بالحق وهم كارهون يجادلونك فى الحق بكراهة القتال لإيثارهم تلقى العير ﴿ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾ لهم بإعلامك ، وكان الأولى بهم الانقياد والتسليم حين علموا أنك لاتفعل إلا بأمر ربك وتبين لهم صدقك فى الوعد أنهم ينصرون أينما توجهوا على امتثال الأمر ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ إليه عيانا فى كراهتهم له لقلة عددهم وعُددهم ، فبلغ كراهتهم لقاء العدو هذا المبلغ لذلك لا للجبن ، لأن كلام الرسول كان على المشاورة فرأوا أن ذلك إلقاء نفس إلى التهلكة فلما علموا منه العزم عليه رجعوا إلى ما أحب وأحسنوا الأقوال وفعلوا عند اللقاء ما يفعل الأبطال. ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ العير أو النفير مفعول ثان ليعدكم ويبدل منه ﴿ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ بدل اشتمال ﴿ وَتَوَدُّونَ ﴾ تريدون ﴿ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ ﴾ أى البأس والسلاح وهى العير واستير لحد السلاح واحدة الشوك ﴿ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ لقلة عددها وعُددها بخلاف النفير ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ يظهره بنصر المؤمنين ﴿ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ السابقة بظهور الإسلام أو الموحى بها فى هذه الحالة لمحاربة ذات الشوكة والإمداد بالملائكة وقتل الكفار وأسرهم ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ آخرهم بالاستئصال . قال البيضاوى : والمعنى أنكم تريدون أن تصيبوا مالا ولا تلقوا مكروها والله يريد إعلاء الدين وإظهار الحق وما يحصل لكم فوز الدارين اه ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ يثبت الإسلام ويعليه ﴿ وَيُبْطِلَ ﴾ يمحق ﴿ الْبَاطِلَ ﴾ الكفر ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ المشركون ذلك ، ولام ليحق متعلق بمقدر أى فعل مافعل ، أو يقطع فلا تكرار فى ليحق الحق ، لأن الأول لبيان المراد وما بينه وبين مرادهم من التفاوت ، والثانى لبيان الداعى إلى حمل الرسول على اختيار ذات الشوكة ونصره عليها قاله البيضاوى . وفى لباب التأويل المراد بالأول تثبيت ما وعد فى هذه الواقعة من النصر ، والمراد بالثانى تقوية الدين وإظهار منار الشريعة . اه ﴿ إِذْ ﴾ بدل من إذ يعدكم الله أو متعلق بقوله ليحق الحق أو باذكر مقدرا ﴿ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ تطلبون منه الغوث بالنصر على الأعداء قائلين أغثنا يا غياث المستغيثين ، والنبى يقول اللهم أنجز لى ما وعدتنى ماذا يدبه مستقبل القبلة : اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد فى الأرض ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي ﴾ أى بأنى ﴿ مُمِدُّكُمْ ﴾ معينكم ﴿ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ بفتح الدال لنافع أى أن الله أردف بعضهم بعضا أو أردفهم المؤمنين وبكسرها للباقين أى متبعين المؤمنين أو بعضهم بعضا من أردفه إذا جئت بعده أو متبعين بعضهم بعضا أو أنفسهم المؤمنين من أردفه إياه فردفه ، أمدهم بألف أولا ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم خمسة آلاف كما فى آل عمران ، فما هناك تفصيل لهذا الإجمال لأن تلك السورة متأخرة نزولا . وقرئ بألف كأفلس وهى موافقة لما فى آل عمران ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ ﴾ أى الإمداد ﴿ إِلَّا بُشْرَى ﴾ لكم بالنصر ، شبه الفعل السار بالخبر فأطلق عليه البشارة استعارة ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ إذا رأيتم مدد السماء وكثرة العدد ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ لا أثر للكثرة « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ولا تيئسوا من النصر لفقد الكثرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾

غالب ﴿ حَكِيمٌ ﴾ ينصر من يشاء بسابق حكمته . والصحيح أن الملائكة قاتلت يوم بدر وكانوا فيما سوى يوم بدر مددا وعونا ولم يقاتلوا ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ الله ﴿النُّعَاسَ﴾ بدل ثان من «إذ يعدكم» لإظهار نعمة ثالثة ، أو متعلق بالنصر أو بجعل أو بإضمار اذكر ، ويغشيكم بضم الياء وتخفيف الشين لنافع ، وبفتح الياء وإسكان الغين ورفع النعاس لابن كثير وأبي عمرو ، وبضم الياء وتشديد الشين للباقين ﴿أَمَنَةً﴾ أمنا حاصلا لكم ﴿مِنْهُ﴾ من الله وأمنة . مفعول له ومنه صفة ولو على قراءة ابن كثير وأبي عمرو ، إذ المعنى تنعسون لأمنكم فالفاعل للمصدر والفعل واحد معنى ، ويجوز أن يكون الأمنة له فعل النعاس مجازاً ولأصحابه حقيقة ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ من الأحداث والجنابات ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ وسوسته إليكم بأنكم لو كنتم على الحق ما كنتم ظماء محدثين والمشركون على الماء ﴿ وَلِيَرْبِطَ ﴾ يحبس ﴿ عَلَى قُلُوبِكُمْ ﴾ بالوثوق بلطفه تعالى ونصره ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ أن تسوخ في الرمل أو حتى تثبت في المعركة ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ بدل ثالث أو متعلق بيثبت ، أي الذين آمنوهم المسلمين ﴿ أَنِّي ﴾ بأني ﴿ مَعَكُمْ ﴾ بالعون والنصر ﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالإعانة والتبشير وتكثير السواد وقتل الأعداء ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ الخوف تفسير لقوله تعالى « إني معكم » ولا إعانة أقوى من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة ، ولا تثبيت أشد من ضرب الأعناق الذي لقنهم بقوله ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ ﴾ أي المفصل بين الرأس والعنق ، وقيل المراد به الرأس لأنه مقتل يختل بأدنى ضرب ﴿ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ جمع بنانة الأصابع وقيل أطرافها ، وفائدة الضرب عليها إبطال اليد فإنها الجزء الأعظم في الحرب ، ويحتمل أن تكون هذه المخاطبة للمؤمنين ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العذاب الواقع بالكفار ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ﴾ خالفوا ﴿ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ تقرير للتعليل أو وعيد بما أعد لهم في الآخرة بعد ما نزل بهم في الدنيا ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الخطاب مع الكفرة التفاتاً محله الرفع أي الأمر ذلكم ، أو ذلكم واقع أو نصب بفعل دل عليه ﴿ فَذُوقُوهُ ﴾ أيها الكفار في الدنيا ﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ في الآخرة ﴿ عَذَابَ النَّارِ ﴾ عطف على ذلكم أو نصب على المفعول معه . والمعنى ذوقوا ما عجل لكم مع ما أجل لكم في الآخرة . ووضع الظاهر فيه موضع المضمر للدلالة على أن الكفر سبب العذاب الآجل أو الجمع بينهما . وقرئ وإن على الاستئناف ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ حال كونهم ﴿ زَحْفًا ﴾ جمعاً كثيفاً كأنهم لكثرتهم يزحفون ، وهو مصدر زحف الصبي إذا دب على مقعده قليلا قليلا ، سمي به الجيش الكثير ، حال من المفعول أو من الفاعل أو منهما ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ منهزمين كانوا مثليكم أو أقل أو أكثر ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ يوم لقائهم ﴿ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا ﴾ منعطفاً ﴿ لِقِتَالٍ ﴾ بأن يريهم الفرة مكيدة وهو يريد الكرة ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا ﴾ منضما ﴿ إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ جماعة حاضرة اتفاقاً ، وكذا غائبة أو مدينة على الخلاف لما روى أن سرية فرّوا حتى بلغوا المدينة فقالوا يا رسول الله

نحن الفرارون ! قال « لا بل أنتم الكرارون وأنا فئتكم » أى المطافون إلى الحرب بعد التولى . وانتصاب «متحرفاً» و «متحيزاً» على الحال ، و«إلا» لغو أو الاستثناء من المولين أى إلا رجلا متحرفاً أو متحيزاً ، وزنه متفيعل لا متفعل ؛ وإلا لكان متحوزاً لأنه من حاز يحوز ﴿ فَقَدْ بَاءَ ﴾ رجع ﴿ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ المرجع هى ، هذا مخصوص بما إذا لم يزد الكفار على الضعف لقوله « الآن خفف الله عنكم » الآية الآتية . وإن بلغ المسلمون اثنى عشر ألفاً لم يحل الفرار ولو زاد الكفار على الضعف . والفرار حيث حرم كبيرة بظاهر القرآن والحديث وإجماع من يعتد به ، وحكم الآية باق إلى يوم القيامة ، والقول بأنه مخصوص بالحاضرين مع النبى صلى الله عليه وسلم مخالف للإجماع . ولما رجعوا من بدر يقول الرجل أنا قتلت فلاناً والآخر يقول قتلت فلاناً نزل ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ﴾ ببدر بقوتكم ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾ بنصره إياكم وإلقاء الرعب فى قلوبهم . والفاء جواب شرط محذوف ، أى إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم ﴿ وَمَا رَمَيْتَ ﴾ يا محمد أعين الكفار ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ بالحصباء لأن كفاً من الحصى لا يملأ عيون الجيش الكثير برمية بشر ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ بإيصال ذلك إليهم ، فعل ذلك ليقهر الكافرين ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ أى يعطيهم عطاء جزيلا بالقهر : ولا عطاء أجزل من قهر العدو أو بنيل الغنيمة ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ يسمع استغاثتهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ يعلم نياتهم وقصدهم إعلاء الدين ، ولذا أنعم عليهم بالنصر . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى « ولكن » بالتخفيف ورفع ما بعده فى الموضعين ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الإشارة إلى البلاء الحسن ، ومحله الرفع أى المقصود بالذات ذلكم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ ﴾ بتشديد الهاء لنافع وابن كثير وأبى عمرو ، وبالتخفيف للباقين عطف على ذلكم ، أى والمقصود بالعرض توهين ﴿ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ وقرأ حفص كيد مخفوضاً بالإضافة ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا ﴾ أى تطلبوا الفتح أيها الكفار ، أى القضاء . وذلك أنهم حين أرادوا الخروج تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين . وقال أبو جهل غداة بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وأتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة أى أهلكه ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ القضاء بهلاك من هو كذلك وهو أبو جهل ومن قتل معه دون النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وقيل الخطاب للمؤمنين فى استفتاحهم . ويؤيد الأول قوله ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ يا أهل مكة عن الكفر والحرب فهو ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لتضمنه سلامة الدارين ﴿ وَإِنْ تَعُودُوا ﴾ لقتال النبى والإصرار على الكفر ﴿ نَعُدْ ﴾ بنصره عليكم ﴿ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ ﴾ جماعتكم ﴿ شَيْئًا ﴾ من الإغناء أو المضار ﴿ وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ فئتكم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بفتح أن لنافع وابن عامر وحفص على تقدير اللام ، وبالكسر للباقين على الاستئناف ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الجهاد ببذل المال والأنفس ﴿ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ عن الرسول ، فإن المراد من الآية الأمر بطاعته والنهى عن الإعراض عنه ، وذكر الله للتوطئة والتنبيه على أن طاعة الله فى طاعة الرسول . وقيل الضمير للجهاد أو الأمر الذى دل عليه

الطاعة ، وهو تقديم نهى عما فعلوه يوم أحد ﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ القرآن والمواعظ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر واتعاظ وهم المنافقون والكفار ، دليل على أنه لافائدة فى قول المؤمن سمعت وأطعت مالم يظهر الامتثال بفعله ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ ما يدب على الارض أو البهائم ﴿عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ﴾ عن الحق ﴿ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إياه ، عدهم من البهائم ثم جعلهم شرها لإبطالهم ما ميزوا به وفضلوا لأجله من العقل ، ولم يذكر العمى لأن الكلام فى امتثال الأوامر ولا مدخل للبصر فى ذلك ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ سعادة كتبت أو انتفاعا بالآيات ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ إسماع تفهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ فرضا وقد علم أن لاخير فيهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ عنه ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن قبوله عنادا وجحودا . وكلمة لو هنا مثلها فى لو لم يخف الله لم يعصه ، وهو أن يكون نقيض الشرط بترتب الجزاء أولى . فالمعنى أن التولى منهم حاصل على تقدير الإسماع فعلى تقدير عدمه أولى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أطيعوهما ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من أمر الدين لأنه سبب الحياة الأبدية أى وقت دعائه ، ووحد الضمير لما تقدم من أن ذكر الله فى أثناء هذا للتوطئة . وظاهر الآية وجوب الإجابة ولو فى الصلاة ، ويدل عليه مافى البخارى أنه عليه الصلاة والسلام دعا أبا سعيد بن المعلى فأبطأ فجاء وقال : كنت أصلى قال : ألم تسمع قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم » وفى الترمذى عن أبى هريرة أنه عليه الصلاة والسلام دعا أبىّ بن كعب وهو فى الصلاة فخفف فجاء فقال له عليه الصلاة والسلام ما منعك يا أبىّ أن تجيبنى إذ دعوتك فقال : يا رسول الله كنت أصلى قال : أفلم تجد فيما أوحى إلىّ « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم » قال : بلى ولا أعود إن شاء الله ، لكن القول بأن إجابته لاتبطل الصلاة إذا كان دعاؤه لأمر لايحتمل التأخير ليس بشىء لأن الكلام فى الصلاة والانصراف عنها عمدا مبطل إجماعا ، وكون الأمر مما لايحتمل التأخير ليس مخصوصا به لأن من رأى أعمى سيقع فى بئر يجب عليه قطع صلاته إجماعا ، والآية سيقت لبيان شرفه وأن شأنه يباين سائر الناس ، قاله فى غاية الأمانى . وقيل المراد بما يحييكم الجهاد لأنه سبب بقائكم فلو تركتموه لاستأصلكم الكفار ، أو الشهادة لقوله تعالى «بل أحياء عند ربهم» ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ فإن قلوب بنى آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء أخرجه مسلم والترمذى بيده الإسعاد والإشقاء ، فعليكم بالمسارعة إلى إجابة رسوله لعله يلطف بكم . وفى الآية تمثيل لغاية قربه من العبد ، وحث على إخلاص القلوب وتصفيتها قبل أن يحول بين العبد وقلبه بالموت أو غيره بأن يغير مقاصده إلى ما لا يرضى إن قضى شقاوته ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ فيجازيكم بأعمالكم . وكان عليه السلام كثيراً ما يقول فى دعائه : يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك . ثم حذر الله المؤمنين فتنة لا تخص الظلمة بل تعم ، وهى فتنة إقرار المنكر بين أظهرهم ، أو فتنة الأموال والأولاد ، أو فتنة تفرق الكلمة بقوله ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً ﴾ إن أصابتكم ﴿ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ بل تعمهم وغيرهم ، واتقاؤها

بالهرب من موجبها ، من إقرار المنكر ، والمداهنة فى الأمر بالمعروف ، وافتراق الكلمة ، وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد ، والتفاخر بالأموال والأولاد . روى أبو داود أنه عليه السلام قال : ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على أن يغيروا عليه ولم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعقاب قبل أن يموتوا . وعن الزبير : لقد قرأنا هذه الآية زماناً وما نرى أنا من أهلها فإذا نحن المعنيون بها . يعنى ما كان منهم يوم الجمل بسبب افتراق الكلمة ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لمن خالفه ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أرض مكة يستضعفكم قريش . والخطاب للمهاجرين ، وقيل لجملة الصحابة لأن العرب كلهم كانوا أذلاء فى أيدى فارس والروم ، إذ لم يكن فيهم ملك يطاع يجتمعون إليه فأعزهم الله برسوله ، أى اذكروا ذلك الوقت لتعرفوا قدر نعمة الله عليكم ﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ ﴾ يأخذكم الكفار بسرعة من كل وجه ﴿ فَـَٔاوَىٰكُمْ ﴾ جعل لكم مأوى وهى المدينة فاجتمعتم فيها فتحصنتم به من أعدائكم ﴿ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ ﴾ على الكفار يوم بدر ، أو بمظاهرة الأنصار وإمداد الملائكة ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴾ الغنائم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ نعمه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ بتعطيل فرائضه ﴿ وَٱلرَّسُولَ ﴾ بترك سننه . قال فى الجواهر : خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة بالنهى عن جميع الخيانات كلها قليلها وكثيرها . اه . ﴿ وَ ﴾ لا ﴿ تَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ ﴾ ما ائتمنتم عليه من الدين وغيره فيما بينكم ، مجزوم داخل تحت النهى ، أو منصوب بتقدير إن بعد الواو على الجواب ، كما حصل لأبى لبابة وهو هرون بن المنذر وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة فسألوه الصلح على الخروج إلى الشام فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فقالوا أرسل إلينا أبا لبابة نشاوره فى ذلك وكان ناصحاً لهم لأن ماله وولده وعياله عندهم فبعثه رسول الله فأتاهم فقالوا له أننزل على حكم سعد ؟ فأشار لهم بيده إلى حلقه يعنى أنه الذبح فلا تفعلوا . قال أبو لبابة : والله مازالت قدماى عن مكانهما حتى عرفت أنى قد خنت الله ورسوله ، ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله ووصل إلى المدينة وشد نفسه على سارية من سوارى المسجد وقال والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علىّ ، فلما بلغ رسول الله ما فعل قال أما لو جاءنى لاستغفرت له ، أما إذ فعل ما فعل فإنى لا أطلقه حتى يتوب الله عليه ، فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه ، فقيل له قد تيب عليك ، فقال : والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله هو الذى يحلنى ، فجاء فحله بيده ثم قال : إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب وأنخلع من مالى ، فقال له رسول الله : يجزئك الثلث أن تصدق به ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنها أمانة ، أو تعلمون قبح الخيانة . ثم حذرهم سبب الخيانة وهو حب الأموال والأولاد فقال ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ لكم صادة لكم عن أمور الآخرة قد اختبرتم بهما فلا يحملنكم حبهما على الخيانة كما وقع لأبى لبابة . وتقديم الأموال لعمومها

فى الناس ، أو لكونها شقيق الروح ﴿وأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ان آثر رضا الله عليهم وراعى حدوده فيهم ، فلا تفوتوا هذا الأجر بمراعاة الأموال والأولاد والخيانة لأجلهم . قال فى لباب التأويل : يجب على العاقل أن يحذر من المضار المتولدة من حب المال والولد لأن ذلك يحجب القلب عن مراعاة حق المولى وذلك من أعظم الفتن ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فى الأمانة وغيرها ﴿ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ هداية فى قلوبكم تفرقون بها بين الحق والباطل ، أو نصراً يفرق بين الحق والمبطل بإعزاز المؤمنين وإذلال الكافرين ، أو مخرجاً من الشبهات ، أو نجاة مما تحذرون فى الدارين ﴿ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ يسترها ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ بالتجاوز والعفو ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ تنبيه على أن ما وعدهم على التقوى تفضلٌ منه وإحسان . ولما ذكر الله المؤمنين نعمه عليهم بقوله «واذكروا» الآية ذكر لنبيه نعمه عليه بما جرى عليه بمكة من قومه بقوله ﴿ وَ ﴾ اذكر يا محمد ﴿ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من قريش وقد اجتمعوا للمشاورة فى شأنك بدار الندوة ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ بالحبس والوثاق فى بيت ، كما أشار عليهم أبو البختري منهم ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ ﴾ كلهم قتل رجل واحد ، كما أشار عليهم أبو جهل ﴿ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ من مكة هائماً على وجهك ، كما أشار عليهم هشام بن عمرو العامرى ﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾ بك ﴿ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ﴾ بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج فآواك إلى المدينة وأيدك بنصره ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ أعلمهم به ، وإطلاقه عليه على سبيل المشاكلة ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ القرآن ﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا ﴾ قاله أبو جهل كما فى البخارى ، أو نضر بن الحارث الذى أسر ببدر فأمر رسول الله الزبير فضرب عنقه ، وكان قبل يأتى الحيرة يتجر فيشترى كتب أخبار الأعاجم كرستم واسفنديار ، ويحدث بها أهل مكة ، ويزعم أنه أحسن قصصاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ نقلت إليه ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا ﴾ الذى يقرأه محمد ﴿ هُوَ الْحَقَّ ﴾ المنزل ﴿ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ معدة للعذاب كما أنزلتها على قوم لوط وأصحاب الفيل ﴿ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم على إنكاره ، قاله أبو جهل كما فى الصحيحين . أو نضر بن الحارث استهزاء وإيهاماً أنه على بصيرة وجزم ببطلانه ، وفائدة ذكر السماء - وإن علم أن الأمطار لا تكون إلا منها - المبالغة فى العذاب لأنها تكون أشد فى التأثير إذا سقطت من أعلى الأماكن ، وهذا من عنادهم وتمردهم . روى أن معاوية قال لرجل من أهل اليمن من أقل عقلا من قوم ولوا عليهم لمرأة يريد بلقيس ، فقال أقل عقل منهم قوم قالوا « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » ثم بين ما أوجب إمهالهم فى ذلك الوقت بقوله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ بما سألوه ﴿ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ فى ذلك الوقت لأن العذاب إذا نزل عمّ ، ولم تعذب أمة إلا بعد خروج نبيها والمؤمنين منها يعنى موجب العذاب تكامل فيهم وسبب التأخير وجودك بين أظهرهم ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ حيث يتولون فى طوافهم غفرانك غفرانك ، أو المعنى لو كانوا يستغفرون ما عذبهم ، وقيل

هم المؤمنون المستضعفون فيهم كما قال تعالى «لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما» وقيل «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» إلى آخره: من حكاية قول المشركين لا يعذبنا الله ونحن نستغفره. والذي يزعم أنه رسوله فينا، فردهم الله بقوله ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ بالسيف بعد خروجك وللمستضعفين، أو وإن كنت فيهم واستغفروا وقد عذبهم ببدر وغيره ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يمنعون النبي والمسلمين ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أن يطوفوا به، وفيه إشارة إلى أنه من أعظم جناياتهم، لأنهم كانوا يعترفون بأنه لا يحل منع أحد من زيارة بيت الله ومع ذلك ارتكبوه ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ كما زعموا ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ من الشرك والمشرك نجس لا يصلح لولاية بيت الله أو المتقون هم أولياء الله لا غيرهم فالضمير ان حينئذ لله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن لا ولاية لهم عليه ولا من الله، ثم بين عدم استحقاقهم ولاية البيت بقوله ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ أي دعاؤهم ﴿عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً﴾ صفيرا ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقا بأن يضرب بإحدى يديه على الأخرى فيخرج بينهما صوت، أو المعنى جعلوا ذلك مكان صلاتهم التي أمروا بها. قال ابن عطية: المكاء والتصدية كان من فعل العرب قبل الإسلام على جهة التقرب به والتشرع فغيروا بأن شرعهم وصلاتهم لم تكن رهبة ولا رغبة وإنما كانت مكاء وتصدية من نوع اللعب ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ بالقتل والأسر، قيل لهم ذلك ببدر، أو يقال لهم في الآخرة ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب استمراركم على الكفر ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ في حرب النبي صلى الله عليه وسلم كالمطعمين منهم لما خرجوا لتلقي العير، وكانوا اثني عشر رجلا يطعم كل عشر جزر على النوبة، وكأبي سفيان لما جمع الأحابيش في وقعة أحد ﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ﴾ في عاقبة الأمر ﴿حَسْرَةً﴾ ندامة لفواتها وفوات ما قصدوه ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في الدنيا لأن العاقبة للمتقين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ منهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿يُحْشَرُونَ﴾ يساقون ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلق بتكون أو يحشرون أو يغلبون، وهو بالتخفيف للجمهور، والتشديد لحمزة والكسائي: ليفصل ﴿اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ الكافر ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ المؤمن أو ما أنفق الكافر مما أنفق المؤمن بالخسارة والربح ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ يجمعه متراكما بعضه فوق بعض لفرط ازدحامهم، أو يضم إلى الكافر ما أنفقه ليزاد به عذابه ﴿فَيَجْعَلَهُ﴾ كله ﴿فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ كل الخسران لأنهم خسروا أنفسهم وأموالهم ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في شأنهم وحقهم ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن الكفر وقتال النبي ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ﴾ سلف أي ذنب كان فإن الإسلام يجب ما قبله على عمومه في الحربي لأنه لم يلتزم شيئا من الأحكام، وأما الذمي فيسقط عنه ما عدا حقوق العباد ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ استمروا على الكفر أو عادوا إلى القتال ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي سنتنا فيهم بالإهلاك فكذلك نفعل بهم ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ إن لم ينتهوا ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حتى لا يوجد شرك وضلال ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ لا يكون لغيره فيه نصيب، لكونه المستحق دون غيره ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ أيضا عن الكفر ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيهم به ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن

الإيمان ، أو عن هذا النصح والبشارة بمغفرة ما قد سلف ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ناصركم دائم النصر لكم ومتولى جميع أموركم ﴿ نِعْمَ الْمَوْلَى ﴾ هو ﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ الناصر لكم الذى لايغلب ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ ﴾ أخذتم من الكفار قهرا ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ جليل وحقير حتى الخيط والمخيط ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ يأمر فيه بما يشاء وهو قسمه على الخمسة المعطوفين ، والآية نزلت فى غنائم بدر بعد مادة أمرها إلى رسوله ففصل ذلك المجمل وقنن قانونا يمشى عليه مدى الدهر « فأن لله خمسه » خبر الموصول فى أنما ، والجملة قائمة مقام مفعولى العلم ﴿ وَلِلرَّسُولِ ﴾ جميع الخمس يصرفه فى مصالح المسلمين وبعده لحكم الخمس إلى الإمام يصرفه باجتهاده فى كفايته ومصالح المسلمين ، ومصالح الرضخ والنفل والسلب هذا مذهب مالك ، وحصر الخمس أبو حنيفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم فى اليتامى والمساكين وابن السبيل وسهم ذوى القربى ساقط عنده ، وعند مالك إن لم يكونوا فقراء . وقال الشافعى وأحمد يُخَمَّسُ الخمس فيستحقه النبي والأصناف الأربعة على ما كان يقسمه من أن لكل خمس الخمس . والأخماس الأربعة الباقية للغانمين ، وهذا محل إجماع ، كما قال ابن العربى يقسمها الأمير عليهم فى دار الحرب بأعيانها أو بأثمانها ، للراجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم سهم له وللفرس اثنان ، وسهم الأمير كغيره ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ قرابة النبي من بنى هاشم والمطلب إن كانوا فقراء على قول مالك وأبى حنيفة كما تقدم ﴿ وَالْيَتَامَى ﴾ أطفال المسلمين الذين هلكت آباؤهم وهم فقراء ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ ذوى الحاجة من المسلمين ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ المنقطع فى سفره من المسلمين ، وظاهر الآية العموم فى المنقول وغيره ، لكن قال مالك فى الأرض يقسمها الإمام إن رأى ذلك صوابا ، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر ، أو يتركها حبسا لمصالح المسلمين إن أداه إليه الاجتهاد ، كما فعل عمر بن الخطاب فى أرض مصر والشام والعراق وهو مشهور مذهب مالك . ومحل استيفاء أحكام الغنيمة كتب الفقه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ فاعلموا ذلك واعملوا به ﴿ وَمَا ﴾ عطف على « بالله » ﴿ أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ محمد من الآيات والإمداد بالملائكة أو النصر الذى أنزله ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ أى يوم بدر الفارق بين الحق والباطل أو ما أنزل عليه فيه من أمر الغنيمة بتفويضها إليه ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ المسلمون والكفار بدل منه للتوضيح والبيان ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه نصركم مع قلتكم وكثرتهم ﴿ إِذْ ﴾ بدل من يوم ﴿ أَنْتُمْ ﴾ كائنون ﴿ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ القربى من المدينة بينهما نحو ثلاث ليال ، وهى بضم العين للجمهور وكسرها لابن كثير وأبى عمرو : شفير الوادى ، وقرئ بفتحها ﴿ وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ البعدى منها ﴿ وَالرَّكْبُ ﴾ العير كائنون بمكان ﴿ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ مما يلى البحر وإنما يطلق الركب على أصحاب الإبل فى السفر إذا كانوا فوق العشرة ، وأسفل منصوب على الظرف واقع موقع الخبر ، والجملة حال من الظرف قبله ، وفائدتها الدلالة على قوة العدو باستظهارهم بالركب لأنه قريب منهم فى ذلك الوقت ولذا ذكر مراكز الفريقين ، فإن العدوة الدنيا رخوة تسوخ فيها الأرجل ولا تمشى فيها إلا بتعب ولم يكن فيها ماء بخلاف

القصوى فى الجميع ، ليعلم أن النصر لم يكن إلا من الله لا بأسباب منهم ، فتجب عليهم المبادرة فى امتثال أوامره التى منها إيصال الخمس إلى مصارفه ، ليكون وصلة فى الانتصار فى سائر الوقائع ، ويكون لطفا بالسامعين إذا تليت عليهم إلى آخر الدهر ، ولذا أتبعه بقوله ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ ﴾ أنتم ، والنفير القتال ﴿ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴾ إذا نظرتم حالكم وحالهم أول الأمر ﴿ وَلَٰكِن ﴾ جمعكم بغير ميعاد ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ فى علمه وهو نصر الإسلام ومحق الكفر على وجه يتحققون به أن الفتح ليس إلا صنعا لله خارقا للعادة فيزدادون إيمانا وشكرا ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ بدل من ليقضى ، أو متعلق بمفعولا أى يموت من يموت أو يكفر من يكفر بعد حجة ظاهرة وهى نصر المؤمنين مع قلتهم ﴿ وَيَحْيَىٰ ﴾ يعيش أو يؤمن ﴿ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ فلا معذرة لأحد بعد بدر ولا حجة ، وحيّ بالفك لنافع وابن كثير فى رواية البزى وأبى بكر وبالإدغام للباقين ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ بأقوالكم ونياتكم ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ مقدرا باذكر أو بدل ثان من يوم الفرقان ، أو متعلق بعليم ، وقليلا نصب على الحال من المفعول فأخبرت به أصحابك تشجيعا لهم فسروا بذلك ﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ ﴾ جبنتم ﴿ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ أمر القتال وتفرقت آراؤكم بين الإقدام والإحجام ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾ من الفشل والتنازع ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بمضمراتها كانت أو ستكون يعلم ما يغير أحوالها . ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ ﴾ أيها المؤمنون رؤية عين ﴿ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾ نحو سبعين أو مائة لتقدموا عليهم وليطابق لما أخبركم به رسول الله فى رؤياه فكان تأويله انهزامهم ، والضميران فى يريكوهم مفعولا أرى لأنها بصرية لاتقتضى ثالثا ، وقليلا نصب على الحال ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ حتى قال أبو جهل منهم : إن محمدا وأصحابه أكلة جزور ، ودأبهم أن الجزور طعمة مائة ، وكل هذا قبل التحام الحرب ، فلما التحم أراهم إياهم مثليهم كما فى آل عمران ، وكل هذا من عظائم آيات تلك الواقعة ، فإن البصر وإن كان يرى الكثير قليلا والقليل كثيرا لكن لا إلى هذا الحد ، وبتصور ذلك بصد الله الأبصار عن إبصار بعض دون بعض مع التساوى فى الشروط ﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ كرره لاختلاف الفعل المعلل ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فيصدرها كيف شاء ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ جماعة كفار أو بغاة لقوله فقاتلوا التى تبغى أو قطاع طريق لقوله يحاربون الله ورسوله ، واللقاء اشتهر فى القتال ﴿ فَاثْبُتُوا ﴾ لقتالهم بأن توطنوا أنفسكم على قتالهم وعدم التولى ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ عند ذلك بقلوبكم وألسنتكم ومنه الدعاء بالنصر ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تظفرون بالنصر . روى البخارى عنه صلى الله عليه وسلم « لاتتمنوا لقاء العدو فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » وكان يقول عند لقاء العدو « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم » ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى الجهاد والثبات عند اللقاء ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا ﴾ باختلاف الآراء ﴿ فَتَفْشَلُوا ﴾ تجبنوا ﴿ وَتَذْهَبَ ﴾ عنكم ﴿ رِيحُكُمْ ﴾ قوتكم ودولتكم

لأنها فى النفوذ كالريح فى المهبوب فاستعيرت لها ، وقيل ريحكم حقيقة لأن عادة الله جرت بالريح عند النصر وفى الحديث « نصرت بالصبا » وعن نعمان بن مقرن شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر ، أخرجه أبو داود ﴿وَٱصْبِرُوا﴾ عند لقاء العدو ، وكرره ليقيده بقوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ بالحفظ والنصر ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ ﴾ كفار قريش ليمنعوا عيرهم ولم يرجعوا بعد نجاتها ﴿ بَطَرًا ﴾ لطرا ، مصدر فى موضع الحال بالتأويل أو بتقدير الفعل ، ومعناها مقابلة النعمة بالكفران تكبرا ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ بإظهار الجبل ليراه الناس مع إبطان القبيح ، والفرق بينه وبين النفاق أن النفاق إظهار الإيمان مع إبطان الكفر ، والرياء إظهار الطاعة مع إبطان المعصية أى يراءون الناس بالشجاعة والسماحة ، وذلك أنهم لما بلغوا الجحفة وافاهم رسول أبى سفيان أن ارجعوا فقد سلمت عيركم ، فقال أبو جهل لا والله حتى نقدم بدرا ونشرب بها الخمور وننحر الجزور وتعزف علينا القيان ونطعم من حضرنا من العرب فوافوها فسقوا المنايا وناحت عليهم النوائح ، فنهى المؤمنون أن يكونوا أمثالهم بأن يكونوا أهل تقوى وإخلاص إذ نهى الشىء أمر بضده ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ عطف على بطرا وجعل فعلا لإفادة الحدوث بخلاف البطر فإنه أمر مستمر بهم ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ علما فيجازى عليه ﴿ وَ ﴾ اذكروا أيضا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم ﴿ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ﴾ للكفار ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ إبليس ﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ فى معاداة النبى وغيرها بأن شجعهم على لقاء المسلمين لما خافوا الخروج إلى العير لما بينهم وبين بنى بكر بن كنانة ﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ لأنكم على الحق وملة إبراهيم ﴿ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾ مؤمنكم ومجير لكم من كنانة وكان أتاهم فى صورة سراقة بن مالك سيد كنانة مع جنوده ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ﴾ التقت ﴿ ٱلْفِئَتَانِ ﴾ المسلمة والكافرة رأى الملائكة وكانت يده فى يد الحارث بن هشام أخى أبى جهل ﴿ نَكَصَ ﴾ رجع ﴿ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ هاربا ﴿ وَقَالَ ﴾ لهم لما قالوا له أتخذلنا يا سراقة على هذه الحالة ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ﴾ من جواركم ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ من الملائكة ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أن يهلكنى اليوم بأن يكون الوقت الموعود ﴿ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ من كلامه تعالى أى يحق لإبليس أن يفر من خوف عقابه ، ويجوز أن يكون من تتمة كلام إبليس إظهارا للعذرة ، ولما قدموا مكة قالوا هزم الناس سراقة فسمع ذلك فقال والله ماشعرت بمسيركم حتى بلغنى هزيمتكم فقالوا أما أتيتنا فى يوم كذا وكذا فحلف لهم وصدقه قومه فلما أسلموا علموا أن ذلك شيطان ويحتمل أن يكون ذلك التزيين بالوسوسة ولما لم ينفعهم أتباعه شبه بالرجوع القهقرى وهذا مروى عن الحسين والله أعلم ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ والمؤمنون ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعف اعتقاد وقيل هم المشركون أو المنافقون والعطف لتغاير الوصفين ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ المسلمين ﴿دِينُهُمْ﴾ إذ خرجوا مع قلتهم يقاتلون الجم الكثير توهما أنهم ينصرون بسبب دينهم ؛ قال تعالى فى جوابهم ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى

أَللَّهِ ﴾ يثق به ويفوّض إليه أمره ويقطع النظر عن الأسباب يغلب ﴿ فَإِنَّ أَللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غالب لا يذل من استجار به وإن قل ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل بحكمته البالغة ما يستبعده الرأى ويعجز عن إدراكه ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ أى لو رأيت يا محمد حال الكفار ﴿ إِذْ ﴾ ظرف ترى ﴿ يَتَوَفَّى ﴾ بالياء الجمهور والتاء لابن عامر ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فاعل يتوفى أو الفاعل ضمير الله والملائكة مبتدأ خبره ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ حال على الأول ﴿ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ بمقامع من حديد ﴿ وَ ﴾ يقولون لهم ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ بشارة لهم بعذاب الآخرة، وقيل كانت معهم مقامع من حديد كلما ضربوا التهبت النار منها، وجواب « لو » محذوف لتهويل الأمر أى لرأيت أمراً عظيما ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ التعذيب ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصى: من كلام الملائكة، أو من كلام الله ﴿ وَأَنَّ أَللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ ﴾ بذى ظلم ﴿ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فيعذبهم بغير ذنب، أى عذابهم بسبب أمرين: بكفرهم وبأن الله لا يعذب أحداً بغير ذنب. دأب هؤلاء ﴿ كَدَأْبِ ﴾ كعادة ﴿ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى كعملهم الذى دأبوا أى داموا عليه ﴿ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ أَللَّهِ ﴾ تفسير لدأبهم ﴿ فَأَخَذَهُمُ أَللَّهُ ﴾ بالعقاب ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ كما أخذ هؤلاء ﴿ إِنَّ أَللَّهَ قَوِىٌّ ﴾ لا يقاومه أحد ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ لا يغلبه فى دفعه شىء ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ تعذيب الكفرة ﴿ بِأَنَّ ﴾ بسبب أن ﴿ أَللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ أى لم يزلها عنهم ولا يبدلها بالنقمة ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ يبدلوا نعمتهم كفراً - كتبديل كفار مكة إطعامهم من جوع وأمنهم من خوف وبعث النبى إليهم، بالكفر والصد عن سبيل الله وقتال المؤمنين ﴿ وَأَنَّ أَللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بعقائدهم: تعليل لما حل بهم من العذاب ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ قومه معه، كرر للتأكيد والدلالة على كفران النعم بقوله « بآيات ربهم » وبيان ما أخذ به آل فرعون، وقيل الأول للتشبيه فى الكفر والأخذ، والثانى للتشبيه فى تغيير النعم بسبب تغيير ما بأنفسهم ﴿ وَكُلٌّ ﴾ من الفرق المكذبة ﴿ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصى ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ أَللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أصروا على الكفر ورسخوا فيه ﴿ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لا يتوقع منهم إيمان لطبعهم على الكفر، والفاء للعطف وتسبب ما قبلها ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ بدل بعض من الذين كفروا ﴿ عَٰهَدتَّ ﴾ أى أخذت العهد ﴿ مِنْهُمْ ﴾ أن لا يعينوا المشركين عليك ﴿ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ ﴾ عاهدتهم فيها ﴿ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ الله فى غدرهم، وهم بنو قريظة وبنو النضير بإجماع المتأولين، عاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم ألا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدواً، فأعانوا مشركى مكة بإرسال السلاح إليهم، فسمعه رسول الله، فسألهم فقالوا أخطأنا. فعاهدهم الثانية فأرسلوا كعب بن الأشرف إلى مكة ليعقد لهم الحلف معهم، فعلم برسول الله بذلك فأرسل إليهم محمد بن مسلمة فى نفر فقتلوه، وأنذر اليهود، ثم أراد بنو النضير غدره بما تقدم فنقضوا فأجلاهم وأغضى عن بنى قريظة، حتى كان يوم الخندق غزوة الأحزاب نقضوا العهد وحاربوا رسول الله فقتلهم

وأسرهم كما يأتى ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ ﴾ تأخذنهم أو تظفر بهم ﴿ فِي الْحَرْبِ ﴾ من ثقفه كسمعه أخذه أو ظفر به أو أدركه . أنظر القاموس ﴿ فَشَرِّدْ ﴾ فرق ﴿ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ ﴾ من المحاربين أى نكل بهم نكالا يكون سبباً لتفرق الآخرين الذين لم يحضروا معهم حتى لا يناصبك أحد ، من شرد الجمل : ذهب ، والتشريد التفريق ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ أى مَن خلفهم ﴿ يَذَّكَّرُونَ ﴾ يتعظون بهم ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ ﴾ عاهدوك مؤلاء وغيرهم إلى آخر الدهر ﴿ خِيَانَةً ﴾ فى العهد بأمارة تلوح لك ولم يظهر ما يوجب النقض ﴿ فَانْبِذْ ﴾ عهدهم ﴿ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أى مستوياً أنت وهم فى العلم بنقض العهد بأن تعلمهم به لئلا يتهموك بالغدر ، وهو حال من النابذ والمنبوذ إليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ فى نقض العهد وغيره . وفى الآية دليل على أنه إذا ظهر نقض العهد ممن عاهدتهم الإمام من المشركين بأمارات يجب عليه أن ينبذه على سواء بأن يعلمهم الحرب ، وأما إن ظهر ظهوراً مقطوعاً به فلا حاجة للإمام إلى نبذ العهد ، بل يفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مكة لما نقضوا العهد : بقتل خزاعة ، وهم فى ذمة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يزعهم إلا جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران ، وذلك على أربع فراسخ من مكة . ونزل فيمن أفلت يوم بدر ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ بالخطاب للنبى للجمهور ، وبالغيبة لابن عامر وحمزة وحفص ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ الله أى فاتوه ، وعلى الثانية فالمفعول الثانى محذوف أى أنفسهم ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ بالكسر للجمهور والفتح لابن عامر على تقدير اللام ، وهو تأكيد لعدم سبقهم ﴿ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ لا يفوتون الله بل ينتقم منهم ، إما فى الدنيا بالقتل ، وإما فى الآخرة بالنار . وفيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فيمن فاتهم من المشركين ، وتهديد للمشركين بأنهم لا يعجزون ﴿ وَأَعِدُّوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ لَهُمْ ﴾ لقتال الكفار الناقضين للعهد وغيرهم ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ هى الرمى كما فى حديث مسلم ، والإعداد اتخاذ الشىء لوقت الحاجة إليه ، والقوة تعم أنواع الأسلحة والحصون والمعاقل ، وإنما خصها النبى صلى الله عليه وسلم بالرمى لأنه أقواها ، ولأن أكثر حرب العرب كان بالرماح والسيوف فحثهم على تعاطى الرمى فهو كقوله «الحج عرفة» وفى البخارى قال عليه السلام يوم بدر « إذا أكثبوكم - قاربوكم - فارموهم » وفى مسلم عنه « ستفتح عليكم الروم ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه » وفيه عن عقبة بن عامر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا لقد عصى » وفى أبى داود عن عقبة أيضاً سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه يحتسب فى عمله الخير ، والرامى به ، ومنبله ، فارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلىّ من أن تركبوا كل لهو باطل إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه - أى نبله - فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها » وفى البخارى عن سلمة بن الأكوع قال : مرّ النبى صلى الله عليه وسلم على نفر من أسلم ينتضلون فقال « ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا وأنا مع

بنى فلان » فأمسك أحد الفريقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم « مالكم لا ترمون ؟ » فقالوا : كيف نرمى وأنت معهم فقال «ارموا وأنا معكم كلكم» ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ فعال بمعنى مفعول اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله ، أو مصدر سمى به ، أو حبسها فى سبيل الله ، أو جمع ربيط كفصيل وفصال ، وعطفها على القوة من عطف الخاص على العام لفضلها ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ﴾ بما استطعتم أو بالإعداد ﴿عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ كفار مكة ، وهو استئناف تعليلا للأمر ، أو جملة حالية . وقرأ يعقوب ترهبون بالتشديد ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ فى العداوة فارس والروم ، أو غيرهم وهم المنافقون واليهود ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ بأعيانهم ، أو لأنهم يقولون لا إله إلا الله بألسنتهم ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ من أجره شيئاً ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ مالوا ﴿لِلسَّلْمِ﴾ بفتح السين للجمهور والكسر لأبى بكر : الصلح والاستسلام ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ واقبل منهم المهادنة إذا كانت فيها مصلحة ظاهرة للمسلمين فى ذلك الوقت ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثق به ولا تخف من إبطانهم خداعا فيها وطلباً لغرة المؤمنين ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأفعالهم وضمائرهم ، فإن يكن قصدهم المكر فإن مكر الله فوق مكرهم . والآية محكمة لأنها نزلت فى الحديبية لما صد المشركون رسول الله عن البيت ، وآية السيف لا تدل على الوجوب بل الإذن فى القتال بعد حرمته ، وليست مخصوصة بأهل الكتاب لاتصالها بقصتهم كما ظن ، لما تقدم أن قوله «ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا» نزل فيمن أفلت يوم بدر ، قاله فى غاية الأمانى . قلت : وما قاله هو الصواب ، لأن النسخ لا يثبت إلا بنص صريح عن الشارع ولم يثبت ، والتخصيص خلاف الأصل والجمع ممكن والله أعلم ، وتأنيث ضمير السلم فى « لها » لأنه بمعنى المسالمة والمهادنة ، أو لحملها على نقيضها . قال الشاعر : السِّلْمُ تَأْخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيتَ بِهِ ... وَالْحَرْبُ يَكْفِيكَ مِنْ أَنْفَاسِهَا جُرَعُ

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بالصلح ليستعدوا لك أو ليغدروك ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ﴾ كافيك ﴿اللَّهُ﴾ فلا تحتاج معه إلى تدبير آخر . وهذا تصريح بما أشار إليه بقوله «وتوكل على الله» ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ يوم بدر وفى سائر الأيام ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الأنصار على ما تظاهرت به أقوال المفسرين . قال ابن عطية : ولو ذهب ذاهب إلى عمومه فى المهاجرين والأنصار وجعل التأليف ما كان بين جميعهم من التحابى لساغ ذلك ﴿وَأَلَّفَ﴾ جمع ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى صاروا كنفس واحدة بالتوادد بعد الإحن والضغائن والعصبية التى طبعوا عليها والتهالك على الانتقام فى أدنى شىء لا يكاد يأتلف فيهم قلبان ، وهو من معجزاته صلى الله عليه وسلم ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فى إصلاح ذات بينهم ﴿مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لتمكن العداوة فيهم دهراً طويلا وكثرة الدماء والثارات ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته البالغة ، لأنه المالك للقلوب يقلبها كيف شاء ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ تام الغلبة لا يستعصى عليه ما يريده ﴿حَكِيمٌ﴾ متقن فى صنعه حيث جعلهم بعد التفرق يداً واحدة على نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله . قال ابن عطية : سبب الألفة التشابه

فمن كان من أهل الخير ألف أشباهه وألفوه . وفى الموطأ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يقول الله يوم القيامة أين المتحابون لجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى» ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ﴾ كافيك ﴿ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إما فى محل نصب على المفعول معه ، أو الجر عطفاً على الكاف ، أو الرفع عطفاً على اسم الله ، نزلت فى أصحاب بدر ، وقيل أسلم ثلاثة وثلاثون رجلا وستة نسوة ثم أسلم عمر بن الخطاب فنزلت ، وعليه فهى مكية ، والظاهر أن المراد جميع المهاجرين والأنصار ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ ﴾ حث ﴿ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ للكفار الذى هو سبب إعلاء كلمة الله . والحرض : شدة المرض . والتحريض فى الأصل : إزالة الحرض ، والمراد المبالغة فى الحث بالتزيين والتسهيل ﴿ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ﴾ رجلا ﴿صَابِرُونَ ﴾ على اللقاء ﴿ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ منهم ﴿ وَإِنْ تَكُنْ ﴾ بالتاء لنافع وابن كثير وابن عامر والياء للباقين ﴿ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ لجهلهم بالله واليوم الآخر لايثبتون ثبات المؤمنين ، والشرط خبر بمعنى الأمر بمصابرة الواحد للعشرة ، والوعد بأنهم إن صبروا غلبوا بعون الله وتأييده ، ثم نسخ لما كثروا بقوله ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ بالضم للجمهور والفتح لعاصم وحمزة : عن قتال عشرة أمثالكم ﴿ فَإِنْ تَكُنْ ﴾ بالتاء للجمهور والياء للكوفيين ﴿ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ منهم ﴿ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته ، وهو خبر أيضاً بمعنى الأمر ، أى لتقاتلوا مثليكم ، وتثبتوا لهم ، قال ابن شبرمة : وأرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل ذلك ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ بعونه . روى أن خالد بن الوليد قتل فى بعض الحروب مع الروم يوماً ألف بطل مبارزة ، ثم تقدم إليه بطريق منهم ، فقال له ياهذا هل أخبرك نبيكم أنك لا تموت : فقال أخبرنى أن كل نفس ذائقة الموت ، وأخبرنى بما أعد الله لمن يقتل فى سبيل الله من النعيم ، وكان غدائى اليوم خبز الشعير المبتل بالماء ، فأنا أستعجل الموت للفوز بالنعيم ، فأسلم البطريق مكانه . ونزل لما أسروا الكفار يوم بدر ، وقد أمروا بالقتل ، أو لما أخذوا الفداء منهم : ﴿مَا كَانَ ﴾ ما ينبغى ﴿ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ ﴾ بالياء للجمهور ، والتاء لأبى عمرو ﴿أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ﴾ يبالغ ويكثر فى قتل الكفار ﴿فِى الْأَرْضِ﴾ حتى يذل الكفر ويقل حزبه ، ويعز الإسلام ويستولى أهله : أصله من الثخانة الغلظ المناسب للكثرة ، وذكر الأرض للإشارة إلى أنه لا ينبغى أن يقعد حتى يأتيه العدو بل يمشى فى مناكب الأرض لإعلاء كلمة الله ، وقد غزا عليه السلام فى عشر سنين بنفسه سبعاً وعشرين غزوة وبعث نيفاً وخمسين سرية وقال «لولا أن أشق على أمتى ماقعدت خلف سرية» ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون بأسر الكفار ، أو بأخذ الفداء منهم ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ متاعها الذى لادوام له ، بل يعرض ثم يزول عن قريب ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ ﴾ لكم ﴿ الْآخِرَةَ ﴾ ثوابها : بقتلهم وترك الأسر بعد الهزيمة ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ لايحتاج إلى معاون وإنما يأمركم بالجهاد لتنالوا ثوابه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى كل ما يأمر به . ولا نسخ فى الآية بقوله « فإما منًّا بعد وإما فداء »

لاتفاقهما على أنه لابد من تقديم الإثخان ثم بعده أخذ الفداء، قاله الإمام فخر الدين. روى أنه عليه السلام أتى يوم بدر بسبعين أسيراً، فاستشار فيهم، فقال أبو بكر: إخواننا أمس استبقهم، لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية، تقوى بها أصحابك، وقال عمر بن الخطاب اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر، وإن الله أغناك عن الفداء، فمال أكثر الصحابة إلى رأى أبى بكر فأخذوا الفداء: لكل أسير أربعون أوقية، والأوقية أربعون درهما، ثم وجد عمر النبي وأبا بكر يبكيان، فسأل عن ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم «أبكى على أصحابك فى أخذهم الفداء، ولقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» لشجرة قريبة، لكن ليس فى الآية وجميع ماروى قدح فى عصمة الأنبياء بتقرير النبي صلى الله عليه وسلم على الأسر، ولم يمنعه إذ هو مشروع له وحلال بعد الإثخان، وقد حصل بقتل سبعين منهم، وليس من شرطه قتل جميع الكفار، ولا بأخذ الفداء، لأنه كان حلالا له كالغنيمة قبل بدر، فى أمر سرية ابن جحش، وتقدم. والعتاب فى قوله تعالى «تريدون عرض الدنيا» فى المبادرة إلى الأسر أو الفداء، وتركه فى ذلك الوقت أولى، وبكاء النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر إنما كان شفقة على الصحابة، فيما سينالهم بإيثار المال من قتل يقع فيهم، والله أعلم. قال ابن عطية: هذه الآية تتضمن معاتبة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على استبقاء الرجال وقت الهزيمة رغبة فى أخذ المال. اهـ ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أى حكم منه ﴿سَبَقَ﴾ بإحلال الغنائم ومنها الفداء وإحلال الأسر ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ من الفداء ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لميلكم إلى الدنيا وترك جانب الآخرة، قال صلى الله عليه وسلم: لو نزل العذاب لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ، لأنهما أشارا بالإثخان ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ ومن جملته الفداء، والفاء داخل على المسبب، أى أبحت لكم الفداء، فكلوا ﴿حَلَالًا﴾ لا عقاب معه، حال من المجرور، أوصفة مصيو، ﴿طَيِّبًا﴾ لاعتاب معه، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فى مخالفته، والإقدام على مالم يأذن ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ مافرط ﴿رَحِيمٌ﴾ ولذا أحل لكم الغنائم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ ولأبى عمرو من الأسارى: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيماناً وإخلاصا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من الفداء نزلت فى العباس ابن عبد المطلب وغيره، لما أسروا ببدر ففادى نفسه وابنى أخويه عقيل بن أبى طالب، ونوفل بن الحارث، فأسلم وأسلما، وقالوا لنصحن لك على قومنا، قال العباس: فأبدلنى الله خيراً من ذلك، لى الآن عشرون عبداً أدناهم ليضرب فى عشرين ألفاً، وأعطانى زمزم، ما أحب أن لى بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربى، يعنى الموعود بقوله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ أى الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بما أظهروا من الإسلام ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ قبل بدر، بالكفر والخروج لقتالك، ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ ببدر، قتلا وأسراً، فليتوقعوا مثل ذلك إن عادوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالضمائر ﴿حَكِيمٌ﴾ يجازى كلاً بنيته، ثم أشار إلى أحكام فى المهاجرين والأنصار، بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا

وَهَاجَرُوا ﴾ ديارهم وقومهم فى الله ، ﴿ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ﴾ بصرفها فى السلاح والكراع ، وإعانة الغزاة ﴿ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ بمباشرة القتال : وهم المهاجرون الأولون ﴿ وَٱلَّذِينَ آوَوْا ﴾ النبى والمهاجرين إلى ديارهم ﴿ وَنَصَرُوا ﴾ هم على أعدائهم ، وهم الأنصار ، ﴿ أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فى النصرة أو والإرث ، وكانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة دون الأقارب ، حتى نسخ بقوله « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض » وإن كان المراد بالولاية النصرة فقط ، فلا نسخ ، وهو أولى ، وعليه أكثر المفسرين ، أى المؤمنون أولياء بعضهم فى النصر دون أقرباتهم من الكفار ، وعلى التأويلين ، فى الآية حض على الهجرة ، ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم ﴾ بفتح الواو الجمهور وبكسرها لحمزة ﴿ مِّن شَىْءٍ ﴾ من الميراث ﴿ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾ وهذا منسوخ بآخر السورة ، إن أريد بالولاية الإرث ، وفيه ما تقدم ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ ﴾ أى طلب المؤمنون الذين لم يهاجروا منكم النصر ﴿ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على الكفار ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ﴾ عهد ، فلا تنصروهم عليهم ، وتنقضوا عهدهم ، لأنه غدر وخيانة ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لاتخفى عليه خافية ، وهؤلاء الذين لم يهاجروا هم المستضعفون ، وعن حذيفة بن اليمان : خرجت أنا وأبى والمشركون متوجهين إلى بدر ، فقالوا تريدون محمداً ؟ قلنا : ما نريد إلا المدينة ، فأخذوا علينا ألا نذهب إليه ، فلما جئنا رسول الله ذكرنا له ذلك . فقال لنا : اذهبوا إلى المدينة إيفاء لعهدهم ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ فى النصرة والإرث ، فلا إرث بينكم وبينهم ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ أى ما أمرتم من تولى المؤمنين ، وقطع الكفار ﴿ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ بقوة الكفر ﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ بضعف الإسلام ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وهم الأولون منهم ، وهم أصل الإسلام ، ولذا لما قسم المسلمين ثلاثة أقسام ميزهم بالسبق فى الهجرة ، وتبوئ الدار ، وصرف الأموال وبذل الأنفس فى نصرة الدين ، وإعلاء كلمة الله ، فكمل إيمانهم ، ظاهراً وباطناً . قال ابن العربى فى الأحكام : وإذا كان الإيمان فى القلب حقاً ، ظهر ذلك فى استقامة الأعمال بامتثال الأمر واجتناب المنهى عنه . وإذا كان مجازاً قصرت الجوارح فى الأعمال إذ لم تبلغ قوته إليها . اه ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ كاملة ساترة لجميع ذنوبهم ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ لا تبعة به ولا منة فيه ، فكل شىء شرف وعظم فى بابه قيل له كريم ، والآية الأولى بيان لحكم ولاية المهاجرين والأنصار بعضهم بعضاً ، والثانية لمدحهم بقوله « هم المؤمنون » بلفظ يفيد الحصر ، وتأكيده بقوله حقاً ، المفيد بلوغهم حقيقة الإيمان ، وإخبار بما أعده لهم من مغفرة ورزق كريم ، وناهيك مافى تنكيرهما من المبالغة ﴿ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ ﴾ بعد السابقين إلى الإيمان والهجرة ﴿ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ﴾ معدودون أيها المهاجرون الأولون والأنصار فى الموالاة والإرث ، ولكن لكم المزية

وفى قوله « معكم » إعلام بأنهم تبع لا صدر ، وفى قوله « منكم » تسلية للمتخلف ، وترغيب للسابق فى رعاية جانبه ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ ﴾ ذوو القرابات ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾ فى الإرث من الأجانب ، قال ابن العربى : أولو الأرحام عام فى كل قريب ، لكن بيّنه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقى فهى لأولى عصبة ذكر » ، واستدل بالآية أبو حنيفة على توريث ذوى الأرحام ، كالخال والعمة ﴿ فِى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ القرآن أو اللوح ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم فى جميع الأشياء ؛ فاتبعوا أحكامه . رزقنا الله العمل بها .

[تم تفسير سورة الأنفال]

سورة براءة : وهى التوبة

مدنية أو إلا الآيتين آخرها ، مائة وثلاثون أو إلا آية

ولم تكتب فيها البسملة ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأمر بذلك لأنها آخر سورة نزلت ، وعن علىّ أن البسملة أمان ، وهى نزلت لرفع الأمان بالسيف ، أو لأن الصحابة اختلفت : هل هى مع الأنفال سورة واحدة ، وهى سابعة السبع الطوال ، أو سورتان . فتركت بينهما فرجة ، ولم تكتب البسملة .

هذه ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ صدورها ﴿ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وانتهاؤها ﴿ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ عهداً مطلقاً أو دون أربعة أشهر ، أو فوقها . وأحسستم منهم نقض العهد ، وبراءة خبر مبتدإ محذوف . و« من » ابتدائية متعلقة بمحذوف كما قدرنا فى الجميع ، ويجوز أن تكون مبتدأ لتخصيصها بصفتها ، والخبر « إلى الذين » ، وإنما علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين ليسارعوا إلى نبذها ، لما علموا براءة الله عنها ، وذلك أنهم عاهدوا مشركى العرب فى الآفاق ، وكانوا ينقضون ، ولما نقضت قريش بإعانة بنى بكر على خزاعة سنة ثمان خرج إليهم النبى صلى الله عليه وسلم ففتح مكة فيها وانصرف من تبوك فى رمضان سنة تسع ، وأراد الحج ، وكره الاجتماع مع المشركين فى تلك السنة يطوفون عراة ، فأمّر أبا بكر على الحج بالناس فنزلت أوائل براءة فى شوال ، وأنفذ أبا بكر ، ثم أتبعه علىّ بن أبى طالب يقرأ على الناس بأوائل براءة ، وبأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن له عهد عند رسول الله ، فأجله أربعة أشهر يسيح فيها ، ثم لا عهد ، وألا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ﴿ فَسِيحُوا فِى الْأَرْضِ ﴾ سيروا آمنين أيها

المشركون ﴿ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ أولها شوال بدليل ما يأتى ، قاله السيوطى ، وقال ابن العربى : والصحيح أن أولها من يوم النحر إلى آخر العشر من ربيع الآخر ، فبذلك كان النداء ، وإليه كان المنتهى . اه . وذكر الطبرى أن العرب قالت يومئذ : نحن نبرأ من عهدك ، ثم لام بعضهم بعضاً ، وقالوا ما تصنعون وقد أسلمت قريش كلهم ، ولم يسح أحد منهم ، بل دخلوا فى دين الله أفواجاً ، وإنما أمهل الناكثون أربعة أشهر ، ليرجع كل منهم إلى مأمنه ، ويقطع علائقه من الديون والمعاملات التى كانت بينهم وبين المسلمين قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ ﴾ فائتى عذابه وإن أمهلكم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِى الْكَافِرِينَ ﴾ مذلهم بالقتل والأسر فى الدنيا والعذاب السرمدى فى الآخرة ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ ﴾ أى إعلام منهما ، فعال من الإذن بمعنى الإفعال كالعطاء ، ورفعه كرفع براءة على الوجهين ﴿ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ﴾ يوم النحر ، لأن فيه تمام معظم أفعال الحج ، ولأن الإعلام كان فيه ، ولما روى أنه عليه السلام وقف يوم النحر عند الجمرات فى حجة الوداع فقال : هذا يوم الحج الأكبر ، أخرجه أبو داود وقيل يوم عرفة ووصف الحج بالأكبر ، لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ﴿ أَنَّ ﴾ أى بأن ﴿ اللَّهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وعهودهم ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ برىء أيضاً ، مبتدأ محذوف الخبر ، أو عطف على المستكن فى برىء ، ولا تكرار ، لأن قوله « براءة من الله » إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلان بذلك ، ولذا علقه بالناس ، ولم يخص بالمعاهدين قاله البيضاوى ، أو الأولى من العهد والثانية من الموالاة قاله فى اللباب . قال ويدل عليه تعدى برىء فى الأولى : بإلى . وفى الثانية : بمن ، والله أعلم ﴿ فَإِنْ تُبْتُمْ ﴾ من الكفر والغدر ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن الإيمان والوفاء ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى اللَّهِ ﴾ بل أنتم تحت قهره لاتفوتونه طلباً ، ولا تعجزونه هرباً فى الدنيا والآخرة . كرره مبالغة فى النصح وأردفه بقوله ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم فى الدنيا بالقتل والأسر ، وفى الآخرة بالنار ، على سبيل التهكم ، مبالغة فى التحذير بخلاف الأول ، اكتفى فيه بخزى الكافرين ثم استثنى من المشركين قوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى برىء من جميع عهود المشركين ، إلا من عهد الذين عاهدتم منهم ﴿ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً ﴾ من شروط العهد بالخيانة ﴿ وَلَمْ يُظَاهِرُوا ﴾ يعاونوا ﴿ عَلَيْكُمْ أَحَداً ﴾ من أعدائكم كبنى خزاعة وبنى ضمرة ، وكان قد بقى من مدتهم تسعة أشهر ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى ﴾ انقضاء ﴿ مُدَّتِهِمْ ﴾ التى عاهدتم عليها ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ بإتمام العهود ، والحاصل أن العرب فى ذلك الوقت صنفان : ذو عهد وغيره ، فذو عهد أربعة أنواع : من له عهد مطلق ، أو دون أربعة أشهر ، أو فوقها وظهر منه غدر ، فأجل الثلاثة أربعة أشهر ، ومن لم يظهر منه نقض فعهده إلى مدته ، ومن لا عهد له البتة فأجل تأمينه خمسون يوماً من يوم الأذان إلى انقضاء المحرم ، وإليه أشار بقوله ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ ﴾ أى خرج ﴿ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ ﴾ بانسلاخ المحرم ، أو المراد أشهر العهد ، سميت حرماً لحرمة نقض العهد فيها

وهى الأربعة المتقدمة ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ فى حل أو حرم ، فى شهر حرام أو غيره ﴿ وَخُذُوهُمْ ﴾ بالأسر ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ ﴾ قيدوهم أو امنعوهم من الخروج إن تحصنوا بالحصون والقلاع ؛ حتى يضطروا إلى القتل أو الإسلام ﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ على كل طريق يسلكونه ، والمرصد الموضع الذى يقعد فيه للعدو ، ونصب « كل » على نزع الخافض أو على الظرف ﴿ فَإِنْ تَابُوا ﴾ عن الكفر بالإيمان ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ تصديقاً لتوبتهم ﴿ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ ولا تتعرضوا لهم ، دعوهم يتصرفوا فى البلاد كيف شاءوا لاستواء المسلمين فى الأحكام ، وفيه دليل على أن تارك الصلاة ومانع الزكاة لا يخلى سبيله ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ تعليل للأمر ، أى خلوهم بأن الله غفور رحيم ، غفر لهم ما سلف ، ووعد لهم الثواب ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الذين لا عهد لهم عندك و « أحد » مرفوع بفعل يفسره ﴿ اسْتَجَارَكَ ﴾ استأمنك بعد انسلاخ الأشهر الحرم ﴿ فَأَجِرْهُ ﴾ آمنه ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ القرآن ، وينأمله ليكون باعثاً له على الإسلام ، وفيه دليل على أن كلامه يطلق على اللفظ كما يطلق على المعنى ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ موضع أمنه ، وهو دار قومه ، إن لم يسلم ، لينظر فى أمره ، أو وفاء بالعهد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الأمر بإجارتهم ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ دين الله ، فلابد لهم من سماع القرآن ، ليعلموا مالهم من الثواب إن آمنوا ، وما عليهم من العقاب إن أصروا على الكفر والآية محكمة ، وذلك سنة إلى يوم القيامة ﴿ كَيْفَ ﴾ أى لا ﴿ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﴾ وهم كافرون بهما ، غادرون ، استفهام إنكار ، واستبعاد ، وعهد مرفوع على أنه اسم يكون ، وخبره كيف ، وإنما قدم لمعنى الاستفهام ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ الذين تقدم استثناؤهم من أهل العهد ، من خزاعة وبنى ضمرة ، وكنانة ، الداخلين فى عهد قريش ، ولم يقع منهم نكث ، وفائدة تقييد العهد بكونه عند المسجد الحرام : زيادة الحث على الوفاء به ، لكونه واقعاً فى أشرف البقاع ، ومن قال هم قريش فقد وهم ، لأن قريشاً نقضوا العهد قبل الفتح نبّه على ذلك غير واحد ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ ﴾ على العهد ﴿ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ﴾ على الوفاء به ، و« ما » شرطية أو مصدرية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ كرره للتأكيد على حفظ العهد ﴿ كَيْفَ ﴾ يكون لهم عهد ، كرره لزيادة الاستبعاد ، مع التنبيه على العلة بقوله ﴿ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ يظفروا بكم ﴿ لَا يَرْقُبُوا ﴾ لا يلاحظوا ولا يراعوا ﴿ فِيكُمْ إِلًّا ﴾ قرابة أو حلفاً ﴿ وَلَا ذِمَّةً ﴾ عهداً ، بل يؤذونكم ما استطاعوا ، وجملة الشرط حال ﴿ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ بكلامهم الحسن ، استئناف لبيان حالهم ، المنافية لثباتهم على العهد ، المؤدية إلى عدم مراقبتهم عند الظفر ﴿ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ﴾ الوفاء به ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ ناقضون للعهد ، خارجون بذلك عن طريق ذوى المروءات ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ القرآن ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من الدنيا ، أى تركوا اتباعها للشهوات والهوى ﴿ فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ دينه ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ ﴾ بئس ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ عملهم هذا ، وما دل عليه قوله ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾

المتجاوزون الحد فهو تفسير لعملهم ، لاتكرار ، أى كل من قدروا عليه من المؤمنين قتلوه ، فلم تبقون أنتم عليهم ، وهم لم يبقوا عليكم ، إذ ظفروا بكم ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ أى فهم إخوانكم ﴿ فِي الدِّينِ ﴾ والتساوى فى الأحكام ﴿ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الكلام حث على التأمل ، فيما فصل من أحكام المشركين ، المعاهدين وغيرهم ، وعلى المحافظة عليها ، وكأنه قيل : من تأمل تفصيلها فهو الخليق بأن يسمى عالماً ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا ﴾ نقضوا ﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ مواثيقهم ﴿ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ ﴾ بتقبيح الأحكام وبقولهم دينكم لاشىء ﴿ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ رؤساءه ، فيه وضع الظاهر موضع المضمر ، إعلاماً ببلوغهم الغاية فى الكفر : فهم رؤساؤه ، فإذا قتلوا ارتدع الأتباع ، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بتسهيل الهمزة الثانية من أئمة والباقون بتحقيقهما على ما علم من أصولهم ، وإظهار الياء لحن على ماقال البيضاوى ، قلت ليس بلحن ، فقد قرأ به بعض القراء ، يعنى هشاما ، وذهب إليه بعض النحويين ، قال الشاطبى :

وَأَئِمَّةٌ بِالْخُلْفِ قَدْ مُدَّ وَحْدَهُ ... وَسَهِّلْ سَمَا وَصْفاً وَفِي النَّحْوِ أَبْدِلَا

إعلم ، أن فى لفظ أئمة أربع قراءات لنافع وابن كثير وأبى عمرو ، قراءتان التسهيل والبدل ، ولهشام وجهان : تحقيق الهمزتين ، مع المد بينهما وتركه ، والكوفيين ، وابن ذكوان تحقيق الهمزتين من غير مد بينهما ، كأحد وجهى هشام . ﴿ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾ بفتح الهمزة للجمهور ، أى العهود ، ولابن عامر بكسرها ، مصدر آمنه : أعطاه الأمان أو بمعنى الإسلام ، وفيه دليل على أن الذمى ، إذا طعن فى دين الإسلام ظاهراً يقتل ، ولا يبقى له عهد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ عن الكفر ، ثم حض المسلمين على جهاد أهل الكفر ، وبين السبب فى ذلك فقال ﴿ أَلَا ﴾ للتحضيض ﴿ تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا ﴾ نقضوا ﴿ أَيْمَانَهُمْ ﴾ عهودهم . ﴿ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ من مكة ، لما تشاوروا فيه بدار الندوة ، أو من المدينة بالاستئصال ، بالأحزاب ﴿ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ بالقتال والمعاداة ، لأنه عليه الصلاة السلام بدأهم بالدعوة ، وإلزام الحجة بالكتاب والتحدى ، فعدلوا إلى القتال ، فما يمنعكم عن قتالهم ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ ﴾ أيها المؤمنون فتتركون قتالهم مع أمر الله به ؟ ﴿ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ فى ترك قتالهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لأن عقابه لايشبه عقاب ، وأورد إيمانهم فى صورة المحتمل ، إنكاراً لتكاسلهم عن القتال بعد تحقق موجبه ، ولذا أعاد الأمر بعد بيان الموجب ، زيادة فى الترغيب والتشجيع بقوله ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ بقتلهم ﴿ وَيُخْزِهِمْ ﴾ يذلهم بالأسر والقهر ﴿ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ من خزاعة وأهل اليمن وسبأ الذين أسلموا وآذاهم الكفار ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ كربها ﴿ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ بالرجوع إلى الإسلام ، وقد وفى الله بما وعد ، والآية من المعجزات ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

لا يفعل ولا يحكم إلا على وفق الحكمة ﴿أَمْ﴾ بمعنى همزة الإنكار ﴿حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ خطاب للمؤمنين، حين كره بعضهم القتال ﴿وَلَمَّا﴾ لم ﴿يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ علم ظهور ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ بإخلاص أى لم يتميز المخلص منكم من غيره، نفى العلم وأراد لازمه. وهو المعلوم للمبالغة فإنه كالبرهان عليه من حيث أن تعلق العلم به مستلزم لوقوعه ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ عطف على جاهدوا، داخل فى الصلة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ بطانة وأولياء يفشون إليهم سرهم، ووليجة الرجل: خاصته، من الولوج: الدخول، كأنها لقوة اختصاصها داخلة فى قلبه، المعنى: لا يتركهم حتى يظهر المخلصون وهم الموصوفون بما ذكر من غيرهم، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعلم غرضكم وبواطن أعمالكم، إزالة لما يتوهم من كون نفى العلم على ظاهره ﴿مَا كَانَ﴾ ما صح ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ بالجمع للجمهور، والإفراد لابن كثير وأبى عمرو ويعقوب، ببنائها ودخولها والقعود فيها ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ بإظهاره: حال من الواو، والمعنى ما استقام لهم أن يجمعوا بين متنافيين عمارة بيت الله وعبادة غيره ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ﴾ بطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ لعدم شرطها ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ أبداً، فأين الثواب الذى يرجونه؟ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ﴾ أحداً ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ أى فى أبواب الدين. ومن عمارتهم لها، تزيينها بالفرش، وتنويرها بالسرج، وإدامة العبادة والذكر، ودرس العلم فيها، وصيانتها مما لم تبن له: كحديث الدنيا. وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان فإن الله يقول: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، أخرجه الترمذى، وقال حسن، وفى الصحيحين: عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم «من غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله له فى الجنة نزلا كلما غدا أو راح» وفيهما أيضاً عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال سمعت: رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله، بنى الله له بيتاً فى الجنة» ﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ ذكره بصيغة التوقع قطعاً لأطماع المشركين فى الاهتداء والانتفاع، بأعمالهم، وتوبيخاً لهم بالقطع بأنهم مهتدون، فإن كان هؤلاء المؤمنون مع كمالهم، دائرين بين عسى ولعل فما ظنك بأضدادهم، ومنعاً للمؤمنين أن يغتروا بأحوالهم ويتكلوا على أعمالهم ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ التى فى بنى هاشم ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ سدانتها التى فى بنى عبد الدار، أى أجعلتم أهل ذلك ﴿كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أو أجعلتم ذلك كإيمان من آمن بالله ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ﴾ أهل السقاية والعمارة والمؤمنون، ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ فى الفضل، وبين عدم تساويهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والانهماك فى الضلال، فكيف يساوون من هداهم، نزلت رداً على من قال ذلك من قريش، روى أن العباس قال: إن سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد

كنا نعمر المسجد الحرام ، ونسقي الحاج ، فأخبرهم الله أن الإيمان والجهاد ، خير مما هم عليه . ثم لما رد الله المساواة ، أشار إلى ما أعد المجاهدين مع إزالة ما يتوهم من لفظ عسى من الاحتمال ، بقوله ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً ﴾ رتبة ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من غيرهم ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ بالبغية ، لاغيرهم ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ عند الموت ، لقوله الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون سلام عليكم ، أو عند دخول الجنة لقوله « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » وهو بيان لمعنى الفوز ﴿ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴾ دائم وتنكير المبشر به ، لإشعار أنه وراء التعيين والتعريف ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ وإنما قدم الرضوان على الخلود في النعيم ، لأنه المطلب الأعلى ، لقوله « ورضوان من الله أكبر » ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يحاط به ، ولم يخطر على قلب بشر ، يستحقر دونه ما استوجبوه لأجله ، أو نعيم الدنيا . ونزل فيمن ترك الهجرة لأجل أهله وتجارته ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾ إذ الإيمان قبل فتح مكة لا يتم إلا بالهجرة ، ومفارقة الأقارب ، واستشكل بأن السورة نزلت بعد الفتح ، ولذا قال بعضهم : الأولى أن الله لما أنزل براءة وكان لبعض المؤمنين قرابة لم تسلم ، فقالوا كيف يقاطع الرجل أباه وأخاه وابنه ، فنزلت . وفي الجواهر : ظاهر هذه المخاطبة لجميع المؤمنين كافة . وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ لوضعهم الولاية في غير محلها ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ بالإفراد للجمهور ، والجمع لأبي بكر : أقرباؤكم ، وهي القبيلة ، من العشرة : بمعنى المخالطة ، ﴿ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ اكتسبتموها ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ عدم نفاقها ﴿ وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ لاتحبون مفارقتها ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ ﴾ أي آثر عندكم ﴿ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ﴾ فقعدتم لأجل ماذكر عن الهجرة والجهاد ﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾ انتظروا ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ تهديدلهم ، ثم فسقهم بقوله ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الخارجين عن طاعته . قال البيضاوي : وفي الآية تشديد عظيم لمن يتخلص عنه ، وفي لباب التأويل : وفي هذه الآية دليل على أنه إن وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا ؛ وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا . اه ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ ﴾ للحرب ﴿ كَثِيرَةٍ ﴾ في الغزوات والسرايا ، وقد غزا صلى الله عليه وسلم بنفسه تسع عشرة غزوة ، وبعث سبعين أو ثمانين سرية ، وتقدم ترتيبها ، من ودان في صفر في السنة الثانية ، إلى الخندق في الخامسة في شوال وفي ذي القعدة غزوة بني قريظة ، ثم سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء . في المحرم سنة ست ، ثم غزوه عليه السلام بني لحيان في ربيع الأول ، ثم غزوة ذي القرد ، وهي الغابة فيه أيضاً ، ثم سرية عكاشة إلى الغمر فيه ، ثم سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة فيه ، ثم سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم في ربيع الآخر ، ثم سريته إلى العيص في جمادى الأولى ، ثم سريته إلى الطرف في جمادى الآخرة

ثم سريته إلى جسمى فيها ، ثم سريته إلى وادى القرى ، ثم سرية سعيد بن زيد فى قصة المرتين فيها ، وفيه خلاف ، ثم سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فى شعبان ، ثم سرية علىّ بن أبى طالب فيه إلى بنى سعد بن بكر ، بين فدك وخيبر ، ثم سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة فى رمضان ، ثم سرية عبد الله ابن عتيك فيه ، لقتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق ، ثم سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام بخيبر فى شوال ، ثم سرية عمرو بن أمية الضمرى لقتل أبى سفيان بمكة فلم ينله ، ثم قصة الحديبية فى ذى القعدة وفيها بيعة الرضوان ، وسيأتى إن شاء الله ، ثم خيبر فى المحرم سنة سبع ، ثم غزوة فتح وادى القرى فى جمادى الآخرة ، ثم سرية عمر بن الخطاب إلى تربة فى شعبان ، ثم سرية أبى بكر الصديق إلى بنى كلاب فى شعبان ، ثم سرية بشير بن سعد إلى بنى مرة فيه ، ثم سرية غالب بن عبدالله ناحية نجد فى رمضان ، ثم سرية بشر بن سعد إلى أرض غطفان فى شوال ، ثم عمرة القضاء فى ذى القعدة ، ثم سرية ابن العرجاء إلى بنى سليم فى ذى الحجة ، ثم سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى ملوح فى صفر سنة ثمان ، ثم سريته أيضاً إلى فدك فيه ، ثم سرية شجاع بن وهب إلى بنى عامر فى ربيع الأول . ثم سرية كعب بن عمير إلى ذات أطلاح فيه أيضاً ثم سرية مؤتة فى جمادى الأولى ، وفيه قتل الأمراء الثلاثة : زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبى طالب ثم عبدالله ابن رواحة ، ثم سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل فى جمادى الآخرة ، ثم سرية أبى عبيدة بن الجراح فى رجب إلى سيف البحر ، ثم سرية أبى قتادة إلى أرض محارب بنجد فى شعبان ، ثم سريته إلى بطن إضم أول شهر رمضان ، ثم غزوة فتح مكة فى رمضان ، ثم سرية خالد بن الوليد إلى العزى ، ثم لعمرو بن العاص إلى سواع ، ثم لسعد بن زيد إلى مناة ، كلها فى آخر رمضان . ثم لخالد بن الوليد إلى بنى جزيمة فى شوال ، ثم غزوة حنين هذه فى شوال ، التى أشار إليها بقوله ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ أى ونصركم ، أو اذكر يوم حنين - واد بين الطائف ومكة - أى يوم قتالكم هوازن فيه فى شوال سنة ثمان ﴿ إِذْ ﴾ بدل من يوم ﴿ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ فقلتم لن نغلب اليوم من قلة وكانوا اثنى عشر ألفاً والكفار أربعة آلاف ، فسبق إليهم سرعان الناس اعتماداً على الكثرة ، فرشقوهم رشقاً ، فانهزموا إلى رسول الله . وقبل هزموا الكفار أولا فأقبلوا على الغنائم ، فرجعوا عليهم بالسهام فانهزموا ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ ما مصدرية ، أى مع رحبها ، أى سعتها ، فلم تجدوا مكاناً تطمئنون إليه لشدة ما لحقكم من الخوف ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾ منهزمين ، وثبت النبى صلى الله عليه وسلم وليس معه غير العباس عمه وابن عمه أبى سفيان بن الحارث آخذاً بركابه ، فالتفت إلى يمينه فقال : يال الأنصار ، فقالوا : لبيك يا رسول الله ، وكذا إلى يساره ، فأحاطوا به بعد الجولة ، وقال للعباس : ناد أين أصحاب الشجرة ، أين أصحاب سورة البقرة فرجعوا إليه عنقاً «مسرعين» واحداً واحداً فنزل وصفهم ، فتضاربوا بالسيوف حتى اشتد الحرب ، فقال : الآن حمى الوطيس ، ثم أخذ كفاً من الحصباء فرمى به وجوه الكفار فانهزموا وقتل كثير ، وسبى

ستة آلاف من عيالهم ، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى . قلت : أراد بالشجرة التي بايعوا تحتها يوم الحديبية بيعة الرضوان ، وأصحاب البقرة من صغر الله بهم أولها ، وهم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة والله أعلم ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ طمأنينته ﴿ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﴾ وهي الوقار وقوة القلب ﴿ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين ثبتوا معه ، ومن تولى منهم فإنهم كروا بعد الفرار ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا ﴾ من الملائكة ﴿ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ولم تصح كيثهم ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر ﴿وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۝ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ كمن تابوا من هوازن بعد ذلك ، وجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد ما قسم الغنائم رجوعه من الطائف وكان انتظرهم نيفاً وعشرين يوماً لم يقسم الغنائم فلما جاءوه تائبين سألوا أن يرد إليهم أموالهم وعيالهم ، فقال لهم : قد كنت أستنظر بكم ، والآن اختاروا إحدى الطائفتين إما السبي وإما المال . فقالوا لا نسوى بالسبي شيئاً . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر خطيباً فقال هؤلاء إخوانكم جاءوا تائبين وأنا خيرتهم بين السبي والمال فاختاروا السبي ، فمن طابت نفسه فيكم فذاك ، ومن لم يطب فليكن على حظه حتى نعطيه من أول ما يفيء الله علينا . فقالوا : قد رضينا يا رسول الله . فقال : إنا لا نعرف من رضي منكم ومن لم يرض ، ارجعوا إلى رحالكم حتى يرجع إلينا عرفاؤكم . فجاء عرفاؤهم فقالوا قد رضوا . فرد السبي إليهم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ للتائبين ما قد سلف ﴿ رَحِيمٌ ﴾ برد ذراريهم . ثم سرية أبي عامر الأشعري في طلب الفارين من حنين إلى أوطاس . ثم سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكفين صنم في شوال فحرقه . ثم غزوة الطائف . ثم بعث قيس بن سعد إلى ناحية من اليمن يقاتل قبيلة صداء فقدم زياد بن الحارث الصدائي فقال يا رسول الله أردد الجيش فإنا لك بقوم ، فردهم فجاء بقومه فأسلموا . ثم بعث عيينة بن حصن إلى بني تميم بالسقيا في المحرم سنة تسع . ثم سرية قطبة بن عامر إلى خثعم . ثم سرية الضحاك في ربيع الأول إلى القرطاء . ثم سرية علقمة بن مجزز إلى الحبشة في ربيع الآخر . ثم سرية علي بن أبي طالب إلى الفلس في ربيع الآخر . ثم سرية عكاشة إلى الجناب . ثم غزوة تبوك ، خرج عليه السلام يوم الخميس في رجب إلى الروم ، وهي آخر غزواته . ثم بعث أبا بكر الصديق للحج بعد رجوعه في ذي القعدة . ثم بعث أبا موسى ومعاذاً إلى اليمن . ثم أرسل خالد بن الوليد في ربيع الأول سنة عشر إلى نجران . ثم أرسل علي بن أبي طالب إلى اليمن في رمضان . ثم حج حجة الوداع . ثم سرية أسامة بن زيد إلى أبنا لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة وهي آخر سراياه صلى الله عليه وسلم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ ﴾ أي الكفار أهل الأصنام وغيرهم ﴿ نَجَسٌ ﴾ قذر لخبث باطنهم بالكفر ولأنهم يجتنبون ويحدثون ولا يتطهرون ويلابسون النجاسات غالباً . لكن اتفق الفقهاء الأربعة على طهارة أبدانهم لأن السلف كانوا يؤاكلونهم ويشربون من أوانيهم ولم يعتبروا مفهوم حديث أبي هريرة إن المسلم لا ينجس ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ فضلا عن الدخول فيه وكذا سائر المساجد قياساً عليه عند مالك . وقال

أبو حنيفة : المراد نهيهم عن الحج والعمرة لا عن الدخول في المساجد مطلقاً ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ أي عام تسع من الهجرة التي كان الصديق أمير الحاج فيها ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ فقراً بانقطاع تجارات الكفار عنكم بمنعهم من الحرم ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾ وقد أغناهم بالفتوح والجزية بعد إسلام أهل تبالة وجرش من اليمن وأغناهم بخصبه . ثم توجه إلى مكة الناس من كل فج عميق وقيد بالمشيئة تنبيهاً على أنه متفضل في ذلك وأن الغنى يكون لبعض دون بعض وفي عام دون عام ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم بأحوالكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في الإعطاء والمنع ، ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولما كل أمر العرب أمر الله نبيه بقتال أهل الكتاب ، ولذا خرج إلى غزوة تبوك بقوله ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ لفساد عقائدهم وإلا لآمنوا بالنبي ﴿ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ كالخمر والخنزير ، أي هم مخالفون أصل دينهم المنسوخ اعتقاداً وعملا ﴿ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة : الدين الثابت الناسخ لغيره من الأديان وهو الإسلام ﴿ مِنَ ﴾ لبيان ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ اليهود والنصارى ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴾ الخراج المضروب عليهم كل عام ، وهو غاية القتال المأمور به ، فعلة من جزى الدين قضاه للاجتزاء بها عن قتالهم ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ حال ، أي منقادين أو بأيديهم لا يوكلون بها ، أو يداً بيد أي نقداً لا نسيئة فيه ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أذلاء منقادون لحكم الإسلام ولا بد أن يأتي بها ماشياً ويهان في أخذها . والآية وإن وردت في أهل الكتاب لكن ألحق بهم مالك سائر الكفار سوى المرتد ، وأبو حنيفة سوى مشركي العرب ، وألحق الشافعي المجوس فقط . وأما قدرها عند مالك فأربعة دنانير على أهل الذهب وأربعون درهماً على أهل الفضة ، وعند الشافعي وأحمد أقلها دينار وعند أبي حنيفة ثمانية وأربعون درهماً وكل هذا في العنوة ، وأما الصلح فعلى ما صولحوا عليه من قليل أو كثير . ثم بيّن عدم ديانة أهل الكتاب بقوله ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ أي طائفة منهم ﴿ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ لحفظه التوراة ، وقرأ عاصم والكسائي عزير بالتنوين على أنه اسم عربي . وابن الله خبره والباقون غير منوّن لأنه عجمي . فالألف ثابت في الرسم فلا يجعل وصفاً والخبر محذوف أي إلهنا ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى ﴾ أي طائفة منهم ﴿ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ لأنه وُلد بلا أب ﴿ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ لا مستند لهم عليه بل هو مماثل للهمل الذي يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان ﴿ يُضَاهِئُونَ ﴾ يشابهون به ﴿ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ من آبائهم تقليداً لهم . المعنى : أن الكفر قديم فيهم أو من المشركين في قولهم الملائكة بنات الله ، أو من اليهود على أن الضمير للنصارى ﴿ قَاتَلَهُمُ ﴾ لعنهم ﴿ اللَّهُ أَنَّىٰ ﴾ كيف ﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن الحق مع قيام البرهان ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ﴾ علماء اليهود ﴿ وَرُهْبَانَهُمْ ﴾ عباد النصارى ﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم ﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ بأن جعلوه ابناً لله ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ في التوراة والإنجيل ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا ﴾ أي بأن يطيعوا ﴿ إِلَٰهًا وَاحِدًا

لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ولا إله صفة ثانية أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا ﴾ يخمدوا ﴿ نُورَ اللَّهِ ﴾ شرعه وبراهينه ﴿ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ بأقوالهم بالتكذيب فيه ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ ﴾ لا يرضى ﴿ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ﴾ يظهر كلمته على الدين كله ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ وإنما صح الاستثناء المفرغ والفعل موجب لأنه فى معنى النفى ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ محمداً ﴿ بِالْهُدَىٰ ﴾ القرآن ﴿ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ الإسلام ﴿ لِيُظْهِرَهُ ﴾ ليعلى الدين ﴿ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ جميع الأديان المخالفة له ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ذلك ، وهذه الآية كالبيان لقوله «ويأبى الله إلا أن يتم نوره» ولذا كرر « ولو كره» ووضع « المشركون » موضع « الكافرون » للدلالة على أنهم ضموا الكفر بالرسول إلى الشرك بالله ، واللام فى الدين للجنس أى على سائر الأديان فينسخها أو على أهلها فيذلهم أو يسلموا كلهم وذلك لا يكون إلا فى زمان عيسى والله أعلم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ ﴾ يأخذون ﴿ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ كالرشى فى الحكم وثمن الجاه ، فلا تتبعوهم على ذلك إذ المراد بيان نقائصهم بالحرص على الأموال وأكل الحرام مع كونهم علماء وعباد فى زعمهم ﴿ وَيَصُدُّونَ ﴾ الناس ﴿ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ مبتدأ ﴿ يَكْنِزُونَ ﴾ يجمعون ﴿ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا ﴾ أى الكنوز ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لا يؤدون منها حقه من الزكاة والخبر ﴿ فَبَشِّرْهُمْ ﴾ أعلمهم ﴿ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مؤلم هو الكى بها وفى البخارى قال معاوية ماهذه الآية إلا فى أهل الكتاب . قال أبو ذر : إنها لفينا وفيهم وفى الجواهر: والذى يظهر من ألفاظ الآية أن الله لما ذكر نقض الأحبار والرهبان الآكلين المال بالباطل ذكر بعد ذلك بقول عام نقض الكانزين المانعين حق المال اهـ. والتوعد فى الكنز إنما وقع على منع الحقوق منه على قول أكثر العلماء ، وقيل الذم فيما فضل عن الحاجة وإن أديت حقوقه والكنز ما حفظ فى الأوعية ، وإن لم يدفن ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ ﴾ توقد النار الحامية ﴿ عَلَيْهَا ﴾ على الكنوز ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ بأن تدخل النار فيوقد عليها حتى تبيض من شدة الحرارة يقال حميت الحديدة وأحميتها : أوقدت عليها لتحمى . والفاعل المحذوف فى الآية هو النار تقديره يوم تحمى النار عليها ، جعل الإحماء للنار مبالغة ثم حذفت النار وأسند الفعل إلى الجار والمجرور تنبيها على المقصود فذهبت علامة التأنيث لذهاب الفاعل ﴿ فَتُكْوَىٰ ﴾ تحرق ﴿ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ ويوسع جلدهم حتى توضع عليه كلها ، وتخصيص هذه الأعضاء لأنها أشرف ، لاشتمالها على الدماغ والقلب والكبد ، التى هى رئيستها ، ولأن إمساكهم وبخلهم بالأموال كان لطلب الوجاهة بالتنعم بها ، ولأن السائل يقطبون له الوجوه أولا ، وربما أعرضوا عنه وأعطوه جنوبهم ، وربما ولوه ظهورهم ، فيقال لهم ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ أى جزاءه ، وفى الصحيحين عن الأحنف قال قدمت المدينة فبينا أنا فى حلقة فيها ملأ من قريش إذ جاء رجل خشن الثياب ، خشن الجسد ، فقام عليهم فقال : بشر الكانزين برضف ، يحمى عليه فى نار جهنم ، فيوضع على حلمة ثدى أحدهم ، حتى يخرج من نغض كتفيه

« النغض غرسوف الكتف » ويوضع على نغض كتفيه حتى يخرج من حلمة ثدييه ، يتزلزل ، قال : فوضع القوم رءوسهم ، فأدبر . فاتبعته حتى جلس إلى سارية فقلت ما رأيت هؤلاء إلا كرهوا ما قلت لهم ، فقال : إن هؤلاء لا يعقلون شيئاً ، وفى البخارى : ما قلت إلا شيئاً سمعته من نبيهم . اه ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ ﴾ للسنة القمرية التى يعتد بها المسلمون فى صيامهم وحجهم وأعيادهم وسائر أمورهم وأحكامهم ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ بمعنى أنه الذى قدر ذلك فى الأزل ، وعلى ذلك الوجه أبرزها فى اللوح ، وعند نصب بعدة لأنها مصدر بمعنى العد ، أى مبلغ عددها عنده ﴿ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً ﴾ مفصلة على الفصول الأربعة ، الربيع والصيف والخريف والشتاء ، وهى : المحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وربيع الآخر ، وجمادى الأولى ، وجمادى الآخرة ، ورجب وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، كلها مذكرة إلا جمادى ، ولا يضاف الشهر إليها إلا شهر ربيع ، وشهر رمضان وأيامها ثلاثة مائة وأربعة أو خمسة وخمسون يوماً ، والسنة الشمسية عبارة عن دور الشمس فى الفلك دورة تامة ، وهى ثلاث مائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، فتنقص القمرية عنها عشرة أو إحدى عشرة ، فبسبب ذلك النقصان تدور السنة الهلالية قبلها فيقع الصوم والحج تارة فى الشتاء ، وتارة فى الصيف ﴿ فِى كِتَابِ اللَّهِ ﴾ اللوح المحفوظ لأنه أصل الكتب ، أو القرآن ، أو فى حكمه وهو صفة لاثنا عشر ﴿ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ متعلق بكتاب الله ، على جعله مصدرا ، أو بما فى معنى يوم من الثبوت ، والمعنى أن هذا الأمر ثابت منذ خلقهما إذ هو الوقت الذى ابتدأ منه سير القمر ، وكل هذا رد لما يقوله نساءة حرمة الشهر من العرب بجعلهم الشهور ثلاثة عشر ، وذلك أنهم كانوا يؤخرون فى بعض السنين حرمة المحرم إلى صفر . ويسمون ذلك الصفر المحرم . ثم يسمون ربيعا الأول صفراً ، وهكذا فى سائر الشهور . فتجىء السنة من ثلاثة عشر شهراً ، أولها المحرم المحلل ، ثم المحرم الذى هو فى الحقيقة صفر ، ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ جمع حرام ، نص على تفضيلها بتضعيف الحسنات والسيئات فيها أكثر من غيرها ، واحد فرد ، وثلاثة سرد ، والفرد رجب مضر ، ويقال له الأصب ، لأنه يصب فيه البركات ، والأصم لأنه تصم الآذان فيه عن سماع قعقعة السلاح . والثلاثة ذو القعدة وذو الحجة - بفتح القاف والحاء فى الأشهر - والمحرم ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى تحريمها ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ المستقيم ، دين إبراهيم وإسماعيل ، والعرب ورثوه منهما ، وفيه إشارة إلى أن النسىء الآتى ليس من ذلك الدين فى شىء ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ بالمعاصى ، فإنها فيها أعظم وزراً ، قيل سوى رمضان ، فإنه سيد الشهور ، فالظلم فيه أقبح ، والجمهور ومنهم الأئمة الأربعة على أن حرمة القتال فيها مع المشركين منسوخة بقوله « واقتلوهم حيث وجدتموهم » أى فى الحل والحرم ، وإذا جاز فى الحرم ففى الأشهر الحرم أولى ، أو بقوله ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ جميعاً فى كل الشهور ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم حاصر الطائف فى شهر حرام ، وهو ذو القعدة ، كما ثبت فى الصحيحين أنه حاصرها أربعين

يوماً ﴿ كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ أى مجتمعين على قتالكم . والمعنى : تعاونوا وتناصروا على قتالهم . ولا تتخاذلوا فتجبنوا عن قتالهم ﴿ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ بالعون والنصر . وهذا وعد لهم بالنصر يفيد تسكين القلب والجرأة على الإقدام ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ ﴾ بقلب الهمزة ياءً وإدغامها فى الياء لورش عن نافع وبترك القلب للباقين ، أى تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، كما تفعله الجاهلية . وكانوا إذا أحبوا المحاربة فى الشهر الحرام أحلوه وحرموا مكانه شهراً آخر حتى رفضوا خصوص الأشهر . واعتبروا مجرد العدد ﴿ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾ لكفرهم بحكم الله فيه . قال فى غاية الأمانى : والنسىء فعيل بمعنى مفعول : من نسأت الشىء أخرته . اهـ . ﴿ يَضَلُّ ﴾ بفتح الياء وكسر الضاد للجمهور ، وبضم الياء وفتح الضاد مبنيا للمفعول لحمزة والكسائى وحفص ﴿ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ضلالا زائداً ﴿ يُحِلُّونَهُ ﴾ أى النسىء ﴿ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ﴾ أى يحلون النسىء من الأشهر الحرم عاماً ، ويحرمون مكانه شهراً آخر ، ثم يحرمونه عاما فيتركونه على حرمته ، والجملتان تفسير للضلال أو حال ﴿ لِّيُوَاطِـُٔوا ﴾ يوافقوا بتحليل شهر وتحريم آخر بدله ﴿ عِدَّةَ ﴾ عدد ﴿ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ من الأشهر فلا يزيدون على تحريم أربعة ولا ينقصون ولا ينظرون إلى أعيانها ، واللام متعلقة بيحرمونه أو بما دل عليه مجموع الفعلين . قال فى غاية الأمانى : وهذا يرد ما قيل إنهم كانوا يزيدون فى الأشهر . اهـ . قلت لا يرده لمن تأمل ، لأن زيادتهم كان فى شهور السنة لا فى الأربعة الحرم التى يطلبون أن لا يزيدوا عليها ولا ينقصوا ﴿ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ﴾ بمراعاة العدد من غير مراعاة للوقت ، وسبب ذلك أن العرب كانت تعتقد حرمة الأشهر الحرم ، وهى مما تمسكت به من ملة إبراهيم عليه السلام وكان غالب معايشهم من الصيد والغارة ، فكان يشق عليهم الكف عن ذلك ثلاثة أشهر متوالية . فكان بنو فقيم بن كنانة يؤخرون لهم حرمة شهر إلى آخر إذا كرهوا تأخير الحرب إلى الحلال وكانوا يستحلون المحرم ويحرمون مكانه صفر كما تقدم . وإذا احتاجوا إلى تأخير حرمة صفر أخروها إلى ربيع الأول ، فكانوا يصنعون هكذا يؤخرون شهراً بعد شهر ، حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها وكانوا يحجون فى كل شهر عامين ، فوافق حجة أبى بكر فى التاسع وحجة الوداع للنبى صلى الله عليه وسلم فى العاشر فى ذى الحجة : شهر الحج المشروع ، فخطب النبى صلى الله عليه وسلم فى العاشر بمنى وأعلمهم أن أشهر النسىء قد تناحت باستدارة الزمان حتى عاد الأمر إلى ما وضع الله عليه حساب الأشهر يوم خلق السموات والأرض ، وهو قوله عليه الصلاة السلام : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض » الحديث أخرجه الشيخان . فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بالمحافظة على ذلك الحساب لئلا يتبدل فى مستأنف الأيام وإنما جعل الله الاعتبار بسير القمر ، لأنه أمر ظاهر مشاهد بالبصر بخلاف سير الشمس فإنه يحتاج إلى حساب فلم يحوجنا إلى ذلك ، وإنما علق الله على الشمس أحكام الصلاة والصيام حيث كان مشاهداً بالبصر لا يحتاج إلى حساب كطلوع الفجر والشمس وزوالها ، ومصير ظل كل شىء مثله

وغروبها ، ونحو ذلك . والله أعلم ﴿ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ﴾ فظنوه حسناً ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ وإن دعاهم إلى الإسلام ونصب لهم الأدلة لما سبق من الختم على قلوبهم وأنهم من أهل النار أزلا ، ولما رجع صلى الله عليه وسلم من الطائف وتجهز فى رجب لغزوة الروم غزوة تبوك ، وكان ذلك فى زمان عسرة من الناس ، وشدة من الحر ، مع أن النبي استقبل سفراً بعيداً وجمعاً عديداً . ولذا جلى للناس أمرهم ليتأهبوا فشق عليهم الخروج وتثاقلوا : نزل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ﴾ أى قال لكم رسول الله ﴿ انْفِرُوا ﴾ اخرجوا إلى الجهاد ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ ﴾ بإدغام التاء فى الأصل فى المثلثة واجتلاب همزة الوصل ، أى تباطأتم ومِلتم ﴿ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أى القعود فى أرضكم ومساكنكم والاستفهام للتوبيخ ، ولا خلاف بين العلماء أن المراد بهذا العتاب من تخلف فى خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك فى عشرين ألفاً بين راكب وراجل سنة تسع وقت شدة القيظ وطيب الثمار والظلال ، وعدّى « اثاقلتم » بإلى لتضمنه معنى ملتم ﴿ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ولذاتها ﴿ مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ بدل نعيمها ﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي ﴾ جنب متاع ﴿ الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ حقير زائل ، وفى صحيح مسلم والترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بماذا ترجع . قال فى لباب التأويل : وفى الآية دليل على وجوب الجهاد فى كل حال وفى كل وقت لهذا العتاب ، والوعيد فى قوله ﴿ إِلَّا تَنْفِرُوا ﴾ إلى الجهاد ﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ فى الدنيا بظهور الأعداء وشدة القحوط وفى الآخرة بالنار ﴿ وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ مطيعين كأهل اليمن وأبناء فارس . المعنى : قد تكفل الله بنصر دينه ونبيه ، فإن سارعتم إلى الخروج حصلت النصرة بكم ووقع أجركم على الله ، وإن تثاقلتم وتخلفتم عنه حصلت النصرة بغيركم فلا تتوهموا أن نصر الدين وإعزازه لا يحصل إلا بكم ﴿ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً ﴾ من الضرر أو من الأشياء لأنه غنى عن العالمين وإنما تضرون أنفسكم بترك الجهاد ، أو الضمير للرسول لأن الله ناصره على أعدائه ولا يخذله ، خرجتم أو تخلفتم ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فيقدر على التبديل وتغيير الأسباب والنصرة بلا مدد كما قال ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ ﴾ بالخروج معه إلى الكفار ﴿ فَ ﴾ سينصره الله ولو سار وحده ، كما ﴿ قَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من مكة أى ألجأوه إلى الخروج لما أرادوا قتله أو حبسه أو نفيه بدار الندوة ﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ ﴾ حال أى أحد اثنين والآخر أبو بكر الصديق رضى الله عنه . المعنى : نصره الله فى مثل تلك الحالة فلا يخذله فى غيرها ﴿ إِذْ ﴾ بدل من إذ قبله بدل البعض إذ المراد به زمان متسع ﴿ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ أى الكهف فى أعلى جبل ثور ، وثور جبل غربى مكة من الجهة اليمنى ، مكثا فيه ثلاثاً بعد الخروج لينقطع الطلب ، فطلبهما الكفار فى ذلك الجبل ووصلوا إلى فم الغار حتى قال الصديق : لو نظروا تحت أقدامهم لرأونا . فقال صلى الله عليه وسلم « ماظنك باثنين الله ثالثهما » ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾ أى أبى بكر إجماعاً بدل ثان ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ بنصره ، فأعمى الله الكفار ولم يروهما ، وبعث حمامتين فباضتا فى أسفل الغار والعنكبوت

فنسجت عليه ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ ﴾ طمأنينته ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أى على رسوله ، أو على صاحبه أبى بكر . قال البيضاوى : وهو الأظهر لأنه كان منزعجاً . وضعفه صاحب غاية الأمانى بقوله : وجعلُ الضمير لصاحبه تكلف وتشويش للنظم . قلت : يعنى لأن الأصل توافق الضمائر فى المرجع ، والضمير فى « وأيده » للنبى صلى الله عليه وسلم قطعاً ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ملائكة فى الغار وفى مواطن قتاله ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى دعوة الشرك ﴿ السُّفْلَىٰ ﴾ المغلوبة ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ ﴾ كلمة الشهادة ﴿ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ الظاهرة الغالبة ، أى جعل ذلك بتخليص النبى صلى الله عليه وسلم من أيدى الكفار إلى المدينة وتأييده بالملائكة فى مواطن قتاله وحفظه ونصره له حيث حضر : وفى الآية تشريفه ووعده بالنصر ومدحه بالتوكل والسكينة وذكر هجرته من مكة إلى المدينة ، وفيها مدح أبى بكر بما لا يحصى . قال الشعبى : عاتب الله أهل الأرض جميعاً فى هذه الآية غير أبى بكر . وقال الحسن بن الفضل : من قال إن أبا بكر لم يكن صاحب رسول الله فهو كافر لإنكاره نص القرآن : فهو جدير به : لأنه بذل نفسه وفارق أهله وماله ورياسته فى طاعة الله وطاعة رسوله ، ولازمه وعادى جميع الناس فيه ، وهاجر معه وحده ، فلما وصلا إلى الغار قال للرسول : والله لا تدخله حتى أدخل فيه فإن كان فيه شىء أصابنى دونك ، فدخله وكنسه ووجد فى جانبه ثقباً فشق إزاره وسد واحدة منها به وبقى ثقب ثان فألقمها رجليه ، ثم دخل الرسول صلى الله عليه وسلم ووضع رأسه فى حجره ونام ، فلدغ أبو بكر ولم يتحرك لئلا يوقظه . فلما قام أخبره ، فتفل عليه فذهب ما يجده . وكان حين يمشى معه إلى الغار ليلا ، يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه . فقال له الرسول مالك يا أبا بكر ؟ فقال : أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك فإن أقتل فأنا رجل واحد من المسلمين وإن قتلت هلكت الأمة ... إلى آخر ما فعل فى الهجرة وغيرها رضى الله عنه ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ لا يغلبه شىء ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما دبر وشرع ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ أى على صفة يخف بها عليكم الجهاد ، أو يثقل بها عليكم من كونكم نشاطاً وغير نشاط ، أقوياء أو ضعفاء ، أغنياء أو فقراء ، شباباً أو شيوخاً ، ركباناً أو مشاة ، صحاحاً أو مراضاً . قال فى الجواهر : معنى الخفة والثقل ها هنا مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة ومن يمكنه بصعوبة ، وأما من لا يمكنه كالأعمى ونحوه ، فخارج عن هذا النهى ، والآية منسوخة على الصحيح بآية « ليس على الضعفاء » وغيرها ، وهى أول ما نزل من سورة براءة ﴿ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ بما أمكن لكم منهما كليهما أو أحدهما ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وفى الصحيح من جهز غازياً فكأنما غزى بنفسه ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من القعود والتثاقل عنه ، والمعنى الجهاد خير حاصل لكم فلا تفوتوه بالتثاقل والقعود ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنه خير بإخبار الله فبادروا إليه ، أو المراد إن كنتم تعلمون الخير ، علتم أنه خير ، وهو توبيخ على التكاسل لأنهم عالمون بخيريته ، لا ريب فيه ﴿ لَوْ كَانَ ﴾ ما دعوتهم إليه ﴿ عَرَضًا ﴾ نفعاً دنيويا ﴿ قَرِيبًا ﴾ سهل المأخذ ﴿ وَسَفَرًا قَاصِدًا ﴾ متوسطا ﴿ لَاتَّبَعُوكَ ﴾ طلباً للغنيمة ﴿ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ﴾ المسافة التى

تقطع بمشقة نحو شهر ، ويستعظمون غزو الروم بنى الأصفر ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ ﴾ أى المنافقون الذين تخلفوا بحلفون ﴿ بِاللَّهِ ﴾ لكم إذا رجعتم إليهم معتذرين ﴿ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا ﴾ الخروج ﴿ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ لكن لم نستطع لعدم العدة ، أو لسقم البدن ، وقوله « لخرجنا » ساد مسدّ جوابى القسم والشرط ﴿ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالحلف الكاذب ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى قولهم ذلك ، بل كانوا مستطيعين ، وفى الآية إخبار بالغيب ، وأن الأيمان الكاذبة تهلك صاحبها . ولما استأذنه عليه السلام بعض المنافقين فى القعود فأذن لهم ، لأن الله قال له « فأذن لمن شئت منهم » نبهه الله على أن الأولى فى هذه الحالة ترك الإذن لهم ، وقدم العفو تعظيما لقلبه ، وتشريفاً فقال ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْكَ ﴾ أدام الله لك العفو : كلام يقال فى مقام التبجيل والتعظيم ، كما تقول لمن تعظم : أصلحك الله ، لم صنعت فى شأنى هذا ؟ ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ فى التخلف عنك ، وهلا تركتهم ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ فى العذر ﴿ وَتَعْلَمَ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ فيه ، وتقديم العفو وذكر الإذن الدال على علو مرتبته ، وكثرة عفوه ، وإيراد الإنكار على صورة الاستفهام : إجلال له صلى الله عليه وسلم ، وكان يجتهد فى أمر الحرب ، ويشاور أصحابه فيه وإذا صدر منه خلاف الأولى ، نبه عليه كما مر فى أخذ الفداء ، وإنما استعمل التبيّن فى الصدق والعلم فى الكذب ، لأن الصدق واضح ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ فى التخلف عن ﴿ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ أى ليس من دأب المؤمنين الاستئذان فى الجهاد ، بل يبادرون إليه ، فكيف بالاستئذان فى التقاعد عنه ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ أى بهم ، وضع المظهر مكان المضمر : شهادة لهم بالتقوى ، وعدة لهم بثوابه . ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ فى التخلف ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ تصريح بما علم ، وذكر الله واليوم الآخر فى الموضعين : إشارة إلى المبدإ والمعاد ، وأن الباعث على الجهاد هو العلم بأن الله يجازى عليه يوم القيامة ﴿ وَٱرْتَابَتْ ﴾ شكت ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ فى الدين ﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ يتحيرون بين الكفار والمؤمنين ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا ٱلْخُرُوجَ ﴾ معك ﴿ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ تكذيب لهم فى دعوى عدم الاستطاعة ، أى لهم مكنة الخروج وأسباب الجهاد وليس المانع إلا عدم إرادة الخروج ، ولو أرادوه لتأهبوا بالزاد والآلة ﴿ وَلَٰكِنْ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنْبِعَاثَهُمْ ﴾ لم يرد خروجهم وهو استدراك من مفهوم الكلام تقديره ، لكن تثبطوا لأن الله كره انبعاثهم : بوضعهم للخروج ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ كسلهم وثقلهم أى حبسهم بالجبن والكسل ، وأصل التبط : الشغل عن الأمر ﴿ وَقِيلَ ﴾ لهم ﴿ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ ﴾ المرضى والنساء والصبيان ، تقبيح لحالهم ، والقائل الرسول لما استأذنوه ، أو بعضهم لبعض ، أو تمثيل لإلقاء الله تعالى فى قلوبهم كراهة الخروج ، أو وسوسة الشيطان ، بقول القائل ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ ﴾ شيئاً ﴿ إِلَّا خَبَالًا ﴾ فساداً بتخذيل المؤمنين تسلية لهم ، أى إن الله إنما كره انبعاثهم لحكمة وهى الفساد الذى يحصل منهم لو خرجوا ﴿ وَلَأَوْضَعُوا ﴾ أى أسرعوا ﴿ خِلَالَكُمْ ﴾ بينكم بالمشى بالنميمة أو

الهزيمة والتخذيل من وضع البعير : أسرع ، وأوضعته أسرعته ، شبههم بالركائب ، وأوقع عليهم الإيضاع تخييلا ، والخلال جمع خلل ، وهو الفرجة بين شيئين ، وانتصب على الظرف لأوضعوا ﴿ يَبْغُونَكُمُ ﴾ يطلبون لكم ﴿ الْفِتْنَةَ ﴾ بإلقاء الخلاف والعداوة والرعب ، والجملة حال من ضمير أوضعوا ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ ما يقولون سماع قبول من ضعفاء المسلمين أو نمامون يسمعون حديثكم ، للنقل إليهم ، فيحصل به الفساد ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ أى بهم ، وضع المظهر موضع المضمر للدلالة على أنهم بذلك الفعل مندرجون فى سلك الظالمين ، يعلم ضمائرهم وما يتأتى منهم ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ ﴾ لك لتشتيت أمرك ، وتفريق أصحابك ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل غزوة تبوك ، أول ما قدمت المدينة ، ومن ذلك تخلف ابن أبىّ وأصحابه يوم أحد بعد ماخرجوا إلى الغزو معك ، وكل هذا تنبيه على قدم عداوتهم ورسوخها ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ﴾ أجالوا الفكر فى كيدك ، وإبطال دينك بمكائد وحيل ، يطول شرحها ﴿ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ ﴾ النصر الإلهى ﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ عز وجل : دينه ﴿ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ له ، لما فى قلوبهم من المرض . فدخلوا فيه ظاهراً ، ثم شرع فى تفصيل فضائحهم فقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ﴾ فى القعود ﴿ وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ لاتوقعنى فى الفتنة ، أى العصيان والمخالفة : بأن تأذن لى وفيه إشعار بأنه لا محالة متخلف أذن له أو لم يؤذن ، أو لاتفتنى بضياع مالى وعيالى إذ لا كافل لهم بعدى ، أو لاتفتنى بنساء الروم ، لما روى أنه نزل فى الجد بن قيس ، قال له النبى صلى الله عليه وسلم : هل لك فى جلاد بنى الأصفر ، فقال إنى مغرم بالنساء : وأخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن فأفتتن ، قال تعالى ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ بالتخلف وإظهار النفاق ، وقرئ سقط وعذاب الآخرة أشق وأشد ، صدر الجملة بحرف التنبيه إشارة إلى كمال غباوتهم وجعلهم ساقطين فى الفتنة ، كالفراش الساقط فى النار بلا اختيار ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ لا محيص لهم عنها ، ولإحاطة أسبابها بهم ﴿ إِنْ تُصِبْكَ ﴾ فى بعض غزواتك ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ كنصر وغنيمة ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ لفرط عداوتهم وغاية حسدهم ، ليسوا مكتفين بالتخلف عنك ، بل يسوءهم ما يسرك ، ويسرهم ما يضرك ﴿ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ شدة أو هزيمة كيوم أحد ﴿ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا ﴾ بالحزم حين تخلفنا يحمدون رأيهم فى عدم الحضور معك ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ قبل هذه المصيبة ﴿ وَيَتَوَلَّوْا ﴾ عن متحدثهم بذلك ومجتمعهم له ، أو عن الرسول ﴿ وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بتخلفهم وبما أصابكم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ إصابته فى اللوح المحفوظ ، ولا راد لقضائه ﴿ هُوَ مَوْلَانَا ﴾ ناصرنا ومتولى أمورنا ، يفعل فى عبيده ما يشاء أو مولانا بنصرنا ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ لا على غيره لعلمهم أن لا مؤثر سواه ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ ﴾ فيه حذف إحدى التاءين من الأصل ، أى تنتظرون أن يقع ﴿ بِنَا إِلَّا إِحْدَى ﴾ العاقبتين ﴿ الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ تثنية حسنى مؤنث أحسن : النصر أو الشهادة ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ ﴾ ننتظر ﴿ بِكُمْ ﴾ إحدى السوأتين ﴿ أَنْ

يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ) بقارعة من السماء ، كما فعل بعاد وثمود ، (أَوْ بِأَيْدِينَا) بأن ينصرنا ونقتلكم على الكفر (فَتَرَبَّصُوا) عاقبة أمرنا (إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ) عاقبة أمركم وهذا النوع من الكلام يقوله الواثق بحاله ، الجازم بأمره فى معرض التهديد (قُلْ أَنْفِقُوا) فى سبيل الله (طَوْعًا أَوْ كَرْهًا) إنشاء ومعناه خبر (لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ) ما أنفقتموه رد لجد بن قيس : أعينك بمالى ، والآية عامة بعده ، لأمثاله الذين يزعمون أن لهم أعمالا تدفع عنهم العذاب وإنما لم يؤمنوا ونفى التقبل يحتمل أمرين : ألا يؤخذ منهم ، وألا يثابوا عليه ، وقوله (إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ) تعليل له على سبيل الاستئناف ، وما بعده بيان وتقرير له (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ) بالتأنيث للجمهور ، والتذكير لحمزة والكسائى (مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ) فاعل ، وأن تقبل مفعول (كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ) بيان لفسقهم الذى علل به (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى) جمع كسلان : متثاقلون (وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) النفقة لأنهم يعدونها مغرماً ، ولا يرجون للصلاة والإنفاق ثواباً ، ولا يخافون على تركهما عقاباً (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) أى لا تستحسن نعمنا عليهم ، فهى استدراج وإنما أسند الفعل إلى الأموال والأولاد ، مبالغة فى نهيه عنها ، فكأنها كافت كف إعجابها عنه (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ) أى أن يعذبهم (بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) بما يلقون بجمعها وحفظها من المتاعب ، وما يرون فيها من المصائب (وَتَزْهَقَ) تخرج (أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) فيعذبهم فى الآخرة أشد العذاب . قال فخر الدين : كون كثرة الأموال والأولاد سبباً للعذاب حاصل من وجوه منها : أنه كلما كان حب الإنسان للشىء أشد وأقوى ، كان حزنه وتألم قلبه على فراقه أعظم وأصعب . ثم عند الموت يعظم حزنه . وتشتد حسرته ، لمفارقته المحبوب ، فالمشغوف بحب المال والولد ، لا يزال فى تعب فى كسبها ثم يحتاج إلى متاعب أشد فى حفظها لأن حفظ المال بعد حصوله أصعب من اكتسابه . ثم لا ينتفع إلا بالقليل ، فالتعب كثير والنفع قليل . فالدنيا حلوة خضرة . والحواس الخمس مائلة إليها . فإذا استغرقت فيها انصرف الإنسان بكليته إليها . فيحرم ذكر الله وتحصل فى قلبه قسوة وكلما كان المال والجاه أكثر كانت تلك القسوة أقوى ؛ فيسبب زوال حب الله وحب الآخرة من القلب فكأنه عند الموت ينتقل من بستان إلى سجن ومن مجالسة الأقرباء إلى الغربة والكربة . فيعظم تألمه ويقوى حزنه ، ثم عند الحشر أعظم . اه (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ) أى مؤمنون (وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ) يخافون أن تفعلوا بهم كالمشركين ، فيحلفون تقية (لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً) مكاناً يلجأون إليه من حصن أو قلعة أو رأس جبل (أَوْ مَغَارَاتٍ) كهوف فى أعراض الجبال (أَوْ مُدَّخَلًا) موضعاً يدخلونه فينغمسون فيه (لَوَلَّوْا) انقلبوا وأقبلوا (إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ) يسرعون فى دخوله والانصراف عنكم ، إسراعاً لا يرده شىء كالفرس الجموح (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ) وليعقوب ضم الميم ولابن كثير يلامزك : يعيبك (فِى) قسم (الصَّدَقَاتِ) كذى الخويصرة ، رأس الخوارج (فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا

رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ وإذا للفاجأة نابت مناب الفاء الجزائية ، وفيها إشارة إلى غاية شرههم وعدم إنصافهم ، وأنهم بمجرد عدم الإعطاء يفاجئهم السخط من غير تأمل ، فى أن عدم إعطائهم هل لمصلحة دينية أم لا ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾ من الغنائم ونحوها ، وإن كان قليلا ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا ﴾ كافينا ﴿ اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ رزقه الواسع من غنيمة أخرى ، مايكفينا ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ فيوفر لنا ما فاتنا ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ إلى رضاه ، وإلى ثوابه ، لا إلى الغنائم والأموال . وجواب لو محذوف : أى لكان خيراً لهم ثم بين مصارف الصدقات تصويباً وتحقيقاً لما فعله الرسول عليه السلام فقال ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ أى الزكاة ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ الذين لهم ما ينفقون لكن لا يكفيهم لعيش عامهم ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ من لا شىء لهم وهم أحوج من الفقراء ، وقد أكثر الناس فى الفرق بينهما ، وما ذكرنا هو فرق المالكية . وقيل الفقير من لا مال له ولا كسب ، والمسكين من له مال أو كسب لا يكفيه . وقيل بالعكس ، وقيل الفقير هو الذى لا مال له ، إلا أنه لا يسأل لتعفف مفرط أو لبُلغة لا تكفى ، والمسكين من قارن فقره تذلل وسؤال ، وقيل هما بمعنى بشرط أن يكون كلٌّ منهما حراً مسلما ، غير هاشمى ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى الصدقات من جابٍ وقاسم وكاتب وحاشر ، ولهم قدر تعبهم ، بشرط أن يكون العامل عالماً بحكمها : من تدفع له ، ومن تؤخذ منه ، وقدر مايؤخذ وما تؤخذ فيه : لئلا يأخذ غير حق أو يضيع حقاً أو يمنع مستحقاً ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ ليسلموا أو ليتمكن إسلامهم أو ليسلم أتباعهم أو ليذبوا عن المسلمين : أقسام ، والأخير لايعطى الآن ، بخلاف الأول عندنا لحكمه باق إن احتيج إليه بأن قوى الظن فى دخوله فى الإسلام بذلك ﴿ وَفِي ﴾ إعتاق ﴿ الرِّقَابِ ﴾ بأن تبتاع بها وتعتق وولاؤها للمسلمين : هذا مذهب مالك وأحمد . وقال الشافعية فى فك المكاتبين أو الأسارى : والعدول عن اللام إلى فى : للدلالة على أن الاستحقاق للجهة لا للرقاب أو للإيذان بأنهم أحق بها ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ أهل الدَّين إن استدانوا لأنفسهم فى غير معصية ، أو تابوا وليس لهم وفاء أو لإصلاح ذات البين ، بشرط إن أعطى الغارم مابيده من عين وفضل غيرها ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى القائمين بالجهاد ممن لا فىء لهم ، ولو أغنياء ، وفى آلات الحرب والقراع ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ المنقطع عن ماله ، وإن كان غنياً فى بلده ﴿ فَرِيضَةً ﴾ مصدر مؤكد لما دلت عليه الآية : لأن معنى « إنما الصدقات » للذكورين أن الله فرضها لهم فريضة ، أو حال من الضمير المستكن فى للفقراء ﴿ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يعلم موضع الاستحقاق ، فلذا حصر الصدقات فى الأصناف الثمانية ، فلا يجوز صرفها لغير هؤلاء ويجوز صرفها إلى صنف واحد ، وإن تمكن من غيره عند الأئمة الثلاثة ، خلافاً للشافعى فلا بد من تعميم الأصناف عنده إن أمكن وقسمها عليهم على السواء ومذهب مالك أن القسم على قدر الاجتهاد وبحسب الحاجة ، ويندب لمتولى تفرقها إماماً أو مالكا : إيثار المضطر على غيره ، ويندب للمالك الاستنابة . وقد تجب للجهل أو خوف الرياء : فاللام فى « للفقراء » للملك

عند الشافعي ، ولشبهه وهو الاختصاص عند غيره ، ووجب نية الزكاة عند الإخراج ، وتفرقها بموضع الوجوب أو قربه ، فلا تنقل إلا إلى أعدم ينقل إليه أكثرها ، ويدفع الأقل لأهل البلد إن أمكن وإلا بيعت واشترى مثلها هناك إن أمكن وإلا فرق الثمن عليه ، وإن نقلت لفون أهل البلد في الاحتياج أو دفعت باجتهاد لغير مستحق أو لجائر في صرفها لم تجز . قال ابن حبيب : يجب على الإمام أن يأمر السعاة بتفريقها في المواضع التي جبيت فيها ، ولا يحمل شيء منها إلى الإمام . اه . قلت : إلا ما تقدم بأن يكون عنده أعدم . وفي البخاري أنه صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له «أعلمهم بأن الله قد فرض عليهم زكاة أموالهم أن تؤخذ من أغنيائهم فترد إلى فقرائهم» ولذا لم يجوز الشافعي النقل مطلقاً والله أعلم ﴿وَمِنْهُمُ﴾ أي من المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بأنواع من الإذاية كتثبيه ونقل حديثه ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يسمع كل قيل ويقبله ، فإذا حلفنا له أنا لم نقل صدقنا ، أي فنحن لا نبالي بالوقوع فيه . وهذا تنقص بقلة الحزم ، ومن القائلين ذلك نبتل بن الحارث . وقال ابن عباس أرادوا أنه يسمع كل ما ينقل عنا ويصغى إليه ، وهذا كشف منه عليه السلام سموه بالجارحة مبالغة : كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة السماع ﴿قُلْ﴾ هو ﴿أُذُنُ﴾ مستمع ﴿خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ لا مستمع شر : تصديق لهم بأنه أذن ، ولكن لا على الوجه الذي نموه به ، بل من حيث أنه يسمع الخير ويقبله ، والخير هنا الصلاح ، لا أفعل تفضيل ، وقرأ نافع بسكون الذال والباقون بضمها في الموضعين ، ثم بيّن وجه كونه خيراً لهم بقوله ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يصدق به لما قام عنده من الأدلة ﴿وَيُؤْمِنُ﴾ يصدق ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيما أخبروا به لما علم من خلوصهم لا لغيرهم واللام زائدة للفرق بين إيمان التسليم وإيمان الأمان ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بالرفع للجمهور عطفاً على «أذن» والجر لحمزة عطفاً على «خير» ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سره ، وفيه تنبيه على أنه ليس يقبل قولكم جهلا بحالكم ، بل رفقاً بكم وترحماً عليكم ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ردع للمنافقين عن مثل تلك المقالة ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ، فيما بلغكم عنهم من أذى الرسول أنهم ما أتوه ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ بالاعتذار ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ بالطاعة ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ حقا ، تخطئة لهم فيما يأتونه وتكذيب لهم في أيمانهم ، وتوحيد الضمير لتلازم الرضاءين أو خبر الله أو رسوله محذوف ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ﴾ أي الشأن ﴿مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يشاقهما ويعاديهما ، من الحد لأن كلا من المتعاديين في حد دون الحد الآخر : إنكار لعدم علمهم : فيفيد الإثبات والتقرير ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ جزاء ﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ أي لحق أن له جهنم لحذف الخبر العلم به ، وقيل «إن» تأكيد للأول ، و«له» هو الخبر ، ويجوز أن يكون عطفاً على جواب «من» محذوفاً تقديره ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك ، فإن له نار جهنم ﴿ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ ولا خزي فوق الخلود في النار ﴿يَحْذَرُ﴾ يخاف ﴿الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي

قُلُوبِهِمْ ﴾ من النفاق وهم مع ذلك يستهزئون ، ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين : فالنازل فيهم كالنازل عليهم . وقيل إنه خبر بمعنى الأمر ، وقيل كانوا يقولونه بينهم استهزاء لقوله ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾ أمر تهديد ﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ﴾ مظهر ﴿ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ إخراجه من نفاقكم أو من إنزال السورة فيكم وإظهار مساويكم ﴿ وَلَئِنْ ﴾ لام قسم ﴿ سَأَلْتَهُمْ ﴾ عن استهزائهم بك وبالقرآن وهم سائرون معك إلى تبوك بقولهم : انظروا إلى هذا الذى يريد أن يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بنى الأصفر ، هيهات هيهات ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ معتذرين ، ومن القائلين : وديعة بن ثابت ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ فى الحديث لنقطع به الطريق ، ولم نقصد إهانة أمرك وأمر أصحابك ، ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ والاستهزاء برسول الله يستلزم الاستهزاء بالله وآياته ، وذلك تكذيب لهم فى الاعتذار وإلزام للحجة باستهزاء من لا يصلح الاستهزاء به ، ولذا قال ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ عن هذا ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ أظهرتم الكفر بالاستهزاء بالرسول والطعن فيه ﴿ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ بعد إظهاركم الإيمان به ﴿ إِنْ نَعْفُ ﴾ بالياء مبنياً للمفعول للجمهور أو النون مبنياً للفاعل العاصم ﴿ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ ﴾ بتوبتها أو إخلاصها كمخشى بن حمير ﴿ نُعَذِّبْ ﴾ بالتاء للجمهور والنون لعاصم ﴿ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ مصرين على النفاق والاستهزاء أو مقدمين على إيذاء الرسول ، وقد جرت سنة الله فى خلقه بأن من يطعن فى رسوله أو فى شريعته وسنته أن يعجل له العذاب فى الدنيا ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ متشابهون فى النفاق والبعد عن الإيمان ، كأبعاض الشىء الواحد ، وهو تكذيب بهم فى حلفهم بالله إنهم لمنكم ، والدليل على ذلك مضادة حالهم لحال المؤمنين المبين بقوله ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ ﴾ شرعاً من الكفر والمعاصى ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ الإيمان والطاعة ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ عن الإنفاق فى الطاعة كناية عن الشح ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ تركوا طاعته وذكره ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ تركهم من لطفه وفضله ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ الكاملون فى الخروج عن دائرة الخير ، ولما بين جرائمهم التى هى أسباب العذاب أشار إلى ما أعد لهم تلا يظن أنهم كالشىء المنسى بقوله ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ جزاء وعقاباً ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أبعدهم عن رحمته ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ دائم لا ينقطع توكيد للخلود لئلا يظن به المكث الطويل ورد لما يزعمه الملحدة بأن الخلود فى النار لا يستلزم العذاب لأنه يصير معتاداً ، وأجلُّ النقم للمنافقين لعنة الله كما أن أجل النعم للمؤمنين رضوان الله ، أنتم أيها المنافقون ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى مثلهم ، أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم : خطاب المنافقين على طريق الالتفات ، توبيخاً لهم بذلك بعد علمهم بما حل بهم ، ثم بيّن وجه الشبه بقوله ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾ فلم يغنهم شيئاً فأنتم أولى ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ﴾ نصيبهم من الدنيا من الخلق بمعنى التقدير ، فإنه ما قدر لصاحبه ، أو هو الشىء الذى هو به خليق ، ذم لهم بقصر النظر على الفانى والذهول عن الباقى ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ ﴾

أيها المنافقون ﴿ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ﴾ ذم للأولين تمهيداً لذم المخاطبين المشبهين بهم ، أى غفلتم عن أمر الآخرة كما غفلوا ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ فى الباطل والطعن فى النبى ﴿ كَالَّذِى خَاضُوا ﴾ أى كخوضهم أو كالفوج الذى خاضوا فيه ﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ لم يستحقوا عليها ثواباً فى الدارين ، أما فى الدنيا فلأنهم مرضوا وماتوا وذلوا ، وأما فى الآخرة فالخلود الدائم فى النار فأولى هؤلاء ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون فى الخسران ، إذ لا خسران فوق خسارة الدارين ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ أى هؤلاء المنافقين ﴿ نَبَأُ ﴾ خبر ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من تكذيبهم وإهلاكهم ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أهلكوا بالطوفان ﴿ وَعَادٍ ﴾ قوم هود بريح صرصر ﴿ وَثَمُودَ ﴾ قوم صالح بالرجفة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ نمرود وأتباعه بالبعوض ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ قوم شعيب بالنار يوم الظلة ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قرى قوم لوط التى انقلبت بهم فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل ، أو جميع قرى المكذبين انقلبت أحوالها من الخير إلى الشر ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ المعجزات الواضحات فكذبوهم فأهلكوا ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ بأن يعذبهم بغير ذنب ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بارتكاب الذنب ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ عطف قصة على قصة جمعا بين الترغيب والترهيب ، على ماهو سنته تعالى فى كتابه ومقابلة بين الأضداد فى الجزاء ، وبضدها تتميز الأشياء ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى سائر الأمور ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ لا محالة ، فإن السين مؤكدة للوقوع فى الإثبات مثل « لن » فى النفى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ لا يعجزه شىء من إنجاز وعده ووعيده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يضع شيئاً إلا فى محله ، ولذا رتب الثواب على الحسنات والعقاب على السيئات ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ وكل هذا تفصيل لما أجمله فى قوله « سيرحمهم الله » وفى البخارى : إن للمؤمن قبة من ياقوتة حمراء طولها ستون ميلا وله فى كل زاوية منها أهلون ﴿ فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ إقامة ، والحديث إن عدناً دار الله التى لا يسكنها إلا النبيون والصديقون والشهداء ، ليس له أصل ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أعظم من ذلك كله . وفى البخارى ومسلم يقول الله لأهل الجنة : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ، أحلُّ عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذى يستحقر دونه الدنيا وما فيها ، قال الإمام الفخر : وإنما كان الرضوان أكبر لأنه نعيم روحانى وهو أشرف من النعيم الجسمانى . اهـ . وقال ابن عطية : الرضوان مقام المقربين ، وجميع من فى الجنة راض بمنزله ، والمنازل مختلفة وفضل الله متسع ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾ بالسيف ﴿ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ بالحجة وإقامة الحدود والتعنيف واكفهرار الوجه ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ فى الأفعال والأقوال بالانتهار والمقت ، ولا تحابهم ، وهو ضد ما أمر فى المؤمنين بقوله « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ﴿ وَمَأْوَاهُمْ

جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ قتلوا أو ماتوا ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ أى المنافقون ﴿ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾ ما بلغك عنهم من السب . أقام صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ، فى عيب المتخلفين ، فقال الجلاس بن سويد : والله لئن كان ما يقوله محمد حقاً لإخواننا الذين تخلفوا وهم ساداتنا لنحن شر من الحمير ، فقال له عامر بن قيس الأنصارى : والله إن محمداً لصادق ، وأنتم شر من الحمر . فبلغ ذلك رسول الله فاستحضر الجلاس ، فحلف بالله ماقال . فقال عامر : اللهم أنزل تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزل ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ هو قول الجلاس : لئن كان ما يقول محمد حقاً ، لأنه تكذيب له ، وهو كفر وقيل : قول عبد الله بن أبىّ « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » لأنه إهانة لرسول الله ، وهو كفر ، وهو دليل على أن الكفر يكون بكل ما يناقض الإيمان من الأقوال والأفعال وإن كان الإيمان لايكون إلا بلا إله إلا الله ﴿ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ أظهروا الكفر بعد إظهار الإسلام ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ من قتل رسول الله . توافق عليه خمسة عشر منهم مرجعه من تبوك بأن يدفعوه عن ظهر راحلته إلى الوادى ، إذا تسنم العقبة بالليل فأخبر النبى بذلك ، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها ، فسمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل ، وقعقعة السلاح ، فقال إليكم أعداء الله فهربوا : أو المراد إخراجه وإخراج المؤمنين من المدينة ، أو أن يتوجوا عبد الله بن أبىّ ، وإن لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا نَقَمُوا ﴾ ما عابوا وما كرهوا من أمر محمد شيئاً ﴿ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بالغنائم بعد شدة حاجتهم ، المعنى لم ينلهم منه إلا هذا الجميل ، وليس مما ينقم ، والاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أو العلل ﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا ﴾ كالجلاس : تاب وحسنت توبته ﴿ يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا ﴾ بالإصرار على النفاق ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِى الدُّنْيَا ﴾ بالخزى والإذلال ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ بالنار ﴿ وَمَا لَهُمْ فِى الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يحفظهم منه ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يمنعهم من العذاب ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ فيه إدغام التاء فى الأصل فى الصاد ﴿ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ بفعل ما يفعله أهل الصلاح من جميع أعمال البر ، وهو ثعلبة بن حاطب ، سأل النبى صلى الله عليه وسلم وقال أدع الله أن يرزقنى مالا ، فقال عليه السلام : يا ثعلبة قليل تؤدى شكره ،خير من كثير لاتطيقه ، فقال : والذى بعثك بالحق ، لئن رزقنى الله مالا ، لأعطين كل ذى حق حقه ، فدعا له ، فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود ، حتى ضاقت بها المدينة فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة ثم عن الجمعة . فسأل عنه رسول الله فقيل كثر ماله حتى لايسعه واد فقال : ياويح ثعلبة فبعث مصدقين لأخذ الصدقات ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ومرا بثعلبة وأقرآه الكتاب الذى فيه الفرائض فقال ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية . فارجعا حتى أرى رأيى . فنزلت ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا ﴾ عن طاعة الله ﴿ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ عن أداء زكاته ، وفيه دليل على أن من أدى زكاة ماله فارقه اسم البخل شرعاً ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾

جعل الله عاقبة فعلهم ﴿ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ثابتاً ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أى الله ، وهو يوم القيامة ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ من التصدق والصلاح ﴿ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ فيه فإن خلف الوعد متضمن الكذب . فجاء بعد ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم بزكاته فقال : إن الله منعنى أن أقبل منك . فجعل يحثو التراب على رأسه . ثم جاء بها إلى أبى بكر فلم يقبلها ، ثم إلى عمر فلم يقبلها . ثم إلى عثمان فلم يقبلها . ومات فى زمانه . ولم تقبل زكاته زجراً للباقين عن مثل فعله ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴾ أى المنافقون ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ﴾ ما أسروه فى أنفسهم ﴿ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ ما تناجوا بينهم ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ ماغاب عن العيان ، ونزل كما فى الصحيحين : لما جاء رجل بعد نزول آية الصدقة فتصدق بشىء كثير : فقال المنافقون مراء ، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله غنىٌّ عن صدقة هذا ﴿ الَّذِينَ ﴾ مبتدأ أو نصب على الذم ﴿ يَلْمِزُونَ ﴾ يعيبون ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ المتنفلين ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ التى لم تجب ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ طاقتهم فيأتون به ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ والخبر على الأول ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ جازاهم على سخريتهم ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حث على الصدقة أتى عبد الرحمن بن عوف إليه بأربعة آلاف درهم ، وعاصم بمائة وسق من تمر ، وأبو عقيل بصاع من تمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انثره فى الصدقات فقال المنافقون ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبى عقيل . لكنه أحب أن يذكر نفسه ، ليعطى من الصدقة ، فأكذبهم الله وأعلم أنهم تطوعوا به لله ، وأوعد المنافقين بقوله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الآخرة ، ولما ظهر نفاقهم للمؤمنين بهذه الآية جاءوا يعتذرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك ويقولون استغفر لنا . فنزل ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ لن يغفر الله لهم . لفظ أمر بمعنى الخبر ، أى إن شئت استغفر لهم ، وإن شئت فلا تستغفر لهم . تسوية فى عدم الإفادة . كما نص عليه بقوله ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ وإنما خيّر فى الاستغفار وتركه واختار الاستغفار مع عدم الفائدة ، كما قال عليه السلام : إنى خيرت فاخترت ، يعنى الاستغفار . رواه البخارى ، لأن عدم الفائدة وإن كان فى المستغفر له ، فلا يخلو من فوائد أخر ، من تطييب قلوب قراباتهم ، وإسلام بعضهم لذلك كما يأتى ، والمراد بالسبعين المبالغة فى كثرة الاستغفار ، وفى البخارى لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر لزدت عليها . وقيل : المراد العدد المخصوص لحديث البخارى أيضاً وسأزيد على السبعين فبين له حسم المغفرة بآية « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » قلت : والظاهر أنه لا تنافى بين الآيتين ، بل هما بمعنى كما بينه غير واحد من العلماء ، وأول الحديث الذى تقدم فى البخارى أن عمر بن الخطاب قال : لما مات عبد الله بن أبىّ . دُعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه ، فلما قام وثبت إليه ، وأخذت ثوبه ، فقلت : يارسول الله أتصلى على ابن أبىّ ، وقد قال يوم كذا كذا وكذا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : أخر عنى ، فلما أكثرت عليه

قال : إنى خيرت فاخترت . ولو أعلم أنى إن زدت على سبعين يغفر له ، لزدت عليه . قال : فصلى عليه ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً ، حتى نزل «ولا تصل على أحد منهم - إلى قوله - وهم فاسقون» . اهـ . واعلم أن رسول الله قد علم أن لا مفهوم للعدد ، ولم يرد منه الحصر . وإنما فعل ما فعل تطييباً لقلب ابنه الصالح مع أن ظاهر إسلامه يقتضى الصلاة عليه ، وإن لم ينفعه عند الله كما قال عليه السلام : وما ينهى قبيحى عنه من الله ، وإنى لأرجو أن يسلم بذلك ألف من قومه ، وقد روى أن ألفا من الخزرج المنافقين أسلموا لما رأوا ابن أبىّ يطلب من رسول الله أن يكفنه بثوبه ، ويتوقع اندفاع العذاب عنه بذلك ، ثم بين الله مانع المغفرة ، فقال ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ المتمردين فى كفرهم وهو كالدليل على الحكم السابق ، فإن مغفرة الكافر تحصل بالإقلاع عن الكفر ، والإرشاد إلى الحق ، والمنهمك فى كفره لا يقلع ولا يهتدى ، قال البيضاوى : وهو تنبيه على عذر رسول الله فى استغفاره لهم قبل يأسه عن إيمانهم ، وقيل علم أنهم مطبوعون على الضلالة والممنوع هو الاستغفار بعد العلم . اهـ . قال السيوطى فى التوشيح استشكل فهم التخيير من الآية ، حتى أقدم جماعة من الأكابر على الطعن فى صحة الحديث ، يعنى حديث «إنى خيرت فاخترت» لأن ما يفهم من الآية التسوية بين الاستغفار وتركه ، كما فهمه عمر رضى الله عنه . وكما يقتضيه سياق القصة : من قوله ذلك بأنهم كفروا بالله الآية . وأجيب بأن قوله «ذلك بأنهم ... إلى آخره» لم ينزل مع أول الآية ، بل تراخى نزوله ففهم صلى الله عليه وسلم من ذلك القدر النازل ما هو الظاهر من أن أو للتخيير ، وأن العدد له مفهوم . اهـ قلت : هذا الجواب عندى غير ظاهر ، وأين دليل تراخى آخر الآية ، وكيف يخفى على أفصح العرب وأعلمهم بأساليب الكلام أن مراد السبعين الكثرة . مع أن الظاهر عدم تفريق الآية الواحدة . قال الزمخشرى : لم يخف على رسول الله مراد الآية . لكنه قال سأزيد على السبعين إظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليهم ، دعاء لهم إلى التراحم ، وتعقبه بعضهم بأنه يجب عليه إظهار ما علم من الله فى أمر الكفار ، وما يترتب عليه من العقاب للزجر . اهـ والله أعلم . ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ عن تبوك ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ ﴾ أى بعد ﴿ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أو الخلاف بمعنى المخالفة وحينئذ نصب على العلة أو الحال ، ولم يقل المتخلفون إشارة إلى أنهم جعلوا كالمعاذير الذين خلفوا لعدم الانتفاع بهم ، وهو توبيخ فى ضمنه وعيد مع التحقير بلفظ المخلفين بمعنى الذين أبعدهم الله من رضاه ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فى إعلاء دينه إيثاراً للدعة على الطاعة خلاف المؤمنين الذين أنساهم الإيمان والإيقان كل لذة فى مرضاة الله ، حتى بذلوا الأموال والمهج ، وكان بذل ذلك ألذ شىء عندهم وأشهى ﴿ وَقَالُوا ﴾ قال بعضهم لبعض تثبيطاً لما استنفرهم النبى إلى تبوك ﴿ لَا تَنْفِرُوا ﴾ لا تخرجوا إلى الجهاد ﴿ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ من حر الخروج إلى تبوك وقد آثروها بالمخالفة فالأولى أن يتقوها بترك التخلف ﴿ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ يعلمون ذلك ما تخلفوا

تجهيل لهم وتخطئة لآرائهم ؛ لأن من ترك مشقة ساعة ، وكان موقناً بأنه يقع بذلك فى مشقة الأبد ، لم يكن أحد أجهل منه (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً) أى فسيضحكون قليلا (وَلْيَبْكُوا كَثِيراً) أى سيكون كثيراً ، وإنما أخرج فى صورة الأمر للدلالة على أن ذلك حتم واجب لا محالة ـ لأن الأمر للإيجاب ولا يحتمل الصدق والكذب ـ روى أن أهل النار يكون مدة بقاء الدنيا ، وقيل الضحك والبكاء كنايتان عن السرور والغم وعلى الوجهين أريد بالقلة العدم ؛ إذ لاضحك لهم رأساً ، قاله فى غاية الأمانى وفى أنوار التنزيل . قلت : وفيه نظر لأن المراد يضحكون فى الدنيا قليلا ويكون فى الآخرة كثيرا كما فى التكملة . وفى لباب التأويل المعنى أنهم وإن فرحوا وضحكوا طول أعمارهم فى الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم فى الآخرة لأن الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفانى بالنسبة إلى الدائم الباق قليل . وفى الجواهر « فليضحكوا قليلا » إشارة إلى مدة العمر فى الدنيا « وليبكوا كثيرا » إشارة إلى تأبيد الخلود فى النار إلى أن قال : وخرج ابن ماجه بسنده عن يزيد الرقاشى قال قال النبى صلى الله عليه وسلم « يرسل البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع ثم يبكون الدم حتى تصير فى وجوههم كهيئة الجداول ، لو أرسلت فيه السفن لجرت » اه . وفى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم ، لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) من الأعمال الخبيثة (فَإِنْ رَجَعَكَ) ردك يا محمد (اللَّهُ) من تبوك (إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ) من تخلف بالمدينة من المنافقين ، ولم يقل : فإن رجعت إياه إلى أنه لم يفعله إلا بإذن الله وأنه ملاحظ بعناية الله فى حركاته وسكناته (فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ) معك إلى غزوة أخرى (فَقُلْ) لهم (لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ) أبدا (وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) وهذه الآية من أخبار الغيب قبل كونه لأن رسول الله لم يقاتل عدوا بعد تبوك ولم يخرج إلى الغزو ، وقيل إخبار فى معنى النهى للمبالغة فوسمهم بسمة النفاق مخرجين عن ديوان الغزاة أهل الوفاق ، وفيه دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكر وخداع يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته لأن الله منع المنافقين من الخروج مع رسوله إلى الجهاد لما علم من مكرهم وخداعهم إذ خرجوا إلى الغزوات (إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) أى غزوة تبوك ، وكانت لبعد الشقة فيها وكثرة المشقة وشدة الحر وطيب الثمار محك الرجال ومسبار الإخلاص والنفاق ، والأولية إضافية (فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ) المتخلفين عن الغزو لعدم طاقتهم للجهاد كالمرضى والصبيان والنساء وهو أمر إهانة ، عصمنا الله من ذلك (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ) من الذين عرفت نفاقهم (مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) لدفن أو زيارة ، وتقدم أن الآية نزلت لما صلى النبى صلى الله عليه وسلم على ابن أبى فما صلى رسول الله بعدها على منافق ولا قام على قبره كما رواه الترمذى ، والمراد بالصلاة : الدعاء والاستغفار للميت ، وهو ممنوع فى حق الكافر كما بين العلة بقوله (إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) كافرون . وفيه جواز الصلاة على المؤمنين وهى كغسلهم وكفنهم ودفنهم واجبة عند الجمهور .

وفائدة وصف المنافقين بالفسق بعد الكفر : الإعلام بأن الكافر قد يكون يؤدى الأمانة ولا يخدع وهو أولى من الكافر الكذاب الماكر الخداع ، فبين أنهم ماتوا على هذه الأوصاف ، وقوله «ولا تقم على قبره» كناية عن ترك الدعاء له بعد دفنه ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم على قبور المسلمين يدعو للموتى ويقول «إن هذه القبور مملوءة ظلمة ، وإن الله ينورها بدعائى » هذه سنة دائرة عندنا غالبا أعنى السير إلى القبور والدعاء لأهلها ، وقوله « أبدا » ظرف منصوب بـ « لا تصل » و « منهم » صفة لأحد أو حال من الضمير فى مات ، أى مات حال كونه منهم أى متصفاً بصفة النفاق كقولهم : أنت منى . أى على طريقتى . قال القسطلانى : وهذا النهى عام فى كل من عرف نفاقه وإن كان سبب النزول خاصاً بعبد الله بن أبىّ ، وقد ورد ما يدل لنزولها فى عدد معين فيهم ابن أبىّ وغيره ممن علم الله بموته على الكفر بخلاف غيرهم الذين تابوا . فعن حذيفة رضى الله عنه : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى مُسِرٌّ إليك سرًّا فلا تذكره لأحد ، إنى نهيت أن أصلى على فلان وفلان وفلان رهط ذوى عدد من المنافقين» فلذا كان عمر بن الخطاب إذا أراد أن يصلى على أحد استتبع حذيفة فإن مشى معه وإلا لم يصل عليه . اهـ. ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ كرر هذا للتأكيد فى التحذير لكونه من الأمور المهمة التى يجب أن تكون نصب العين ، فإن النفوس مجبولة على حب الأموال والأولاد ، فأبصارها طامحة إلى ذلك وهى مغتبطة عليها وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى ، وقيل هذه الآية فى فريق غير الأول ، وعبر بالفاء هناك وبالواو هنا ، لترتيب الأولى على « كارهون » وكونهم كارهين للإنفاق إنما هو لإعجابهم بالأموال ، ولم يذكر هنا فلا وجه للفاء . وأسقط « لا » هنا لأنها دخلت هناك لزيادة التأكيد ليدل على أن الفريق الأول أكثر إعجاباً بما ذكر أو ليدل على أن إسقاطها وذكرها بمعنى ، ولم يذكر هنا اللام بل أن إعلاماً بأنه لا تفاوت بين الأمرين إذ التعليل فى أحكام الله محال ، وحيثما ورد حرف التعليل فمعناه « أنْ » كقوله «وما أمروا إلا ليعبدوا الله» وأسقط الحياة هنا تنبيهاً على أن الحياة الدنيا خسيسة لا تستحق الذكر فى كل محل . والله أعلم ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ أى طائفة من القرآن ﴿ أَنْ ﴾ بأن ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ ﴾ أى دوموا على ذلك أيها المؤمنون ، ويجوز أن تكون « أن » مفسرة ﴿ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ وقيل هذا الأمر وإن كان ظاهره العموم فهو مخصوص بالمنافقين أى : الواجب عليكم أيها المنافقون أن تؤمنوا بالله أولا ، وتجاهدوا مع رسوله ثانياً ، كى يفيدكم ذلك الجهاد فى الدارين ﴿ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ ﴾ ذوو الغنى وسعة المال ﴿ مِنْهُمْ ﴾ كالجد بن قيس ، خصهم بالذكر لأن الذم بهم ألزم ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ الذين لهم علة وعذر فى القعود كالزمنى والمرضى ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ جمع خالفة أى النساء اللاتى يخلفن فى البيوت أو للأخساء الذين لا خير فيهم . يقال : رجل خالفة أى : لا نفع فيه . حكى أن أعرابياً جاء أبا بكر وقال :

أنت الخليفة؟ فقال: لا، أنا الخالفة. وقد اشتهر فى النساء لقلة تفهمهن ﴿ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ الخير: أو مراد الله بالأمر بالجهاد وما فيه من السعادة وما فى التخلف من الشقاوة ﴿ لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ﴾ فقهوا ماذكر ﴿ جَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَٰٓئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَٰتُ ﴾ فى الدنيا والآخرة جمع خيرة المستحسن من كل شىء من منافع الدارين: النصر والغنيمة فى الدنيا والجنة والرضوان فى الآخرة وقيل الخيرات الحور لقوله « فيهن خيرات حسان » وهى جمع خيرة تخفيف خيِّرة ﴿ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ الفائزون بالمطالب، ثم فسر الفلاح بقوله ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ولما ذكر الله رؤساء المنافقين وما كانوا عليه وما آل أمرهم إليه من الموت على الكفر وأردفه بذكر رسول الله والمؤمنين الخالصين وما يؤول أمرهم إليه من النعيم المقيم ذكر الأعراب بقوله ﴿ وَجَآءَ الْمُعَذِّرُونَ ﴾ جمع معذر المقصر فى العذر يوهم أن له عذراً ولا عذر له من عذر فى الأمر إذا قصر فيه موهماً أن له عذراً ولا عذر له وهم أسد وغطفان استأذنوا فى التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال، أو رهط عامر بن الطفيل، قالوا: إن غزونا معك أغارت طيئ على أهالينا ومواشينا أو من عذر بمعنى اعتذر أى مهّد العذر، وفيه إدغام التاء فى الأصل فى الذال ﴿ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ سكان البوادى الذين لا معرفة لهم فى أمر الآخرة ولا رشد فى أمر الدنيا، ولذا يبالغون فى إظهار العذر حتى يظن بهم الكذب ﴿ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ فى القعود فأذن لهم على الحالين من كونهم معتذرين بالتصنع أو بالصحة ﴿ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فى ادعاء الإيمان من منافقى الأعراب عن المجىء للاعتذار، فمن ادعى الإيمان وتخلف عن الجهاد من غير إظهار عذر فقد تبين كذبه. وهؤلاء غير المعذرين، وهم الذين تخلفوا من غير شبهة عذر جرأة على الله، وقيل هم المعذرون فكذبهم بالاعتذار ﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴾ من الأعراب أو من المعذرين ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بالنار، ولما ذكر أصحاب الأعذار الباطلة عقبهم بأصحاب الأعذار الصحيحة عاذراً لهم بقوله ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ ﴾ جمع ضعيف، وهو الصحيح فى بدنه، العاجز عن الغزو وتحمل مشاق السفر والجهاد كالشيوخ والنساء والصبيان ومن خلق فى أصل الخلقة ضعيفاً ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ ﴾ جمع مريض كالأعمى والأعرج والزمنى وكل موصوف بمرض يمنع التمكن من الجهاد ﴿ وَلَا عَلَى ﴾ الفقراء العاجزين عن أهبة الجهاد ﴿ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ فى الزاد والسلاح ومؤنة السفر لأن العاجز عن نفقة الغزو معذور ﴿ حَرَجٌ ﴾ إثم فى التخلف عن الغزو. قال الإمام فخر الدين: لكن لم يجزم عليهم فمن خرج من هؤلاء ليعين المجاهدين بحسب القدرة إما بحفظ متاعهم أو تكثير سوادهم فإن ذلك له طاعة مقبولة بشرط أن لا يحمل نفسه كلا عليهم، ثم شرط لهم شرطاً فى نفى الإثم بالتخلف بقوله ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فى حال قعودهم بعدم الإرجاف والتثبيط مع طاعة الله بما أمكن سرا وعلانية وبما قدروا عليه قولا وفعلا يعود على الإسلام والمسلمين بالصلاح ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ بذلك

﴿ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ بالمؤاخذة ولا بالمعاتبة وضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم بذلك الناصح منخرطون فى سلك المحسنين ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ ﴾ للسيء فضلا عن المحسن ﴿ رَحِيمٌ ﴾ لم يشق على المعذورين ﴿ وَلَا ﴾ جناح ﴿ عَلَى الَّذِينَ ﴾ لاقدرة لهم على السفر إلى المحل الذى ندبتهم إليه فى التخلف عنك ﴿ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ عز الدواب أو الخفاف أو النعال إلى العدو معك وهم البكاءون وهم رهط أبى موسى الأشعرى وقيل هم بنو مقرن ستة إخوة لأب وأم وعلى هذا جمهور المفسرين . وقيل هم سبعة نفر من الأنصار من بطون شتى وقال مجاهد : هم بنو مكرز من مزينة . قال ابن العربى فى أحكامه : والقول بأن الآية نزلت فى أبى موسى وأصحابه هو الصحيح . اه ﴿ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ حال من كاف « أتوك » بتقدير قد وجواب إذا ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ انصرفوا ﴿ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ تسيل بكثرة ﴿ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ « من » بيانية . كأنه قيل أعينهم يسيل دمعها ، وآثر ذلك الأسلوب مبالغة فى سيلانها فكأن العين صارت دمعاً فياضاً فالجار والمجرور فى محل النصب على التمييز ﴿ حَزَناً ﴾ مفعول له أو مصدر لفعل دل عليه ما قبله ﴿ أَنْ لَا يَجِدُوا ﴾ لأجل أن لا يجدوا ﴿ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ فى الجهاد علة للعلة ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ بالعقوبة والمعاتبة ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ فى التخلف ﴿ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ واجدون للأهبة ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قبح ذلك . تقدم مثله ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ فى التخلف ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ من الغزو ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ بالمعاذير الكاذبة ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ لن نصدقكم : علة للنهى عن الاعتذار لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ أى بعضها مما تكتمون من الشر والفساد ، إشارة إلى آية « ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة » ونحوها . وهذا علة لانتفاء التصديق . لأن الله إذا أخبر بشىء لزم كذب ما ينافيه ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ أى يجعله محل ما يرى ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ أى سيرى دعواكم أنكم تحبون الله ورسوله فيما يستقبل بالطاعة أو سيرى أتتوبون عن الكفر أم تثبتون عليه : حث على التوبة والإخلاص ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ ﴾ بالبعث ﴿ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ فى وضع المظهر موضع المضمر مع ذكر الغيب والشهادة وعيد شديد وردع لهم عن مخالفة الباطن الظاهر ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم عليه لأنه المطلع على ما فى ضمائركم من الخيانة والكذب وإخلاف الوعد ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ ﴾ رجعتم ﴿ إِلَيْهِمْ ﴾ من تبوك أنهم معذورون فى التخلف ، إخبار بما سيفعلونه فى المستقبل . قيل هذا أول ما نزل فى شأن المنافقين فى غزوة تبوك ﴿ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ بترك المعاتبة ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ فلا توبخوهم . أو المعنى : لا تكلموهم ولا تجالسوهم ، طلبوا إعراض الصفح فأعطوا إعراض المقت . ثم ذكر علة أمر الإعراض عنهم بقوله ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ قذر لخبث باطنهم فلا ينفع فيهم التأنيب لأنهم أرجاس لا تقبل التطهير فقاولتهم كمخالطة النجس فيتلوث المخالط حتى لا سبيل إلى تطهيره ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ من تمام التعليل ، وكأنه قال إنهم أرجاس من أهل النار ،

لا ينفع فيهم التوبيخ فى الدنيا والآخرة أو تعليل ثان ، المعنى : أن النار كفتهم عتاباً فلا تتكلفوا عتابهم ﴿جَزَاءً﴾ نصب على المصدر أو العلة لكونهم من أهل جهنم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من النفاق ، ولما أمروا بالإعراض عن المنافقين المتخلفين فأعرضوا عنهم فشرع المنافقون فى استجلاب رضاهم بالأيمان الكاذبة نزل ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ وتدوموا معهم على الود الذى كان بينكم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أى عنهم والإتيان بالظاهر موضع المضمر لتعليل عدم الرضى ، والمعنى : إن رضاكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم لأن الأمر كله بيده عاجلا وآجلا ، وفيه إيماء إلى أن المؤمن لا يليق به مراضاة من كان فى سخط الله . قال البيضاوى : والمقصود من الآية النهى عن الرضى عنهم والاعتذار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض عنهم . اه . وقال فى الجواهر : هذا الحكم يستمر فى كل منصوص عليه ببدعة ونحوها ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أهل البدو المتبعون مساقط الغيث والكلأ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لجفائهم وغلظ طباعهم وبعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ لأن من بقى فى مواشيه وآثر مسقط رأسه لا يخلو قلبه من الكفر والنفاق لأن خوفهم هناك أقل ممن فى المدن فألسنتهم مطلقة ، وفى الصحيح « الجفاء فى الفدادين أهل الوبر عند أصول أذناب الإبل » ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أولى وأحق ﴿أَنْ﴾ أى بأن ﴿لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ من الأحكام والشرائع الأصول والفروع ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ كامل العلم بكل شخص ﴿حَكِيمٌ﴾ فى كل مايصنع ، ولذا أطلعكم على مراتب المنافقين وأسرارهم لتعاملوا كل أحد على حسب حاله من أهل المدر والوبر ولما حكم على جنس الأعراب ما حكم ، والحكم عليه لا يستلزم الحكم على جميع أفراده فصل أفراده قسمين أشار إلى الأول بقوله ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ فى سبيل الله ﴿مَغْرَمًا﴾ لا مغنما أى : غرامة وخسراناً وهى ما يصرفه الرجل فيما لا يلزمه كرهاً لأنه لا يرجو ثوابه بل ينفقه خوفاً أو رياء وهم بنو أسد وغطفان وتميم وعامر ﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ ينتظر ﴿بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ دوائر الزمان أن تنقلب عليكم فيتخلص من الإنفاق جمع دائرة ما يحيط بالإنسان من كل جانب ويدور عليه أى يتربصون موت الرسول فيظهر المشركون ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ بفتح السين للجمهور وضمها لابن كثير وأبى عمرو أى يدور العذاب والهلاك عليهم لا عليكم : دعاء عليهم بنحو ما يتربصون وفيه من الدلالة على شدة غضب الله عليهم ما لا يكنه لأن من أمره بين الكاف والنون يطلب من نفسه إصابتهم بالسوء ، ويحتمل أنه إخبار عن وقوع ما يتربصون عليهم ولا يرون فى محمد ودينه وأصحابه إلا ما يسوءهم والدائرة فى الأصل مصدر أو اسم فاعل من دار يدور سمى بها عاقبة الزمان ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون بأفواههم نفاقاً ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائرهم وما فيها من الكفر والغش وإرادة السوء للمؤمنين ؛ ثم أشار إلى القسم الثانى من الأعراب بقوله ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كجهينة ومزينة وأسلم وغفار وبنى مقرن ؛ وفى الصحيحين أن الأقرع بن حابس التميمى قال للنبى صلى الله عليه وسلم

إنما تابعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وجهينة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وجهينة خيراً من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان . قال : خابوا وخسروا . قال : نعم . أي هم خير منهم . وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها » وفي رواية قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله ﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ ﴾ في سبيله ﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ أي سبب قربة ﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ وهي ثاني مفعولي « يتخذ » وعند الله صفتها أو ظرف ليتخذ ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ أي ووسيلة إلى دعواته لأنه عليه السلام كان يدعو المتصدقين ويستغفر لهم ، ولذلك سُنّ للمتصدق أن يدعو المتصدق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلي عليه كما قال عليه السلام : اللهم صل على آل أبي أوفى لأنه منصب فله أن يتفضل به على غيره . قاله البيضاوي ﴿ أَلَا إِنَّهَا ﴾ أي نفقتهم ﴿ قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ بضم الراء لورش وسكونها لغيره : لغتان ، شهادة من الله بصحة معتقدهم وبشارة بتصديق رجائهم على الاستئناف مع حرف التنبيه ، و « إنّ » المحققة للنسبة ، وأفرد القربة إشارة إلى تلك القربات بمثابة القربة الواحدة التي لا تقبل التجزئة ردّاً وقبولاً بل كلها مقبولة ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ جنته دليل على القبول والرضى ، والسين لتحقيق الوعد ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ لأهل طاعته ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم حيث قبل منهم وأجزل في الثواب تفضلاً تقرير لما سبق ، ولما بين جزاء المخلصين من مؤمني الأعراب الذين لا سابقة لهم في الإسلام ولا كمال في العرفان أشار إلى أكمل الفرق الذين حازوا قصب السبق في مضمار السعادة وبين منزلتهم عنده وما أعد لهم بقوله ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ ﴾ وهم من صلى إلى القبلتين أو من شهد بدراً ، وقيل : الذين أسلموا قبل الهجرة من الطائفتين ، وقيل من سبق إلى الهجرة والنصرة مطلقاً لإطلاق اللفظ . قال ابن العربي في الأحكام : هم على ثمان مراتب : الأولى : الخلفاء الأربعة وسعد وبلال وغيرهم ، الثانية : أصحاب دار الأرقم ، الثالثة : مهاجرة الحبشة كالزبير وغيره ، الرابعة : أصحاب العقبتين من الأنصار ، والخامسة : من أدرك النبي بقباء قبل أن يدخل المدينة ، السادسة : من صلى إلى القبلتين ، السابعة : أهل بدر ، الثامنة : أهل الحديبية وهم الرضوانية وبهم انقطعت الأولية . اهـ . وعلم من الآية أن السابق إلى كل خير أفضل من التالي ، وقيل السابقون هم جميع الصحابة ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم ﴾ إلى يوم القيامة ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ في العمل والسابقون مبتدأ والخبر الأولون أو من المهاجرين أو قوله ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بقبول طاعتهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بما نالوا من الكرامة في الدارين ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ولابن كثير زيادة « من » هنا ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذي لا يحاط به ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ يا أهل المدينة ﴿ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾ كمصينة ورعل وذكوان ولحيان ، قال في غاية الأماني : والقول بأن منهم أسلم وغفار سهو ظاهر ، لما روى البخاري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها » ودعا على عصية

لأنها عصت الله ورسوله . اه . وقال فى لباب التأويل : ذكر جماعة من المفسرين من المتأخرين : البغوى والواقدى وابن الجوزى : أنهم من أعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم : وكانت منازلهم حول المدينة واستشكل بأن النبى دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فإن صح نقل المفسرين فيحمل قوله «ومن حولكم من الأعراب منافقون» على القليل فإن لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبى صلى الله عليه وسلم على الأكثر والأغلب ، وبهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين وقول النبى صلى الله عليه وسلم فيه . اه ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ منافقون أيضا ﴿ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ لجوا فيه أو مهروا به أو استمروا عليه ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾ خطاب للنبى مع كمال فطنتك وصدق فراستك لتحاميهم مواقع التهم ، تقرير لتمردهم فيه ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ لاطلاعنا على السرائر وذوات الصدور ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ﴾ بالفضيحة باطلاعك على نفاقهم وإخراجك إياهم عن زمرة المسلمين إذ روى عن ابن عباس أنه عليه السلام أخرج أناسا من جماعته وفضحهم وبالحدود وثانيا بضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الموت وبعذاب القبر ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ ﴾ فى الآخرة ﴿ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ هو النار نعوذ بالله منه ﴿ وَءَاخَرُونَ ﴾ عطف على منافقون : أى ومنهم قوم آخرون ، أو عطف على قصة أخرى وهذا أولى فآخرون مبتدأ ﴿ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ من التخلف نعته والخبر ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا ﴾ وهو جهادهم قبل ذلك واعترافهم بذنوبهم أو جميع أعمال برهم ﴿ وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ وهو تخلفهم وغير ذلك ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ نزلت فى أبى لبابة وجماعة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم فى سوارى المسجد لما بلغهم ما نزل فى المخلفين وحلفوا أن لا يحلهم إلا النبى صلى الله عليه وسلم ، فحلف لا يحلهم ما لم يؤمر ، فحلهم لما نزلت ، والآية وإن نزلت فى قوم مخصوصين فعمومها معتبر فى جميع من كان كذلك ، لما فى البخارى عن سمرة بن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أتانى الليلة آتيان فابتعثانى فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر منهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء قالا لهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة ، فقالا : هذه جنة عدن وهؤلاء قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم» . اه قلت : وفى الآية من أنواع البلاغة الاحتباك ، أى خلطوا عملا صالحا بسيئ وآخر سيئا بصالح . ولما حل رسول الله المعترفين أتوه بأموالهم فقالوا تصدق بها عنا وطهرنا فقال : لا آخذ منها شيئا حتى أومر فأنزل الله ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ للتوبة أو للفرض أو للنفل ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ من ذنوبهم فأخذ ثلث أموالهم وتصدق بها ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ ادع لهم ﴿ إِنَّ صَلَوَاتَكَ ﴾ بالجمع للجمهور لتعدد المدعو لهم وبالإفراد لحمزة والكسائى وحفص ﴿ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ رحمة وطمأنينة فى قبول توبتهم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالهم واعترافهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم وندامتهم ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ إذا صحت وتعديته بعن لتضمنه معنى التجاوز ، والاستفهام للتقرير : أى علموا ذلك ، والضمير للمتوب عليهم والقصد تقرير قبول

توبتهم والاعتداد بصدقاتهم أو لغيرهم والقصد ترغيبهم فى التوبة والصدقة وحثهم عليهما ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ يقبلها نص صريح أن الله هو الآخذ للصدقات والنبى وعامله واسطة . وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه» . اه . قلت الفلو بضم الفاء وفتحها : المهر أول ما يولد للفرس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ من شأنه قبول التوبة تأكيد وتبشير وتحضيض على الإخلاص فى التوبة لأنه لا يخفى عليه خافية ﴿وَقُلِ﴾ لهم ﴿اعْمَلُوا﴾ أيها التائبون أو الناس ، ما يرضى الله أو ما شئتم ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ باطلاعه عليه ﴿وَرَسُولُهُ﴾ باطلاع الله وبالأمارات ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ بإخبار الرسول والأمارات إخلاصا ونفاقا ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ بالبعث أو الموت ﴿إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى الله ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه : فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين وإنما أردف ذكر المنافقين بقوله «وسيرى الله عملكم ورسوله» وزاد هنا بعد ذكر التائبين «والمؤمنون» لأن الاطلاع على حال المنافقين خاص بالله أو رسوله بالوحى، وأما الاطلاع على أحوال المؤمنين فمعلوم عند المؤمنين بالأعمال الظاهرة والقرائن . والله أعلم ﴿وَآخَرُونَ﴾ من المتخلفين ﴿مُرْجَوْنَ﴾ بالواو لنافع وحمزة والكسائى وبالهمزة لغيرهم ، مؤخرون عن التوبة أى لا يعلم هل تقبل توبتهم أم لا لعظم جنايتهم بالتخلف وعدم الاعتذار ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ فيهم بما يشاء ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بأن يميتهم بلا توبة ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ بالغفران ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال الخلق ، ومن ذلك ما فى قلوب هؤلاء ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يقضى عليهم من قبول التوبة وتأخيرها والمرجون هم الثلاثة الذين خلفوا كما يأتى : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقصتهم فى البخارى وفى السير مشهورة فلا نطول بذكرها ﴿وَالَّذِينَ﴾ بحذف الواو لنافع وابن عامر استئناف قصة للمنافقين مبتدأ محذوف الخبر أى منهم الذين أو خبر محذوف أى هم الذين ، وبالواو للباقين عطفا على «وآخرون اعترفوا» أو مرجون أو خبر محذوف أى ومنهم الذين ﴿اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ وهم اثنا عشر من منافق بنى غنم بن عوف لما رأوا إخوانهم بنى عمرو بن عوف بنوا مسجد قباء وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يزوره فى كل سبت راكبا وماشيا ، حسدوهم وبنوا مسجدا بأمر سيدهم أبى عامر الراهب ليؤمهم فيه إذا قدم من الشام ، فلما أتموه أتوا رسول الله فقالوا إنا قد بنينا مسجدا لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة فصل فيه حتى نتخذه مصلى ، فقال لهم : إنا على جناح سفر يعنى إلى تبوك فإذا قدمنا إن شاء الله صلينا ، فلما نزل وأراد الصلاة فيه نزلت ﴿ضِرَارًا﴾ مضارة لأهل قباء بصرف من جاور مسجدهم إلى مسجدهم ﴿وَكُفْرًا﴾ لأنهم بنوه بأمر أبى عامر الراهب ليهدم الإسلام بإخراج النبى وأصحابه من المدينة ، أى : لتقوية الكفر الذى يضمرونه ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يصلون بقباء لصلاة بعضهم فى مسجدهم ﴿وَإِرْصَادًا﴾ ترقبا ﴿لِمَنْ حَارَبَ

اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى قبل بنائه وهو أبو عامر المذكور وكان قد ترهب فى الجاهلية وتنصر فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة قال له : ما جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم . قال أبو عامر : فأنا عليها ، فقال له النبى : لست عليها ، فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريدا وحيدا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : آمين ، وسماه الفاسق والكاذب . وكان يسمى الراهب . فلما كانت وقعة أحد أخرج النفاق فقال للنبى لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فخرج فى جماعة من المنافقين لحرب النبى صلى الله عليه وسلم الأحزاب ، فلما طردت أقام بمكة ينصر الكفار ، ولما فتحت مكة هرب إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف هرب إلى الشام وكتب إلى المنافقين من قومه أن ابنوا مسجدا مقاومة لمسجد قباء فسآتى بجيش من الروم أخرج به محمدا وأصحابه من المدينة فبنوه فمات بقنسرين (١) وحيدا طريدا لعنه الله ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَرَدْنَا ﴾ ببنائه ﴿ إِلَّا ﴾ الفعلة أو الإرادة ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ من الرفق بالمسكين فى المطر والحر والتوسعة على المسلمين ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى ذلك ، وكانوا سألوا النبى أن يصلى فيه كما تقدم فنزل عند قفوله من تبوك وقد نزل بمكان يسمى بذى أوان ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ لمحة طرف فضلا عن العبادة فيه ، فأرسل جماعة فهدموه وحرقوه وجعلوا مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والأقذار والقمامات ، وكان النبى لا يمر بالطريق التى هو فيها ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ ﴾ بنيت قواعده ﴿ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ بنى وضع أساسه على التقوى لم يدخله رياء ما وضع حجر منه على حجر إلا قصد التقوى بذلك وهو مسجدك الذى بنيته وأسسته فقه وهو مسجد المدينة كما فى صحيح مسلم والترمذى : أنه عليه السلام حين سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى ، قال : هو مسجدى هذا . وبه قال مالك ، وقيل هو مسجد قباء الذى وضع من أول يوم حلت بدار الهجرة لأن الكلام فيه وفى مسجد الضرار . قال البيضاوى : وهو أوفق للقصة ، قال فى غاية الأمانى : ولا دلالة فى اللفظ على الوحدة بل كل منهما أسس على التقوى ، وإشارته صلى الله عليه وسلم إلى مسجد المدينة حين سئل لاشتهار مسجد قباء بذلك واللام للابتداء أو القسم والخبر ﴿ أَحَقُّ ﴾ منه ﴿ أَنْ ﴾ أى بأن ﴿ تَقُومَ ﴾ تصلى ﴿ فِيهِ ﴾ لو بنى ذلك فقه كيف وقد بنى لأنواع من الكفر ، وقد قال فى الصحيحين « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة ومنبرى على حوضى » ﴿ فِيهِ رِجَالٌ ﴾ هم الصحابة على الأول والأنصار على الثانى ﴿ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ من المعاصى والخصال المذمومة طلبا لمرضاة الله أو من الأحداث والأخباث فلا يناموا على جنابة ويغسلون أدبارهم كما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فى مسجد قباء فقال « إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء فى الطهور فى قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذى تطهرون به ؟ » قالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا . قال السيوطى : رواه ابن خزيمة فى صحيحه . وقال ابن العربى : هذا الحديث لم يصح . وفى حديث رواه البزار ، قالوا : نتبع الحجارة بالماء فقال : هو ذاك فعليكموه ، قلت لكنه مستحب لا واجب لأن موضع الاستجمار معفو عنه للضرورة

(١) وقنسرين ، وقنسرون : بكسر النون فيهما ـ كورة بالشام . انظر القاموس .

لا لزوال حكم النجاسة لأنه لا يزول إلا بالماء المطلق ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ أى يثيبهم ، وفيه إدغام التاء فى الأصل فى الطاء ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ ﴾ بالبناء للمفعول لنافع وابن عامر وللفاعل للباقين ﴿ بُنْيَانَهُ عَلَى ﴾ قاعدة محكمة هى ﴿ تَقْوَى ﴾ مخافة ﴿ مِنَ اللَّهِ وَ ﴾ رجاء ﴿ رِضْوَانٍ ﴾ منه بالطاعة ﴿ خَيْرٌ أَمَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى ﴾ قاعدة هى أضعف القواعد وأرخاها هى ﴿ شَفَا ﴾ طرف ﴿ جُرُفٍ ﴾ بضم الراء للجمهور وسكونها لابن عامر وحمزة وأبى بكر جانب جرف السيل ذهب بأصله وهو مشرف على السقوط ساعة فساعة ﴿ هَارٍ ﴾ متصدع على صدد السقوط : شبه ما بنوا عليه أمر دينهم بما ذكر فى البطلان وسرعة الانطماس ثم رشحه بانهياره بقوله ﴿ فَانْهَارَ بِهِ ﴾ سقط مع بانيه ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ تصويرا بأن المبطل بصدد السقوط فى نار جهنم كل ساعة بالموت ، وهار : أصله هائر ، اسم فاعل هار مطاوع هوّرت البناء فهار هدمته أو هو منقوص على القلب . والله أعلم ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين خلقوا للنار ، قال فى الجواهر الحسان : والشفا : الحاشية والشفير ، وهار : معناه منهدم بال ، وتأسيس البناء على التقوى : إنما هو بحسن النية فيه وقصد وجه الله وإظهار شرعه كما صنع فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم وفى مسجد قباء ، والتأسيس على شفا جرف هار : إنما هو بفساد النية وقصد الرياء والتفريق بين المؤمنين ، فهذه تشبيهات صحيحة بارعة . اه . وقال ابن العربى : هذا يدل على أن كل شىء ابتدئ بنية تقوى الله فهو الذى يبقى لا غيره . اه . ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا ﴾ فهدم والبنيان مصدر أريد به المفعول ﴿ رِيبَةً ﴾ شكا وحزازة ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ زادوا بذلك بغضا للرسول ورسخ شكهم بحيث لا يزال رسمه عن قلوبهم ، قال الثعالبى فى الجواهر : والريبة فى هذه الآية أمر يعم الغيظ والحنق واعتقاد صواب فعلهم ونحو هذا مما يؤدى كله إلى الارتياب فى الإسلام إلى أن قال وبالجملة إن الريبة هنا تعم معانى كثيرة يأخذ كل منافق منها قدره من النفاق ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ ﴾ بالبناء للمفعول من التقطيع للجمهور ، وللفاعل بفتح التاء لابن عامر وحفص وحمزة مضارع تقطع بحذف إحدى التاءين ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ تفصل بأن يموتوا ، استثناء من أعم الأزمنة ، وقيل أن تقطع بالقتل أو فى القبر أو فى النار ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم وأغراضهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى أفعاله ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ بأن يبذلوها فى طاعته كالجهاد ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ مثل إثابة الله إياهم بالجنة على بذل الأموال والأنفس بالشراء اللازم من الطرفين ، وقدم الأنفس إشارة إلى أنهم ببذلها أسمح منهم ببذل الأموال ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ بيان للشراء أو خبر بمعنى الأمر ﴿ فَيَقْتُلُونَ ﴾ أعداء الله ﴿ وَيُقْتَلُونَ ﴾ فى طاعة الله تسليما للثمن ليتعين فإن المبيع قد تعيّن أو لأن هذا البيع لما كان فى المعنى سلما وجب تسليم رأس المال فيه ، وقرأ حمزة والكسائى بتقديم المبنى للمفعول أى يقتل بعضهم ويقاتل الباقى وفيه مدح لهم بالشجاعة ، وقراءة الجمهور أولى لعدم احتياجها إلى التأويل ولأن الرتبة العليا أن يقتل الإنسان الأعداء أولا ثم يقتل بجمع الفضيلتين على أن الواو لا يدل على الترتيب

وإسناد فعل البعض إلى الكل جائز ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ مصدران منصوبان بفعلهما المحذوف مؤكدان لما دل عليه الشراء فإنه فى معنى الوعد وكتب ذلك ﴿ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ كما هو المتعارف عند التجار إذا كان المبيع له قدر تكتب له الوثيقة ، وقد بالغ فى ذلك حين أنزله فى الكتب الثلاثة التى عليها مدار سائر الشرائع ، وفيه دليل على أن الأمر بالجهاد موجود فى جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى لا أحد أوفى منه ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا ﴾ فيه التفات عن الغيبة أى افرحوا فرحاً شديداً يظهر أثره فى بشرتكم ، والسين للتأكيد ﴿ بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ لأنه أوجب لكم غاية المطلوب كما قال ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ البيع ﴿ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ الذى لا فوز فوقه ولا مرغوب أحسن منه ، وهذه الآية نزلت فى بيعة العقبة الثانية التى أناف فيها رجال الأنصار على السبعين فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك . فقال : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسى: أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم ، ولأصحابى : المواساة فى ذات أيديكم . فقالوا : هذا لك ، فما لنا؟ قال : الجنة ، قالوا : نعم ربح البيع لا نقيل ولا نقال فيه . قال الثعالبى : ثم هذه البيعة عامة فى كل مؤمن جاهد إلى يوم القيامة . اه . وما من مسلم إلا وقد فى عنقه هذه البيعة وفى بها أو لم يف ، وقد علمت أن الشراء مجاز عن التفضل بالثواب لأن المشترى إنما يشترى ما لا يملك ، والأشياء كلها ملك لله ، ولذا قال الحسن : أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها لكن جرى هذا مجرى التلطف فى الدعاء إلى الطاعة والجهاد . اه . قال الفخر : واعلم أن هذه الآية مشتملة على أنواع من التأكيدات . أولها : كون المشترى هو الله المقدس عن الكذب والحيلة وذلك من أدل الدلائل على تأكيد هذا العهد ، والثانى : التعبير عن إيصال الثواب بالبيع والشراء وذلك حق مؤكد ، والثالث : قوله « وعداً » ووعد الله حق ، والرابع : كلمة « على » التى للوجوب ، والخامس : كلمة « حقاً » التى هى تأكيد التحقيق ، والسادس : فى التوراة والإنجيل والقرآن الجارى مجرى إشهاد جميع الكتب الإلهية وجميع الأنبياء والمرسلين على هذه المبايعة ، والسابع : « ومن أوفى بعهده من الله » وهو غاية التأكيد ، والثامن « فاستبشروا » وهو مبالغة فى التأكيد ، والتاسع : « وذلك هو الفوز » ، والعاشر : « العظيم » . اه . ثم ذكر صفات من اشترى أنفسهم وأموالهم بقوله ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ رفع على المدح بتقدير مبتدأ ، أى من الشرك والنفاق وكل معصية ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ المخلصون العبادة لله ، فرسان بالنهار ، رهبان بالليل ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ على نعمه الدنيوية والأخروية فى السراء والضراء ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ فى الأرض للاعتبار بمصنوعاته ، أو الجائلون بأفكارهم فى قدرة الله ، أو المجاهدون ، أو طلاب العلم ، وقيل : الصائمون ؛ لحديث : « سياحة أمتى الصوم » . قال بعض العلماء : لما فسد الزمان صارت السياحة الخروج عن الخلق ﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ فى صلواتهم لا كأهل الكتاب ﴿ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ ما عرف من الشرع حسنه ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ما أنكره الشرع وعطف أحدهما

على الآخر لكونهما فى المعنى واحد كأنه قال الجامعون بين هذين الوصفين ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ أحكامه بالعمل بها من عطف العام على الخاص ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ هؤلاء الموصوفين . وضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى أن الحامل على تلك الخصال هو الإيمان ، وحذف المبشر به إيماء إلى أنه من العظم بحيث لايحيط به الوصف أو العلم به ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾ ذوى قرابة كالأب والأم ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ النار بأن ماتوا على الكفر . روى البخارى مرفوعاً أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال : يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج بها لك عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكانت آخر كلمة قالها إنه على ملة عبد المطلب . فقال رسول الله : أما إنى لأستغفرن لك مالم أنه عنه ، فنزلت الآية . قال حذاق أهل التفسير : لايشكل على هذا كون أبى طالب مات بمكة والآية نزلت فى غزوة تبوك لأنه عليه السلام كان يستغفر له إلى وقت نزولها . قال الثعالبى : فالآية ناسخة لفعله إذ أفعاله فى حكم الشرع المستقر ، وكان المؤمنون يستغفرون لموتاهم ، فلذلك أدخلوا فى النهى ، وقيل نزلت فى زيارته لأمه لما فى مسلم أنه زارها وبكى ، وقال : استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى . وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم إذ هو طلب توفيقهم للإيمان وهو دعاء إبراهيم لأبيه كما قال ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ بقوله « لأستغفرن لك » رجاء أن يسلم ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ بموته على الكفر ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ وترك الاستغفار له ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ كثير التضرع والدعاء ﴿ حَلِيمٌ ﴾ صبور على الأذى ، يقابل من سبه أو آذاه بمكروه بالإحسان واللطف كما فعل مع أبيه حين قال له « لأرجمنك » قال « سلام عليك سأستغفر لك ربى » ومع شدة رأفته وشفقته على عباد الله تبرأ من أبيه لما مات على الكفر ، فاقتدوا به أنتم ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا ﴾ يقضى عليهم بالضلال ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ للإسلام بسبب فعلهم ما لا ينبغى كالاستغفار للمشركين قبل البيان ﴿ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾ من العمل فلا ينفوه فيستحقوا الإضلال ، وهو تسلية للرسول والمستغفرين لأبائهم قبل ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ومنه مستحق الإضلال والهداية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يحكم فيهما مايشاء ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ بالإيمان والكفر لا اعتراض عليه ﴿ وَمَا لَكُمْ ﴾ أيها الناس ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ غيره ﴿ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يحفظكم منه ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يمنع عنكم ضرره فما أمر به تجب المبادرة إليه وما نهى عنه يجب الكف عنه ، وهو إشارة إلى أن فائدة القرابة هى الولاية والنصر ولا ولاية ولا نصر إلا منه ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ ﴾ أدام توبته ﴿ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ على ما يليق بمقامه ﴿ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ لقوله تعالى « وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون » فما من مؤمن إلا يحتاج إلى التوبة نبيا كان أو وليا إذ لها مراتب : أدناها التوبة من الشرك ، وأعلاها :

ربط السر على التوحيد ومطالعة جلال الله . فالذهول عن ذلك ولو لمحة طرف يوجب التوبة على الكمل كما يوجب لرتكاب الكبيرة التوبة على العامة . ثم بين سبب التوبة عليهم وهو تحمل المشاق فى مرضاة الله وضم ذكر النبي معهم تنبيها على عظم مراتبهم فى الدين بقوله ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أى وقتها وهى حالهم فى غزوة تبوك وكانوا سبعين ألفاً بين راكب وماش ، والعُسرة الشدة والضيق كان الرجلان فى هذه الغزوة يقتسمان تمرة والعشرة يعتقبون البعير الواحد ، واشتد الحر حتى شربوا الفرث . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ ﴾ الشأن ﴿ تَزِيغُ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة وحفص : تميل ﴿ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ عن اتباعه إلى التخلف لما هم فيه من الشدة أو عن الثبات على الإيمان لظنون أساءوها بهذا السير بسبب الشدة . قال عمر بن الخطاب : «خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ثم يجعل مابقى على كبده . فقال أبو بكر : يارسول الله اشتد بنا العطش فادع الله : فقال : أتحب ذلك؟ قال : نعم . فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سكبت السماء فملؤوا مامعهم فما جاوز الماء العسكر » رواه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين ووصل عليه السلام إلى تبوك وهو من أوائل بلد العدو فصالحه أهل أذرح وأيلة وغيرهما على الجزية ودخل أهل أقصى البلاد الحصون فتحصنوا وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ بالثبات ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ و ﴿ وَ ﴾ تاب ﴿ عَلَى الثَّلَاثَةِ ﴾ عطف على النبي أو على ضمير عليهم ولذا كرر حرف الجر والثلاثة هم المرجون وكلهم من الانصار ﴿ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ عن تبوك أو عن التوبة عليهم بقرينة ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ مع رحبها أى سعتها لشدة حيرتهم وقلقهم فلا يجدون مكانا يطمئنون إليه ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ قلوبهم للغم والوحشة بتأخر توبتهم فلا يسعها سرور ولا أنس لأن النبي نهى عن الكلام معهم وأمر نساءهم أن يعتزلنهم . قال ابن العربى فى الأحكام: وفيه دليل على أن للإمام أن يعاقب المذنب بتحريم كلامه على الناس أدباً له ومنع أهله عليه . اه ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أيقنوا ﴿ أَنْ ﴾ مخففة أى أنه ﴿ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ ﴾ لا مفر من عذابه إلى أحد ﴿ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ استثناء من العام المحذوف ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ رجع عليهم بالقبول والرحمة كرة بعد أخرى أو أنزل توبتهم ﴿ لِيَتُوبُوا ﴾ ليستقيموا على توبتهم أو ليتوبوا فيما يستقبل كلما فرطت منهم زلة لأنهم علموا بالنصوص الصحيحة أن طريان الخطيئة يستدعى تجديد التوبة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ ﴾ على من تاب ولو عاد فى اليوم مائة مرة كما روى «ماأصر من استغفر ولو عاد فى اليوم مائة مرة» ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ بعد التوبة بجعل السيئات حسنات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك معاصيه ومنها التخلف عن الغزوات ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى الإيمان والعهود رسول الله وأصحابه أو فى توبتهم كالثلاثة ولا تكونوا مع المتخلفين ذوى الأيمان والأعذار الباطلة ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ إذا غزا : نهى عبر عنه بصيغة النفى للتأكيد ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا ﴾ يحتمل النصب

والجزم ﴿ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ بأن يصونوها عما رضيه لنفسه من الشدائد نهى بلفظ الخبر لأن نفسه أعز نفس عند الله بل يجب على من آمن به أن يجعل نفسه وقاية لنفسه ويؤثر حياته كما فعل أبو طلحة وطلحة ابن عبيد الله يوم أحد ؛ وفى البخارى أن أبا خيثمة كان من المتخلفين وكانت له امرأة حسناء فدخل بستانه وهى معه ففرشت له وقربت له الماء البارد والرطب فلما نظر إلى ذلك قال : امرأة حسناء ورطب يانع وماء بارد ورسول الله فى حر الشمس والريح ا ما هذا مقام خير ، فوثب وترك ذلك ورحل ناقته وأخذ سيفه وتوجه يخب كالريح حتى لحق برسول الله وهو بتبوك فلما رآه من بعيد فى السراب قال : كن أبا خيثمة فكانه ، ففرح به رسول الله واستغفر له ﴿ذَٰلِكَ﴾ النهى عن التخلف ﴿ بِ﴾ سبب ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ عطش ﴿ وَلَا نَصَبٌ ﴾ تعب ﴿ وَلَا مَخْمَصَةٌ ﴾ جوع ﴿ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا ﴾ مصدر بمعنى وطئا أو مكانا من أماكنهم بأقدامهم وحوافر خيولهم وأخفاف إبلهم ﴿ يَغِيظُ ﴾ يغضب ﴿ الْكُفَّارَ ﴾ وطؤه ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ﴾ قه ﴿ نَيْلًا ﴾ قتلا وأسرا ونهبا ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ ليجازوا عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى أجرهم وضع المظهر موضع المضمر إشارة إلى أن الجهاد مع الكفار إحسان وإن كان فيه إهلاك النفوس وتخريب الدور لأنه سبب إعلاء كلمة الله ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ فيه ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ ولو تمرة ﴿وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ أصل الوادى منفذ السيل بين الجبال ، من ودى الماء : سال ثم شاع استعماله فى مطلق الأرض وهو المراد فى الآية . قاله فى غاية الأمانى ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ ذلك ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بأن يلحق عملهم الأدنى بالأعلى فى الجزاء مكافأة لسعيهم وتوفيرا لأجرهم . ولما وبخ الناس على التخلف وأرسل النبى سرية نفروا جميعا فنزل ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا ﴾ لنحو غزو وطلب علم ﴿ كَافَّةً ﴾ جميعا كما لا ينبغى أن يقيموا جميعا ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ خرج ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ جماعة كثيرة كقبيلة وأهل بلدة ﴿ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ جماعة ومكث الباقون ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا ﴾ أى الماكثون ﴿ فِى الدِّينِ ﴾ والتفقه فيه هو الجهاد الأكبر ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ من الغزو بتعليم ما تعلموه من الأحكام أى ليجعلوا همتهم بعد التفقه والعمل به إنذار قومهم وإرشادهم ، وتخصيص الإنذار لأنه أهم ، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفايات وأن غرض المتعلم أن يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس والتبسط فى البلاد ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ عقاب الله بامتثال أمره ونهيه ، قال ابن عباس: فهذه مخصوصة بالسرايا والتى قبلها بالنهى عن تخلف أحد فيما إذا خرج النبى صلى الله عليه وسلم وقيل هذه ليست فى الجهاد بل فى طلب العلم فكانت القبيلة كلها تنفر من البادية وتأتى المدينة لتعلم الدين فأمروا أن تنفر من كل فرقة طائفة لئلا يبطل أمر المعاش كما كانوا يفعلون يأتون إلى النبى صلى الله عليه وسلم يسألونه عما يريدون من أمر دينهم وينفقهون فيه من أمر الصلاة والزكاة وجميع ما يحتاجون إليه ثم يرجعون إلى قومهم ويدعونهم إلى الإسلام وينذرونهم النار ويبشرونهم بالجنة هذا هو السنة فضمائر الرفع فى نحو

«لينفقهوا» على التأويل الأول للطائفة المقيمة، وعلى الثانى للنافرة ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ الأقرب فالأقرب منهم داراً ونسباً لأن الأقرب بصدد الاطلاع على عورات المسلمين والمضرة منه أعظم كما أمر الرسول أولا بإنذار عشيرته فإن الأقرب أولى بالاستصلاح ولذا قاتل الرسول قومه أولا ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم إلى قتال أهل الكتاب قريظة والنضير وخيبر وفدك ثم إلى غزو الروم بالشام ولما كان فتح الشام فى زمن الصحابة انتقلوا إلى العراق ثم إلى سائر الأمصار لأنه إذا قاتل الأقرب تقوّى بما نال منهم على الأبعد ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ شدة وصبرا على القتال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بالعون والنصر والحراسة. قال فى الجواهر: وفى الآية أمر كل فريق من المؤمنين أن يقاتل الجنس الذى يليه من الكفرة ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أى المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ لأصحابه استهزاء وإنكاراً ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لتصديقهم بها واطلاعهم على ما فيها من الأحكام والأسرار ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بنزولها لأنه سبب كمالهم وارتفاع درجاتهم بالعرفان ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كفر ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ كفراً بها مضموما إلى الكفر بغيرها والرجس المستقذر والكفر أقبح الأشياء سمى به تنفيرا ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أى استحكم ذلك فيهم حتى ماتوا عليه ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياء للجمهور أى المنافقون والتاء لحمزة أيها المؤمنون ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يبتلون بالأمراض والشدائد أو بالافتضاح بإظهار نفاقهم وبما يرون من نزول النصر والتأييد على الرسول ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ من نفاقهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ ولا يعترفون أن ذلك بسوء أفعالهم تعجيب من غفلتهم ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها ذكر فضائحهم أو الجهاد وقرأها النبى ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يتغامزون بالحواجب إنكارا وحيرة وإرادة قيام يقولون ﴿هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ إذا قمتم فإنا لا نقدر على استماع هذا غيظا، أو يغلب عليهم الضحك فيخافون سماعه ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا﴾ على كفرهم بعد التغامز والتقاول إذا لم يرهم أحد وإلا ثبتوا ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن الهدى دعاء عليهم بالخذلان أو إخبار أى لما اختاروا الانصراف جازاهم الله بصرف قلوبهم عن الإيمان فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الحق تنبيه على علة الصرف وعدم القابلية ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها العرب أو الناس ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ عربى مثلكم تعرفون نسبه ولسانه وأمانته وصدقه، أو من جنسكم، وقرئ بفتح الفاء أى أشرفكم، وفى حديث مسلم «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم» ﴿عَزِيزٌ﴾ شديد ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أى عنتكم أى مشقتكم ولقاءكم المكروه كالقتل والأسر ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ على إيمانكم وصلاح شأنكم وإيصال الخير إليكم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ جميعا ﴿رَءُوفٌ﴾ شديد الرحمة ﴿رَّحِيمٌ﴾ يريد بهم الخير، زيادة فى مدحه إذ لم تنحصر رأفته فى أقاربه، وتقديم الأبلغ لرعاية الفواصل ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك بعد

هذا الإبلاغ والإنذار ﴿ فَقُلْ ﴾ مواجها لهم أو فى نفسك،تسليا ﴿ حَسْبِىَ ﴾ كافٍ ﴿ اللَّهُ ﴾ من ضركم ومعرتكم ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ دليل على كفايته والاستغناء عن غيره ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فوضت أمرى لا أرجو سواه ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ الملك الذى لا يحاط به أو الجسم العظيم فوق السموات ، وعلى الوجهين ، ذكره لتقوية داعية التوكل ، والدلالة على أن مَن هذا شأنه جدير بأن لا يرجى سواه . روى الحاكم فى المستدرك عن أُبىّ بن كعب قال : آخر آية نزلت « لقد جاءكم .. إلى آخر السورة » والله أعلم .

[تم تفسير سورة التوبة]

سورة يونس

مكية ــ إلا « فإن كنت فى شك » الآيتين أو الثلاث أو « ومنهم من يؤمن به » الآية : مائة وتسع أو عشر آيات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . الر ﴾ الله أعلم بمراده بذلك . أمال ألفه الأكثر لكن ورش بين بين ، وفخمها ابن كثير وقالون وحفص ﴿ تِلْكَ ﴾ أى هذه الآيات التى تضمنتها السورة أو القرآن ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ القرآن والإضافة بمعنى من ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ ذى الحكم أو المحكم ، وإنما آثر لفظ « تلك » وإن كانت فى حكم الحاضر قصداً إلى التعظيم أو لكونها فى حكم الغائب لعلو درجاتها ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ استفهام إنكار للتعجب ولام « للناس » للبيان لتدل على أنهم جعلوه أعجوبة لهم يوجهون نحوه إنكارهم و « عجباً » بالنصب لجميع السبعة خبر كان واسمه ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ أى إيحاؤنا ﴿ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ محمد ، وقرئ عجب بالرفع اسمها والخبر « أن أوحينا » وسبب نزول الآية كما قال ابن عباس : قول المشركين ، لما بعث الله محمداً : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ﴿ أَنْ ﴾ مفسرة ﴿ أَنْذِرِ ﴾ خوّف ﴿ النَّاسَ ﴾ الكافرين بالعذاب ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وعمم الإنذار إذ ما من أحد إلا وفيه ماينذر منه وخصص البشارة إذ ليس للكفار مايبشرون به ﴿ أَنَّ ﴾ أى بأن ﴿ لَهُمْ قَدَمَ ﴾ سابقة ﴿ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ وهى ما قدموا من الأعمال الصالحة أو ماسبق لهم فى علم الله من السعادة ، أو شفيع صدق هو محمد ، أى لهم جزاء ذلك . سميت السابقة قدماً لأن السبق يكون بها وإضافتها للصدق لتحققها والتنبيه على أنهم نالوها بصدق القول والنية ، ومن استعمال القدم فى السابقة قول حسان رضى الله عنه : لنا القدمُ العليا إليك وخلفنا ۞ لأولنا فى طاعة الله تابعُ ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ لما جاءهم الرسول بالوحى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ القرآن المشتمل على ذلك ﴿ لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

وقرأ ابن كثير والكوفيون لساحر ، والمشار إليه النبي ، وفيه اعتراف الرسول بخوارق للعادة أعجزتهم عن المعارضة ثم ابتدأ دعاءهم إلى التوحيد مؤكداً لإنكارهم بقوله ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ بحكمته ولو شاء لخلقهن في لمحة ، قال ابن عطية : وتعليله بتعليم خلقه التمهل في الأمور مما لا يوصل إلى علمه ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ استواء يليق به ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أمر الكائنات على وفق ما اقتضته حكمته ومن هذا شأنه لا يخفى عليه من يكون أهلا للرسالة ، فتعجبهم محل العجب ، والتدبير : النظر في أدبار الأمور لتجيء محمودة العاقبة ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ ﴾ يشفع لأحد ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ تقرير لعظمته ، وردٌ على من زعم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله ، وفيه إثبات الشفاعة لمن أذن له ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الخالق المدبر المتصف بصفات الألوهية والربوبية ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ معبودكم لا غيره ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحدوه بالعبادة ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ بإدغام التاء في الأصل في الفال أدنى تذكر فإن هذا لا يحتاج إلى ترتيب مقدمات بل مجرد التفكر والتذكر كاف فيه ، إنه المستحق لعبادتكم لا ما تعبدونه ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ﴾ بالموت أو النشور لا إلى غيره ، حث على عبادته وحده ، أي فاستعدوا للقائه ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لنفسه لأن قوله إليه مرجعكم جميعاً وعد من الله ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخر مؤكد لغيره هو ما تضمنه وعد الله ﴿إِنَّهُ﴾ بالكسر للسبعة استئنافاً ، وقرئ بالفتح على تقدير اللام ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ بالإنشاء ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بالبعث ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل علة للإعادة وثمرتها ، أي : ليثيبهم بعدله ولا يضيع لهم شيئاً من عملهم ، أو بسبب عدلهم في أمورهم وما تحت أيديهم ، لحديث البخاري : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » أو بإيمانهم لأنه منشأ كل عدل وهذا أوجه بقوله ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ ماء بالغ نهاية الحرارة إذا أدناه الكافر من فيه تساقطت فروة رأسه فيه يشوي الوجوه ﴿ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم بالنار ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أي بسبب كفرهم ، وغير النظم مبالغة وتنبيهاً على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة ، وأما العقاب فواقع بسوء أعمالهم ، وأنه يتولى إثابة المؤمنين بما يليق بلطفه وكرمه ولذا لم يعينه ، وأما عقاب الكفار فكأنه داء ساقه إليهم كفرهم ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ بالياء بعد الضاد للجمهور نوراً قوياً أي ذات ضياء ، وهو مصدر كقيام أو جمع ضوء كسياط وبهمزتين بينهما ألف لابن كثير في رواية قنبل في جميع القرآن على القلب بتقديم اللام على العين ﴿ وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ وكل ذلك دليل على استحقاقه الانفراد بالعبودية ؛ لأنه خالق هذه النعم الجلية التي نبط أمر المعاش بها ، والقول بأن نور القمر مستفاد من الشمس ليس له أصل لغة وشرعاً ، قاله في غاية الأماني . وقال في لباب التأويل : اختلف أصحاب الكلام في الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض والحق أنه عرض وهو كيفية مخصوصة ، فالنور اسم لأصل هذه الكيفية والضوء اسم لها إذا كملت ، فلهذا خص الشمس بالضياء لأنه أقوى وأكمل من النور الذي للقمر ، فلو استويا لم يعرف الليل من النهار ﴿ وَقَدَّرَهُ ﴾

أى القمر من حيث سيره ﴿مَنَازِلَ﴾ ذا منازل ثمانية وعشرين منزلا فى ثمان وعشرين ليلة من كل شهر ويستتر ليلتين إن كان الشهر ثلاثين ، وليلة إن كان تسعة وعشرين يوماً ، وأفرد القمر بذلك لأن مناط الأحكام الشرعية إنما هو بالسنة القمرية والأشهر الهلالية ، ولذا علله بقوله ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ للأوقات من الشهور والأيام فى تصرفاتكم ومعاملاتكم ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿إِلَّا﴾ ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ مقتضى الحكمة بمناط المعاش ودليل التوحيد لا عبثاً تعالى الله عن ذلك ﴿نُفَصِّلُ﴾ بالنون للجمهور ، وبالياء لابن كثير وأبى عمرو وحفص مسنداً إلى ضمير الجلالة ﴿الْآيَاتِ﴾ دلائل على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته وتفرده بذلك ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم المنتفعون به ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بالذهاب والمجىء ، والزيادة والنقصان ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من أجزائها وأوضاعها وما فيها من أنواع الكائنات ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خص التقوى بالذكر لأنه الباعث على التفكر فى شأنها ، والاعتراف بوحدانية مبدعها ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أى ثوابنا بالبعث أو لا يخافونه ، قال ابن عبيدة والفراء : إن لفظة الرجاء إذا جاءت منفية فهى بمعنى الخوف . وقال ابن عطية : والذى أقول به : إن الرجاء فى كل موضع على بابه ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بزينتها بدل الآخرة لغفلتهم عنها ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ سكنوا إليها فبنوا القصور ونسوا القبور ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ كالبهائم منهمكون فى المعاصى واللذات العاجلة وإنما وسط العاطف باعتبار تغاير الوصفين الثانى علة للأول أو هما فريقان : الأول من أنكر البعث والثانى من أقر به وشغله حب الفانى عن الإعداد للباقى ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ إلى طريق الجنان ثواباً لهم ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ بسببه بأن يجعل لهم نوراً يهتدون به إليها يوم القيامة ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ دَعْوَاهُمْ فِيهَا﴾ طلبهم لما يشتهون فى الجنة أن يقولوا ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أى يا الله فإذا ما طلبوه بين أيديهم ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول ، أى ما تحييهم به الملائكة أو الله ، أو الفاعل أى تحية بعضهم بعضاً ﴿فِيهَا سَلَامٌ﴾ قال ابن القاسم عن مالك : أى هذا السلام الذى بين أظهركم ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ أى خاتمة دعائهم وكلامهم فى كل موطن ﴿أَنِ﴾ مخففة من الثقيلة لا مفسرة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يقولون ذلك شكراً على ما أولاهم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ إذا استعجلوه ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أى كتعجيله الخير إذا سألوه ﴿لَقُضِيَ﴾ بالبناء للمفعول للجمهور والفاعل لابن عامر ويعقوب ﴿إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ بالرفع للأول والنصب للثانى بأن يهلكهم . قال البيضاوى : تقدير الكلام ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله للخير حين استعجلوه استعجالا كاستعجالهم بالخير فحذف منه ما حذف لدلالة الباقى عليه . اهـ . وإنما وضع الاستعجال موضع التعجيل للإشعار بأنه يجيبهم أسرع إجابة ، كأن استعجالهم

نفس تعجيله ، والآية نزلت فى دعاء الرجل على نفسه أو ولده أو أهله أو ماله بما يكره أن يستجاب له فيه كقوله لأهله وولده عند الغضب : لعنكم الله ، لا بارك الله فيكم . وقيل فى قول الكفار « إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء » ونحو « ائتنا بما تعدنا » . ويدل على صحة هذا القول قوله ﴿ فَنَذَرُ ﴾ نترك ﴿ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يترددون متحيرين ، والفاء عاطفة على فعل دلت عليه الشرطية كأنه قيل ولكن لا نعجل ولا نقضى فنذرهم إمهالا واستدراجاً ، ووضع الظاهر موضع المضمر دلالة على أن ذلك المستعجل لم يؤمن بلقاء الله ، فلذا اجترأ على تلك المقالة ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ﴾ الكافر وضعيف اليقين الغافل ﴿ الضُّرُّ ﴾ المرض والفقر ﴿ دَعَانَا ﴾ لإجابته ملقيا ﴿ لِجَنْبِهِ ﴾ أى مضاجعاً ﴿ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ أى فى أحواله كلها ، وفائدة الترديد تعميم الدعاء لجميع الأحوال أولأصناف المضار ، واستعمل اللام مع أن الظاهر على إشارة إلى أنه لشدة المرض مستقر على تلك الهيئة لا يمكنه غيرها لما فى اللام من معنى الإختصاص ففيه زيادة مبالغة ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ ﴾ مضى على طريقه أو استمر على كفره أو مر على موقف الدعاء لا يرجع إليه ﴿ كَأَنْ ﴾ مخففة أى كأنه ﴿ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ﴾ ونسى ما كان عليه من الجهد والضيق والضر والفقر ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما زين لهذا الدعاء عند الضر والإعراض عند الرخاء ﴿ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين الحد فى الانهماك فى الشهوات والإعراض عن العبادات ﴿ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من تكذيب الآيات وتصريف الأموال فى غير مرضاة الله ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ ﴾ الأمم ﴿ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ وَ ﴾ قد ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الدلالات على صدقهم ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ عطف على ظلموا جحدا واستكبارا وخذلانا ، واللام لتأكيد النفى ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كما أهلكنا أولئك ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الكافرين وضع المظهر موضع المضمر دلالة على كمال جرمهم وأنه سبب هلاكهم ، وزاد لفظ القوم ليدل على كل مجرم فيتناولهم تناولا ظاهرا ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ خَلَائِفَ ﴾ جمع خليفة ﴿ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ ﴾ بعد القرون التى أهلكناهم استخلاف من يختبر ﴿ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ فيها وهل تعتبرون بهم فتصدقوا رسلنا أم تكذبون فنعاملكم على مقتضى أعمالكم ، و« كيف » معمول تعملون لأن النظر معلق بالاستفهام ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ القرآن ﴿ بَيِّنَاتٍ ﴾ ظاهرات حال ﴿ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ﴾ كأهل مكة التفات إلى الغيبة تنفيرا لهم عن درجة الخطاب وإعلاما بأنهم خلف سوء سلكوا مسالك الهالكين من القرون الأولى ولم يكن لهم باعث على هذا إلا عدم اعتقاد الحشر ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا ﴾ ليس فيه تسفيه أحلام آبائنا ولا سب آلهتنا ولا ما نستبعده من البعث والثواب والعقاب ﴿ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ بأن تجعل مكان آية العذاب آية الرحمة ، وموضع سب آلهتنا مدحها فالأول تغيير فى الذات ، وهذا تغيير فى الوضع ، وغرضهم السخرية والاستهزاء أو التجربة والامتحان حتى لو فعل ذلك علموا أنه كاذب فى قوله إنه من عند الله ﴿ قُلْ ﴾ لهم

﴿ مَا يَكُونُ ﴾ ينبغي ﴿ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ ﴾ قبل ﴿ نَفْسِي ﴾ أجاب عن الثاني لأنه الممكن له ، فالأول ليس من مقدوره أو لأنه يستلزمه ، وتلقاء : مصدر استعمل ظرفا : قاله البيضاوي . وفي القاموس: لقيه كرضيه لقا ولقاء ولقيا ولقيانا بكسرهن ، ولقيا ولقيانا ولقي بضمهن كتلقاء والتقاء والاسم التلقاء ولا نظير له غير النيبان . اه . ومقتضاه أنه اسم مصدر . والله اعلم ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ ما شأني إلا اتباع الوحي من غير زيادة ولا نقصان ليس إليّ التبديل والتغيير ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بالتبديل ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ هو يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أنهم مستوجبون ذلك العذاب بطلب تبديل كلام الله ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ﴾ زيادة تبرئ عما ينسبونه إليه من أنه كلامه بأن نفس تلاوته بمشيئة الله فضلا عن ذلك المتلو ﴿ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ بلا النافية عطف على ما قبله الجمهور ، أي : ولا أعلمكم به ولا أنزله رأساً فضمير المخاطبين مفعول « أدرى » الأول والثاني المجرور بالباء . وقرأ ابن كثير في رواية قنبل بلام التأكيد ، أي لو شاء الله لأعلمكم به على لسان غيره فإنه كلامه ليس على البشر إلا تبليغه فأنا وغيري سيان فيه فهو حق لا محيص عنه لو لم أرسل به لأرسل به غيري ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا ﴾ أربعين سنة ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ قبل إنزاله لا أحدثكم بشيء ، وهي أيام طلب الجاه والرياسة ومحل الهفوات وارتكاب ما لا يليق من الحركات ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بذلك أنه ليس من قبلي ﴿ فَمَنْ ﴾ أي لا أحد ﴿ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ بنسبة القرآن إلى غيره أو بنسبة الشريك إليه ﴿ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ القرآن ﴿ إِنَّهُ ﴾ الشأن ﴿ لَا يُفْلِحُ ﴾ لا يسعد ﴿ الْمُجْرِمُونَ ﴾ المشركون ، آثر المظهر على المضمر للدلالة على العلية ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أي غيره ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُمْ ﴾ إن لم يعبدوه ﴿ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ إن عبدوه وهو الأصنام لأنها جماد ، والمعبود ينبغي أن يكون مثيباً ومعاقباً ، وهذا دليل على قبح فعلهم كما أن الأول دليل على بطلان قولهم ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عنها ﴿ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي : يعتقدون ذلك أو يقولونه ، أي إن كان بعث سيشفعون لنا ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ ﴾ أتخبرونه ﴿ بِمَا لَا يَعْلَمُ ﴾ وهو الشريك أو شفاعته لكم ﴿ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ استفهام إنكار أي لو كان له شريك لعلمه إذ لا يخفى عليه شيء ، وذكر السموات والأرض تأكيد للنفي كما تقول العرب : ليس هذا في السماء ولا في الأرض ، ولأن ما يعبدون إما سماوي وإما أرضي ولا شيء فيهما إلا وهو حادث مقهور مثلهم لا يليق أن يشرك به ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له ﴿ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ معه أو عن إشراكهم بالياء الجمهور والتاء لحمزة والكسائي ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على دين واحد وهو الإسلام ، من لدن آدم إلى قتل قابيل هابيل ، أو من زمن نوح بعد السفينة إلى أن اختلفوا ، أو المراد بالناس العرب من زمن إبراهيم إلى زمن عمرو بن لحي أو على دين واحد وهو الكفر في فترة الرسل ﴿ فَاخْتَلَفُوا ﴾ بأن ثبت بعض وكفر بعض أو آمن بعض وثبت على الكفر بعض ، وفيه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة أو بتأخير كل أمة إلى أجلها ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ فى الدنيا أو عاجلا ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من الدين بتعذيب الكافرين ، وقيل الكلمة هى قوله « سبقت رحمتى غضبى » ولولا ذلك لعجل لهم العقوبة ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ أهل مكة ﴿ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴾ على محمد ﴿ ءَايَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ، وعبر بالمضارع وإن كان القول منهم ماضياً واقعاً لأنهم مستمرون على ذلك ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ ﴾ ما غاب عن العباد أى أمره ﴿ لِلَّهِ ﴾ ومنه الآيات فلا يأتى بها إلا هو وإنما علىّ التبليغ ، فلو اقتضت حكمته إنزال ما سألتموه لأنزله ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ العذاب إن لم تؤمنوا ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ العذاب النازل عليكم ، أو فانتظروا قضاء الله بيننا بإظهار الحق على المبطل ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ ﴾ المشركين الناكبين عن الشكر ككفار مكة ﴿ رَحْمَةً ﴾ صحة وسعة ﴿ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ ﴾ كقحط ومرض وضيق عيش ، وفى إسناد الإذاقة فى الرحمة دون الضر شأن لا يخفى ﴿ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي ءَايَاتِنَا ﴾ احتيال فى دفعها بالاستهزاء والتكذيب كما فعل كفار مكة لما أنزل الله عليهم المطر وأخصبت بلادهم بعد القحط والجوع سبع سنين حتى هلك أكثرهم عادوا إلى العناد وإنكار الآيات . قال فى الجواهر : والآية فى الكفار وهى تتناول من العصاة من لا يؤدى شكر الله عند زوال المكروه عنه ﴿ قُلِ ﴾ لهم ﴿ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ منكم قد دبر عقابكم قبل أن تدبروا كيدكم ، ولما دلت المفاجأة على السرعة ظهر وجه التفضيل ، والمكر إخفاء الكيد ، وهو من الله إما الاستدراج أو الجزاء على المكر وأطلق عليه مشاكلة ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا ﴾ الحفظة ﴿ يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ بالتاء للسبعة والياء ليعقوب ، أى : مكركم أو ما مكرتموه لتفتضحوا به يوم القيامة فلم يخف عليهم شىء منه فضلا عن أن يخفى علينا ، وفيه مع الوعيد إيماء إلى جهلهم بعلام الغيوب وشمول علمه ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ ﴾ ولابن عامر : ينشركم ﴿ فِي الْبَرِّ ﴾ على الأقدام وظهر الدواب لطلب الحاجات ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾ فى الفلك للتجارة وغيرها ، أو المعنى : الهادى لكم إلى السير فيهما ، أو المهيئ لكم أسباب السير فيهما ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ ﴾ السفن ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ أى بكم ، وإنما التفت للغيبة للمبالغة كأنه يذكر سوء فعلهم لغيرهم ليتعجب من حالهم وينكر عليهم ، وليس ما بعد حتى وحده وهو الكون فى الفلك غاية للتسيير ، بل الغاية الشرطية وما بعدها من الجمل المتعاطفة ﴿ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ لينة المهبوب لا تزعج الراكب ، والباء للسببية والأولى للملابسة ﴿ وَفَرِحُوا بِهَا ﴾ بتلك الريح ﴿ جَاءَتْهَا ﴾ جواب إذا ، والضمير للفلك أو الريح الطيبة بمعنى تلتها ﴿ رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ شديد هبوبها ولذا لم يؤنث وأصل العصف السرعة ، يقال : ناقة عصوف إذا كانت سريعة المشى . قال فى اللباب والبيضاوى : قال عاصف لأنه أراد ذات عصف ، وزاد فى اللباب : أو لأن الريح قد يذكر ﴿ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من سائر الجهات ، والموج ما ارتفع وعلا من غوارب الماء فى البحر ، وقيل هو شدة حركة الماء واختلاطه ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ سدت عليهم مسالك الخلاص وأهلكوا ﴿ دَعَوُا اللَّهَ

مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) الدعاء ، لا يدعون أحداً سواه لزاجع الفطرة وزوال المعارض لأجل شدة الخوف وهو بدل من ظنوا بدل اشتمال لأن دعاءهم من لوازم ظنهم ، ويحتمل الاستئناف البيانى ، كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد تلك الحالة ؟ فأجيب قالوا (لَئِنْ) لام قسم (أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ) الأهوال (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) الموحدين (فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ) أجاب دعاءهم (إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ) فاجأوا الإفساد فى جهات الأرض وأطرافها كأن لم يشاهدوا ذلك الأمر يوما (بِغَيْرِ الْحَقِّ) قيد به لأن الإفساد إخراج الشىء عن صلاحه وقد يكون بحق كتخريب ديار الكفار وقطع نخلهم وزروعهم ، والبغى هنا مجاوزة الحق إلى الباطل أو الشبهة (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ) ظلمكم (عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ) لأن وباله عليها هو (مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) تتمتعون فيها قليلا فيضمحل ويبقى عقابه . وفى الحديث « ما ذنب أسرع عقوبة من بغى » ولذا قالوا : البغى يصرع أهله ومن بغى عليه لينصرنه الله ، وقرأ حفص بنصب متاع على أنه مصدر مؤكد أى : تتمتعون متاع الحياة الدنيا (ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ) فى الآخرة (فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فنجازيكم عليه (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) حالها فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها (كَمَاءٍ) أى كحال نبات ماء ، ولأجل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ولى الكاف غير المشبه به على خلاف الأصل (أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ) بسببه (نَبَاتُ الْأَرْضِ) اشتبك حتى خالط بعضه بعضاً (مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ) من البر والشعير وغيرهما (وَالْأَنْعَامُ) من الكلأ أى من سائر أنواعه (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا) بهجتها من النبات وألوان زهرها من أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك من الزهور (وَازَّيَّنَتْ) أصله تزينت ، أبدلت التاء زايا وأدغمت فى الزاى شبهت بعروس أخذت من ألوان الثياب والزينة فتزينت بها (وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) متمكنون من تحصيل ثمارها (أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا) قضاؤنا أو عذابنا من الجوائح أو ما أمرنا بإهلاكها به من برد أو صاعقة أو غيرهما (فَجَعَلْنَاهَا) أى زرعها (حَصِيدًا) مقطوعة كالزرع المحصود بالمناجل (كَأَنْ) مخففة أى كأنها (لَمْ تَغْنَ) تكن وتلبث أى بزرعها ، من غنى بالمكان كرضى إذا أقام (بِالْأَمْسِ) أى الزمن القريب . قال فى غاية الأمانى : المشبه به مضمون الجمل المذكورة ووجه الشبه منتزع منها كلها وهو عشر جمل (كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فى معانيها ووقائعها لأنهم المنتفعون بها (وَاللَّهُ يَدْعُو) كل أحد مؤمناً أو كافراً (إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ) أى السلامة وهى الجنة بالدعاء إلى الإيمان (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) دين الإسلام ، وفيه دليل على أن الأمر بغاير الإرادة ، وأن الضال لم يرد الله هدايته (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا) بالإيمان (الْحُسْنَىٰ) الجنة (وَزِيَادَةٌ) هى النظر إلى الله تعالى كما فى حديث مسلم وعليه جمهور المفسرين ، أو الحسنى جزاء مثل العمل والزيادة عشر أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله ، أو الزيادة رضوان الله (وَلَا يَرْهَقُ)

لا يغشى ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ سواد فيه غبرة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ كآبة وهوان أى مايوجب ذلك من حزن وسوء حال مما يشين ظاهرهم أو باطنهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون لايموتون ولا يخرجون ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف على « للذين أحسنوا » أى وللذين ﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الكفر والمعاصى ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ عطف على «الحسنى» بالعاطف الأول عند من يجوز العطف على معمولى عاملين مختلفين مثل فى الدار زيد والحجرة عمرو ، أو والذين مبتدأ على تقدير مضاف أى «وجزاء الذين كسبوا السيئات » والخبر « جزاء سيئة بمثلها » والمقصود التنبيه على تضعيف الحسنات تفضلا وجزاء السيئات بمثلها عدلا منه سبحانه . وفى البخارى ومسلم « من هم بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة وإن عملها كتبت عليه سيئة » ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ بعقاب الله إياهم ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ مانع من سخط الله وعذابه على أن من صلة «عاصم» أو من عند الله على أن الجار والمجرور حال قدمت ومن الثانية زائدة على الوجهين ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ ألبست ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعاً﴾ بفتح الطاء للجمهور ، جمع قطعة وإسكانها لابن كثير والكسائى ويعقوب مفرد بمعنى القطعة لأن كل وجه له قطعة ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ صفة « قطعا » على القراءتين ﴿مُظْلِماً﴾ كذلك أوحال من المستتر فى الجار والمجرور لفرط سواد وجوههم ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إذ لاحسنة لهم يجازون عليها وبه خرج صاحب الكبيرة لدخوله فى الذين أحسنوا فلا يتناولهم قسيمه فسقط احتجاج الوعيدية بهذه الآية ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أى الفريقين ﴿جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ اسم فعل أى: الزموا مكانكم حتى تسألوا أو حتى تنظروا ما يفعل بكم، تهديد للشركين ووعيد ﴿أَنْتُمْ﴾ تأكيد للضمير المستتر فى مكانكم لأنه ساد مسد الزموا، أو مكانكم منصوب بالزموا مقدرا ، وأنتم : تأكيد للضمير المستتر فى الفعل المقدر ليعطف عليه ﴿وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أى الأصنام لتشاهدوا عجزها ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ ميزنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وبين المؤمنين كما فى آية « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » أو فرقنا وقطعنا الوصل التى كانت بين المشركين وشركائهم ، وعبر بالماضى لتحقق وقوعه ﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿شُرَكَاؤُهُمْ﴾ فى زعمهم ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ « ما » نافية ، وقدم المفعول الفاصلة ، يقولون لهم ذلك مكان الشفاعة التى يرجونها زيادة فى النكاية كقوله : « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا » ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ تفريع على قولهم المقدر أى: فيقول المشركون : بل عبدنا كم ، فتقول الأصنام كفى بالله شهيدا إن وقع ذلك فإنه العالم بكنه الأشياء ﴿إِنْ﴾ مخففة أى إنا ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ لم نأمر بذلك ولم نرض به ثم أشار إلى ما هو كالنتمة للآية المتقدمة فقال ﴿هُنَالِكَ﴾ فى ذلك المقام والزمان مستعار له إذ المراد فى ذلك اليوم ﴿تَبْلُوا﴾ من البلاء الاختبار أى تعرف ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ حقيقة ﴿مَا أَسْلَفَتْ﴾ أى عملت من حسن وقبيح وقبول ورد ولحمزة والكسائى بتاءين من التلو وهو التبعية أى تتبع عملها إما إلى الجنة أو إلى النار أو ماتعبده لما فى البخارى : «إذا كان يوم القيامة تتبع كل أمة ما كانت تعبد» الحديث

أو من التلاوة لقوله ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك ، ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ إلى جزائه إياهم بما أسلفوا ﴿ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ الثابت الدائم أو متولى أمورهم على الحقيقة لاما اتخذوا مولى ﴿ وَضَلَّ ﴾ غاب وضاع وبطل ﴿ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ عليه من الشركاء أو من شفاعتهم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ بالمطر ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ بالنبات أردفه بأنواع أخر من دلائل التوحيد على وجه لايقدرون على إنكار شيء منها ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ ﴾ بمعنى الاسماع ﴿ وَالْأَبْصَارَ ﴾ أى من ملكهما لكم بخلقهما وحفظهما من الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما بأدنى شيء ﴿ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ كما تقدم فى الآيات ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ للعالم العلوى والسفلى تعميم بعد تخصيص ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ لايجدون جوابا غيره ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ بطشه وسطوته بإشراككم وقد اعترفتم بأنه الخالق لهذه الأشياء ﴿ فَذَلِكُمُ ﴾ الفعال لهذه الأشياء ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ الثابت المستحق لعبادتكم لا من تسمونه ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ استفهام تقرير أى ليس بعده غيره فمن أخطأ الحق وهو عبادة الله وقع فى الضلال إذ لا واسطة . قال ابن عطية : وعبارة القرآن فى سوق هذه المعانى تفوت كل تفسير براعة وإيجازا ووضوحا ، وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة فى هذه المسألة التى هى توحيد الله تعالى وكذلك الأمر فى نظائرها من مسائل الأصول التى الحق فيها فى طرف واحد لأن الكلام فيها إنما هو فى تقرير وجود ذات كيف هى وذلك بخلاف مسائل الفروع التى قال الله تعالى فيها « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » . اه . وقال مالك لما سئل عن اللعب بالشطرنج : هو من الضلال والباطل وينبغى لذى العقل أن تنهاه اللحية والشيب عن الباطل . اه . ﴿ فَأَنَّى ﴾ كيف ﴿ تُصْرَفُونَ ﴾ عن الحق الإيمان مع قيام البرهان تعجيب لهم من حالهم ﴿ كَذَلِكَ ﴾ كما صرف هؤلاء عن الإيمان أو كما أن بعد الحق الضلال أو كما حقت الربوبية له تعالى ﴿ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ ﴾ بالجمع لنافع وابن عامر وبالإفراد لغيرهما هنا وفيما يأتى فى السورة ﴿ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا ﴾ كفروا وخرجوا عن حد الاستصلاح وهى « لأملأن جهنم ... الآية » أو هى ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى قضاؤه عليهم ذلك فى الأزل ، وأنهم بدل من الكلمات ، أو تعليل لحقيتها ، وفيه دليل على أن حقية العقاب ولزومه الكفار إنما كان لأجل انتفاء الإيمان فدل على نجاة المؤمن وإن كان فاسقا . قاله فى غاية الأمانى ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أى ليس فيهم من هذا شأنه وهم وإن لم يقولوا بالإعادة كالمقرين لها لظهور أمرها ووضوح برهانها من الابتداء فعدم اعترافهم بها لجاج ولذا أمر الرسول بالنيابة عنهم فى الجواب بقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ لأن لجاجهم لايدعهم أن يعترفوا بها ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ تصرفون عن عبادته مع قيام الدليل ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾ بنصب الحجج للرسل وخلق الاهتداء للرسل إليهم وهذا تنزل معهم أى إن لم يقدروا على الابتداء والإعادة هل لهم أول شئون الإله وهو

الإرشاد إلى الصواب وهدى يتعدى إلى الثانى بإلى وباللام، وإذا قالوا لا إذ لابد لهم من ذلك ﴿ قُلِ ﴾ لهم ﴿ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ لا غيره ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ وهو الله ﴿ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ ﴾ بفتح الياء والهاء وتشديد الدال لورش وابن كثير وابن عامر مضارع اهتدى حركت الهاء بالفتح فرارا من ثقل الكسرة مع الياء لو كسر لالتقاء الساكنين حيث أدغمت التاء فى الدال للتشارك فى المخرج ولأبى بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء وتشديد الدال على أن الهاء كسرت لالتقاء الساكنين والياء للإتباع ولحفص بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال من غير إتباع ولأبى عمرو وقالون عن نافع بفتح الياء واختلاس فتح الهاء والتشديد إشارة إلى عدم أصالتها ولحمزة والكسائى يهدى مضارع هدى أى لايهدى غيره ﴿ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾ أحق أن يتبع : استفهام تقرير وتوبيخ أى الأول أحق وفى قوله « إلا أن يهدى » تجوز لأنا نجدها لاتهتدى وإن هديت ويحتمل أن المراد لاتنتقل إلا أن تنقل أو المراد ما ذكره الله من تسبيح الجمادات هو اهتداء. قاله فى الجواهر الحسان ﴿ فَمَا لَكُمْ ﴾ أى شىء لكم فى عبادة هذه الأصنام كذا فسره الزجاج ﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ هذا الحكم الفاسد من اتباع مالا يحق اتباعه تعجيب من حالهم كيف خفى عليهم هذا الأمر الجلى وهم يدعون أنهم عقلاء مراجع جمع مرجع كمسكن بمعنى راجع ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ ﴾ فى عبادة الأصنام وأنها تشفع لهم ﴿ إِلَّا ظَنًّا ﴾ بتقليد الآباء وخيالات فارغة وأقيسة فاسدة كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة وقيد بالأكثر لأن بعضهم شاك متحير وبعضهم مستيقن معاند، وقيل المراد بالأكثر الجميع ﴿ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ من الإغناء أو من الأشياء منصوب على المصدر أو المفعول به والحق هو الثابت الذى لايتبدل بتبديل الشرائع كالتوحيد وسائر الأصول فإن الظن فيها لايفيد بل لابد فيها من دليل قاطع وفيه دليل على أن تحصيل العلم فى الأصول واجب والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز. قاله البيضاوى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ وعيد على اتباعهم للظن وإعراضهم عن البرهان. ولما صدر الله السورة ببيان صدق الرسول فيما جاء به، وأن القرآن من عند الله، وساق بعد ذلك دلائل توحيده وربوبيته على أرشق أسلوب وأحسن نظم رجع إلى ماكان بصدده من نفى الريب عن كون القرآن كلامه وزاد حسن الرجوع إليه كونه بعد المنع عن اتباع الظن ليكون بيانا لما يجب اتباعه بقوله ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ ﴾ أى افتراء أى ماصح فى العقل كون مثله فى علو الشأن والإعجاز مفترى ﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أى غيره إذ ليس فى وسع أحد رد لقول الكفار إن محمدا اختلقه ﴿ وَلَٰكِن ﴾ كان أو أنزل ﴿ تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب خبر كان مقدرا أو علة لفعل محذوف كما قدرنا. وقرئ بالرفع أى هو تصديق الذى بين يديه ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ تبيين ما كتب الله من الأحكام وغيرها فيه أو المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فصل فيه ما كتب هناك وجعل نفس التصديق والتفصيل على كونه خبر كان مبالغة كرجل عدل ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾

خبر ثالث لكان داخل فى حكم الاستدراك أوحال من اسم كان ﴿ مِنْ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴾ حال من ضمير فيه أو من الكتاب أو متعلق بتصديق أو تفصيل ولا ريب فيه اعتراض على الوجوه الثلاثة ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ اختلفه محمد ومعنى الهمزة الإنكار والاستبعاد لصدور هذا القول منهم والحال أنهم عاجزون عن إتيان مقدار أقصر سورة منه ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم أية سورة كانت لاتفاوت بالطول والقصر وأقلها ثلاث آيات فإنكم مثلى فى العربية والفصاحة وأشد تمرنا فى النظم والعبارة ﴿ وَادْعُوا ﴾ للإعانة عليه ﴿ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ من شئتم أو قدرتم عليه فى الإتيان بمثله ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فى أنه افتراء ولما لم يقدروا على ذلك قال تعالى ﴿ بَلْ كَذَّبُوا ﴾ أى سارعوا إلى التكذيب ﴿ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ من القرآن ولم يتدبروه أو مافيه من ذكر الجنة والنار والحشر والقيامة والثواب والعقاب أو من القصص وأخبار الأمم الخالية أنكروها لجهلهم وبل إضراب من عنادهم إلى ذكر أقبح منه وهو جهلهم ﴿ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ ما يئول إليه من صدق إخباره بالمغيبات ، وعبر بلما لأن التأويل كان متوقعا منتظرا فكانت المسارعة إلى التكذيب نوعا من الجهل ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ رسلهم ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الظَّٰلِمِينَ ﴾ بتكذيب الرسل أى آخر أمرهم من الهلاك فكذلك نهلك هؤلاء ﴿ ومِنْهُمْ ﴾ من المكذبين ﴿ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ بالرسول أو بالقرآن فى نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند حفظا لرياسته أو من سيؤمن به ويتوب عن كفره لعلم الله ذلك منه ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ فى نفسه لفرط غباوته وقلة تدبره أو فيما يستقبل بل يموت على الكفر ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ المعاندين أو المصرين تهديد ووعيد ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ ﴾ أى أصروا على تكذيبك بعد إلزام الحجة ﴿ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ أى لكل جزاء عمله أى تبرأ منهم فقد أعذرت ﴿ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ لا يؤاخذ أحد منا بجريمة الآخر كما لاينتفع بصالح عمله والقول بأن هذا منسوخ بآية السيف باطل كما قال فخر الدين إذ مدلوله اختصاص كل واحد بأفعاله وثمراتها وآية السيف لم ترفع شيئا من ذلك . قال البيضاوى : ولما فيه من إبهام الإعراض عنهم قيل إنه منسوخ بآية السيف ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ إذا قرأت القرآن بأسماعهم الظاهرة ولا يقبل لشدة بغضك ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ شبههم بهم فى عدم الانتفاع بما يتلى عليهم ﴿ وَلَوْ كَانُوا ﴾ مع الصمم ﴿ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ لايتدبرون ولا يتعقلون ماتقول إنكار لوقوع الإسماع مع اجتماع الصمم وعدم التعقل لأن الأصم إذا كان عاقلا ربما تفرس من دَوِىّ الصوت وأدرك المقصود من الإشارة وإذا انضم إلى فقد السمع سلب العقل استحال الإسماع ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ ويشاهد بأبصاره الظاهرة دلائل النبوة فى وجهك لو لم تكن فيه آياتٌ مبينة . لكان منظرُه ينبئك بالخبر ومع ذلك لايهتدى لعمى القلوب وأفرد فى ينظر نظراً إلى اللفظ وجمع فى يستمعون نظراً إلى المعنى تفننا ﴿ أَفَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾

بالبصيرة إذ الأعمى المستبصر ربما تفطن ما لا يدركه البصير الأحمق ، شبههم بالعمى فى عدم الاهتداء بل أعظم « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » والآية كالتعليل للأمر بالتبرئ والإعراض عنهم ، وفيها تسلية النبى كأنه قال له لا تقدر أن توفق للإيمان من حكمت عليه أنه لا يؤمن ، ثم أعلم أن ما حكم به عليهم ليس ظلماً لهم بل عدل بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بسلب حواسهم وعقولهم مما يستدلون به إلى تحصيل المعاد ﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتفويت منافع الحواس وصرفها إلى غير ما خلقت له ، وفى الآية دليل على أن للعبد كسباً وهو تعلق قدرته بالمقدور من غير فعل وهو مناط الثواب والعقاب وليس مسلوب الاختيار بالكلية كما زعمت الجبرية ، ولا فاعلا حقيقة كما زعمت القدرية ، وقيل : الآية وعيد لهم بأن ما حاق بهم فى الآخرة من العذاب باقتراف أسبابه ، وقرأ حمزة والكسائى بتخفيف « لكن » ورفع « الناس » ﴿وَ﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ وقرأ حفص بالياء ﴿كَأَنْ﴾ أى كأنهم ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ فى الدنيا أو فى القبور ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ لهول ما رأوا وجملة التشبيه حال من الضمير ، أى نحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة ، أو صفة ليوم ، والعائد محذوف ، أى لم يلبثوا قبله ، أو لمصدر محذوف أى حشراً كأن لم يلبثوا قبله ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضاً إذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الأهوال ، والجملة حال مقدرة أو متعلق الظرف ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ بالبعث بإيثار الفانى على الباقى : استئناف فيه معنى التعجيب كأنه قيل ما أخسر من كذب بلقاء الله ، أو حال بتقدير القول أى يتعارفون بينهم قائلين ذلك ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ عارفين بطريق النجاة ، أو لم يدخلوا فى زمرة المهتدين وهو تأكيد لكونهم صماً عمياً ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ به من العذاب فى حياتك كيوم بدر ، وجواب الشرط محذوف أى فذاك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل إراءته ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فنريكه فى الآخرة ، جواب نتوفينك ، والمعنى : إنك ظافر بعدوك إما فى الدنيا أو فى الآخرة لا محالة فلا تحزن من تكذيبهم ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ مطلع ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من تكذيبهم وكفرهم بعدك فيعذبهم أشد العذاب . وفى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال « يؤتى بأناس من أمتى وأنا واقف على الحوض فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابى أصحابى ! فيقال : إنك لم تعلم ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال عيسى ابن مريم : وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم » ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿رَسُولٌ﴾ بعث إليهم ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ إليهم فى الدنيا فكذبوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل بإهلاكهم وإنجاء الرسول ومن صدقه ، أو المعنى لكل أمة فى الآخرة رسول تنسب إليه فإذا جاء وشهد عليهم بالكفر والإيمان قضى بينهم بإنجاء المؤمن وإهلاك الكافر لقوله تعالى وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالقسط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بتعذيبهم بغير جرم أو بنقص حسنات وزيادة سيئات ، بل يجازى كل على قدر عمله ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ بالعذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيه خطاب للنبى والمؤمنين ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ التى هى أقرب إلىّ

وأهم ﴿ ضَرًّا ﴾ دفعه ﴿ وَلَا نَفْعًا ﴾ جلبه ، قدم الضر هنا وأخره فى الأعراف لأن الكلام هناك فى الساعة وعدم الاطلاع على وقتها ، فالأهم النفع وإعداد العمل الصالح لها ، والكلام هنا فى وقوع العذاب . ولا شك أن الأهم دفعه ، أى لا أملك هذا لنفسى فكيف أملك لكم حلول العذاب ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ استثناء منقطع ، أى لكن ما شاء الله من ذلك كائن أو متصل ، أى إلا ماشاء الله أن أملكه بإقدارى عليه ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ مدة معلومة لهلاكهم ، بيان لسبب تأخر العذاب وجواب عن استبطائهم ﴿ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ المضروب لإهلاكهم ﴿ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ عليه لعدم التبديل فلا تستعجلوا فسيجىء وقتكم وينجز وعدكم ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى ﴿ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ أى الله ﴿ بَيَاتًا ﴾ ليلا أى وقت بيات وهو النوم ، نصب على الظرف ﴿ أَوْ نَهَارًا ﴾ وقت اشتغالكم بأسباب المعاش ، لم يذكر الليل فى مقابلة النهار لأنه أراد الإشارة إلى أنه وقت نوم وغفلة ، ليدل على أنه الوقت الذى يفترض فيه غزة العدو ولذا قدمه ﴿ مَاذَا ﴾ أى شىء ﴿ يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى أىّ فرد من أفراده يستعجلون مع أنه لا فائدة فى شىء منها لأن العذاب كله من المذاق يجب الفرار منه ، وعلى هذا « من » تبعيضية أو معنى الاستفهام التعجيب أى أى شىء هائل من العذاب يستعجلون فمن للبيان ، لأن ذلك الشىء هو العذاب نفسه والمراد تسفيه أحلامهم على كلا المعنيين بأن مايستعجلونه لا فائدة فى استعجاله ووضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم لجرمهم ينبغى أن يخافوا العذاب لا أن يستعجلوه ، وجملة الاستفهام جواب الشرط كقولك : إن أتيتك ماذا تعطينى أو متعلقة بـ « أرأيتم » لأنه بمعنى أخبرونى ، والجواب محذوف أى تندموا ، والشرط بجزائه مقرر لمضمون الاستخبار ، ولذا وسط بينه وبين متعلقه ، أو جملة الاستفهام اعتراض والجزاء هو قوله ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ حل بكم ﴿ آمَنْتُمْ بِهِ ﴾ أى الله ، أو العذاب عند نزوله حين لا ينفعكم الإيمان ، والهمزة لإنكار التأخير ، وأصل الكلام على الوجه الثالث : إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً وتحقق آمنتم به ، ثم جىء بحرف التراخى بدل الواو استبعاداً لما فعلوه ، ثم زيد « إذا » الشرطية دلالة على استقلاله بالاستبعاد مع زيادة التجهيل لأن هذا الإيمان أدخل فى الإنكار من استعجال العذاب فكأن الشرط الأول تمهيداً لهذا وأكد بـ « ما » تحقيقاً لمعنى الوقوع ، وأدخل الهمزة على « ثم » لأنه مصب الإنكار ، والله أعلم بأسرار كتابه . ويقال لكم ﴿ آلْآنَ ﴾ تؤمنون ، بإلقاء حركة الهمزة إلى اللام وحذفها لنافع ، وهو الوقت الذى أنت فيه : ظرف غير متمكن وقع معرفة ، وليست اللام فيه للتعريف ﴿ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ تكذيباً واستهزاء ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ عطف على يقال المقدر قبل الآن ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ الملزم على الدوام الذى تخلدون فيه ﴿ هَلْ ﴾ ما ﴿ تُجْزَوْنَ إِلَّا ﴾ جزاء ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴾ يستخبرونك إنكاراً وتكذيباً ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ أى ما وعدتنا به من العذاب والبعث ، وأحق مبتدأ والضمير فاعل مرتفع به ساد مسد الخبر أو خبر

مقدم والضمير مبتدأ مؤخر ، والجملة فى موضع النصب « ليستنبئونك » ﴿ قُلْ إِى ﴾ بكسر الهمزة كلمة تصديق بمعنى نعم قيل القسم لا تستعمل مفردة ﴿ وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ أكده بأنواع من التأكيد لقوة إنكار المخاطب به ، وقيل الضميران للقرآن أو لادعاء النبوة ، ولا يلائم المقام ويرده قوله ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين العذاب ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ بالشرك والتعدى على الغير ﴿ مَا فِى الْأَرْضِ ﴾ من الاموال ﴿ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ من العذاب يوم القيامة ، والفدية والفداء ما ينقذ به الشىء ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ ﴾ على ترك الإيمان ﴿ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ لأنهم بهتوا بما عاينوا مما لم يحتسبوه من شدة الأمر وهوله فلم يقدروا أن ينطقوا أو يبكوا كما يفعله المصاب ، وكثيراً ترى من له ولد عزيز عليه إذا مات يبقى كالجماد لا يسيل له دمع ولا يقدر على صراخ ، وقيل المراد : أظهروها لأن « أسر » من الأضداد ، وقيل أسروها من سفلتهم الذين أضلوهم حياء من تعييرهم وهو بعيد ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ بين المؤمنين والكافرين ، والظالمين والمظلومين ، ولا تكرار لأن الأول بين الأنبياء ومكذبيهم ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ شيئاً ﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقرير لقدرته على الإثابة والعقاب ﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث والجزاء ﴿ حَقٌّ ﴾ كائن لا خلف فيه ، وصدر الجملتين بحرف التنبيه إيقاظاً عن سنة الغفلة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾ أى الناس ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ذلك لانهماكهم فى الشهوات وعدم تفكرهم فى أمور الآخرة ﴿ هُوَ يُحْىِ وَيُمِيتُ ﴾ فى الدنيا وهو يقدر عليهما فى الأخرى ، ردٌّ لقولهم : وما يهلكنا إلا الدهر ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فى الآخرة فيجازيكم بأعمالكم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ أهل مكة وغيرهم ﴿ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أى كتاب فيه مالكم وعليكم وهو القرآن ، والموعظة : النصح ، مصدر بمعنى الوعظ : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وترقيق القلوب بالوعد والوعيد ﴿ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ ﴾ باعتبار قبولها الوعظ والتدبر فيه أى شفاء من داء الجهل والهوى ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ به خصهما بهم لأنهم المنتفعون به ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ ﴾ الإسلام ﴿ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ القرآن فليفرحوا لا بغيرهما من متاع الدنيا ﴿ فَبِذَلِكَ ﴾ الفضل والرحمة ﴿ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ والباء فى « بفضل الله » متعلق بفعل يفسره « فليفرحوا » والتقديم للاختصاص أى لا بغيرهما والتكرير للتأكيد لأن أسم الإشارة بمنزلة الضمير وإيثاره لاشتماله على زيادة كمال التمييز فيفيد زيادة تقرير وتثبيت وحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه ، والفاء جواب شرط كأنه قيل : إن فرحوا بشىء فليخصوهما بالفرح ، وقيل الفضل والرحمة هما القرآن ، وتوسيط العاطف باعتبار الصفتين أى الكتاب الجامع بين هذين الوصفين ، قال فى غاية الأماني : وهذا أوجه وألصق بالمقام ، وقال ابن عطية : لا وجه عندى لشىء من هذا التخصيص ، يعنى تخصيص الفضل بالإسلام والرحمة بالقرآن إلا أن يستند شىء منه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، والذى يقتضيه اللفظ أن الفضل هو هداية الله تعالى إلى دينه والتوفيق إلى اتباع شرعه ، والرحمة هى عفوه وسكنى جنته التى جعلها جزاء على التشرع بالإسلام والإيمان . اه .

قلت هذا التخصيص مروى عن ابن عباس وغيره من الصحابة وهو مما لا مجال للرأى فيه فيكون مرفوعا حكما . والله أعلم ﴿ هُوَ ﴾ الضمير لذلك ﴿ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ من الدنيا ، بالياء للجمهور والتاء لابن عامر ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أخبرونى ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى أنزل أسبابه أو خلق ﴿ لَكُمْ ﴾ لأجلكم امتنان ﴿ مِنْ رِزْقٍ ﴾ بيان « ما » متعلق بأرأيتم إن كانت موصولة ومفعول « أنزل » إن كانت استفهامية ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ كالبحيرة والسائبة والميتة ﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ فى ذلك التحريم والتحليل أم لا ؟ أى : أخبرونى أىّ الأمرين كان الإذن أم الافتراء ، فأم حينئذ فى قوله ﴿ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ تكذبون بنسبة ذلك إليه منصلة ، ويجوز أن تكون منفصلة بمعنى بل ، وهو أبلغ فى الوعيد والزجر ، ويدل عليه قوله ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ إذا لقوه أيحسبون أنه لا يعاقبهم ؟ لا . وفى إبهام الوعيد تهديد عظيم والظرف منصوب بالظن ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ بإمهالهم والإنعام عليهم مع الافتراء والعصيان ، أى بالعقل وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب والرزق ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ النعم . ولما طالت محاجة النبى صلى الله عليه وسلم مع الكفار سلاه على مايقاسيه معهم من المشاق بأنه ليس شىء منه إلا وعلمه محيط به يجازيه عليه بقوله ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ خطب من شئونك الدينية والدنيوية ، أو فى قصد من مقصودك ، لأن الشأن هو الأمر والحال العظيم فهو اسم بمعنى الخطب أو مصدر شأنت شأنه إذا قصدت قصده ﴿ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ ﴾ أى من الشأن بمعنى لأجله ﴿ مِنْ قُرْآنٍ ﴾ أنزل عليك لأن تلاوة القرآن أعظم شئون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى داخلة فى « شأن » والتخصيص للتشريف أو الضمير للقرآن المفهوم من « تتلو » ، أى وما تتلو من القرآن من شىء منه لأن اسم القرآن يطلق على كل جزء منه ، أو الإضمار قبل الذكر للتفخيم ، أو الضمير لله ، و « من » ابتدائية عليهما و « من » فى « من قرآن » تبعيضية أو مزيدة لتأكيد النفى ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ ﴾ أنت وأمتك ﴿ مِنْ عَمَلٍ ﴾ أى عمل كان ، عم الخطاب بعد أن خصص سيد القوم بما فيه فخامة إجلالا لمنصبه ورفعا لجانبه ﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ مطلعين على أحوالكم رقباء على أعمالكم الظاهرة والباطنة ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ ﴾ تخوضون وتندفعون وتنصبون ﴿ فِيهِ ﴾ أى العمل ﴿ وَمَا يَعْزُبُ ﴾ بضم الزاى للجمهور وبكسرها للكسائى لايغيب ﴿ عَنْ ﴾ علم ﴿ رَبِّكَ ﴾ أى لايبعد عنه ﴿ مِنْ مِثْقَالِ ﴾ وزن ﴿ ذَرَّةٍ ﴾ أصغر نملة أو أقل قليل ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أى فى الجهات السفلية والعلوية ، وتقديم الأرض لأن الكلام فى حال أهلها والمقصود منه البرهان على إحاطة علمه بها ﴿ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ﴾ بالفتح فيهما للجمهور عطفا على لفظ « من مثقال » لأنهما غير منصرفين وبالرفع لحمزة على المحل لأنه فاعل ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ بيّن هو اللوح المحفوظ استثناء منقطع أى لا يعزب عنه شىء لكن كله فى كتاب أو متصل ، وحينئذ فقوله : « ولا أصغر - إلى آخره » كلام برأسه مقرر لما قبله « ولا » نافية ، و « أصغر » اسمها ،

وفى كتاب» خبرها . قال عبدالرحمن الثعالبي : هذه الآية عظيمة الموقع لأهل المراقبة تنير من قلوبهم أسرارا ويترفون من بحر فيضها أنوارا . اه . ولما كان مضمون الآية التنبيه والتحذير ومظنة إسراع الخوف إلى قلوب المخلصين إذ ما من أحد إلا وله نوع تقصير فى المراقبة أزال الخوف عن أوليائه بقوله ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ بوصول مكروه وفوات محبوب . ثم ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الله بامتثال أمره ونهيه وتأدبوا بآداب رسوله صلى الله عليه وسلم ، والآية تعريف لهم وتمييز عما عداهم ، أو نصب أو رفع على المدح أو مبتدأ والخبر هو قوله ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ﴾ قال فى الجواهر : وفى الآية : إن كل من آمن واتقى الله فهو داخل فى أولياء الله وهذا هو الذى تقتضيه الشريعة فى الولى ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم سئل : من أولياء الله ؟ فقال : « الذين إذا رأيتهم ذكرت الله » . اه . قال ابن عطية : وذلك وصف لازم للمتقين ، وروى أنهم قوم تحابوا فى الله واجتمعوا فى ذاته لا للقرابة ولا للمال ، وروى الدارقطنى فى سننه أنه عليه الصلاة والسلام قال : « خيار عباد الله الذين إذا رُءوا ذكر الله ، وشر عباد الله المشاءون بالنميمة المفرقون بين الأحبة » . اه . ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له كما تظاهرت به الأحاديث الصحيحة وبما بشر الله به المتقين فى كتابه وعلى لسان نبيه ويبشرى الملائكة عند النزع ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بتلقى الملائكة لهم عند القبور وبالجنة ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ لا خلف فى مواعيده ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ هذه الجملة والتى قبلها اعتراض لتحقيق المبشر به وتعظيم شأنه ، وليس من شرطه أن يقع بعده كلام يتصل بما قبله ، أو الأولى اعتراض والثانية تذييل لها ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ فى الإشراك وفى رسالتك وتهديدك ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ ﴾ استئناف للتعليل أى : الغلبة والقهر لله ﴿ جَمِيعًا ﴾ لا مؤثر فى الكائنات غيره ، وقد وعدك بالنصر والغلبة و ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائرهم وبمن له النصر والغلبة فيجازيهم وينصرك ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ من الملائكة والثقلين ، اقتصر على ذوى العقول لكون غيرهم داخلا بالطريق الأولى وفيه تغليب ، وأتى بحرف التنبيه وأكد الكلام بإن إشارة إلى شدة غفلة الساهين العابدين الأصنام التى تحت قبضته وقدرته ولذا قال ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره أصناما ﴿ شُرَكَاءَ ﴾ له على الحقيقة لأن من فى السموات والأرض مملوك له لا يصلح شركا فى الألوهية فمن سموه شريكا اسم بلا مسمى ، ويجوز أن تكون « ما » استفهامية مفعول يتبع و « شركاء » مفعول يدعون ، والمعنى : أى شىء يتبع هؤلاء الذين يدعون شركاء من دون الله إذا كان من فى السموات والأرض مملوكا له تعالى تقريرا لجهلهم ويجوز أن تكون « ما » موصولة معطوفة على « من » ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ ﴾ فى ذلك ﴿ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ الذى لا يجدى فى الأصول والعقائد وهو ظنهم أنها آلهة تشفع لهم ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ يكذبون فى دعواهم أو يقدرون فى أنفسهم مالا وجود له ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ ﴾ مظلما ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ وتنكفوا

عن الأعمال فيزول التعب والكلال عنكم بالسكون إذ لولا الليل لحملكم الحرص على إدامة العمل ،وأصل السكون الثبوت بعد الحركة ﴿ وَ ﴾ جعل لكم ﴿ النَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ مضيئا تبصرون فيه لتتحركوا إلى طلب المعاش والحوائج وإسناد الإبصار إلى النهار مجاز لأنه مبصر فيه ، وفى هذه الألفاظ من الإيجاز والإحالة على ذهن السامع مالا يخفى وفيها الاحتباك ودلالة هذه النعم على تفرده باستحقاق العبادة فى غاية الجلاء ، ولذا ختم الآية بقوله ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ ﴾ دلالات على وحدانيته تعالى ﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر فإنه لايحتاج إلا إلى إلقاء سمع دون تكثير مقدمات وتدقيق أنظار . ثم أشار إلى نوع آخر من جهالاتهم بقوله ﴿قَالُوا﴾ اليهود والنصارى والمشركون الزاعمون أن الملائكة بنات الله ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ قال تعالى لهم ﴿سُبْحَٰنَهُ﴾ تنزيها له عن الولد إذ لايتخذ الولد إلا المحتاج اليه والله تعالى ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ عن كل شىء ، وكل شىء محتاج إليه ، والولد إنما يطلب ليكون ظهيرا فى حياة والده وقائما مقامه بعد وفاته ومن انتفى عنه الاحتياج من كل وجه ماذا يفعل بالولد ؟ ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ملكا وخلقا وهو ينافى الولد وفيه تقرير لغناه وإشارة إلى أنهم جاهلون متناقضون ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ حجة ﴿ بِهَٰذَآ ﴾ الذى تقولونه ، التفت إليهم توبيخا وتكذيبا لهم على سبيل المخاطبة وبهذا متعلق بالظرف على أن « من سلطان » فاعل الظرف لاعتماده على النفى أو متعلق بسلطان لأن فيه معنى الفعل أو نعت له ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ توبيخ على نسبتهم إلى الله مالا علم لهم به وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد لابد لها من قاطع ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ خاطبهم أولا ثم لما جهلهم أعرض عنهم وأمر المرسل إليهم بأن يخاطبهم بأن الذين ينسبون الولد أو الشريك أو ما لايليق به إليه ﴿ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ لاينجون فى الآخرة من النار ولا يفوزون بالجنة ﴿ مَتَٰعٌ ﴾ أى لهم متاع قليل ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ يتمتعون باقتراحهم فيها إذ بذلك يقيمون رياستهم بين قومهم ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ بالموت فيلقون الشقاء المؤبد ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ بعد الموت و « ثم » للتراخى الرتبى لأن الكافر بالموت ساقط فى العذاب إلا أن عذاب جهنم أشق ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ بسبب كفرهم . ولما استوفى الله دلائل حقية القرآن وتبين بذلك صدق من أرسل به وأردف ذلك بدلائل وحدانيته وأحوال كفار قريش وما كانوا عليه من الكفر والعناد أمر رسوله بأن يتلو عليهم بعض قصص الأمم المكذبة رسلهم فأهلكهم الله ليكون تسلية للرسول ليتأسى بالرسل فيما يجرى من أذى الكفار وزجرا للكفار أن يصيبهم ماأصاب أولئك وبدأ بنوح لأنه أول نبى عذب قومه ولأنهم عبدة الأوثان مثل قريش فقال ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أى كفار مكة ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ خبره مع قومه ، ويبدل منه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى ﴾ شق عليكم قيامى بين أظهركم داعيا إلى الله لأنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ، أو معنى « مقامى »

نفسى وكونى . قال الثعالبى : المقام وقوف الرجل لكلام أو خطبة ونحوه ، والمقام بضم الميم : إقامته ساكنا فى موضع أو بلد ولم يقرأ بضم الميم فيما علمت . اه . قلت ويؤيده مافى القاموس : قام قوما وقومة وقياما : انتصب ، وأقام بالمكان : دام . اه . وهذا يخالف من فسر مقامى بلبثى فيكم كالسيوطى . والله أعلم ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ وعظى إياكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بالدلائل الدالة على وحدانيته وصدق نبوتى ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ به وثقت لا على غيره من الأسباب ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ اقصدوه واعزموا عليه من الإجماع بمعنى العزم ، وأمرهم : كيدهم ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ مفعول معه ، والواو بمعنى : مع ، وروى عن نافع أجمعوا بالوصل من الجمع فعليه يجوز نصب شركاءكم بالعطف على المفعول ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مستورا بل أظهروه وجاهروني به من غم الهلال تستر وغمه ستره ، أو المعنى : لايكن حالكم عليكم غما إذا أهلكتموني وتخلصتم عن ثقل مقامى وتذكيرى ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أمضوا بى ماأردتموه وأنفذوا قضاءكم نحوى . قال البيضاوى : أدلوا إلىّ ذلك الأمر الذى تريدون بى . اه ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ لاتمهلونى فإنى لست مبالبكم ، وهذا الكلام من نوح عليه السلام على طريق التعجيز لهم توكلا على الله وثقة بنصره إياه ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن تذكيرى ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ ثواب عليه يوجب توليكم لثقله أو يفوتنى لتوليكم ﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِيَ﴾ ثوابى على الدعوة والتذكير ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لاتعلق له بكم يثيبنى به آمنتم أو توليتم ، وحاصل الكلام أن قبائى ليس إلىّ فاسعوا فى إزالته بكل ممكن فإن توليتم فإنى لم أطلب منكم شيئا بل ناصح لوجه الله ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لأمره المخلصين له فأنا ماض فيه غير تارك له قبلتم أو توليتم . قال فى غاية الأمانى : وفيه أن من أخذ الأجر على تعليم العلم وهداية الناس ليس من ورثة الأنبياء ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ استمروا على تكذيبه بعد إلزام الحجة ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ من الغرق ﴿فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ الأرض عن الهالكين ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بالطوفان ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن كذب الرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أى نوح ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كل رسول إلى قومه كهود وصالح وابراهيم ولوط ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أى ما استقام لهم أن يؤمنوا لشدة كفرهم وخذلان الله إياهم وإنما زاد لفظ « كان » بلام الجحود إشارة إلى أن عدم إيمانهم لم يكن إلا جحدا واستكبارا ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ بسبب تعودهم تكذيب الحق قبل بعث الرسل إليهم . يعنى استوى الحالتان عندهم ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ بالانهماك فى الضلال واتباع المألوف فلا تقبل الإيمان كما طبعنا على قلوب أولئك ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بعد هؤلاء الرسل ﴿مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ قومه ﴿بِآيَاتِنَا﴾ التسع ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عن الإيمان بهما واتباعهما ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ معتادين الإجرام فلذلك تهاونوا برسالة ربهم واجترأوا على ردها ، وهذا تذييل للجملة السابقة ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وهو

المعجزات ﴿ قَالُوا ﴾ من فرط تمردهم ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ظاهر أنه سحر أو فائق فى فنه واضح ﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ﴾ إنه لسحر ، حذف المحكى بالقول لدلالة ما قبله عليه واستأنف قوله ﴿ أَسِحْرٌ هَٰذَا ﴾ وقد أفلح من أتى به وأبطل سحر السحرة والاستفهام فى الموضعين للإنكار ويجوز أن يكون معنى « أتقولون » أتعيبون الحق من قولهم : قال زيد فى عمرو أى عابه فيستغنى عن المفعول ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾ ولو كان سحراً لأضمحل لأن السحر تمويه وتخييل ، وصاحب ذلك لا يفلح ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا ﴾ لتصرفنا ومنه الالتفات ﴿ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ ﴾ أى الملك عبر بلازمه لأن شأن الملوك التكبر على الناس باستتباعهم ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ مصدقين ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِى بِكُلِّ سَاحِرٍ ﴾ ولحمزة والكسائى سحار ﴿ عَلِيمٍ ﴾ فائق فى علم السحر ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ ﴾ بعد ما قالوا له ، إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا ﴾ حبالهم وعصيهم ﴿ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ﴾ هو ﴿ السِّحْرُ ﴾ لا المعجزات التى قال فرعون وقومه إنها لسحر وما موصولة مبتدأ و« السحر » بهمزة واحدة للجمهور خبر مولأبى عمرو : السحر على أن « ما » استفهامية مبتدأ خبره جئتم به ، والسحر بدل منها أو خبر مبتدأ محذوف أى أهو السحر ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ سيمحقه أو سيظهر بطلانه بإظهار المعجزة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ من كل مفسد ، دليل على أن السحر من الإفساد لإغوائه الناس فهو من أكبر الكبائر أو كفر ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ ﴾ يثبت ويظهر ﴿ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ آياته الدالة على حقيته أو بأوامره ونواهيه أو بمواعيده ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ إذ لا تأثير فى الكائنات إلا لقدرته ، واكتفى عن بقية قصة السحرة بما فى « طه والشعراء » وذكر هنا آخر شأن فرعون فقال ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ ﴾ مع كثرة معجزاته وقت مجيئه ﴿ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ ﴾ قليل من الأولاد ، وهذا تسلية للنبى فى إعراض قومه عن إيمانه ﴿ مِّن قَوْمِهِ ﴾ الضمير لموسى ، أى لم يؤمن من بنى إسرائيل بعد غلبة موسى إلا شبان من قومه أولاد يعقوب الذين أرسل إليهم ، هلك الآباء وبقى الأبناء ، وقيل الضمير لفرعون ، وقد آمن من قومه مؤمن من آل فرعون وامرأته « آسية » وخازنه وامرأته والماشطة وضعف كل من القولين . قال ابن عطية : ومما يضعف عود الضمير على موسى أنه لم يحفظ قط طائفة من بنى إسرائيل كفرت به فدل على أن الذرية من قوم فرعون . اهـ . وقال فى غاية الأمانى : هذا القول يعنى عود الضمير إلى فرعون ليس بسديد لأن السحرة من قوم فرعون وقد آمنوا أجمعون وكانوا ألوفاً . اهـ . والله أعلم بمراد كتابه ﴿ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ ﴾ الضمير للقوم أى أشرافهم ، أى آمنوا بموسى حال كونهم مستعلين على الخوف ، استعار « على » للدلالة على فرط خوفهم ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ يعذبهم فرعون وهو بدل منه أو مفعول خوف وإفراد الضمير للدلالة على أن الخوف من الملإ كان بسببه . وقال الفراء : سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط من آل فرعون وأمهاتهم من بنى إسرائيل فكان الرجل يتبع أمه

وأخوالهم فى الإيمان ، كما يقال لأولاد فارس الذين دخلوا إلى اليمن : الأبناء ؛ لأن أمهاتهم من جنس الآباء . اهـ .
﴿ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ ﴾ لغالب متكبر ﴿ فِى الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ المتجاوزين الحد بادعاء الربوبية ، إيماء إلى أن خوفهم منه لا يقدح فى كمال إيمانهم ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ بأن لا فاعل إلا هو ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا ﴾ فإن الإيمان بالله يوجب التوكل ، لأن من شرائطه الإيمان بالقدر ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ منقادين لأمره مخلصين فى الإيمان ، وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين ، فإن المعلق بالإيمان وجوب التوكل فإنه المقتضى له والمشروط بالإسلام حصوله فإنه لا يوجد مع التخليط ، ونظيره : إن دعاك زيد فأجبه إن قدرت ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ اعتمدنا ، والمؤمنون فى التوكل متفاوتون على قدر إيمانهم وعلمهم بمواعيد الله وضمانه ، فأعلاه أن يسكن القلب عن الاضطراب فيستريح من عذاب الحرص ويفك من أسر الطمع ويعتق من عبودية الدنيا وأبنائها ويحظى بالروح فى الدارين جميعاً رزقنا الله ذلك ، وسببه دوام المعرفة ، والاعتماد على الله ، وترك الحيل مع الممارسة حتى يألف ذلك إلفاً ويختاره ، فبصير التوكل والرضى والصبر له شعاراً ودثاراً ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيفتنوا بنا ولا تجعلنا موضع فتنتهم بأن يعذبونا أو يصرفونا عن ديننا ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ من كيدهم وشؤم مجالستهم ، فإن الأخلاق السيئة تسرى إلى الطبع ، وفى تقديم التوكل على الدعاء تنبيه على أن الداعى ينبغى أن يتوكل أولا لتجاب دعوته ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا ﴾ اتخذا ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ ﴾ قال مجاهد : يعنى الاسكندرية ، ومصر هو ما بينها وبين أسوان ﴿ بُيُوتًا ﴾ للصلاة فيها ، يقال : تبوأت منزلا أى نزلته ، وبوأته الرحل أى هيأته له . قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ مساجد تصلون فيها لتأمنوا من الخوف ، وكان فرعون منعهم من الصلاة فى البيع ، أو اجعلوها متوجهة نحو القبلة ، قيل : هى الكعبة ، وقيل : بيت المقدس ، وقال ابن العربى فى قوله : « واجعلوا بيوتكم قبلة » أى اجعلوا بيت المقدس قبلة أمروا أن يستقبلوها حيثما كانوا ، وقيل : المراد صلوا فى بيوتكم دون بيعكم إذا كنتم خائفين ، والأول أظهر لأن الثانى دعوى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ أتموها فيها ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنجاة فى الدارين وإنما ثنى الضمير أولا لأن التبوء للقوم واتخاذ المعابد مما يتعاطاه رءوس القوم بتشاور ثم جمع لأن جعل البيوت مساجد والصلاة مما ينبغى أن يفعله كل أحد ثم وحد لأن البشارة فى الأصل وظيفة صاحب الشريعة . قاله البيضاوى ، ولما عاند القبط دعا عليهم موسى وقدم تقرير النعم عليهم وكفرهم بها اعتذارا فى الدعاء عليهم ، فقال تعالى حكاية عنه ﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً ﴾ ما يتزين به من الملابس والمراكب والغلمان والفرش وجميع الأشياء الجميلة ﴿ وَأَمْوَالًا ﴾ أنواعا منها من الصامت والناطق ﴿ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا ﴾ آتيتهم ذلك ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ بفتح الياء للجمهور وضمها

الكوفيين فى عاقبته ﴿ عَنْ سَبِيلِكَ ﴾ أى فعلت ذلك استدراجا، وتكرير ربنا للتأكيد واللام للعاقبة وقيل دعاء بلفظ الأمر وذلك لما علم أن الإيمان منهم كالمحال دعا بما لا يكون إلا هو فهو تصريح بمقتضى ماجرى به قضاء الله ، فاللام لام الدعاء وهى مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ امسخها وغير صورتها أو اعمها وأهلكها ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ اطبع عليها واستوثق ﴿ فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ أى حتى لا يكون للإيمان إليها سبيل عطف على « ليضلوا » وما بينهما اعتراض أو جواب للأمر والمعنى : اطبع على قلوبهم حتى لا يؤمنوا ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ المؤلم ، دعا عليهم وأمّن هارون على دعائه جريا منهما على مقتضى قضاء الله وليس من الرضا بالكفر فى شىء إذ أعلمهما الله سابق قضائه فيهم كما قال نوح عليه السلام حين قال له ربه : « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا» مع أن أبا منصور الماتريدى نص على أن الرضى بالكفر إنما يكون كفرا إذا رضى بكفر نفسه لا بكفر غيره ويؤيده أحاديث ، انظرها فى القسطلانى . ﴿ قَالَ ﴾ تعالى ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ إذ كل منهما دعا أو لأن تأمين هارون دعاء فسخت أموالهم حجارة ولم يؤمن فرعون لذلك حتى أدركه الغرق . روى عن ابن عباس أن الدراهم والدنانير والفساكر صارت حجارة . وعن السدى : وكذا النخل والثمار والدقيق والأطعمة . وقال مجاهد : أهلكها الله ودمرها. وهذا الطمس هو إحدى الآيات التسع التى أوتيها موسى عليه السلام على قول ﴿ فَاسْتَقِيمَا ﴾ على الرسالة والدعوة إلى الله ولا تعجلا إلى أن يأتيهم العذاب ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ ﴾ بتشديد النون للجمهور ، وتخفيفها لابن عامر فى رواية ذكوان على أنه خبر ، أى : لستما تتبعان ﴿سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة وعدى ووعيدى بأنه لا خلف فيه وإن تأخر . روى أن بين هذا الدعاء والإجابة أربعين سنة . قال بعض العارفين : شرط الدعاء صدق الافتقار فى الابتداء وحسن الانتظار ، وترك الاستعجال والثقة بالله مع جميل الظن ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ حافظين لهم حتى بلغوا الشط ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ ﴾ لحقهم ﴿ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ حال أو مفعول له : باغين عادين أو للبغى والعدوان ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾ بفتح الراء : غمره الماء قبل الهلاك مصدر غرق ﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ ﴾ بالفتح للجمهور أى بأنه ، وبالكسر لحمزة والكسائى على الاستئناف أو البدل من « آمنت » أو لتضمنه معنى القول ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ كرر ذلك ليقبل منه وما علم اللعين أن التوبة عند معاينة العذاب لا تنفع «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا» ولذا أخذ جبريل من حال البحر فدس فى فيه مخافة أن تناله الرحمة كما فى حديث الترمذى وأحمد وغيرهما وحال البحر : طينه وإنما فعل ذلك غضبا لله وعلما منه أنه لا ينفعه الإيمان لا أنه كره إيمانه كما تقدم فى موسى ، ولذا قال تعالى فى جواب فرعون ﴿آلْآنَ﴾ أى : أتؤمن وقت الاضطرار ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ مدة عمرك ﴿ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ بالإضلال وذبح بنى إسرائيل « روى أن جبريل يوما أتاه برقمة فيها : ماقول الأمير فى

عبد لرجل نشأ فى ماله ونعمته لا يعمل له شيئا سوى أنه يقر بأنه عبده ثم ادعى بعد ذلك السيادة دونه وجحد النعمة فكتب على الرقعة : جزاؤه أن يغرق فى البحر » . كتبه الوليد بن مصعب فلما أدركه الغرق تاوله جبريل خطه فعرفه ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ نلقيك على نجوة وهى ما ارتفع من الأرض ﴿بِبَدَنِكَ﴾ بجسدك خاليا من الروح ليراك بنو إسرائيل فيزدادوا سرورا وئلا يظن الجهلة أنك نجوت ويعلموا أنك لست بإله . روى أن الله أمر البحر فألقى فرعون على الساحل أحمر قصيرا كأنه ثور فعرفه بنو إسرائيل فمن ذلك الوقت لا يقبل الماء ميتا ، وقيل المراد بالبدن : الدرع وكان لابسا درعا من ذهب مرصعا بالجواهر يعرف به فلما رأوه فى درعه ذلك عرفوه ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ إلى يوم القيامة إذا سمع ما كنت فيه وما آل أمرك إليه مثل هذا حكى الله فى كتابه أحوال الأمم الهالكة للاعتبار بهم ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ﴾ حيث يسمعون مثل هذه الوقائع ولا يتفكرون فى عظمة الله وكبريائه ولا يتركون مخالفة أوامره ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أنزلنا ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ منزل كرامة مرضيا صالحا لهم وهو الشام لكونه موطن الانبياء ومحل المحشر وقيل مصر لأنهم سكنوه بعد فرعون وأكرموا فيه بالنجاة بإغراق فرعون بموضع يسمى « سويس » على ثلاث مراحل من مصر . قاله فى غاية الأمانى ﴿وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَـٰتِ﴾ اللذيذات فيه ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا﴾ فى أمر دينهم وصاروا شيعا أو فى أمر محمد بأن آمن بعض وكفر بعض ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بالتوراة وأحكامها أو علم صدق محمد صلى الله عليه وسلم بنعوته فى التوراة ومعجزاته وهذا غاية فى ذمهم حيث جعلوا ما كان سببا للاتفاق وسبيله الاختلاف إذ لم يكن لبنى إسرائيل اختلاف على نبوة موسى حتى غرق فرعون وأنزلت التوراة فاختلفوا بعد موسى وكانوا قبل مبعث محمد مقرين به مجمعين على نبوته لما يجدونه مكتوبا عندهم فلما بعث اختلفوا فيه فآمن به قليل وكفر به كثير حسدا وإيثارا لبقاء الرياسة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين بإنجاء المؤمنين وتعذيب الكافرين ﴿فَإِن كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القصص فرضا مثل قوله لئن أشركت ليحبطن عملك يخاطب بالشىء والمراد به غيره ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ كالتوراة ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ فإنه ثابت عندهم يخبرونك بصدقه . قال عليه الصلاة والسلام « لا أشك ولا أسأل» إذ المراد تحقيق ذلك والاستشهاد بما فى الكتب المتقدمة وفيه دليل على أن من عالجته شبهة فى الدين ينبغى أن يسارع إلى حلها بسؤال أهل العلم ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ واضحا لا مدخل للمرية فيه بالأدلة القاطعة ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيه بالتزلزل نحما أنت عليه من اليقين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ وكل هذا من باب التثبيت وقطع الأطماع عما يصم كما تقدم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ﴾ وجبت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بأنهم يموتون على الكفر بالجمع لنافع وابن عامر والإفراد للباقين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لاستحالة الكذب فى كلماته التى هى أحكامه الأزلية وعلمه وإرادته

﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ولا نفع للإيمان حينئذ ﴿ فَلَوْلَا ﴾ فهلا ﴿ كَانَتْ قَرْيَةٌ ﴾ أريد أهلها من القرى العاصية ﴿ ءَامَنَتْ ﴾ قبل نزول العذاب بها ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ بأن يقبله الله منها ويكشف العذاب عنها لوم على ترك الإيمان فى وقته والاشتغال به فى وقت لايغنى كما فعل فرعون ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا ﴾ عند رؤية أمارة العذاب ولم يؤخروا إلى حلوله ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾ ولم يصبهم ما أصابهم استثناء منقطع من القرية لأن المراد أهلها ، ويجوز أن يكون متصلا لاشتمال لولا على معنى النفى كأنه قيل : ما آمنت قرية عند نزول العذاب فنفعها إيمانها إلا قوم يونس فهو خاص بهم والله يفعل ما يشاء ، أو لإيمانهم قبل مباشرة العذاب أو لعلم الله صدق نياتهم فى التوبة بخلاف فرعون وأمثاله روى أنه بعث يونس بن متى إلى أهل نينوى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله فكذبوه فوعدهم نزول العذاب إلى أجل معين فلما قرب خرج من بينهم ففامت السماء غيما أسود هائلا هبط على مدينتهم وتغشى سطوحها فخافوا ولبسوا المسوح وأخلصوا الإيمان والتوبة وبرزوا إلى الصحراء بدوابهم ومواشيهم ونسائهم وصبيانهم وفرقوا بين كل والدة وولدها فحن الأولاد إلى الأمهات فارتفعت الأصوات وعلا الضجيج وتضرعوا إلى الله فكشف عنهم العذاب وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة ﴿ وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ انقضاء آجالهم وستأتى قصة يونس فى رجوعه إليهم فى الصافات إن شاء الله ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ مجتمعين على الإيمان لايختلفون فيه كما آمن قوم يونس حين شاء ذلك ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾ بما لم يشأه الله منهم ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ لا ، وترتيب الإكراه على المشيئة بالفاء وإيلاؤها حرف الاستفهام للإنكار وتقديم الضمير على الفعل للدلالة على أن خلاف المشيئة مستحيل فلا يمكن تحصيله بالإكراه عليه فضلا عن الحث والتحريض وفيه دلالة على شدة حرصه على إيمان الجميع ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ ﴾ بالله ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ بإرادته وتوفيقه فلا تجهد نفسك فى هداها فإنه إلى الله ﴿ وَيَجْعَلُ ٱللَّهُ الرِّجْسَ ﴾ العذاب أو سببه وهو الخذلان ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ لا يتدبرون آيات الله ﴿ قُلِ ﴾ لكفار مكة الذين يسألونك الآيات ﴿ انظُرُوا ﴾ تفكروا ﴿ مَاذَا ﴾ أى الذى ﴿ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من عجائب الصنع وبدائع الآيات والعبر الدالة على وحدانية الله تعالى ﴿ وَمَا تُغْنِى الْآيَٰتُ وَالنُّذُرُ ﴾ جمع نذير أى الرسل المنذرون أو الإنذارات ﴿ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ فى علم الله ، أى ماتنفعهم لسبق القضاء بعدم إيمانهم و « ما » نافية أو استفهامية فى موضع النصب ﴿ فَهَلْ ﴾ ما ﴿ يَنتَظِرُونَ ﴾ بتكذيبك ﴿ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم أى مثل وقائعهم من العذاب ﴿ قُلْ فَانتَظِرُوا ﴾ ذلك ﴿ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ أو فانتظروا هلاكى إنى منتظر هلاككم ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ﴾ عطف على مقدر ، أى : نهلك المكذبين ثم ننجى ﴿ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ من العذاب ، والمضارع لحكاية الحال الماضية ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الإنجاء ﴿ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ﴾ بفتح النون الثانية

وتشديد الجيم للجمهور ، والكسائى وحفص بإسكانها وتخفيف الجيم ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ النبى وأصحابه حين نهلك المشركين ، و « حقاً علينا » اعتراض ونصبه بفعله المقدر ، وقيل بدل من كذلك ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ أهل مكة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ فى صحته فلا مجال للشك فيه ، وإنما ينبغى الشك فى عبادتكم الأصنام فإن أصررتم على ما أنتم عليه ﴿ فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ يقبض أرواحكم الذى هو من صفات الألوهية ، فاعرضوا هذا على عقولكم لتعلموا أنه الدين . وخص التوفى بالذكر للتهديد ﴿ وَأُمِرْتُ ﴾ أى أمرنى الله ﴿ أَنْ ﴾ بأن ﴿ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بما أنزل إلىّ من الوحى موافقاً لمقتضى الرأى ﴿ وَ ﴾ قيل لى ﴿ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ عطف على أن أكون ، غير أن صلة « أن » هنا إنشاء ، والإنشاء والخبر فى ذلك سيان ، والمعنى أمرت بالإيمان والاستقامة والإخلاص ، والمراد بالوجه : الذات ﴿ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ مائلا إليه ، حال من الدين أو الوجه قاله فى أنوار التنزيل وغاية الأمانى ، وقال فى الجواهر : الوجه هنا بمعنى المنحى والقصد أى اجعل طريقك للدين . قلت يحتمل أن يكون حالا من فاعل أقم . والله أعلم ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَلَا تَدْعُ ﴾ لا تعبد ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ ﴾ إن عبدته ﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ إن لم تعبده ﴿ فَإِنْ فَعَلْتَ ﴾ ذلك فرضاً ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وتقدم أن هذا الخطاب وأمثاله وإن كان للنبى فالمراد به غيره ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ ﴾ يصبك ﴿ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ كفقر ومرض ﴿ فَلَا كَاشِفَ ﴾ رافع ﴿ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ لا دافع لما أرادك به ، رجح جانب الترغيب حين آثر فى الشر لفظ المس الدال على القلة والوصول إلى الظاهر فقط ولم يصرح بالإرادة وإن لم يكن إلا معها حتى كأنه واقع بالعرض ، وأشار بالاستثناء إلى أنه لا بقاء له إن لجأ إليه المصاب ، وفى الخير لفظ الإرادة المطلقة الشاملة للظاهر والباطن وجعل المخاطب مراداً والخير تابعاً ، وصرح بأنه لاراد لذلك المراد لأنه واقع قطعاً ، وسماه فضلا إشعاراً بالرأفة والعناية ، وهذه نكت تعتبر فى الكلام البليغ باعتبار المقام ﴿ يُصِيبُ بِهِ ﴾ بالخير ﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ فتعرضوا لرحمته بالطاعة ولا تيأسوا من غفرانه بالمعصية ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ ﴾ الرسول أو القرآن ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ولم يبق لكم عذر ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى ﴾ بالإيمان والمتابعة ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ لأن نفعه لها ﴿ وَمَنْ ضَلَّ ﴾ بالكفر ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ لأن وبال ضلاله عليها ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ فأجبركم على الهدى ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ جميعاً ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ على دعوتهم وأذاهم ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ لك فيهم بالنصر والغلبة ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أعدلهم ، وقد صبر حتى حكم على المشركين بالقتال وأهل الكتاب بالجزية .

[تم تفسير سورة يونس]

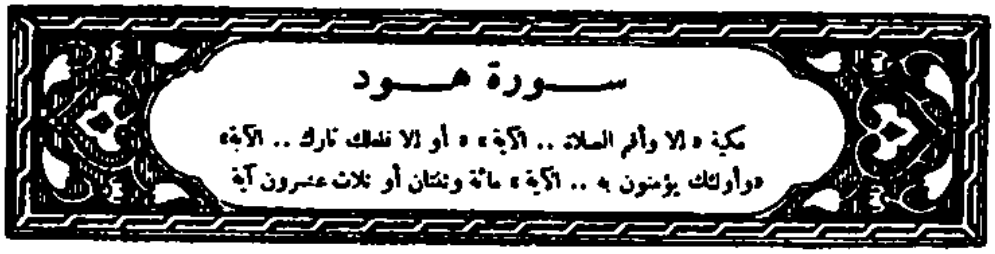

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الر﴾ الله أعلم بمراده بذلك . هذا ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ نظمت نظماً محكماً ، عجيب اللفظ ، بديع المعنى ، لا يعتريه اختلال من جهة اللفظ والمعنى ، أو منعت من الفساد والنسخ بكتاب آخر ، من حكمت الدابة ، أو المراد آيات هذه السورة ليس فيها منسوخ لكونها فى التوحيد وصحة النبوة والمعاد وأحواله ، أو أحكمت بالحجج والدلائل ، أو جعلت حكيمة مشتملة على أمهات الحكم النظرية والعملية ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ بالفوائد من العقائد والأحكام والمواعظ والأخبار ، كما تفصل القلائد بالفرائد ، كأنه شبه الألفاظ العذبة ومعانيها الشريفة من التوحيد والصفات والنبوة والدلائل الدالة عليها وما فيه من الحكم والعبر والقصص بالدرر ، ثم إيراد كل فى موضعه اللائق به بتفصيل لها ، فعلى هذا التراخى رتبى ، أو فصلت بجعلها سورة سورة وآية آية ، أو بتفريقه فى النزول منجما فالتراخى فى الإخبار قال فى الجواهر : أحكمت فى الأزل ثم فصل بتقطيعه تبيين أحكامه وأوامره على محمد فى أزمنة مختلفة ثم على بابها ، فالإحكام صفة ذاتية ، والتفصيل إنما هو بحسب من يفصل له . اهـ . وقيل : أحكمت بالأمر والنهى ثم فصلت بالوعد والوعيد أو بالثواب والعقاب ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ الله : صفة أخرى للكتاب أو خبر بعد خبر أو صلة لأحكمت أو فصلت وهو تقرير لإحكامها وتفصيلها على أكمل ما ينبغى باعتبار ما ظهر أمره وما خفى ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أى لأن لا تعبدوا فهو مفعول له أو « أن » مفسرة لأن فى التفصيل معنى القول أو كلام مبتدأ للإغراء على التوحيد كأنه قال : ترك عبادة غير الله أى ألزموه نحو : « فضرب الرقاب » أى اتركوها تركا ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ﴾ من الله ﴿نَذِيرٌ﴾ بالعذاب إن كفرتم ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالثواب إن آمنتم ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ من الشرك ، عطف على « أن لا تعبدوا » ﴿ثُمَّ تُوبُوا﴾ ارجعوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بالطاعة أو استقيموا على التوبة وأخلصوها فالتراخى رتبى لأن الاستقامة والإخلاص أصعب شأناً ، والاستغفار طلب الغفر أى الستر للذنوب ، والتوبة : الرجوع عما كان فيه من شرك أو معصية إلى خلافه وهو الطاعة ، فلذا قدم على التوبة . وقال الفراء : ثم بمعنى الواو لأن الاستغفار والتوبة بمعنى . قلت : وفيه نظر ﴿يُمَتِّعْكُمْ﴾ فى الدنيا ﴿مَتَاعًا حَسَنًا﴾ بطيب عيش وسعة رزق ، أى يعطكم نعمة

واسعة متتابعة إلى أجل مسمى هو الموت آخر العمر . وقال فى الجواهر : فى قوله « وأن استغفروا » إلى هنا أى اطلبوا مغفرته بطلب دخولكم فى الإسلام ثم توبوا من الكفر يمتعكم متاعاً حسناً لطيب عيش المؤمن برجائه فى ثواب ربه وفرحه بالتقرب إليه بأداء مفترضاته والسرور بمواعيده ، والكافر ليس فى شىء من هذا . اه . ﴿ وَيُؤْتِ ﴾ فى الآخرة ﴿ كُلَّ ذِي فَضْلٍ ﴾ فى العمل الصالح ﴿ فَضْلَهُ ﴾ جزاء فضله لأن الدرجات على قدر الطاعات ، أو فضل الله الذى هو الثواب ، فالضمير للفضل أو لله ، والحاصل وعد المؤمن بالخير فى الدارين كقوله «فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم» ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ فيه حذف إحدى التاءين أى تعرضوا ﴿ فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ هو يوم القيامة ، وصف بالكبر لطوله ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ رجوعكم . وعيد ولذا أردفه بقوله ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ومنه تعذيبكم أشد العذاب ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ ﴾ أى الكفار ﴿ يَثْنُونَ ﴾ يطوون ﴿ صُدُورَهُمْ ﴾ على عداوة الدين والجانى به فلا يظهرونها ، من ثنيت الثوب إذا طويته ﴿ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ أى من الله ولا يطلع رسوله على سرهم ، وكانوا يقولون إذا أرخينا ستورنا واستغشينا ثيابنا وطوينا صدورنا على عداوة محمد كيف يعلم. وفى لباب التأويل : كان الرجل من الكفار يدخل بيته ويرخى ستره ويحنى ظهره وينغشى بثوبه ويقول هل يعلم الله ما فى قلبى ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ ﴾ يتغطون بها ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ ﴾ فى قلوبهم ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ بأفواههم فهما سيان فى علمه . وقال السيوطى : الآية نزلت كما فى البخارى عن ابن عباس فيمن كان يستحيى أن يتخلى أو يجامع فيفضى إلى السماء ، وقيل فى المنافقين . اه . وفى الجواهر : قيل إن هذه الآية نزلت فى الكفار الذين كانوا إذا لقيهم النبى صلى الله عليه وسلم تطامنوا وثنوا صدورهم كالمستتر وردوا إليه ظهورهم وغشوا وجوههم بثيابهم تباعداً منه وكراهية للقائه ، يظنون أن ذلك يخفى عليه أو على الله ، وقيل هى استعارة للغل والحقد اللذين كانوا ينطوون عليهما ، فمعنى الآية ألا إنهم يسرون العداوة لتخفى فى ظنهم عن الله . اه . وضعّف بعضهم نزولها فى المنافقين بكون السورة مكية ، وكرر حرف التنبيه مبالغة فى النعى عليهم بالجهل المفرط ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ بضمائر القلوب التى ليست من جنس القول فكيف به ﴿ وَمَا مِنْ ﴾ زائدة ﴿ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى شىء يدب عليها ﴿ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ما يكون سبباً لبقائها إلى أجلها ، وأتى بعلى الدال على اللزوم لكونه متكفلا به ، تفضلا منه وتحقيقاً لوصوله ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أماكن استقرارها من الأرض أو الجنة والنار ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ الأماكن التى كانت مستودعة فيها قبل الاستقرار من أصلاب وأرحام، أو هو القبر ، وقيل المستقر مسكنها فى الدنيا أو الصلب والمستودع بعد الموت أو فى الرحم ﴿ كُلٌّ ﴾ مما ذكر ثابت ﴿ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ بين وهو اللوح المحفوظ وكأنه أريد بالآية بيان كونه عالماً بالمعلومات كلها وبما بعدها بيان كونه قادراً على الممكنات بأسرها تقريراً للتوحيد ولما سبق من الوعد والوعيد ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ وهو دليل على

كونه قادراً على كل شيء ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ ﴾ قبل خلقهما ﴿ عَلَى الْمَاءِ ﴾ أى لم يكن بينهما حائل لا أنه كان موضوعا على متن الماء. قاله البيضاوى واستدل به على أن الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم، وقيل كان الماء على متن الريح. وفى صحيح البخارى قال عليه السلام « كان الله ولم يكن معه شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض وكتب فى الذكر كل شيء » الحديث. وفى صحيح مسلم عنه عليه السلام « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ متعلق بخلق، أى خلقهما وما فيهما منافع لكم ومصالح ليختبركم ﴿ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ القلب والجوارح، أى: أيكم أكمل علماً وعملا فى الورع عن محارم الله والسرعة فى طاعته، ولما كان البلوى طريق العلم علقه الاستفهام كما يعلق فعل القلب وآثر اسم التفضيل، والخطاب عام حثاً على تحرى الأحسن من الأعمال فإنه نهاية الكمال كأنه قيل ليظهر أفضليتكم لافضلكم. ثم بين جهالة الكفار مع هذه الأدلة بقوله ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ ﴾ للكفار ﴿ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ ﴾ ما ﴿ هَٰذَا ﴾ البعث أو القرآن الناطق به أو الذى تقوله ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أى كالسحر فى الخديعة والبطلان ولحمزة والكسائى ساحر، والمشار إليه النبى ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ ﴾ الموعود الأخروى أو الدنيوى ﴿ إِلَىٰ ﴾ مجىء ﴿ أُمَّةٍ ﴾ أوقات ﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ أو إلى حين قريب، ولذا وصفه بالعد والتأنيث باعتبار اللفظ ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ استهزاء أو تكذيباً ﴿ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ ما يمنعه من المجىء. قال تعالى ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا ﴾ مدفوعاً ﴿ عَنْهُمْ ﴾ يوم منصوب بخبر ليس مقدم عليه، وهو دليل على جواز تقديم خبرها عليها ﴿ وَحَاقَ ﴾ أحاط أو نزل ﴿ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ من العذاب، وآثر الماضى فى « حاق » تحقيقاً لوقوعه ومبالغة فى التهديد ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ المراد الجنس لما يأتى فى الاستثناء ﴿ مِنَّا رَحْمَةً ﴾ غنى وصحة بحيث يجد لذة الرحمة ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ سلبنا تلك النعمة منه ﴿ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ ﴾ قنوط من رحمة الله تعالى قاطع رجاءه عن عود مثلها ﴿ كَفُورٌ ﴾ شديد الكفران به لا يتذكر النعمة الوافرة الواصلة إليه فى المدد المتطاولة وإنما ينظر إلى تلك الحالة التى هو فيها: أى هذه سجية الإنسان إلا من رزقه الشرائع إلى الإيمان والصبر والعمل الصالح كما يأتى فى الاستثناء ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ كصحة بعد سقم وغنى بعد عدم ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ ﴾ مايسوء المرء فى الدنيا أى زالت المصائب التى ساءتنى ﴿ عَنِّي ﴾ ونسى ما كان فيه من البلاء وشكر النعمة وكأنه أسند زوالها إليه ونجا نجاة الأبد ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ ﴾ فرح بطر ﴿ فَخُورٌ ﴾ كثير الفخر بما هو فيه من الغنى والصحة وقد شغلاه عن القيام بالشكر، ويقال فى هذا ما تقدم وفى إذاقة النعمة ولفظ المس تنبيه على أن ما يجده الإنسان فى الدنيا من النعم والمحن أنموذج نزر بالنسبة إلى ما يجده فى الآخرة وفيه أنه يقع فى الكفران والبطر بأدنى شيء دل عليه لفظ الإذاقة والمس وفى إسناد الإذاقة إليه تعالى دون مس الضراء إشارة إلى أن رحمته سابقة غضبه ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على الضراء إيمانا بالله واستسلاما لقضائه ﴿ وَعَمِلُوا

الصَّٰلِحَٰتِ﴾ فى النعماء شكراً لآلائه سابقها ولاحقها ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما فرط منهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ بحسب تلك الأعمال الصالحات أفاد الجنة والاستثناء من الإنسان لأن المراد به الجنس . فإذا كان على بأل أفاد الاستغراق فهو متصل ، ومن حمل الإنسان على الكافر لسبق ذكرهم جعله منقطعا . قال الثعالبى فى الجواهر الحسان : وهو قول ضعيف من جهة المعنى لأن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس كما تقتضيه لفظة الإنسان واستثنى الله من الماشين على سجية الإنسان هؤلاء الذين حملتهم الأديان على الصبر على المكاره والمثابرة على عبادة الله وليس شيء من ذلك فى سجية البشر وإنما حمل على ذلك خوف الله وحب الآخرة . اه ولما كان الكفار يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم : إن كنت صادقا أنك رسول الله وأنت فقير فهلا أنزل عليك ما تستعين به أنت وأصحابك ؟ وهلا أنزل عليك ملكا يصدقك؟ ويستهزءون بالقرآن ويضحكون منه ويتهاونون به ويضيق صدره بذلك ، نزل تهييجا له على أداء الرسالة وترك الالتفات إلى استهزائهم ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ فلا تبلغهم إياه لتهاونهم به أو لمخالفته رأيهم مخافة الرد ﴿وَضَآئِقٌ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ أى عارض لك أحيانا ضيق صدر بأن تتلوه عليهم مخافة ﴿أَن يَقُولُوا لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ ينفقه فى الاستتباع كالملوك ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يصدقه وفى إيثار «ضائق» الدال على الحدوث على «ضيق» إشارة إلى أن ذلك يعتريه أحيانا لأنه أفسح الخلق صدرا فى تحمل المشاق وليس فى لفظ الترجى تجويز ترك التبليغ المنهى لأن الرسول معصوم بل مراده التهييج إلى التبليغ أو منع خوفه لأجل ما يؤدى والله أعلم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ ما عليك إلا الإنذار ، تسلية له وإزالة لما كان يعتريه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ فتوكل عليه فإنه عالم بحالهم وفاعل بهم جزاء أقوالهم وأفعالهم ﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ القرآن فأم منقطعة والضمير « لما يوحى إليك » ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ فى الفصاحة والبلاغة ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ من عندكم على زعمكم أنه مفترى من عندى فإنكم عربيون فصحاء مثلى وقد مارستم الأشعار والخطب والقصص فأنتم أولى بالإتيان بمثله ، وهذا من إرخاء العنان على مثل دعوى الخصم تحداهم بها أولا ثم بسورة وهذا دأب المناظر الواثق بحاله لأن ذلك أقوى فى إلزام الخصم ﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للمعاونة على ذلك ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أى غيره ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فى أنه افتراه ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ بإتيان ما دعوتم إليه ، والخطاب للرسول والجمع للتعظيم أوله وللمؤمنين لوجوب اتباعه عليهم فيما لم يخص به أو للكفار أى لم يستجب لكم من دعوتموهم للإعانة ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أيها الكفار أو أيها المؤمنون أى اثبتوا على العلم الذى أنتم عليه بزيادة اليقين ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾ ملتبسا ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ خاصة لا سبيل لأحد إليه فإنه نظم معجز ﴿وَأَن﴾ مخففة أى أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فاعلموا أيضا تفرده بالألوهية لأنه العالم القادر بما لا يعلم ولا يقدر عليه غيره ، وفيه تهديد وإقناط من أن يجيرهم من عذاب الله آلهتهم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ داخلون فى الإسلام إذ لم يبق لكم عذر ، أى :

فأسلموا ، وإن كان الضمير للسلمين فالمراد فهل أنتم ثابتون مخلصون إذ تحقق عندكم إعجازه مطلقا ؟ وفى مثل هذا الاستفهام إيجاب بليغ لما فيه من معنى الطلب والتنبيه على قيام الموجب وزوال العذر ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله ﴿الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ مؤمنا كان أو كافرا كالمصرين على التكذيب بعد ظهور عجزهم إذ حاملهم على ذلك حب الدنيا وزينتها ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ جزاء ما عملوه من خير كصدقة ﴿فِيهَا﴾ فى الدنيا بالصحة والرياسة وسعة الرزق وكثرة الأولاد ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ أى الدنيا ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ لاينقصون شيئاً ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ﴾ فى مقابلة ما عملوا من خير ﴿إِلَّا النَّارُ﴾ لاستيفائهم ما يستحقون فى الدنيا فلم يبق لهم ما يكون وسيلة إلى الثواب وبقيت لهم أوزار العزائم السيئة ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾ من أفعال البر ﴿فِيهَا﴾ فى الآخرة لأنهم لم يريدوا بها وجه الله أو لم يكن لها أساس وهو الإيمان ﴿وَبَاطِلٌ﴾ فى نفسه ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنه لم يكن على ماينبغى وكأن كل واحدة من الجملتين علة لما قبلها و« ما » إبهامية أو مصدرية والآية فى أهل الرياء وقيل فى المنافقين وقيل فى الكفار وبرهم . قاله البيضاوى وغيره ، وقال ابن العربى فى أحكامه بل الآية عامة فى كل من ينوى غير الله بعمله كان معه إيمان أو لم يكن . اه وفيها بيان لقوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» ولما ذكر الله من يريد الدنيا ذكر من يريد الله والدار الآخرة بقوله ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بيان يدله على الحق والصواب وهو البرهان العقلى أو القرآن النقلى ﴿مِنْ رَبِّهِ﴾ حكم يعم كل مؤمن مخلص أو هو النبى صلى الله عليه وسلم ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يتبع ذلك البيان ذكره باعتبار المعنى أو يتلو من كان عليه ﴿شَاهِدٌ﴾ بصحته وصدقه ﴿مِنْهُ﴾ من الله وهو القرآن أوجبريل ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ قبل هذا الشاهد الذى هو القرآن ﴿كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ التوراة شاهد له أيضا وقيل البينة القرآن ويتلوه من التلاوة والشاهد جبريل عليه السلام أو لسان الرسول . قال ابن عطية : والراجح عندى أن البينة القرآن والشاهد الإنجيل والضمير فى يتلوه للبينة وفى منه للرب وفى قبله للبينة أيضاً وغير هذا مما ذكر محتمل . اه ﴿إِمَامًا﴾ مؤتما به فى الدين ﴿وَرَحْمَةً﴾ على المنزل عليهم لأنه وصلة إلى الفوز بخير الدارين وخبر من محذوف والاستفهام للإنكار أى كمن يريد الدنيا وزينتها ؟ لا . ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أى من كان على بينة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أى بالقرآن فلهم الجنة ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ الفرق المجتمعة على مخالفة الأنبياء أهل مكة ومن تحزب معهم على رسول الله ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ يردها لامحالة ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ شك منه من القرآن أو الموعد فإنه كائن لامحالة ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ الكفار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقلة نظرهم ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن نسب إليه ما ليس له أو نفى عنه ما أنزله ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يوم القيامة فى جملة الخلق بأن يحبسوا فى الموقف وتعرض أعمالهم ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ من الملائكة والنبيين أو من جوارحهم أو جميع من شهد المحشر لحديث «لا يجزى أحد يوم القيامة إلا ويعلم ذلك جميع من شهد المحشر» ويخص المؤمنون بحديث

البخارى « يدنو المؤمن من ربه يوم القيامة فيضع عليه كنفه ويقول : هل تعرف ذنب كذا ؟ هل تعرف ذنب كذا ؟ فيقرره بذنوبه وهو لا ينكر منها شيئاً فيقول له سترتها عليك فى الدنيا وأغفرها لك اليوم » . وأما الكفار فينادون على رءوس الأشهاد ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ تهويل عظيم بما يحيق بهم حينئذ بظلمهم بالكذب على الله ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يطلبون السبيل ﴿عِوَجًا﴾ معوجة أو يصفونها بالانحراف عن الصواب أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالردة ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى والحال أنهم كافرون بالآخرة وتكريرهم لتأكيد كفرهم واختصاصهم به ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ الله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أن يعافيهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أى غيره ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أنصار يمنعونهم من عذاب الله من تمام كلام الأشهاد وآثر أولئك الذى يشار به إلى البعيد إبعادا لهم بعد وصفهم بتلك الأوصاف القبيحة ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بإضلالهم وهو استئناف وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب «يضعف» بالتشديد ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ للحق لبغضهم له أى لا يستطيعون قبوله والعمل به من إطلاق السبب على المسبب لأن القول مسبب عن السمع ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ لتعاميهم عن آيات الله وكأنه العلة فى مضاعفة العذاب ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ على الله من الشركاء وأنها تشفع لهم ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقا ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ لا أحد أكثر خسرانا منهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا﴾ أى خشعوا . قاله قتادة ، أو اطمأنوا . قاله مجاهد ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وأنابوا. روى عن ابن عباس من الخبت الأرض المطمئنة ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ دائمون ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ الكفار والمؤمنين ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ﴾ هذا مثل الكافر ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ هذا مثل المؤمن ، ويجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى لتعاميه عن آيات الله وبالأصم لتصامه عن استماع كلام الله ، وتشبيه المؤمن بالسميع والبصير لأن أمره بالضد فيكون من تشبيه مفرد بمفرد كل منهما مشبها باثنين باعتبار وصفين أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم ، والمؤمن بالجامع بين ضديهما والعاطف لعطف الصفة على الصفة وفيه اللف والطباق ، وأما القول بأن الكفار بعضهم مشبه بالأول وبعضهم بالثانى ، وكذلك المؤمنون بعضهم مشبه بالبصير وبعضهم بالسميع فما لا يلتفت إليه كما قال فى غاية الأمانى ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ تمثيلا أو صفة أو حالا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بضرب الأمثال والتأمل فيها ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي﴾ بالكسر على إرادة القول لنافع وابن عامر وعاصم وحمزة وبالفتح لغيرهم أى بأنى ﴿لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بين الإنذار أو مبين لكم موجبات العذاب ووجه الخلاص ﴿أَن﴾ بأن ﴿لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ بدل من « إنى لكم » أو مفعول « مبين » ويجوز أن تكون « أن » مفسرة متعلقة بـ « أرسلنا » أو بـ « نذير » ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن عبدتم غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم

فى الدنيا والآخرة وهو فى الحقيقة صفة المعذب لكن يوصف به العذاب وزمانه على طريق المجاز لكن جده مبالغة ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ لا فضل لك علينا يخصك بوجوب الطاعة لأن مجرد التفاوت البشرى لا ينتهى فى العادة إلى حيث يصير أو احد منهم واجب الطاعة على جميع العالم وهذا جهلٌ منهم بخصوصية النبوة التى حقها مباشرة الأمة جميعها بالدعوة إلى الله بالمعجزة الدالة على صدقه ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أسافلنا جمع أرذل أو رذل خسيس لا يبالى بما يقول وما يقال له ﴿بَادِيَ﴾ بالياء للجمهور من البدو الظهور وبالهمز لأبى عمرو من البدء أى من ظاهر الرأى من غير تعمق أو أول بدء ﴿الرَّأْيِ﴾ من غير تفكر فيك أو اتبعوك فى ظاهر رأيهم دون باطنه وعلى القراءتين نصبه على الظرف أى فى وقت حدوث رأيهم ولما كان نظرهم مقصورا على حطام الدنيا كان الزهاد العارفون بالله فى نظرهم أراذل إذ لا يعظمون إلا من له مال أو جاه ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ تستحقون به الاتباع منا ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ فى دعواك الرسالة ودعواهم بصدقك غلبوا المخاطب على الغائبين ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ حجة شاهدة بصحة دعواى ﴿مِنْ رَبِّي﴾ وعذارنى لتكذيبهم على أحسن وجه بأن المدعى إذا أقام برهانا على صدق دعواه خرج بذلك عن الكذب وأضافهم إلى نفسه إشارة إلى أنه ناصح لهم فى ذلك لاتصاله بهم رحما ﴿وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ نبوة لأنها فضل منه ورحمة، وأخرها عن البينة لأن العلم بالبينة يستلزم العلم بالنبوة وبه يفحم الخصم ولذا وحد الضمير لها فى قوله ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ خفيت البينة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لأن خفاءها يستلزم خفاء النبوة أو خفيت النبوة عليكم بعد البينة وقرأ حمزة والكسائى وحفص بتشديد الميم والبناء للمفعول وفى تعبير الخفاء بالعمى استعارة تمثيلية ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ أنكرهكم على الاهتداء بها وقبولها ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أى لا نقدر على ذلك والذى نقدر عليه دعاءكم إلى الله مع البيان لا إدخال الاهتداء فى قلوبكم ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على تبليغ الرسالة وإنما لم يذكر التبليغ فهو معلوم معنى ﴿مَالًا﴾ جعلا تعطونيه حتى تتهمونى بأنى أريد جر نفع ﴿إِنْ﴾ ما ﴿أَجْرِيَ﴾ ثوابى ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ الذى أرسلنى إليكم ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كما أمرتمونى ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ بالبعث فيجازيهم ويأخذ لهم ممن ظلمهم وطردهم ﴿وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ عاقبة أمركم وأن هؤلاء خير منكم أو تجهلون عظمة الله فلا تخافون أولياءه ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي﴾ من يمنعنى ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ إجابة لسؤالكم أى لا ناصر لى منه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بإدغام التاء الثانية فى الأصل فى الذال أن طردهم غير صواب أو أفلا تتعظون، ثم أجاب عن قولهم «وما نرى لكم علينا من فضل» بقوله ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ رزقه وأمواله ﴿وَلَا﴾ إنى ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ حتى أعلم أن هؤلاء اتبعونى بادى الرأى أو حتى تكذبونى ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا ما أنت إلا بشر مثلنا، بل أنا بشر مثلكم ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي﴾ تحتقر ﴿أَعْيُنُكُمْ﴾ لفقرهم وتقولون «هم أراذلنا» ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ كما تقولون فإن ما أعد الله لهم فى الآخرة خير مما آتاكم فى

الدنيا ﴿ أَللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ قلوبهم من الإيمان الذى هو مناط الشرف وموجب الكرامة ﴿ إِنِّي إِذًا ﴾ إن قلت ذلك ﴿ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ والازدراء افتعال من زريته إذا عبته وإسناده إلى العين لأن سببه رثة الحال وهى تدرك بالعين أو لأنهم احتقروهم بأدنى رؤية من غير روية ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا ﴾ خاصمتنا ﴿ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ طول عمرك أو أتيت بأنواعه ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ به من العذاب ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فيه فإن مناظرتك لا تؤثر فينا ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ ﴾ عاجلا أو آجلا إذ لا مؤثر سواه ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ فائتين عذابه بدفعه أو الهرب منه ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ ﴾ شرط ودليل جوابه وهما دليل الجواب لقوله ﴿ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أغواكم أى إن كان الله يريد أن يغويكم فأردت أن أنصح لكم فلا ينفعكم نصحى وهو جواب لقولهم إن جدالك لا ينفع وهو دليل على أن إرادة الله تتعلق بالإغواء وأن خلاف مراده محال ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ خالقكم والمتصرف فيكم على وفق إرادته ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فيجازيكم ، إشارة إلى المبدأ والمعاد بأوجز كلام مع تضمنه الوعيد ﴿ أَمْ ﴾ بل ﴿ يَقُولُونَ ﴾ أى قوم نوح ﴿ افْتَرَاهُ ﴾ أى ما أخبرهم به أو الضمير فى « يقولون » لأهل مكة وفى « افتراه » للقرآن ، أى اختلقه محمد ، اعترض به فى قصة نوح إشارة إلى أن نسبته إلى الافتراء بعد إتيانه بقصة نوح غاية فى العناد والمكابرة ﴿ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ عقوبة إثمى لا يتعداني ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ من إجرامكم فى نسبة الافتراء إلىّ ، أو من افترائكم بنسبتكم إياى إلى الافتراء ، وإنما آثر ما فى النظم إشارة إلى كونهم مجرمين فى ذلك القول ، قاله فى غاية الأمانى . قلت يحتمل أنه من أنواع الاحتباك ، أى إن افتريته فعلىّ إجرامى وأنتم بريئون منه ، وإن افتريتم فعليكم إجرامكم وأنا برىء مما تجرمون . والله أعلم ﴿ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ ﴾ بعد ما بلغ وبالغ فى النصح ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ إقناطاً له من إيمانهم ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ من التكذيب والإيذاء ، فدعا عليهم بقوله « رب لا تذر ... » إلى آخره فأجاب الله دعاءه فقال ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ ﴾ السفينة ﴿ بِأَعْيُنِنَا ﴾ بحفظنا ، عبر عنه بآلته مجازا ، وجمع الأعين للمبالغة على الملاحظة وأن عنايته معه وافرة تقوية لجأشه ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ إليك بذلك الصنع كيف تصنعه أو بصفته ، وفى الخبر أنه لم يكن يعلم كيفيته فأوحى الله إليه أن اصنعه مثل جؤجؤ الطير ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ فى شأنهم بالشفاعة لدفع العذاب عنهم ﴿ إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾ لا محالة سبق بذلك القدر فلا سبيل إلى كفه ، أو لا تخاطبنى فى شأنهم شاكياً سوء صنيعهم كما كنت تخاطبنى « رب إنى دعوت قومى » ، « رب إنهم عصونى » ، « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » وهذا أوجه لأن الوجه الأول فيه منافرة مع قوله « لا تذر » وقوله « إنى مغلوب فانتصر » ، قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ حكاية حال ماضية فى برية لا ماء فيها ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ استهزءوا به بقولهم : صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً ! « وكلما » دلت على أن ذلك كان منهم على

التكرار والتوالى ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ إذا نجونا وغرقتم وإذا احترقتم فى الآخرة ، وقيل المراد بالسخرية الاستجهال ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ ﴾ مفعول العلم موصول ، أى سوف يظهر لكم من الذى ﴿ يَأْتِيهِ عَذَابٌ ﴾ هو الغرق ﴿ يُخْزِيهِ ﴾ يعنى به إياهم ﴿ وَيَحِلُّ ﴾ ينزل ﴿ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ دائم وهو عذاب النار أو يحل حلول الدين على المدين ، استعارة تبعية لعدم الانفكاك . روى أنه أكل السفينة فى سنتين وكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً وارتفاعها ثلاثين ذراعاً . وعن الحسن : كان طولها ألفا ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع ولها ثلاث طبقات لما جاء الماء جعل فى الأولى الوحش والسباع والهوام وفى الوسطى هو ومن معه من الأنعام والدواب وفى العليا الطير ، وحمل الزاد وما يحتاج إليه كما قال تعالى ﴿ حَتَّى ﴾ غاية للصنع وما بينهما حال من فاعله كأنه قيل يصنعها والحال «أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه » حتى ﴿ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاكهم ، والأمر واحد الأمور أو مصدر أى أمرنا للماء بالفوران فانبعث بقوة ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ للخباز الذى يخبز فيه ، وهذا قول أكثر المفسرين من فارَ القدر إذا جاشت ، أى نبع الماء فيه وارتفع كالقدر يفور ، وابتداء الماء منه خرق للعادة علامة لنوح ، وكان فى الكوفة فى موضع مسجدها ، أو فى الهند أو فى الشام بعين وردة ، أو التنور وجه الأرض ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا ﴾ فى السفينة ﴿ مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ﴾ ذكر وأنثى ، أى من كل أنواعهما بإضافة كل على قراءة الجمهور بقوله ﴿ اثْنَيْنِ ﴾ مفعول احمل والمجرور قبل حال منه قدمت لكون ذى الحال نكرة . وقرأ حفص بالتنوين فى « كل » أى من كل جنس احمل زوجين ذكراً وأنثى ، و « اثنين » صفة مؤكدة لأن الزوج أحد القرينين الذى لا يستغنى عن الآخر ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ عطف على اثنين أو زوجين باعتبار القراءتين المراد به زوجته وأولاده ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ منهم بالهلاك وهى زوجته واعلة وابنه كنعان لكونهما كافرين ، بخلاف سام وحام ويافث ، فحملهم وزوجاتهم الثلاث ﴿ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قيل كانوا ستة أو ثمانية أو عشرة أو ثمانين نصفهم رجال ونصفهم نساء . قال الطبرى : وصفهم الله بالقلة ولم يحد عدداً فلا ينبغى أن يجاوز فى ذلك حد الله إذ لم يرد ذلك فى كتاب الله ولا خبر صحيح عن رسول الله . اهـ . ﴿ وَقَالَ ﴾ نوح لمن حمل معه فى السفينة ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا ﴾ ادخلوا فيها ، شبه الدخول بالركوب لجريان السفينة ، قاله فى غاية الأمانى . وقال البيضاوى : أى صيروا فيها ، وجعل ذلك ركوباً لأنها فى الماء كالمركوب فى الأرض ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ حال من الواو فى اركبوا ، أى اركبوا مسمين الله أو قائلين « بسم الله » ﴿ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ بضم الميم للجمهور : إجراؤها وإرساؤها أو وقتهما أو مكانهما ظرفان للمكان أو الوقت أو مصدران منصوبان بتقدير الوقت أو مرفوعان بالابتداء ، والخبر « بسم الله » أو بالفاعلية للظرف قبل . روى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال « بسم الله » جرت ، وإذا أراد أن ترسو قال « بسم الله » فرست ، وذلك تعليم من الله لعباده أن من أراد أمراً فليذكر اسم الله وقت شروعه فيه

ليكون سبباً للفلاح . وعن النبي صلى الله عليه وسلم « أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا البحر أن يقولوا بسم الله مجراها ومرساها . إن ربي لغفور رحيم . وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته ... إلى آخر الآية » وقرأ حمزة والكسائي وحفص « مجراها » بالفتح من جرى ، وقرئ في غير السبعة « مرساها » بالفتح أيضاً من رسا ، وكلاهما يحتمل الثلاثة ، وقرئ أيضاً مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل صفتين لله ﴿ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ حيث لم يهلكنا بفرطاتنا ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ ﴾ متصل بمحذوف دل عليه « اركبوا » أي فركبوا فيها قائلين : بسم الله ، وهي تجري بهم ﴿ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ والموج : ما يعلو فوق الماء عند اضطرابه كل موجة منه شبهت بجبل في الارتفاع والعظم ، وكون السفينة في الموج تصادمها من كل جانب لا أنها داخلة في جوف الماء . وقوله « فالتقى الماء » لا يقتضي تطبيق ما بين السماء والأرض وبقاء السفينة كالسمكة ، إذ المشهور أن الماء علا شوامخ الجبال أربعين ذراعاً ، قاله في غاية الأماني ، وقال البيضاوي : وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والأرض وكانت السفينة تجري في جوفه ليس بثابت ، والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعاً ، وإن صح فلعل ذلك قبل التطبيق ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ كنعان ﴿ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ عن السفينة في مكان بعيد ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ بكسر الياء للجمهور للدلالة على ياء الإضافة المحذوفة ، وبفتحها لعاصم للدلالة على الألف المبدلة من الياء ﴿ ارْكَب مَّعَنَا ﴾ وأدغم الباء في الميم أبو عمرو والكسائي لتقاربهما ﴿ وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ خارج السفينة أو في الدين ﴿ قَالَ سَآوِي ﴾ ألتجئ ﴿ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ من غرقه ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ﴾ يعصم ﴿ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ عذابه ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ أي إلا الراحم وهو الله تعالى ، وضع الظاهر موضع المضمر إشارة إلى أن رحمته هي المعتصم به لا الجبل ، وقيل : لا عاصم بمعنى لا ذا عصمة كعيشة راضية ، وقيل الاستثناء منقطع ، أي لكن من رحمه الله يعصمه ، والظرف منصوب بفعل دل عليه عاصم كما قدرنا لا به لأنه مبني لا يعمل ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ﴾ بين نوح وابنه أو بين الابن والجبل ﴿ الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ المهلكين بالماء ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ الذي نبع منك ، فشربته دون ما نزل من السماء فصار أنهاراً وبحاراً ﴿ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ عن المطر فأمسكت ﴿ وَغِيضَ الْمَاءُ ﴾ نقص ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ تم أمر هلاك قوم نوح ﴿ وَاسْتَوَتْ ﴾ وقفت السفينة ﴿ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ جبل بالجزيرة بقرب الموصل . روى أن الله أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسو على واحد منها فتطاولت كلها وتواضع الجودي لله وقال : إني لست أهلا أن تنزل عليّ فنزلت عليه « من تواضع لله رفعه الله » روى أنه ركب السفينة من عين وردة بالشام أول يوم من رجب واستوت على الجودي في ذي الحجة وأقامت عليه شهراً ، وقيل ركب السفينة عاشر رجب ونزل عنها عاشر المحرم فصام ذلك اليوم وصار سُنة ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا ﴾ هلاكا ﴿ لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين . قال ابن عطية : تظاهرت الروايات وكتب التفسير بأن الغرق نال جميع أهل الأرض وعم الماء جميعها . اهـ . وفي هذه الآية من الفصاحة

والبلاغة وجزالة الألفاظ وحسن نظمها والدلالة على كنه الحال مع الإيجاز ما لا يحيط بعلمه إلا الله تعالى وقد أفردت لبلاغتها تصانيف ، فإنه تعالى أخبر عن سلطانه ما تعلقت به إرادته فوقع على وفقه من غير ريث من عود الماء المنفجر من الأرض إلى بطنها وانقطاع طوفان السماء ونقصان الماء الطاغى ، وقضاء أمر نوح بإنجاز ما وعده من إهلاك الكفار ونجاة المؤمنين ، واستواء السفينة على الجودى ، وإبقاء الظلمة فى الهلاك المعبر عنه بالبعد ، إذ يقال « بعداً » إذا كان حيث لا يرجى عوده ، واستعير للهلاك وخص بدعاء السوء ، ونادى الأرض والسماء كما ينادى العقلاء المنقادون لأمره العارفون وجوب طاعته ، الخائفون سطوة قهره تشبيهاً للمراد بالمأمور ، واستعار لنشف الماء : البلعَ الذى هو إعمال الجاذبة فى المطعوم استعارة تبعية والشبه بينهما الذهاب إلى مقر خفى ، وأضاف الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهاً للاتصال الصورى بالاتصال الملكى ، واستعار الإقلاع الذى هو ترك الفاعل الفعل لاحتباس المطر والجامع بينهما عدم ما كان ولم يصرح بالفاعل فى « غيض » و « قضى » ، وقيل كما لم يصرح بالمنادى فى « يا أرض » و « يا سماء » تعظيما للفاعل وأنه متعين مستغن عن ذكره ، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره للعلم بأن مثل هذه الأفعال لا يقدر عليه سوى الواحد القهار ، ثم ختم الكلام بالتعريض لمن سلك مسالكهم فى تكذيب الرسل لأنه نبه أن ذلك العذاب الهائل منشأه الظلم لا غير . والله أعلم ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ ﴾ أى دعاه وسأله ﴿ فَقَالَ ﴾ الفاء لتفصيل المجمل ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي ﴾ كنعان ﴿ مِنْ أَهْلِي ﴾ بعض أهلى ، والظاهر أنه كان من صلبه ، وقيل : كان ربيباً له فهو أيضاً من أهله ﴿ وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ الذى لا خلف فيه وقد وعدتنى بإنجاء أهلى ، والظاهر أن نوحاً لم يكن عالماً بكفره ، لأنه منافق ولم يحمل مقاولته على العناد لأن غلبة الحب يغطى عين البصيرة ، فلذا عوتب عليه بأن مثله كيف يشتبه عليه حال المعاند ، وكيف يجعل مناط النجاة كونه من أهله ، مع عدم علمه بإيمانه ، وأولو العزم يعاتبون على النقير ، قاله فى غاية الأمانى . وقيل : كان عالماً بكفره ولم يعلم أن طلب نجاة ولده الكافر محظور عليه ﴿ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ لا حكم فوق حكمك وأعلمهم وأعدلهم ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ إذ لا ولاية بين المؤمن والكافر ﴿ إِنَّهُ ﴾ تعليل لذلك ، أى إن ابنك ﴿ عَمَلٌ ﴾ أى ذو عمل فاسد ﴿ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ جعله نفس العمل مبالغة فى ذمه وبدل الفاسد بغير الصالح تصريحاً بالمناقضة بين وصفيهما وانتفاء ما أوجب النجاة لمن نجا من أهله وقيل الضمير للسؤال ، أى : إن سؤالك إياى بنجاته عمل غير صالح ، لكن على هذا يفوت كون الصلاح هو مناط النجاة ، ويلزم منه أيضاً تخطئة نوح بعبارة موحشة ، وسنة الله مع أنبيائه فى ترك الأولى العتاب بألطف وجه ، قاله فى غاية الأمانى . وقرأ الكسائى ويعقوب « إنه عمِل » بفعل ماض ونصب « غير » وهى تؤيد الاحتمال الأول ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِ ﴾ بفتح اللام وتشديد النون ، وكسرها لنافع وابن عامر وإثبات الياء لورش فقط فى الوصل وحذفها لغيره ، وابن كثير مثلهما إلا أنه فتح النون ، وأبو عمرو والكوفيون

سكنوا اللام وخففوا النون مكسورة ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ من إنجاء ابنك ، أى لا تعلم أصواب هو أم لا ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ بسؤالك ما لم تعلم ، وإنما سماه جهلا لأن استثناء من سبق عليه القول من أهله قد دل على الحال وأغنى عن السؤال لكن شغله حب الولد عنه حتى اشتبه الأمر عليه . قاله البيضاوى ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ ﴾ ألجأ إليك ﴿ أَنْ أَسْأَلَكَ ﴾ بعد هذا السؤال فيما يستقبل ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ أى قد اتعظت وتأدبت ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط منى من السؤال ﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ بالتوبة والتفضل علىّ ﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أعمالا ، وهذا لا يدل على صدور معصية من الأنبياء ، لأن نوحا وعده ربه بنجاة أهله معه فأخذ ظاهر حال ابنه فسأل إنجاءه ولم يشك فى وعد الله فعاتبه الله بسؤال ما ليس له به علم فخشع وسأل المغفرة والرحمة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ ﴾ من السفينة أو من الجبل إلى الأرض ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ بسلامة أو بتحية ﴿ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ ﴾ خيرات نامية ثابتة ﴿ عَلَيْكَ ﴾ مأخوذ من البركة وهى الصدر ، وجمع إشارة إلى وفور آلائه فى نسله حتى يصير آدما ثانيا ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ أى الذين معك فى السفينة على أن « من » بيانية أو ناشئة ممن معك وهم المؤمنون إلى آخر الدهر فمن ابتدائية وهو أوجه لأن الابتدائية بعد المنكر أكثر ولحسن التقابل بينهم وبين قوله ﴿ وَأُمَمٌ ﴾ بالرفع ممن معك أمم ﴿ سَنُمَتِّعُهُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الآخرة هم الكفار من ذريته لأن الناشئ منهم فرقتان فرقة مؤمنة وأخرى كافرة ، ودخل فى ذلك السلام : كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة ، وفى ذلك المتاع والعذاب : كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة ﴿ تِلْكَ ﴾ الإشارة إلى قصة نوح أو الآيات المتضمنة لها وعلها رفع بالابتداء والخبر ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أخبار ما غاب عنك ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ خبر ثان ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ ﴾ خبر ثالث ولمجىء الأخبار هكذا شأن فى رفع الإبهام ويجوز أن يكون « نوحيها » حالا « من أنباء الغيب » و « ما كنت تعلمها » من ضمير المؤنث أو من كاف الخطاب فى إليك ﴿ وَلَا قَوْمُكَ ﴾ ترق فى الكلام لأنهم مع كثرتهم وكثرة أسفارهم واختلاطهم إذا لم يعلموها فأنت أولى ﴿ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ الإيحاء أو هذا الوقت . قال فى لباب التأويل : فإن قلت إن قصة نوح كانت مشهورة معروفة فى العالم فكيف قال : « ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » قلت يحتمل أن يكونوا يعلمونها مجملا فنزل القرآن بتفصيلها وبيانها ، وجواب آخر وهو أنه صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يقرأ الكتب المتقدمة ولم يعلمها وكذلك كانت أمته فصح ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا . اه ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على أذى التبليغ كما صبر نوح ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فى الدنيا بالنصر والغلبة وفى الآخرة بالفوز برضوان الله ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ ﴾ فى القبيلة عطف على « نوحا إلى قومه » وقوله ﴿ هُودًا ﴾ عطف بيان من « أخاهم » أو بدل ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحدوه ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ

إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ يستحق العبادة ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ على الله باتخاذ الأوثان شركاء وجعلها شفعاء ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ على التوحيد ﴿ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ خلقني وما من نبي إلا صرح لقومه بعدم الأجر على التبليغ لأن النصح إذا شابه وهم الطمع لايجدى ولا ينفع ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ لا تستعملون عقولكم فى هذا ليظهر لكم الحق فإنه لايتوقف إلا على توجه العقل لجلائه ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ بالتوبة عن الإشراك ﴿ ثُمَّ تُوبُوا ﴾ ارجعوا ﴿ إِلَيْهِ ﴾ بالطاعة ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴾ المطر ﴿ عَلَيْكُم ﴾ وكانوا قد منعوه ثلاث سنين فأجدبت بلادهم بسبب كفرهم وكانت قبل مخصبة كثيرة الخير والنعم ﴿ مِدْرَاراً ﴾ كثيرة الدرور المتتابع صيغة مبالغة، والمعنى: استغفروه يُفِض عليكم نعمه لأن المطر سبب حصول جميع النعم لاسيما إذا كان وافراً ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ ﴾ مع ﴿ قُوَّتِكُمْ ﴾ بالأموال والأولاد لتقدروا على الانتفاع بتلك النعم على التمام والكمال وكانوا أصحاب زروع وبساتين مفتخرين بها فاستمالهم بأنهم إن آمنوا يزيدهم الله فى هذين المطلوبين وخص القوة لكونهم أقوى العوالم، وقيل: يزدكم قوة الإيمان إلى قوة الأبدان وقيل حبس عنهم المطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم. روى أن الحسن بن على وفد على معاوية فلما خرج من عنده تبعه بعض حجابه وقال: إنى ذومال ولايولدلى، فقال: عليك بالاستغفار، فلما بلغ معاوية قال: هلا سألتم من أين يقول فلما وفد وفدة أخرى سأله الرجل فقال: ألم تسمع قول هود « ويزدكم قوة إلى قوتكم »، وقول نوح « ويمددكم بأموال وبنين » بعد الأمر بالاستغفار فأكثر الرجل من الاستغفار فولد له عشرة بنين ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ مصرين على الإجرام ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ برهان على ذلك تكذيبا بآياته الدالة على نبوته وعنادا ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي ءَالِهَتِنَا ﴾ عبادتهم ﴿ عَن قَوْلِكَ ﴾ لأجل قولك أو صادرين عن قولك، حال من الضمير فى « تاركى » ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فى شىء وفى وقت من الأوقات إقناط له بعد تكذيبه ﴿ إِن ﴾ ما ﴿ نَّقُولُ ﴾ فى شأنك ﴿ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴾ أصابك ﴿ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ بخبل لسبك إياها ولذلك تهذى وتتكلم بكلام المجانين. قال فى غاية الأمانى: وهذا حال أكثر الجهال مع العلماء فى كل عصر ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ ﴾ على ﴿ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ ﴾ من شركائكم أشهد الله على براءته توكيدا لقوله لأنه جار مجرى القسم ولم يشهدهم بل أمرهم بالشهادة لأن الغرض عدم المبالاة بهم ثقة بالله ولتخالف الغرضين خالف بين اللفظين ﴿ فَكِيدُونِي ﴾ احتالوا فى هلاكى ﴿ جَمِيعاً ﴾ أنتم وأوثانكم ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ تمهلون ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ الذى بيده الضر والنفع: إشارة إلى الحامل له على الجرأة عليهم وعدم المبالاة بهم وبآلهتهم لأنهم مربوبون مثله ثم أشار إلى الوصف المناسب لذلك بقوله ﴿ مَا مِن دَابَّةٍ ﴾ نسمة تدب على الأرض ﴿ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أى إلا وهو مالكها قادر عليها يصرفها على ما يريد، والأخذ بالنواصى تمثيل لذلك ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ طريق الحق والعدل لايضيع عنده معتصم به ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾

فيه حذف إحدى التاءين أى تعرضوا عن الإيمان بما أرسلت به إليكم ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ الجواب محذوف أى فإن تولوا لا أعاب أو لا عذر لكم فقد أبلغتكم وأديت ما علىّ فلا تفريط منى ولا عذر لكم ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ استئناف بالوعيد لهم بأن الله يهلكهم ويستخلف آخرين فى ديارهم وأموالهم ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ ﴾ بتوليكم ﴿ شَيْئاً ﴾ من الضرر ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ ومن كان هذا شأنه لا يمكن أن يلحقه ضرر ولا يخفى عليه شىء من أعمالكم : وعيد ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ عذابنا أو أمرنا بالعذاب الموعود ﴿ نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ ﴾ هداية ﴿ مِنَّا ﴾ قيل كانوا أربعة آلاف ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ شديد تكرير لبيان ما نجاهم منه أو الأول من عذاب الدنيا والثانى من عذاب الآخرة ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ أنث الإشارة باعتبار القبيلة أو لأن الإشارة إلى آثارهم من قبورهم وغيرها أى فسيحوا فى الأرض فانظروا إليها وآثار البعيد لبعد عهدهم أو لشدة كفرهم ثم وصف أحوالهم فقال ﴿ جَحَدُوا بِئَايَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ جمع لأن من عصى رسولا فقد عصى جميع الرسل لاشتراكهم فى أصل ما جاءوا به وهو التوحيد ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ معارض للحق من رؤسائهم الذين يصدرون عن أمرهم ورأيهم ، والجبار من يقتل على الغضب ، والعنيد الجائر المائل عن الحق من عند البعير عدل عن الطريق ﴿ وَأُتْبِعُوا فِى هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى جعلت اللعنة تابعة لهم فى الدارين تكبهم فى العذاب لاتباعهم الكفار وإعراضهم عن الرسل جزاء من جنس أعمالهم ﴿ أَلَا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا ﴾ جحدوا ﴿ رَبَّهُمْ ﴾ أو كفروا نعمته ﴿ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك ، والمراد به الدلالة على أنهم كانوا مستوجبين لما نزل عليهم بسبب ما حكى عنهم ، وسمى قومه عادا باسم جدهم « عاد بن عوص ابن إرم بن سام بن نوح » وكرر حرف التنبيه وأعاد الاسم تقبيحا لشأنهم وإعلاما بأنهم أحقاء بما نزل عليهم وزاد قوم هود بيانا لما فى الإجمال والتفصيل من الإيضاح بوسمهم بسمة لاشبهة فيه لإخراج عاد إرم وهم العمالق ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ ﴾ من القبيلة ﴿ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ بخلق أبيكم آدم منها ومواد النطف من التراب ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ ﴾ جعلكم عمارا تسكنون ﴿ فِيهَا ﴾ أو استبقاكم فيها من العمر أو من العمرى وهى إعطاء الانتفاع بالدار مدة العمر أى أعمركم فيها دياركم ثم يرثها منكم بعد موتكم أو جعلكم معمرين لغيركم لأن من ورثه غيره فكأنه أعمره إياها ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ من الشرك ﴿ ثُمَّ تُوبُوا ﴾ ارجعوا ﴿ إِلَيْهِ ﴾ بالطاعة ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ ﴾ من خلقه بعلمه ﴿ مُجِيبٌ ﴾ لمن سأله ﴿ قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً ﴾ نرجو أن تكون سيداً لنا لما نرى فيك من مخائل الرشد فنصدر عن رأيك ﴿ قَبْلَ هَـٰذَا ﴾ الذى صدر منك فقد تبين لنا أن لا خير فيك لما سمعنا من فيك وانقطع رجاؤنا عنك أو كنا نرجو أن تدخل فى ديننا فقد انقطع رجاؤنا فيك ﴿ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا ﴾ من الأوثان ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ من

التوحيد والتبرئ عن الأوثان ﴿ مُرِيبٍ ﴾ موقع فى الريب من أرابه أو ذى ريبة على الإسناد المجازى من أراب فى الأمر ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ ﴾ بيان وبصيرة وحرف الشك باعتبار المخاطبين ﴿ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ نبوة ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِي ﴾ يمنعني ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ من عذابه ﴿ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ خالفت أمره ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي ﴾ بأمركم بذلك ، أى استتباعكم إياى ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ بإبطال ما منحنى الله به والتعرض لعذابه ﴿ وَيَاقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ حال عامله الإشارة ، واللام للبيان فى لكم وهو أيضاً حال من آية تقدمت عليها لتنكيرها ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ عاجل لا يتراخى عن مسكم بها بسوء إلا يسيراً وهو ثلاثة أيام ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ ﴾ صالح ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ عيشوا ﴿ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ ثم تهلكون ﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أى فيه حذف الجار اتساعاً أو غير كذب مصدر كالمجلود ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بإهلاكهم ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ وهم أربعة آلاف أيضاً ﴿ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ ﴾ نجيناهم ﴿ مِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ ﴾ بفتح الميم لنافع والكسائى بناء لإضافته إلى مبنى وبكسرها الباقين إعراباً أى عذابه وهو الهلاك بالصيحة أو عذاب يوم القيامة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ ﴾ القادر على كل شىء ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب عليه ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ باركين على الركب ميتين ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا ﴾ لم يقيموا فى نعمة ﴿ فِيهَا ﴾ فى دارهم ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ بالصرف فى الأول للجمهور ، وعدمه لحفص وحمزة ومنعه فى الثانى لهم ، وصرفه الكسائى فقط باعتبار الحى والقبيلة ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ بالولد أو بهلاك قوم لوط ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ مصدر أى سلمنا عليك سلاماً ، ويجوز نصبه بقالوا على معنى ذكروا سلاماً ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ أى عليكم أو أمركم أو جوابى . وقرأ حمزة والكسائى سلم وهما لغتان كرم وحرام ، لحيام بأحسن من تحيتهم لدلالته على الاستمرار بقرينة المقام ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ ﴾ أى ما أبطأ مجيئه به أو ماتأخر عنه أو ما أبطأ المجىء به ، والجار مقدر فى « أن » عليهما ﴿ حَنِيذٍ ﴾ مشوى بحجارة محماة . وفى الجواهر: هو الذى يغطى بحجارة أو رمل محمى وحائل بينه وبين النار يغطى به . اهـ . وفى لباب التأويل : هو المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض وهو من فعل أهل البادية ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ ﴾ وإنما رأى الأيدى لحظة ، لأنه لا ينظر إلى وجوههم عند تقديم المأكل لئلا يحصل للضيف نوع خجل فيحصل له فتور فى الأكل ، وهذا شأن أرباب الفتوة مع الضيفان . قال الشاعر :

وناولته من رسل كوماء جلدة • وأغضيت عنه الطرف حتى تضلعا

﴿ نَكِرَهُمْ ﴾ أنكر حالهم ، يقال نكره وأنكره واستنكره : شك فى معرفته ﴿ وَأَوْجَسَ ﴾ أضمر فى نفسه ﴿ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ خوفاً أن ينزلا به مكروهاً لامتناعهم من طعامه ، وكان ينزل ناحية من الناس مع بقره

ولم يعرف كونهم ملائكة ، أو عرف بترك الأكل أنهم ملائكة ، فخاف أن ينزلوا بعذاب قومه ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أى بعذابهم ، جواب لمن علم أنهم مرسلون لأمر لكن لم يعلم ذلك الأمر بعينه ﴿ وَامْرَأَتُهُ ﴾ أى امرأة إبراهيم سارة ﴿ قَائِمَةٌ ﴾ وراء الستر تسمع محاورتهم ، أو قائمة على خدمتهم ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ استبشاراً بهلاكهم وإصابة رأيها فإنها كانت تقول لإبراهيم اضمم إليك لوطاً فإنى أعلم أن العذاب نازل بقومه ، وقيل ضحكت حاضت ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ ﴾ أى بعد ﴿ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ بالرفع للجمهور والنصب لابن عامر وحمزة وحفص مفعول لـ «وهبنا» الدال عليه البشارة ، وجه البشارة إليها تارة وأخرى إلى إبراهيم بقوله « وبشروه بغلام عليم » لأن السرور بالولد مشترك ، وكما أنهما بشّرا بالولد بشرا ضمناً بطول العمر حتى يرى للمولود المبشر به ولداً ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ﴾ كلمة تقال عند أمر عظيم ، والألف مبدلة من ياء الإضافة ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ لى تسع وتسعون سنة ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِى ﴾ زوجى وأصله القائم بالأمر ﴿ شَيْخًا ﴾ ابن مائة وعشرين ، ونصبه على الحال ، والعامل فيها معنى الإشارة أو التنبيه ﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ الولد من هرمين ﴿ لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ من حيث العادة دون القدرة ولذا ﴿ قَالُوا ﴾ منكرين عليها ﴿ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ وإن كان فيه خرق العادة ، وقد نشأت وشببت فى رؤية الآيات ، ورأيت أمثال ذلك من المعجزات وعللوا الإنكار بقولهم ﴿ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ﴾ أى فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ فأنتم مخصوصون بالكرامات ، فمثل هذا ليس بالبدع منكم ، ولا حقيق بأن يستغرب منكم ، وقيل الرحمة : النبوة ، والبركة : الأسباط ، لأن الأنبياء منهم والكل من نسل إبراهيم ﴿ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ﴾ بيت إبراهيم ، نصب على الاختصاص ، أى لأنكم أهل بيت خليل الرحمن وذلك مدح لهم وأى مدح ، وهذا إخبار من الملائكة أو دعاء لهم بالخير والبركة ، وفيه دليل على أن أزواج الرجل من أهل بيته ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ ﴾ فاعل مايستوجب به الحمد ﴿ مَّجِيدٌ ﴾ واسع العطاء كثير الخير والإحسان أو منيع لا يرام ، وهما فعيلان بمعنى المفعول وقعا تذييلا لما تقدم ، أى ليس ما يفعله محلا للتعجيب بل للتحميد والتمجيد فإنه مولى متفضل ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ ﴾ الذى أوجس فى نفسه واطمأن بمعرفتهم ﴿ وَجَاءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ بالولد بدل الروع أخذ ﴿ يُجَٰدِلُنَا ﴾ بمجادلة رسلنا ﴿ فِى ﴾ شأن ﴿ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ أو المعنى يسألنا تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون قال للملائكة أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن قالوا : لا ، قال فمائتا مؤمن قالوا : لا ، قال : فأربعون ، قالوا : لا ، قال : فأربعة عشر ، قالوا : لا ، قال : أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد ، قالوا : لا ، قال : إن فيها لوطاً ، قالوا : نحن أعلم بمن فيها لننجيه . إلى آخره ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ ﴾ كثير الحلم غير عجول على الانتقام من المسىء له ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ كثير التأوه من الذنوب والتأسف على الناس ﴿ مُّنِيبٌ ﴾ إلى الله ، والمقصود بذكر هذه الصفات بيان الحامل له على المجادلة وهو رقة قلبه وفرط ترحمه ، ولذا لما أطال مجادلتهم قالوا له ﴿ يَا إِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ الجدال وإن

كان ترحماً فليس هذا محله ﴿ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ قضاؤه المبرم الذى لا مرد له بإهلاكهم وهو أعلم بحالهم ﴿ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ لتعلق إرادة الله به ، فلا يصرف بدعاء ولا غيره . قال فى الجواهر : فهذا يقتضى أن الدعاء إنما هو أن يوفق الله الداعى إلى طلب المقدور له ، فأما الدعاء فى غيره فغير نافع . قلت : والكلام فى هذه المسألة متسع رحب ، ومن أحسن ما قيل فيها قول الغزالى فى الإحياء فإن قلت فما فائدة الدعاء والقضاء لا يرد ، فالجواب إن من القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة ، كما أن الترس سبب لرد السهم ، والماء سبب لخروج النبات . اه . وفى الترمذى قيل لرسول الله أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً . قال : هى من قدر الله . اه. وفى جواب الفاروق لأبى عبيدة حين هم بالرجوع من أجل الدخول على أرض بها الطاعون وهى الشام مقنع لذلك . والله أعلم . ولما خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط أتوه نصف النهار يعمل فى أرض له ، وقيل حاملا حطباً إلى داره فرآهم حسان الوجوه طيبى الروائح وخاف أن يقصدهم قومه بفاحشة ، وعلم أنه سيحتال إلى مدافعتهم لحزن لذلك كما أخبر عن ذلك تعالى بقوله ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ﴾ حزن بسببهم لما تقدم ﴿ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴾ طاقة ، أى موضع الطاقة ، كناية عن عدم اهتدائه إلى ما يدفع به كيدهم عن أضيافه . قال الأزهرى : والأصل فيه أن البعير يذرع بيديه فى سيره ذرعاً على قدر سعة خطوه فإذا حمل عليه أكثر من طوقه ضاق ذرعه من ذلك وضعف ومد عنقه ، فجعل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة ، وقال غيره : المعنى ضاق بهم قلباً وصدراً ولا يعرف أصله قاله فى لباب التأويل ويؤيده ما فى القاموس : ضاق بالأمر ذرعه وذراعه ، وضاق به ذرعاً : ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيها مخلصاً . اه ﴿ وَقَالَ ﴾ فى نفسه تحزناً أو قال مشافهة ﴿ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ شديد من عصبه إذا شذه ومنه العصابة والعصب ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ ﴾ لما علموا بهم ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ يسرعون ﴿ إِلَيْهِ ﴾ من قولهم دم هرع أى سائل بين السيلان كأن بعضه يدفع بعضاً بالحمل على الجرى فكأنهم يدفع بعضهم بعضاً لطلب الفاحشة من أضيافه ﴿ وَمِنْ قَبْلُ ﴾ قبل مجيئهم ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ هى إتيان الرجال فى الأدبار ، فتمرنوا على فعل المنكرات ولا يستحيون ، فلذا هرعوا من غير مبالاة ﴿ قَالَ ﴾ لهم لوط ﴿ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل فلا يجيبهم لخبثهم لا لحرمة المسلمات على الكفار فإنه شرع طارئ ، فلما اشتد الأمر عليه سمح بذلك وقاية لأضيافه ، وقيل المراد بالبنات نساؤهم ، فإن كل نبى أبو أمته من حيث الشفقة ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ بمعنى الطاهر إذ لا طهر فيما ترومونه ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بترك الفواحش وإشارهن عليهم ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ تفضحون من الخزى أو لا تخجلونى من الخزاية بمعنى الحياء ﴿ فِي ضَيْفِي ﴾ فشأنهم فإن إخزاء ضيف الرجل إخزاؤه ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ يرعوى عن الجهل ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ

مِنْ حَقٍّ ﴾ حاجة لأن نكاح الإناث ليس بهم عندنا ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ من إتيان الرجال فعند ذلك ﴿ قَالَ ﴾ لوط ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ طاقة لو ثبتت لي بنفسي لدفعتكم ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ ﴾ جمع منيع ﴿ شَدِيدٍ ﴾ ينصرني لبطشت بكم شبه القوى الآيد بالركن من الجبل لشدته ويحتمل أن يكون لو للتمنى فلا يحتاج إلى الجواب وفى القاموس الركن الجانب الأقوى وما يتقوى به من ملك وجند وغيره . اه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «رحم الله لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد» أى لأن عناية الله كانت أشد ركن له ولما قالت الملائكة حين وجدت عليه إن ركنك لشديد وهذه المقاولة معهم كانت من وراء الباب وقد أغلقه خوفا منهم ، فلما طال الجدال تسوروا الجدار ولما رأت الملائكة ما أصاب لوطا من الكرب ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ بسوء بإضرارنا فدعنا وإياهم ففتح الباب وخلاهم فلما دخلوا نشر جبريل جناحه فضرب به وجوههم فطمس أعينهم كما قال تعالى : « فطمسنا أعينهم » فخرجوا وهم يقولون : النجاة . النجاة ، فإن فى بيت لوط قوما سحرة ﴿ فَأَسْرِ ﴾ بالوصل لنافع وابن كثير والقطع للباقين ﴿ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ ﴾ طائفة ﴿ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ من ورائه لئلا يصيبه ما أصابهم ولذلك لما التفتت امرأته حين سمعت هزة العذاب لحقها حجر فقتلها كما قال تعالى ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ بالنصب للجمهور استثناء من أهلك بناء على أنه نهى عن الإسراء بها فى جملة أهله أو من أحد على اللغة القليلة فى غير الموجب وبالرفع لأبى عمرو وابن كثير على البدل من أحد ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ﴾ أى ما يصيبها علة لعدم السرى بها أو لعدم نهيها عن الالتفات على الخلاف هل لم يخرج بها أو خرجت والتفتت فهلكت بحجر . ثم سألهم عن وقت هلاكهم فقالوا ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ أو هو علة للإسراء بالليل : أريد أعجل من ذلك فقالوا ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ استبعد مجىء الصبح لغاية ضجره وشدة شوقه إلى الانتقام ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ بالعذاب أو عذابنا والأول أولى لإضافته وجعل التعذيب مسببا عنه بقوله ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ جواب « لما » والضمير لقراهم وأسنده إلى ذاته وإن كان المباشر الملائكة لعظم الأمر وإن مثل ذلك الفعل إنما هو باقداره . روى أن جبريل رفع مدائنهم الخمس وفيها أربعمائة ألف أو أربعة آلاف ألف بجناحه إلى السماء حتى سمع الملائكة نباح الكلاب وصياح الديكة ثم أسقطها مقلوبة إلى الأرض مكانها ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ على المدن أو على شذاذها خارجا عنها من مسافريها ﴿ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ طين طبخ بالنار أو من مثل الشىء المرسل من أجله أرسله أو مما كتب الله أن يعذبهم به من السجل ، وقيل أصله « من سجين » أى من جهنم فأبدل لامه نونا ﴿ مَنْضُودٍ ﴾ متتابع أو نضد فى السماء نضدا معدا للعذاب ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ معلمة للعذاب أو ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض أو باسم من يرمى بها ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ فى خزائنه ظرف لها ﴿ وَمَا هِيَ ﴾ الحجارة أو بلادهم ﴿ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ أهل مكة ﴿ بِبَعِيدٍ ﴾ فكل ظالم بصدد أن يقع عليه حجر . أو تلك القرى قريبة من ظالمى مكة يمرون عليها فى

سفرهم إلى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجر أو المكان ﴿ وَ ﴾ أرسلنا ﴿ إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أراد أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام أو أهل مدين على أنه بلد بناه فسمى باسمه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ وحدوه ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ أمرهم بالتوحيد أولا لأنه ملاك الأمر ثم نهاهم عما اعتادوه من البخس المنافى للعدل بقوله ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ بالكيل والوزن للغير ناقصا أو لأنفسهم زائدا على حقهم فهو نقص أيضا فى مال الغير وكلا الوجهين مذموم وهذه عادة الأنبياء فى تبليغ الدين يبدءون بالأهم فالأهم ولما كان التطفيف شائعا فيهم وهو خيانة للعباد نهاهم عن ذلك بعد أمرهم بالتوحيد ﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ سعة ونعمة تغنيكم عن التطفيف وكانوا موسرين ، أو أراكم بنعمة حقها أن تتفضلوا على الناس شكرا عليها لا أن تنقصوا حقوقهم أو أراكم بخير وسعة فلا تزيلوها بما تفعلون : حذرهم زوال تلك النعمة وغلاء السعر وحلول النقمة وعلى كل من التأويلات فهو علة للنهى ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إن لم تؤمنوا ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ بكم يهلككم ، ووصف اليوم به مجاز لوقوعه فيه والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ أتموهما ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بالعدل والسوية صرح بالأمر بالاستيفاء بعد النهى عن ضده مبالغة وتنبيها على أنه لا يكفيهم الكف عن تعمد التطفيف بل يلزمهم السعى فى الإيفاء ولو بزيادة لا يتأتى دونها ، وقيده بالقسط دلالة على أن العدل هو المطلوب فليحقق . والزيادة فضل ، وقد يكون حراما كما فى الربا ، وقيل : بالقسط بتعديل المكيال وتقويم لسان للميزان ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ لا تنقصوهم من حقهم شيئا بأى نوع كان تطفيفا أو غيره كنقص ثمن ما يشترونه فهذا تعميم بعد تخصيص فإنه أعم من أن يكون فى المقدار أو فى غيره وكذا قوله ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ أمر دينكم ودنياكم وأخراكم بأنواع الفساد فهو أعم مما قبله لتناوله البخس وغيره كما أن البخس أعم مما قبله لتناوله المقدار وغيره كما قدمنا ، وقيل : البخس المكس كأخذ العشور من المعاملات . والعثو السرقة وقطع الطريق والغارة ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ ﴾ رزقه الباقى لكم بعد إيفاء الكيل والوزن ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ مما تستكثرون به على غير وجهه . هذا تفسير ابن عباس ، أو المعنى ما أبقاه لكم من الحلال خير لكم وأبرك فى الدنيا مما تجمعون من الحرام لأنه ممحوق البركة ، وقيل البقية الطاعة ، كقوله « والباقيات الصالحات خير » ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى بشرط أن تؤمنوا فإن خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالإيمان ، وفيه تعظيم الإيمان بأن كل خير لا يعد نافعا بدونه ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أحفظكم عن القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها أو لا أحفظ عليكم نعمة الله مع البخس ، أى لا أضمن لكم ذلك ، وإنما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت حين أنذرت ﴿ قَالُوا ﴾ له ﴿ يَا شُعَيْبُ ﴾ جوابا عن أمره بالتوحيد وترك البخس على سبيل الاستهزاء ﴿ أَصَلَوَاتُكَ ﴾ بالجمع للجمهور والإفراد لحمزة والكسائى وحفص ﴿ تَأْمُرُكَ ﴾ بتكليف ﴿ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام ﴿ أَوْ ﴾ نترك ﴿ أَنْ

نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ من النقص والزيادة ، عطف على « ما » ، المعنى : هذا أمر باطل لا يدعو إليه داعي خير ، وإنما دعاك إليه وسواس من جنس ما واظبت عليه من الصلوات وكان كثير الصلاة ، والإتيان بالمضارع للدلالة على الاستمرار وقدر المضاف بعد « تأمرك » لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره وقيل : المراد بصلواتك قراءتك أو دينك وتخصيص الصلاة لأنها أعظم شعائر الدين ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ ﴾ حيث تأمرنا بترك ما كان يعبد آباؤنا ﴿ الرَّشِيدُ ﴾ الخير حيث تأمر بترك البخس والتطفيف نشر لما تقدم قالوه تهكما به فعدوا وصفه بضد ذلك أي السفيه الغاوي ، أو المراد الحليم الرشيد في زعمك ، أو معناه : أنت فينا قبل هذا حليم رشيد فلا تخالف قومك في دينهم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ حلالا ، وكان كثير المال الحلال ، أو المراد به النبوة والمعارف الإلهية ، وجواب الشرط محذوف تقديره « هل يسعني مع هذه النعم أن أخالف ربي وأترك أمركم بالتوحيد وترك القبائح » وهو اعتذار عما أنكروا عليه من تغيير المألوف عن الآباء ، المعنى : كيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربه وله عليه نعم كثيرة ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ فأذهب ﴿ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ فأرتكبه وأستبد به ، ومن كان كذلك لا يظن به الجنون والكذب ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ ﴾ لكم بالعدل ما أفسدتم من أمر دينكم ودنياكم ﴿ مَا اسْتَطَعْتُ ﴾ مادمت أستطيع الإصلاح فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لما نهيتكم عنه ، وقد اقتضى رعي حق الله وحق نفسي وحق الناس أن آمركم بما أمرتكم به وأنهاكم عما نهيتكم عنه و« ما » مصدرية في موضع الظرف ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي ﴾ قدرتي على ذلك وغيره من الطاعات ﴿ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ والتوفيق خلق قدرة الطاعة ، مصدر بمعنى المفعول أي وما كوني موفقا في إمضاء أوامره إلا بتأييد منه ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فوضت أمري لا على غيره ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أرجع لا إلى غيره فلا أبالي به . روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا ذكر شعيبا قال : ذاك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته قومه ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ يكسبنكم أو يحملنكم ﴿ شِقَاقِي ﴾ خلافي وعداوتي : فاعل « يجرم » والضمير مفعول أول والثاني ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ﴾ من الغرق ﴿ أَوْ قَوْمَ هُودٍ ﴾ من الريح ﴿ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ من الرجفة ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ زمانا أو مكانا فإن لم تعتبروا بمن قبلهم فاعتبروا بهم وكان مدين قريبة من قرى قوم لوط بينهما مسافة يومين ، وتذكير لفظ « بعيد » باعتبار لفظ القوم لأنه يذكر ويؤنث أو هو مسند إلى ضمير الإهلاك أو الزمان أو المكان ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ بالإيمان ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ بالدوام عليه ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ ﴾ بالمؤمنين ﴿ وَدُودٌ ﴾ محب لهم بلطفهم كما يفعل بليغ المودة بمن يوده وعدٌ على التوبة بعد الوعيد على الإصرار ويحتمل أن الودود بمعنى المفعول أي يوده عباده الصالحون لكثرة أفضاله وإحسانه إليهم ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ ﴾ نفهم ﴿ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ استهانة لكلامك أو لعدم إلقاء الذهن إليه لشدة نفرتنا عنه ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ

فينا ضعيفاً) لا قوة لك تمتنع بها منا إن أردنا بك سوءا أو المعنى ذليلا لا عزّ لك تمنع نفسك به عنا (ولولا رهطك) عشيرتك الذين على ملتنا (لرجمناك) لقتلناك بالأحجار أو بأصعب وجه ، والرهط من ثلاثة إلى عشرة أو سبعة (وما أنت علينا بعزيز) كريم عن الرجم فتمنعنا عزتك عنه وإنما رهطك هم الأعزة والحاصل أنهم بينوا له أنه لا حرمة له عندهم ولا عز له في صدورهم وإنما لم يقتلوه لأجل رهطه الذين على ملتهم . قال البيضاوى وهذا دين السفيه المحجوج يقابل الحجج والآيات بالسب والتهديد . اه . (قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله) فتتركوا قتلى لأجلهم ولا تحفظونى لله ، والله أعز وأعظم (واتخذتموه) أى الله (وراءكم ظهريا) منبوذا خلف ظهوركم لا تراقبونه منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب (إن ربى بما تعملون محيط) علما فيجازيكم (ويا قوم اعملوا على مكانتكم) بالإفراد للجمهور والجمع لأبى بكر أى حالتكم والمكانة بمعنى المكان كناية أو تمثيل عن الحال أو مصدر مكن بالضم مكانة فهو مكين إذا تمكن أى على جهتكم أو متمكنين (إنى عامل) على مكانتى (سوف تعلمون) حذف الفاء هنا لكونه بتقدير سؤال لأنه فى مقام الحاجة معهم وأثبتت فى الأنعام والزمر تصريحا بأن ماهم عليه سبب الوعيد لأنه أمر أن يقول لهم ذلك الكلام الذى يعقبه ذلك الجزاء (من) موصولة مفعول العلم أو استفهامية معلقة العلم كأنه قيل سوف تعلمون أينا (يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب) على زعمكم فيما يدعيه عطف على من يأتيه لأنه قسيم له بل لأنهم لما أوعدوه وكذبوه قال : سوف تعلمون من المعذب والكاذب منى ومنكم (وارتقبوا) انتظروا ما أقول لكم (إنى معكم رقيب) منتظر كالفقير بمعنى المفتقر أو راقب كالغريم بمعنى الغارم أو مراقب كالعشير بمعنى المعاشر (ولما جاء أمرنا) بإهلاكهم (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه) ولم أر من ذكر عددهم (برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة) صاح بهم جبريل (فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) باركين على الركب ميتين (كأن) مخففة أى كأنهم (لم يغنوا) يقيموا فى نعمة وخفض عيش (فيها) ولم يكن لهم تصرف وتردد فيها (ألا بعدا) هلاكا (لمدين كما بعدت ثمود) أى بالصيحة إلا أن صيحة ثمود كانت من تحتهم وصيحة مدين كانت من فوقهم ، وعن ابن عباس : لم يهلك الله طائفتين بعذاب واحد إلا ثمود ومدين ، « والبعد » : بالضم ضد القرب واستعمل هنا بمعنى « البعد » بفتحين كالرشد من « بعد » بالكسر أى هلك (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) التسع (وسلطان مبين) برهان ظاهر أى ما أتى به من المعجزات فهى آيات باعتبار الدلالة على صدقه وسلطان باعتبار تسلطه به على الخصم أو الآيات الأحكام والسلطان براهينها ، والآيات : التوراة ، والسلطان : المعجزات (إلى فرعون وملئه) أشراف قومه (فاتبعوا أمر فرعون) الغوى وتركوا أمر موسى الهادى إلى الحق (وما أمر فرعون برشيد) سديد أو مصيب أو مرشد إذ هو ضلال محض (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) عبر بالماضى لتحقق وقوعه كما اتبعوه فى الدنيا فأوردهم

البحر ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ﴾ المورد وهو الماء ﴿الْمَوْرُودُ﴾ الذى وردوه لأنه يراد لتبريد الأكباد المتعطشة والنار بالضد فهو استعارة تهكمية والآية كالدليل على قوله: «وما أمر فرعون برشيد» فمن هذه عاقبته لم يكن فى أمره رشد أو تفسير له على أن المراد بالرشد ما يكون مأمون العاقبة حميدها، وقال ابن عطية وأبو البقاء: يجوز أن يكون «المورود» صفة لمكان الورد أى بئس مكان الورد المورود وهو النار، والورد حينئذ مصدر بمعنى الورود، وقيل: هو بمعنى الجمع الوارد، أى: بئس القوم المورود بهم ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لعنة إذ لم يخف قبح صنيعهم على أحد ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ العون المعان به أو العطاء المعطى والمخصوص بالذم محذوف أى رفدهم وهو اللعنة فى الدارين ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور مبتدأ خبره ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ﴾ المهلكة ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ يا محمد خبر بعد خبر ﴿مِنْهَا﴾ من تلك القرى ﴿قَائِمٌ﴾ باق هلك أهله دونه كالزرع القائم ﴿وَحَصِيدٌ﴾ عافى الأثر هلك بأهله كالزرع المحصود بالمناجل والجملة مستأنفة لا حال من ضمير نقصه كما قال أبو البقاء: إذ لا ضمير ولا واو وفيها الاستعارة التبعية ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكهم من غير ذنب ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بارتكاب ما يوجب الإهلاك ﴿فَمَا أَغْنَتْ﴾ ما نفعتهم ولا قدرت أن تدفع ﴿عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ عذابه ظرف أغنت ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بعبادتهم لها ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ إهلاك أو تخسير ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الأخذ ﴿أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ﴾ أى أهلها وقرئ «إذ» لأن المعنى على المضى ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ بالذنوب أى فلا يغنى عنهم من أخذه شىء وإسناد الظلم إليها مجاز مبالغة فى استحقاق أهلها ذلك وإشعارا بأن كل ظالم بصدده لوجود العلة وهى الظلم ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع لا خلاص منه صفة بعد صفة مبالغة فى التهديد وزيادة فى التحذير. روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ صلى الله عليه وسلم: «وكذلك أخذ ربك ...» الآية. وفى لباب التأويل: فى الآية والحديث دليل على أن كل من أقدم على ظلم فإنه يجب أن يتدارك ذلك بالتوبة ورد الحقوق إلى أهلها إن كان الظلم للغير لئلا يقع فى هذا الوعيد العظيم والعذاب الشديد ولا يظن أن هذه الآية حكمها مختص بظالمى الأمم الماضية بل هو عام فى كل ظالم ويعضده الحديث اهـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من القصص ﴿لَآيَةً﴾ لعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يستدل بما نزل بهم فى الدنيا على عذاب الآخرة أو لمن ينزجر به لإيمانه لأن من أنكره لا يخافه ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى اليوم المدلول عليه بالآخرة ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ والجمع للحساب والجزاء وآثر الاسم لدلالته على أن ذلك الوصف لازم له وخص الناس لأنهم المقصودون أصالة لشرفهم ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ كثير شاهدوه يشهده جميع الخلائق أو مشهور فهو تعظيم له وتهويل بكونه لا يغيب عنه ذو حياة ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ اليوم ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ﴾ أى لانتهاء زمان ﴿مَّعْدُودٍ﴾ أى معلوم

أجزاؤه فى علمنا الشامل ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ ذلك الأجل أو اليوم أى هوله فلا يلزم كون الشىء ظرفا لنفسه ﴿ لَا تَكَلَّمُ ﴾ فيه حذف إحدى التاءين ﴿ نَفْسٌ ﴾ فى الشفاعة أو مطلقا ﴿ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ تعالى كقوله : « لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن » وبعد الإذن يتكلمون وعليه يحمل يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها . والله أعلم ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ الضمير للناس المجموعين أو للنفس فإنه عام ﴿ شَقِيٌّ ﴾ وجبت له النار بمقتضى الوعيد ﴿ وَسَعِيدٌ ﴾ وجبت له الجنة بموجب الوعد أى كتب كلٌ من الأزل وفى الصحيحين « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ، ومقعده من الجنة » اه ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴾ فى علمه تعالى ﴿ فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ﴾ صوت شديد لإخراج النفس ﴿ وَشَهِيقٌ ﴾ صوت ضعيف مترددق الصدر لرد النفس كصوت الحمار أوله زفير وآخره شهيق شبهت أصواتهم بأصوات الحمير استقباحا ودلالة على شدة كربهم وغمهم وقرئ شقوا بالضم ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ مدة دوامهما فى الدنيا وهو تأكيد للخلود على ما يتعارفه العرب فى الآخرة إذ لا بد لهم من مُظل ومُقل ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ استثناء من « خالدين » لأن بعضهم وهم فساق الموحدين يخرجون منها ، فهم وإن شقوا بعصيانهم فقد سعدوا بإيمانهم فـ « ما » بمعنى « من » أو « إلا » بمعنى « سوى » أى : سوى ما شاء ربك من الزيادة على مدتهما مما لا منتهى له ، والمعنى : خالدين فيها أبدا ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ لا اعتراض عليه ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ﴾ بفتح السين الجمهور وبضمها حمزة والكسائى وحفص ﴿ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ﴾ سوى ﴿ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ كما تقدم ودل عليه فهم قوله ﴿ عَطَاءً ﴾ نصب على المصدر المؤكد أى أعطوا عطاء أو الحال من الجنة ﴿ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ مقطوع تصريح بأن الثواب لا ينقطع وتنبيه على أن المراد من الاستثناء فى الثواب ليس الانقطاع ، ولأجله فرق بين الثواب والعقاب قاله البيضاوى ، وقال السيوطى : وما تقدم من التأويل يعنى جعل إلا بمعنى غير هو الذى ظهر وهو خال من التكلف . والله أعلم بمراده . قلت وفى قوله « يوم يأت لا تكلم نفس » إلى هنا ، جمع وتفريق وتقسيم جمع الخلق فى قوله « لا تكلم نفس » ، ثم فرقهم بقوله « شقى وسعيد » ، ثم قسم لكل ماله . والله أعلم ﴿ فَلَا تَكُ ﴾ بعد ما قصصنا عليك ﴿ فِي مِرْيَةٍ ﴾ شك ﴿ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴾ من الأصنام أنها ضلال وأنا نعذبهم كما عذبنا من قبلهم ، وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ ﴾ أى كعبادتهم ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ وقد عذبناهم أو إلا كما كان يعبد آباؤهم لحذف « كان » لدلالة « قبل » عليه ، والجملة استئناف لتعليل النهى عن المرية ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ ﴾ مثلهم ﴿ نَصِيبَهُمْ ﴾ من العذاب أو من الرزق فيكون إشارة إلى سبب تأخير العذاب مع قيام موجبه ﴿ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ أى تاما وهو حال مؤكدة تقطع وهم التجوز إذ تقول وفيته حقه وتريد به وفاء بعضه ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ بالتصديق والتكذيب كالقرآن ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ بتأخير الجزاء

للخلائق إلى يوم القيامة ﴿ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ فى الدنيا بإنزال ما يستحقه المبطل ليتميز به عن المحق وكل هذا تسلية أيضاً ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أى المكذبين به ﴿ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ موقع فى الريبة ﴿وَإِنْ﴾ بالتخفيف لنافع وابن كثير وأبى بكر ، والتشديد للباقين ﴿ كُلًّا ﴾ بالنصب على القراءتين بالإعمال مع التخفيف أى كل الخلائق والتنوين عوض عن المضاف إليه ﴿ لَمَّا ﴾ واللام موطئة و « ما » مزيدة لتفصل بين لام الموطئة ولام القسم فى ﴿ لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى جزاءها . فاللام الثانية مؤكدة . وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة « لما » بالتشديد على أن أصله لمن ما فقلبت النون ميما للإدغام فاجتمعت ثلاث ميمات فحذفت أولاهن . والمعنى لمن الذين يوفيهم ، وقرئ « وإنْ كلاً لمّا » بتشديد الميم بمعنى إلا وإن نافية ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ عالم ببواطنه كظواهره لا يخفى عليه شىء منها ، ولما أطنب فى الوعد والوعيد وأحوال الأمم ، وأن الرسل بعد التبليغ لم يزغ أحد منهم عن سنن الصواب ومن آمن معهم أمر رسوله بالاستقامة بقوله ﴿ فَاسْتَقِمْ ﴾ فى العقائد والأعمال ﴿ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ من تبليغ الوحى وبيان الشرائع كما أنزلت والقيام بوظائف العبادات من غير تفريط ولا إفراط مفوّت للحقوق ونحوها مع رعى جميع الآداب مع الله ولكون هذا فى غاية العسر . قال عليه السلام « شيبتنى سورة هود » ﴿ وَ ﴾ ليستقم ﴿ مَنْ تَابَ ﴾ آمن ﴿ مَعَكَ ﴾ عطف على المستكن فى استقم بلا تأكيد لوجود الفاصل ﴿ وَلَا تَطْغَوْا ﴾ لا تتجاوزوا حدود الله : تصريح بما علم ضمناً ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فيجازيكم به ، تعليل للأمر والنهى وإشارة إلى كمال علمه بخطرات القلوب وهى كالمحسوس المشاهد عنده جلاء وظهوراً . قال البيضاوى : فى الآية دليل على وجوب اتباع النصوص من غير انحراف بنحو قياس واستحسان ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ لاتميلوا أدنى ميل ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالكفر أو المعاصى بموادتهم ومداهنتهم بترك النهى مع القدرة والتزيى بزيهم وتعظيم ذكرهم والاستعانة بهم والرضى بأعمالهم . وفى القسطلانى : من استعان بظالم فكأنه رضى بفعله ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ قال فى غاية الأمانى : أى لا تميلوا أدنى ميل إلى من وجد منه أدنى ظلم فهذا غاية تحذير فإن قرين السوء أشد إغواء من الشيطان وإذا كان الركون الذى هو ميل يسير إلى من وجد منه أدنى ظلم مخلا بالاستقامة فكيف بالميل التام ثم الظلم الكامل ثم الانهماك فيه . اه . وأما معاملة الظلمة فقد قال فى القوانين : معاملتهم لا تجوز فإن كان الحرام قائما بعينه عند الغاصب أو السارق أو نحوهما فلا يحل شراؤه ولا البيع به إن كان عيناً ولا أكله إن كان طعاماً ولا لباسه إن كان ثوباً ولا قبول شىء من ذلك هبة ولا أخذه فى دين ، ومن فعل شيئاً من ذلك فهو الغاصب وإن كان الحرام قد فات من يده ولزم ذمته ، فإن لم يكن له مال حلال قط حرمت معاملته ، وإن كان الغالب على ماله الحرام فمعاملته حرام عند أصبغ ومكروه عند ابن القاسم . اه ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ يحفظونكم منه ﴿ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ تمنعون من عذابه ، والواو للحال ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ ﴾ عطف على « فاستقم » ﴿ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ الغداة والعشى . منصوب على الظرف لإضافته

إليه ، أى صل الصبح والظهر والعصر ، لأن مابعد طلوع الفجر إلى الزوال غداة ومنه إلى الغروب عشية ﴿ وَزُلَفاً ﴾ جمع زلفة أى طائفة ﴿ مِنَ الَّيْلِ ﴾ أى ساعات قريبة من النهار من أزلفه أقربه ، أى : صل المغرب والعشاء لقربهما من آخر النهار . روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » ولذا أتبعه بقوله ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ ﴾ كالصلوات الخمس ﴿ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ الذنوب الصغائر ، نزلت فيمن قبّل أجنبية فأخبره صلى الله عليه وسلم فقال: ألى هذا ؟ فقال : لجميع أمتى كلهم . رواه الشيخان ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من الاستقامة وما بعده وقيل القرآن ﴿ ذِكْرَىٰ ﴾ تذكرة ووعظ ﴿ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ المتعظين ، وهذه الآية من الآيات الست التى تضمنت الصلوات الخمس والثانية قوله « أقم الصلاة لدلوك الشمس » الآية ، الثالثة قوله «فسبح بحمد ربك» إلى قوله « لعلك ترضى » ، الرابعة قوله « فسبح بحمد ربك حين تقوم إلى أدبار السجود » ، الخامسة قوله « فسبحان الله حين تمسون » إلى « تظهرون » ، السادسة « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له » . انظر الأحكام ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى قومك وعلى الصلاة ، أو على مشاق ما أمرت به من الاستقامة والانتهاء عما يخل به ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بالصبر على الاستقامة ، وضع الظاهر موضع الضمير إشارة إلى علة الحكم وإلى أن الصلاة والصبر إحسان وإيماء إلى أنه لا يعتد بشىء من الأعمال بدون الإخلاص على ما فسر به الإحسان فى الحديث ﴿ فَلَوْلَا ﴾ فهلا ﴿ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ ﴾ الأمم الماضية ﴿ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ ﴾ من الرأى والعقل أو أصحاب دين وفضل ، كما يقال : فلان من بقية القوم أى خيارهم ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ ﴾ المراد بحرف التحضيض اللوم على ترك الفعل فى الماضى إشارة إلى أن ما حل بتلك الأمم كان لأمرين الإخلال بما هو من أعظم أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واتباع الشهوات ، أى ما كان فيهم ذلك ﴿ إِلَّا ﴾ لكن ﴿ قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ نهوا فنجوا ومن للبيان والاستثناء منقطع ، وينهون خبر بعد خبر ، أو خبر ومن القرون حال قدمت ، أو ينهون صفة والاستثناء متصل ، والمعنى : لولا كان من القرون أولو الفضل صفتهم وشأنهم النهى عن الفساد إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، وإذا جعل ينهون خبراً فلا يستقيم الاتصال إلا إذا جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فيكون الاستثناء من كل من الاسم والخبر كالاستثناء من الآخر فكأنه قيل ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلا ، ولو أجرى الكلام على ظاهره فى الاتصال ، وقيل لم يكن فى القرون أولو بقية ينهون عن الفساد إلا قليلا يلزم أن يكون فيهم أولو بقية غير ناهٍ ولا يخفى فساده ﴿ وَٱتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالفساد أو ترك النهى ﴿ مَا أُتْرِفُوا ﴾ نعموا ﴿ فِيهِ ﴾ وهم المقابلون للقليل ، أى اتبعوا الشهوات وأغفلوا الطاعات وهو عطف على ما دل عليه الكلام ، أى إلا قليلا نهوا عن الفساد واتبع ... الخ . أو الواو للحال أى أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاء ما أترفوا فيه وهو عذاب الاستئصال ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

عطف على « أترفوا » أى اتبعوا الشهوات وكونهم مجرمين، أو استئناف علة لما قبله على جعل ما أترفوا فاعل اتبع مع تقدير المضاف ، أى جزاء ما أترفوا كما قدمنا . والله أعلم ، أو اعتراض يؤكد ظلمهم ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ ﴾ منه لها ، أى بغير ذنب ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ مؤمنون ، وقيل : المعنى لا يهلكهم بظلم أى بمجرد شرك ، وأهلها مصلحون فيما بينهم من معاملة الناس وحقوق العباد ، لا يضمون إلى شركهم فساداً وتباغياً ، ولذا قيل : الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم أى لا يستأصلهم فى الدنيا ، أما عذاب الآخرة فلازم لهم ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أهل دين واحد مسلمين كلهم ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ فى الدين ، بعضهم على الحق وبعضهم على الباطل ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ أى لكن من رحم ربك فمن غلبه بالهداية فهم لا يختلفون ﴿ وَلِذَٰلِكَ ﴾ الاختلاف ﴿ خَلَقَهُمْ ﴾ أى الناس ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، أو لذلك الرحم والتوفيق خلق من رحمه ، أو المعنى : خلق أهل الاختلاف له وأهل الرحمة لها ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ إرادته أو هى ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ أى من عصاة الطائفتين لاستوائهما فى التكليف . قال فى اللباب : والآية صرحت بأن الله خلق خلقاً للجنة والرحمة فهداهم ووفقهم لأعمال أهل الجنة ، وخلق أقواماً للنار فخذلهم ومنعهم من الهداية ﴿ وَكُلًّا ﴾ نصب بقوله ﴿ نَقُصُّ ﴾ وتنوينه عوض من المضاف إليه أى نقص ﴿ عَلَيْكَ ﴾ كل ما يحتاج إليه ﴿ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ ﴾ بدل من « كلا » أى ما نطمئن ﴿ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ قلبك على احتمال الأذى وأداء الرسالة تأسياً لمن قبلك ﴿ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ ﴾ الأنباء أو السورة أو الآيات ﴿ الْحَقُّ ﴾ بإيرادها على وجهها ﴿ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى آخر الدهر إشارة إلى الفائدة العامة ، وخص المؤمنون لأنهم المنتفعون به فى الإيمان بخلاف الكفار ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ بالإفراد للجمهور ولأبى بكر بالجمع : حالتكم أو تمكنكم ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ كذلك ﴿ وَانتَظِرُوا ﴾ الدوائر بنا ﴿ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ أن ينزل بكم ما نزل بالمكذبين أمثالكم ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى علم ما غاب فيهما يعلم وقت ذلك ، والحكمة فى تأخيره ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ ﴾ لنا ولكم بالبناء للفعول لنافع وحفص ، وللفاعل للباقين ﴿ كُلُّهُ ﴾ فى الدنيا والآخرة ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ ثق به فإنه كافيك ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ بالخطاب لنافع وابن عامر وحفص أى أنت وهم ، ففيه تغليب الخطاب ، والباقون بالغيبة إلا أبا بكر عن عاصم وإنما يؤخرهم لوقتهم .

تم تفسير سورة هود

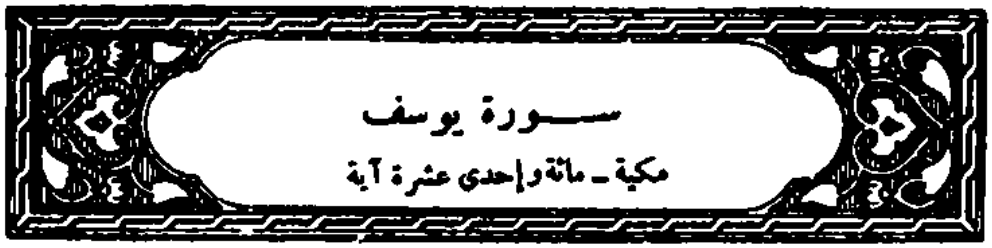

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الر﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿تِلْكَ﴾ أى هذه الآيات أو السورة، وإيثار «تلك» لقصد التعظيم ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ القرآن والإضافة بمعنى من، أى: من بعض الكتاب المعجز ﴿الْمُبِينِ﴾ الواضح الإعجاز أو المظهر للحق من الباطل، أو المبين لمن تدبر أنها من عند الله أو لليهود ما سألوه. إذ روى أن سبب نزول السورة أن علماءهم قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً ما سبب انتقال آل يعقوب من الشام إلى مصر، وسلوه عن قصة يوسف، فنزلت، وفيها تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عما يفعله قومه بما فعل إخوة يوسف بيوسف، وقيل: إن الصحابة قالوا للنبي: لو قصصتنا فنزلت ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، وقرآناً حال موطئة، و«عربيا» هو الحال أو كل منهما حال لأن الأول مصدر بمعنى المفعول ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ تفهمون معانيه، علة لإنزاله بهذه الصفة، أى: أنزلناه مجموعاً أو مقروءاً بلغتكم كى تفهموه وتعلموا أنه من عند الله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ الوحى ﴿عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أى الاقتصاص، مصدر كالطلب من قص الأثر اتبعه، والقصص إتباع الخبر بعضه بعضاً، والقاص هو الذى يأتى بالخبر على وجهه، وسميت الحكاية قصة لأن القاص يذكرها شيئاً فشيئاً، والمقصوص محذوف وهو الوحى كما قدمنا لدلالة أوحينا عليه، ويجوز أن يكون بمعنى المقصوص مفعول نقصُّ، وكونه أحسن القصص لكونه مقصوصاً على أبدع طريقة وأغرب أسلوب مع سلاسة الألفاظ وعذوبة المعانى واشتمال على الحكم والعجائب من العبر وسير الملوك والممالك والعلماء، ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء وعفوهم بعد الاقتدار وغير ذلك من الفوائد، ولذا قال ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح، وقيل المراد نبين لك أخبار الأمم الماضية أحسن البيان، لا قصة يوسف خاصة ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ بإيحائنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ أى السورة لأنه فى الأصل اسم جنس يقع على الكل والبعض، ويجوز أن يكون مفعول «نقص» على جعل «أحسن القصص» مصدراً، ويكون مفعول «أوحينا» محذوفاً، لكن إعمال أوحينا فى هذا المتنازع أولى، لأن إيقاع الإيحاء على القرآن فيه من الفخامة ما ليس فى إيقاع الاقتصاص. والله أعلم ﴿وَإِنْ﴾ مخففة أى: وإنه ﴿كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ

الْغَافِلِينَ ﴾ عنه لم يقرع سمعك ولا خطر ببالك ، زيادة امتنان عليه وإشارة إلى فضيلة العلم ، وتعليل لكون القرآن موحى ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ منصوب بأذكر ، أو بدل اشتمال من «أحسن القصص» إن كان بمعنى المقصوص لا إن كان مصدراً ، لأن الاقتصاص على رسول الله لا يشتمل على زمان قول يوسف . قاله فى غاية الأمانى ﴿ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ بالكسر الجمهور فى جميع القرآن وهى ثمانية : يا أبت إنى ، يا أبت هذا ، يا أبت لِمَ تعبد ، يا أبت إنى قد جاءنى ، يا أبت لا تعبد ، يا أبت إنى أخاف ، يا أبت استأجره ، يا أبت افعل : دلالة على ياء الإضافة المحذوفة التى جعلت التاء عوضاً عنها ، وبالفتح لابن عامر دلالة على ألف محذوفة قلبت عن الياء ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ ﴾ فى المنام ﴿ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ وهى : الفرغ ، والوثاب ، وذو الكفتين ، والطارق ، وقابس ، والذيال ، وذو ثان ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح . وهى فى التأويل إخوته وكانوا أحد عشر رجلا يستضاء بهم كالنجوم ﴿ وَالشَّمْسَ ﴾ تأويل أمه « راحيل » أو خالته « ليا » لأن الشمس مؤنثة ﴿ وَالْقَمَرَ ﴾ تأويل أبيه لأنه مذكر ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴾ تكرير تأكيد أو جواب سؤال مقدر كأنه قيل كيف رأيتهم ، فالأول إخبار عن رؤيتهم والثانى عن رؤية سجودهم ، وجمع بالواو والنون للوصف بالسجود الذى هو من صفات العقلاء ، رآها يوسف نزلت من السماء فسجدت له ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب لما علم من تأويل الرؤيا أن إخوته وأبويه سيخضعون له ، وخاف عليه الحسد من إخوته ، وقد علم ما وقع لهابيل مع قابيل ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ تصغير ابن تحبباً وإشفاقاً أو لأنه صغير السن عمره حينئذ اثنتى عشرة سنة ، بكسر الياء الجمهور والفتح لحفص ﴿ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ يحتالوا فى هلاكك حسداً لعلمهم بتأويلها من أنهم الكواكب والشمس أمك والقمر أبوك ورؤيا الأنبياء حق ، لم يقل فيكيدوك لتضمنه معنى الاحتيال ليكون آكد وأبلغ فى التخويف ولذلك أكد بالمصدر . قال فى غاية الأمانى : والرؤيا كالرؤية إلا أنها تختص بالمنام وليس لذلك سبب سوى تعلق مشيئة الله تعالى بخلق ذلك فى قلب النائم كما يخلق الرؤية فى حالة اليقظة ، والقول بأنها بانطباع الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة إلى الحس المشترك والصادقة منها إنما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ ، فيتصور بما فيها مما يليق من المعانى الحاصلة هناك : ثم إن المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها إلى الحس المشترك فتصير مشاهدة : قول بما لم يدل عليه دليل شرعى ولا عقلى ، ولا يليق أن يفسر به كلامه سبحانه وتعالى . اه . قلت : يعنى رد ما قال البيضاوى فى أنوار التنزيل ، وما قاله فى غاية الأمانى هو مذهب أهل السنة ، قال المازرى : مذهب أهل السنة فى حقيقة الرؤيا : أن الله تعالى يخلق فى قلب النائم اعتقادات كما يخلقها فى قلب اليقظان لكونها علما على أمور أخرى يخلقها فى ثانى الحال والكل خلق الله لكن يخلق ما يسر بغير حضرة الشيطان فهو الرؤيا ويخلق ما يضر بحضرته لينسب إليه وهو الحلم والرؤيا

اسم المحبوب ، والحلم : اسم للمكروه . اه ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ بين العداوة لما فعل فى آدم وحواء ولا يألو جهدا بأبنائهما فى إثارة الحسد حتى يحملهم على الكيد فلا يستبعد منهم وإن كانوا أبناء أنبياء ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما رأيت ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يختارك أى كما أكرمك بهذه الرؤيا فى الصغر يكرمك بالرسالة فى الكبر وعلم ذلك بإعلام الله أو أخذه من الرؤيا لما روى البخارى أنها جزء من النبوة وكان يفسر الرؤيا ويقع على وفق تأويله ، والاجتباء افتعال من اجتبيت الشىء إذا جعلته لنفسك ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تفسير الرؤيا لأنها أحاديث النفس فى المنام والتأويل من الأول وهو الرجوع والمراد به رد الشىء إلى غايته علما وفعلا ، وهى اسم جمع للحديث : قاله فى غاية الأمانى وأنوار التنزيل . قلت : بل إنه جمع له على غير لفظه وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا وقيل المراد بها معانى كتاب الله وسنن الأنبياء فهى أحاديث لأنها يحدث بها عن الله ورسله ألا ترى إلى قوله : «فبأى حديث بعده يؤمنون» « الله نزل أحسن الحديث» ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بالنبوة أو بإيصال نعمة الدنيا بالآخرة ﴿وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ سائر أولاده ، ولعله استدل بنبوتهم بضوء الكواكب لأن منصب النبوة أعلى المناصب فلا تتم النعمة إلا بها ﴿كَمَا أَتَمَّهَا﴾ بالنبوة ﴿عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ قبلك أو قبل هذا الوقت ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ ولم يذكر نفسه عليها لما كما هو سنتهم ، وهو عطف بيان لأبويك ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ كامل العلم بخلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ فى صنعه بهم يختار من يشاء بحكمته ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى﴾ خبر ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ الأحد عشر « روبيل » كبيرهم ، « شمعون ، ولاوى ، ويهودا ، وربالون ، ويشجر ، أمهم « ليا » بنت خال يعقوب . ودان . ونفتالى . وعاذ ، وآشير : أمهم سرية ولما توفيت ليا تزوج يعقوب أختها «راحيل» فولدت يوسف وبنيامين فهؤلاء الأسباط أولاد يعقوب ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بالجمع ، ولابن كثير بالإفراد عبرٌ وعلامات على كمال قدرة الله وصدق النبى صلى الله عليه وسلم ﴿لِّلسَّائِلِينَ﴾ عن خبرهم وهم اليهود لاشتماله على أنواع من العبر كرؤيا يوسف وما حقق الله فيها ، وحسد إخوته وما آل إليه أمرهم ، وصبر يوسف فى أمر الجب والبيع ، والسجن ، وما آل إليه أمره من النبوة والملك ، وحزن يعقوب وصبره على فقد الولد ، وما آل إليه أمره من بلوغ المراد وغير ذلك مما يعتبر به ﴿إِذْ قَالُوا﴾ أى بعض الإخوة لبعض ولم يكونوا أنبياء حينئذ فلا إشكال ﴿لَيُوسُفُ﴾ مبتدأ ﴿وَأَخُوهُ﴾ شقيقه « بنيامين » ﴿أَحَبُّ﴾ خبر ﴿إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ خص الأخ بالإضافة لاختصاصه بالأخوة فى الطرفين ووحد أحب والمراد المثنى لأن « أفعل من » لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ والحال أنا جماعة أقوياء أحق بالمحبة من صغيرين لا كفاية فيهما والعصبة والعصابة من الرجال العشرة فصاعداً إلى الأربعين من العصب وهو الشد والإحاطة لأن الأمور تعصب بهم ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ خطأ ﴿مُّبِينٍ﴾ بين فى إيثار المفضول وترك التعديل فى المحبة ، فتشاوروا فى يوسف فقال بعضهم ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بأرض بعيدة من العمران ولتنكيرها وإبهامها

نصبت نصب الظروف المبهمة ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ محبته بأن يقبل عليكم ولا يلتفت لغيركم لا ينازعكم فى محبته أحد ، جواب الأمر ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ بعد قتله أو طرحه ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ تائبين إلى الله عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم يصلح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه ، أو صالحين فى أمور دنياكم تنتظم لكم بعده بخلو وجه أبيكم ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ هو «يهودا» وقيل «روبيل» ﴿ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ فإن القتل عظيم يعسر النجاة من تبعته ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ بالجمع هنا وفيما يأتى لنافع ، وبالإفراد الباقين ، مظلم البئر أى قعره وغوره لغيبوبته عن عين الناظر . وفى الباب : أى أسفل الجب وظلمته ، والغيابة كل موضع يستر شيئاً عن النظر ، و « أل » فى الجب للعهد وعينوه للعلة التى ذكروها وهى قولهم ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ المسافرين إذ عرفوا أنه يرد عليه كثير من المسافرين ، والالتقاط : أخذ الشىء من حيث لا يحتسب ليذهبوا به إلى ناحية بعيدة فتستريحوا منه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ لا محالة ما أردتم من التفريق فاكتفوا بذلك ، وفيه إشارة إلى ترك الفعل ، أو إن كنتم فاعلين ما أشرت به ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ أى لِمَ تخافنا عليه ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ لقائمون بمصالحه ، أكدوا الكلام لظهور مخايل الإنكار إرادة لإزالته عن رأيه فى حفظه منهم لما تنسم من حسدهم . والمشهور عن السبعة « تأمنا » بالإدغام بإشمام ، وعن نافع ترك الإشمام ومن الشواذ ترك الإدغام وتيمنا بكسر النون ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ إلى الصحراء ﴿ يَرْتَعْ ﴾ يتسع فى أكل الفواكه ونحوها ﴿ وَيَلْعَبْ ﴾ بالسباق والانتضال وسائر أنواع اللعب بالياء فى الفعلين وكسر العين فى « يرتع » وسكون الباء فى « يلعب » لنافع ، وبالياء فيهما وسكون العين للكوفيين ، وبالنون فيهما وإسكان العين لأبى عمرو وابن عامر ، وبالنون فيهما وكسر العين للبزى وكذا قنبل ، لكن روى عنه إشباع كسر العين أيضاً وذلك خمس قراءات ، ولا خلاف فى سكون باء « يلعب » ووجه كسر العين من يرتع كونه مضارع «ارتعى» بمعنى «رعى» ، ووجه إسكانه كونه من رتع الحيوان : أكل ما شاء من غير مزاحم ، وهو جواب الأمر ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ أن يناله مكروه غاية الاجتهاد حتى نرده إليك سالماً ﴿ قَالَ ﴾ معتذراً لهم بعذرين أحدهما قوله ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ أى ذهابكم به يؤلم قلبى لعدم اعتيادى فراقه ساعة ولا أصبر عنه ؛ والثانى قوله ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ كلب الهر المراد به جنسه ، لأن أرضهم كانت كثيرة الذئاب ؛ أو لأنه رأى فى المنام أن ذئباً شد على يوسف ، وأبدل الكسائى وورش والسوسى الهمزة ياء تخفيفا ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ بالاشتغال بالرتع واللعب ﴿ قَالُوا ﴾ استبعاداً لذلك لوجود المناف ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ جماعة واللام موطئة القسم وجوابه ﴿ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ عاجزون ضعفاء مستحقون أن يدعى عليهم بالخسارة ، والواو فى «ونحن» للحال فأرسله معهم ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا ﴾ عزموا ﴿ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ وجواب « لما » محذوف لإيحاشه السامع أو لطوله أى فعلوا به ما فعلوا ، والجب معروف بجب يوسف على ثلاثة فراسخ من مقام

يعقوب ، فلما أرادوا إلقاءه فى البئر نزعوا عنه قميصه بعد ضربه وإهانته وإرادة قتله وأدلوه فلما وصل إلى نصف البئر ألقوه ليموت فسقط فى الماء ثم آوى إلى صخرة فنادوه فأجابهم لظن رحمتهم فأرادوا رضخه بصخرة فمنعهم يهودا ، وكان يعقوب جعل قميص إبراهيم الذى ألبسه جبريل من ثياب الجنة حين ألقى فى النار فى تميمة وعلقها فى عنق يوسف فجاء جبريل لما ألقى فى الجب فشقها وأخرج القميص وألبسه إياه ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ﴾ فى الجب وحى حقيقة بالنبوة عند الأكثر وله سبع سنين أو سبعة عشر تطميناً لقلبه وإزالة للهمّ والغم والوحشة ثم بعد ذلك أمره بتبليغ الرسالة فى وقتها ، وقيل وحى إلهام من جبريل يبشره بالخروج ويخبره أنه ينبئهم بما فعلوه به ويجازيهم عليه كما قال تعالى ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ ﴾ بعد اليوم ﴿ بِأَمْرِهِمْ ﴾ بصنيعهم ﴿ هَٰذَا ﴾ أى أوحى إليه هذا القول ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف لعلو شأنك وطول العهد ، أو لا يشعرون وقت الإيحاء به يظنون أنك فى وحشة وشدة ، قال فى لباب التأويل : والمقصود بهذا الإيحاء تقوية قلب يوسف وأنه سيخلص مما هو فيه ويصير مستولياً عليهم ويصيرون تحت أمره وقهره ﴿ وَجَآءُوٓا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ قال لهم مالكم ؟ وأين يوسف ؟ قال ابن العربى : قال العلماء هذا يدل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله لاحتمال التصنع ومن الناس من يقدر على ذلك . اهـ . وعبر بالمضارع إيذاناً بالحدوث ﴿ قَالُوا يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ نتسابق بالسهام ليتبين سهم أينا أبعد أو بالأقدام فى العدو ليتبين أينا أسرع وأخف أو إلى الصيد ، وافتعل يجىء بمعنى تفاعل كثيراً ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ ﴾ مصدق ﴿ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ عندك لاتهمتنا فى هذه القصة لمحبة يوسف فكيف وأنت سيئ الظن بنا ، عبروا بـ «لو» مكان «إن» إشارة إلى أن تصديقهم كالمستحيل عنده ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ ﴾ محله نصب على الظرفية أى فوقه وهو فى الأصل صفة دم قدم للاهتمام به ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ مصدر وصف به مبالغة أو ذى كذب أى مكذوب فيه من إطلاق المصدر على المفعول ويجوز نصب « على قميصه » على الحال لأن ابن مالك يجوّز تقديمه على المجرور. روى أنهم ذبحوا سخلة ولطخوا ثوبه بدمها وذهلوا عن شقه وقالوا إنه دمه فأخذه يعقوب وتأمله وقال : ما رأيت ذئباً أحلم من هذا أكل ابنى ولم يمزق عليه قميصه ثم ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ زينت وسهلت ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ أى صنعاً عظيماً من السول وهو الاسترخاء فعلتموه به لا ما تصفون من أكل الذئب ، وإنما علم ذلك بالوحى أو بسلامة القميص مع علم الحسد منهم ، وقيل إنهم أتوه بذئب وقالوا هذا أكله فقال يعقوب : أيها الذئب أأنت أكلت ولدى ؟ فأنطقه الله وقال : والله ما أكلته ولا رأيته ولا يحل لنا أكل لحوم الأنبياء فأطلقه وقال « بل سولت لكم أنفسكم أمراً » ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ لا جزع فيه وهو الذى لا شكوى فيه إلى الخلق ، كما قال « إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » وهو خبر مبتدإ محذوف أى أمرى ، أو مبتدأ محذوف الخبر أى : فصبر جميل أمرى . أو أجمل ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ المطلوب منه العون ﴿ عَلَىٰ

﴿ مَا تَصِفُونَ ﴾ تذكرون من أمر يوسف أى على احتماله وأتى بالموصول إشارة إلى عظم الأمر وتسليمه إلى الله والتوكل عليه ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ مسافرون من مدين إلى مصر ، فنزلوا قريباً من جب يوسف فى اليوم الثانى أو الثالث من طرحه فيه ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ الذى يرد الماء ليستقى منه واسم واردهم « مالك بن ذعر الخزاعى » ﴿ فَأَدْلَى ﴾ أرسل ﴿ دَلْوَهُ ﴾ فى البئر فتعلق بها يوسف فأخرجه ، فلما رآه ﴿ قَالَ يَا بُشْرَايَ ﴾ بالإضافة إلى ياء المتكلم مفتوحة فى الوصل ساكنة فى الوقف للجمهور ، والكوفيين بدون ياء الإضافة ونداؤها مجاز أى أحضرى هذا أوانك ﴿ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾ وقيل : « بشرى » اسم رجل على قراءة الكوفيين فلما أخرج جاء إخوته وكانوا يترصدونه وقالوا : هو غلام لنا أبق فاشتروه منا ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ الضمير لإخوة يوسف أى أخفوا أمرهم جاعليه ﴿ بِضَاعَةً ﴾ متاعا للتجارة من البضع وهو القطع لأنه المال المقطوع للتجارة وهو حال من المفعول أو الضمير للوارد وأصحابه أى أخفوه من سائر الرفقة أو أخفوا أمره ، وقالوا لهم : هو بضاعة أى دفعه إلينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ إشارة إلى عظم ما ارتكبوه ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ باعوه وفى مرجع الضمير الوجهان أو اشتروه من إخوته ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ ناقص أو مبخوس لزيفه ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ تعد عدًّا ولا توزن ، قيل كانوا لا يزنون إلا مابلغ الأوقية ، قيل : كانت عشرين أو اثنين وعشرين ﴿ وَكَانُوا ﴾ أى إخوته أو الملتقطون ﴿ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ غير راغبين فإن كان الضمير للإخوة فظاهر أو للواجدين فلأن الملتقط للشىء لا يبالى به مبالاة من اشتراه لأنه لم يتعب فى تحصيله ويخاف أن يظهر له مستحق ينتزعه فجاءت به السيارة إلى مصر فباعه الذى اشتراه بعشرين ديناراً وزوجى نعل وثوبين أبيضين وقيل ترافع الناس فى ثمنه حتى بلغ وزنه ذهبا وفضة ومسكا وحريراً وكان وزنه أربعمائة رطل فابتاعه « قطفير » بذلك الثمن وكان عزيز سلطان مصر ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ﴾ « قطفير » الذى على خزائن مصر ﴿ لِامْرَأَتِهِ ﴾ « زليخاء » أو « راعيل » ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ مقامه عندنا فى المطعم والملبس ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا ﴾ بالقيام على أموالنا ومتاعنا ونستظهر به على مصالحنا ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ نتبناه وكان العزيز عقيما أو حصورا وتفرس فيه الرشد والكفاية ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ كما أنجيناه من القتل والجب ومكنا له الود والمحبة فى قلوب الناس حتى عطف عليه قلب العزيز ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر حتى بلغ ما بلغ حتى آمن به ملك مصر يومئذ وهو « ريان بن الوليد العمليقى » كما يأتى ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ للأنبياء والأمم أو أحاديث الرؤيا عطف على مقدر متعلق بمكناه أى ليتصرف فيها بالعدل ولتعلمه أى كان القصد فى إنجائه وتمكينه أن يقيم العدل ويدبر أمور الناس ويعلم معانى كتب الله وأحكامه فينفذها أو تعبير المنامات المنبئة عن الحوادث الكائنة ليستعد لها ويشتغل بتدبيرها قبل أن تحل كما فعل لسنينه ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ لا يعجزه شىء أو على أمر يوسف أراد به إخوته شيئاً وأراد الله غيره وبلغ

يوسف مابلغ وبطل كيد إخوته فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ولذا لا يفوضون أمرهم إليه أو لا يتأملون دقائق صنعه وخفايا لطفه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ مبدأ اشتداد جسمه أو منتهاه ثمانى عشر أو عشرين أو ثلاثين أو أربعين مفرد كالآنك : أى الرصاص ، والأسرب : وهو القزدير وقيل جمع لامفرد له وعن سيبويه مفرده شدة كنعمة وأنعم ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس بالملك لقوله «رب قد آتيتنى من الملك» أو نبوة فإنها سبب الحكم ﴿وَعِلْمًا﴾ مخصوصا به كتأويل الأحاديث أو فقها فى الدين ، وقيل : الحكمة حبس النفس عن هواها والعلم هو النظرى ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جزيناه بهذه النعم كلها ﴿نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾ لأنفسهم تنبيه على أن ماناله جزاء لإحسانه فى عمله وتقواه فى أول أمره ﴿وَرَٰوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ هى «زليخا» ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أى طلبت منه أن يواقعها بأنواع الحيل مفاعلة من راد يرود جاء وذهب لشىء ومنه الرائد مجاز عن إرادة مواقعته إياها بأسباب من الحيل وأتى بالموصول سترا عليها وإظهارا لغاية نزاهة يوسف لأن الأمور أدل هنا على كمال تبرئته وطهارة ذيله لأنه إذا كان فى بيتها معدودا من الخدم وهى متمكنة منه غاية التمكن ولم تنل منه مارامته كان دليلا لكونه ثابت القدم فى التقوى ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَٰبَ﴾ البيت وكانت سبعة والتشديد للتكثير أو للمبالغة فى الإيثاق وفرشت الحرير ودعته ﴿وَقَالَتْ﴾ له ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أى هلم ـ بكسر الهاء لنافع وابن عامر وبفتحها للباقين وقرأ ابن كثير بضم التاء ويروى عن هشام والباقون بفتحها اسم فعل بمعنى أقبل أو تهيأت واللام للتبيين ولهشام هئت لك من هاء يهىء إذا تهيأ أى حسن هيئته وعلى هذا فاللام من صلته ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أعوذ بالله من ذلك ﴿إِنَّهُۥ﴾ أى الذى اشترانى أو إن الشأن ﴿رَبِّىٓ﴾ سيدى ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ مقامى فلا أخونه فى أهله وقيل الضمير لله : أى كيف أعصى مولاى المحسن المتفضل ﴿إِنَّهُۥ﴾ أى الشأن وهذا يقوى كون الأول للشان : للتوافق فى المرجع ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ﴾ الزناة فمن جازى الحسنة بالسيئة فهو ظالم ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ قصدت منه الجماع وعزمت ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ قصد ذلك ولم يعزم وكف هوى النفس عن مقتضى الميل على الفور كما هو شأن المتقين « ومن هم بسيئة ولم يفعلها كتبت له حسنة » إذ حديث النفس إن كان خطوره ليس اختياريا لايصدق عليه اسم العزم ولا يؤاخذ به فى جميع الملل فإن كان معزوما عليه لكن من غير تصميم ولا فعل فهذا ما تجاوز الله عن هذه الأمة خاصة لحديث «تجاوز الله عن أمتى ماحدثت به نفسها مالم تتكلم أو تعمل» وحملنا الحديث على عدم التصميم وإن عمه فى مفهومه جمعا بينه وبين قوله فى شأن المقتول كان حريصا على قتل صاحبه فهو منطوق فيه ولا يعارضه المفهوم ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ القاطع على حرمة الزنا وقبحه وسوء مغبته وجواب لولا لخالطها . وعن ابن عباس : مثل له يعقوب فضرب صدره فخرجت شهوته من أنامله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف منصوب المحل أى مثل ذلك التثبيت ثبتناه أو مرفوعه أى الأمر كذلك ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ﴾ الخيانة ﴿وَالْفَحْشَآءَ﴾ الزنا ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام لنافع والكوفيين أى المصطفين وبكسرها

للباقين أى فى الطاعة وهذه شهادة من الله فى خلوص يوسف من كل ذنب زادة ما يقول جهلة المفسرين فيه من أن الشيطان جمع بينه وبين المرأة حتى جلس منها مجلس الخاتن وغير ذلك مما لا يلتفت إليه . قال ابن العربى فى أحكامه : ولقد أخبر الله سبحانه عن حال يوسف من حين بلوغه بأنه آتاه حكما وعلما ، والحكم هو العمل بالعلم وكلام الله صادق وخبره صحيح ووصفه حق فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنا وتحريم خيانة السيد فى أهله فما تعرض لامرأة العزيز بل أدبر عنها وفر منها حكمة خص بها وعمل بما علمه الله وهذا يطمس وجوه الجهلة من الناس والغفلة من العلماء فى نسبتهم إلى الصديق مالا يليق بكل السراويل والهم بالفتك وحاشاه من ذلك فما لهؤلاء المفسرين لا يكادون يفقهون حديثا يقولون فعل والله يقول همّ . اه ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ ابتدراه يوسف للفرار وهى لترده إليها حذف الجار لتضمين الفعل معنى الابتدار فأمسكت قميصه وجذبته إليها ﴿ وَقَدَّتْ ﴾ شقت طولا ﴿ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ من وراءه لشدة الجذب فتمزق القميص من عند طوقه إلى أسفله ﴿ وَأَلْفَيَا ﴾ صادفا ﴿ سَيِّدَهَا ﴾ زوجها ﴿ لَدَى الْبَابِ ﴾ لأنه لما هرب يوسف إلى الأبواب انفتحت فوجدا زوجها على الباب جالسا على عادة الأكابر وسمى سيدها للملكه بضعها فنزهت نفسها ثم ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ زنا ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم بأن يضرب بالسياط إيهاما بأنها فرت منه تبرئة لساحتها عند زوجها وإغراء به انتقاما منه و « ما » نافية أو استفهامية بمعنى : أى شىء جزاؤه إلا السجن . قاله البيضاوى وغيره ، وفى لباب التأويل : وإنما بدأت بذكر السجن على العذاب لأن المحب لا يشتهى إيلام المحبوب وإنما أرادت أن يسجن ويمنع التصرف عندها يوما أو يومين ولم ترد السجن الطويل وهذه لطيفة فافهمها . اه ﴿ قَالَ ﴾ يوسف متبرئا عما لطخته به من وصمة الخيانة ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ طلبت الفاحشة منى فأبيت ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ ابن عمها روى أنه كان فى المهد وكان مع زوجها عند الباب فقال ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ ﴾ قدام ﴿ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ لأنه يدل على أنها قدته بالدفع عن نفسها ﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ﴾ خلف ﴿ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ لأنه يدل على أنه فر منها وعلى أنها تبعته فاجتذبت ثوبه فقدته وقدم ما يدل على صدقها لأنها كانت مدعية تقدم حجتها والشرطية محكية على إرادة القول أو على أن فعل الشهادة من القول وتسميتها شهادة لأنها أدت مرادها ﴿ فَلَمَّا رَأَى ﴾ زوجها ﴿ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ : إِنَّهُ ﴾ أى قولك : « ما جزاء ... » إلى آخره ، أو إن هذا الأمر ﴿ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ حيلكن والخطاب لها ولأمثالها ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ ﴾ أيها النساء ﴿ عَظِيمٌ ﴾ لدقة مسلكه فهن ألطف كيدا وأشد تأثيرا فى النفس لهن من الحيل فى إتمام مرادهن ما لا يقدر عليه الرجال ، وفى الصحيح : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » ، وعن على : « لا آمن على نفسى أن أبيت ليلة مع عجوز » . ثم قال زوجها أو الشاهد ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ الأمر ولا تذكره لئلا يشيع ، واجعله

نسيا منسيا ﴿ وَاسْتَغْفِرِي ﴾ يا زليخا ﴿ لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ ﴾ القوم ﴿ الْخَاطِئِينَ ﴾ الآثمين من خطئ بالكسر أذنب متعمدا والتذكير للتغليب مبالغة لأن صفة الرجال أكمل واشتهر الخبر وشاع منها ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ ﴾ اسم جمع امرأة وضم نونه لغة ﴿ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ ظرف لقال : أشعن الحكاية فى مصر ،أوصفة نسوة وكن خمسا : زوجة الحاجب والساقى والخباز والسجان وصاحب الدواب ﴿ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ تريد مواقعة عبدها إياها فلن ذلك تقبيحا لشأنها ولذلك أضافوها إلى بعلها ليتضح الإنكار . والعزيز فى لسان العرب : الملك ، وفى مصر : هو الوزير . والفتى لغة : هو الشاب ، وفى العرف : هو العبد، وفى الحديث : « لا يقل أحدكم عبدى أو أمتى ، كلكم عباد الله وإماؤه ، وليقل فتاى وفتاتى وغلامى وجاريتى ، ولا يقل العبد ربى ولا مولاى فإن مولاكم الله وليقل سيدى» . رواه مسلم ، قال القاضى عياض فى الإكمال شرح مسلم : بين فى الحديث العلة فى ذلك من اشتراك اللفظ بين المخلوق والخالق والربوبية لله حقيقة فيجب للعبد ألا يسامح بتسمية سيده بذلك وندائه بذلك بحال ، وأصل الربوبية الملك وكل من ملك شيئاً فهو ربه ، والربوبية أيضا القيام على الشىء لكن لا مالك ولا رب حقيقة إلا الله . فإن قيل : ما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى عن يوسف « اذكرنى عند ربك » وارجع إلى ربك « إنه ربى أحسن مثواى » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « أن تلد الأمة ربتها » فاعلم أن المنهى من ذلك أن يتخذ عادة لا يذكر باسم سواه حتى يفشو ويستعمل استعمال مثله فى الخالق وربما أدخل اللبس على الضعفاء ويقع فى نفس المدعو به كبر وتعاظم وأما ما ذكر عن يوسف عليه السلام فيحتمل أنه كان استعمالهم فى ذلك الوقت فى حق المملوك والنهى إنما جاء فى شرعنا والفرق بين الرب والسيد أن لفظ السيد غير مستعمل فى حق الله استعمال الرب وليس فى قول العبد « سيدى » إشكال إذ قد يستعمله غير العبد وليس فيه ما يدخل لبسا ولا كبرا ولا تشبيها بالخالق كما فى لفظ الرب إلى أن قال : وفى الحديث إرشاد عنه صلى الله عليه وسلم لأمته أن تعرف مواقع الألفاظ المشتركة بالشىء المكروه والتجنب عنها وترك المبالغة فى الأوصاف واستعمال ألفاظ التواضع والعبودية وترك المبالغة فى الأوصاف وألفاظ التطاول والتجبرية والتعظيم والكبر . اه ملخصا وإنما ذكرت هذا التنبيه لبعض أهل الزمان فى التساهل بنداتهم بالملك ونحوه من أسماء التكبر مع جعل ذلك عادة حتى أن من ناداهم بأسمائهم فكأنه ازدراهم والله الموفق ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ تمييزا أى دخل حبه شغاف قلبها أى غلافه ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ ﴾ خطأ عن الرشد والصواب لأنها امرأة ملك فكيف رضيت العشق بغلامه ﴿ مُبِينٍ ﴾ بيّن لحبها إياه ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ غيبتهن لها سمى مقالتهن مكرا على التشبيه لأن الاغتياب يكون خفية كما يكون المكر والخديعة كذلك وقيل لأنها كانت أسرت إليهن ذلك واستكتمتهن إياه فأفشينه وقيل لأنها علمت أنهن لم يقلن ذلك إلا لكونهن مفتونات بحبه فأردن بذلك انقطاعها ليخلو لهن وجه يوسف لكن السياق يرد هذا ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ تدعوهن إلى الاجتماع عندها قيل دعت

أربعين امرأة فهن الخمس المذكورات ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ بتشديد الفوقية وبعد الكاف همزة للسبعة اسم مفعول ما يتكأ عليه من النمارق والطنافس لأجل شراب أو طعام أو حديث ، وقيل متكأ مجلس طعام لأنهم يتكئون إذا جلسوا للتناول ترفهاً ، وقرئ «متكا» بضم الميم وسكون الفوقية وتنوين الكاف من غير همز وهو الأترج أو كل شيء يقطع بالسكين كالأترج وغيره من الفواكه وتفسيره فى قراءة الجمهور بالأترج كما فى التكلة خطأ . قال أبو عبيدة : زعم قوم أن المتكأ هو الأترج وهذا النقل باطل فى اللغة قال القسطلانى : قد علم مما مر أن المتك المخفف بمعنى الأترج والمشدد هو ما يتكأ عليه فلا تعارض بين النقلين . اه . والتوشيح مثل ذلك . والله أعلم ﴿ وَءَاتَتْ ﴾ أعطت ﴿ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ قصدت بذلك افتضاحهن لأنها تعلم أن جمال يوسف إذا ظهر سلب عقولهن فيقطعن أيديهن ﴿ وَقَالَتِ ﴾ ليوسف ﴿ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ وكان يخاف مخالفتها فخرج عليهن ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أعظمنه لفائق جماله وكان يُرى تلألؤ وجهه على الجدران . قال الفخر : لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيما الرسالة وإزار خضوع الأخيار وهيبة الملائكة بعدم الالتفات إلى المنكوح والمطعوم فوقع الرعب فى قلوبهن . اه ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بالسكاكين ولم يشعرن بالألم لشغل قلبهن بيوسف قال قتادة : أبن أيديهن حتى ألقينها ، والأصح أنه كان قطعاً من غير إبانة . وقال وهب : مات جماعة منهن ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيهاً لله أو معاذ الله كلمة للبراءة والتنزيه . قيل : حرف جر استعمل مصدراً . قال البيضاوى : أى تنزيهاً لله من صفات العجز تعجباً من قدرة الله على خلق مثله ، وأصله حاشا بالألف كما قرأه أبو عمرو فى الدرج لحذفت ألفه الأخيرة تخفيفاً وهو حرف يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فوضع موضع التنزيه واللام للبيان كما فى قولك سقياً لك ، وقيل فعل من الحشا الذى هو الناحية فاعله ضمير يوسف ، أى صار فى ناحية الله عما يتوهم فيه ﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ لأن هذا الجمال غير معهود من البشر لما حواه من الحسن الذى لا يكون عادة فى النسمة البشرية ، وفى الصحيح أنه أعطى شطر الحسن ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ على الله لأنه قد ركز فى النفوس أن لا شيء أحسن من الملك ولأن الملك لما كان مطهراً من الشهوات وصفنه به ﴿ قَالَتْ ﴾ امرأة العزيز لما رأت ما حل بهن ﴿ فَذَٰلِكُنَّ ﴾ أى فهذا هو العبد ﴿ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ﴾ فى مراودته بيان لعذرها ، وأشارت بما وضع للبعيد رفعاً لشأنه وإعلاماً ببعد مقامه عن التصور، ثم صرحت بما فعلت حين عرفت أنهن يعذرنها فقالت ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ امتنع طلباً للعصمة ، والاستعصام المبالغة فى التحفظ ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ الأذلاء وهو من صغر بالكسر يصغر صغراً وصغاراً فهو صاغر ، وأما الصغير فهو من صغُر بالضم صغراً : قاله البيضاوى وغيره ، ولكن فى القاموس : الصغر كعنب ، والصغارة بالفتح خلاف العظم أو الأولى فى الجرم ، والثانية فى القدر ، صغر ككرم وفرح فهو صغير وصغار وصغران بضمها ،

وما صغرنى إلا سنة كنصر ، أى : ما صغر عنى . والصاغر الراضى بالذل ، وقد صغر ككرم صغرا كعنب وصغاراً وصغارة بفتحهما ؛ وصغراً وصغرانا بضمهما . اه . وفيه مخالفة لما قالوا . والله أعلم . فقالت النسوة ليوسف : أطع مولاتك ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ نظراً إلى العاقبة وإسناد الدعوة إليهن جميعاً لأنهن زين له مطاوعتها أو دعونه إلى أنفسهن ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ خداعهن ﴿ أَصْبُ ﴾ أمل ﴿ إِلَيْهِنَّ ﴾ من الصبوة وفى المثل « لكل جواد كبوة ، ولكل حليم صبوة ، ولكل صارم نبوة » ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ عظمة الله لأن من عرف الله لا يعصيه ، والقصد بهذا : الدعاء فلذا قال تعالى ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ دعاءه وهو الدخول فى السجن لنيل النجاة من كيدهن ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ بالعصمة : آثر مشقة السجن على اللذة المتضمنة للعصيان ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لدعاء الملتجئين إليه ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأحوالهم وما يصلحهم ﴿ ثُمَّ بَدَا ﴾ ظهر ﴿ لَهُمْ ﴾ للعزيز ومن فى داره من الخدم وامرأته حين قالت امرأته : قد فضحنى هذا العبد العبرانى عند الناس ، لأنه يخرج إليهم ويخبرهم بأنى قد راودته عن نفسه ويصف الأمر بحسب اختياره وأنا محجوبة ، فإما أن تأذن لى فأخرج وأعتذر إلى الناس وإما أن تحبسه ، فبدا لهم أن يسجنوه ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ ﴾ الدالة على براءة يوسف من قد القميص وكلام الطفل واستعصامه عن النساء اللاتى قطعن أيديهن ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ جملة دخلت عليها لام القسم تفسر فاعل « بدا » ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ إلى وقت ينقطع فيه كلام الناس : خدعت المرأة زوجها بحمله على سجنه زماناً لعله يختار رضاها ويترك اللجاج وليحسب الناس أنه المجرم ، فسجن ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ غلامان للملك أحدهما صاحب شرابه والآخر صاحب طعامه لاتهامهما بأنهما سماه ، وذلك أن أشراف مصر أرادوا قتل الملك فرشوا الغلامين بمال عظيم على أن يسماه فأجابا ، ثم إن الساقى ندم ورجع وقبل الخباز الرشوة وسم الطعام وأحضره ، فقال الساقى للملك : لا تأكله فهو مسموم ، وقال الخباز : لا تشرب شرابه فهو مسموم . فقال للساقى : اشرب ما أتيت به فشربه ولم يضره ، وقال للخباز : كل طعامك فأبى ، فأطعم دابة فماتت فأمر بحبسهما فاتفق مع حبس يوسف فجعل يوسف ينشر علمه ويأمر وينهى ويعبر الرؤيا فرآهما مهمومين فسألهما ، فقالا : رأينا رؤيا قد غمتنا . فقال قصا علىّ ما رأيتما ، أو لم يريا شيئاً بل قالا لنختبرنه ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا ﴾ وهو الساقى ﴿ إِنِّي أَرَانِي ﴾ فى المنام ، وهو حكاية الماضى بالمستقبل ﴿ أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾ أى عنباً إطلاق للشىء على اسم ما يئول إليه ، أى رأيت كأنى أخذت من البستان ثلاث عناقيد فجئتها فعصرتها فى كأس الملك أسقى الملك ﴿ وَقَالَ الْآخَرُ ﴾ صاحب الطعام ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ أى أحمل ثلاث سلال فيها خبز وسباع الطير تنهش منه ﴿ نَبِّئْنَا ﴾ خبرنا ﴿ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ تعبير ما رأينا ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تأويل الرؤيا . كان أهل السجن يعرضون الرؤيا عليه فيحسن تأويلها . أو من المحسنين إلى أهل السجن وفى جميع أفعالك فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا وهذا الثانى أولى

لأنه كان إذا مرض أحد من أهل السجن قام عليه وسعى فى أمره ، وإذا ضاق على أحد وسع له ، وكان مع هذا مجتهد فى العبادة يصوم النهار ويقوم الليل كله للصلاة ، ورأى قوماً اشتد بلاؤهم وانقطع رجاؤهم فى الخروج فقال لهم : أبشروا واصبروا فإن لهذا آخراً وفيه الثواب . فقالوا : بارك الله فيك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت ؟ فقال « أنا يوسف بن يعقوب بن إسحٰق بن إبراهيم » فعلموا أنه كريم ابن كرماء فقال صاحب السجن : لو استطعت لخليت سبيلك ولكن اختر أى بيوت السجن شئت ، ثم قدم يوسف على جواب سؤال الفتيين إظهار المعجزة ، والدعوة إلى التوحيد ، لأن ذلك أهم ، وليعلما أن درجته فى العلم أعظم مما اعتقدا فيه لأن إخبار المغيبات على سبيل اليقين أعظم من تعبير الرؤيا المبنى عندهم على الظن ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ ﴾ فى منامكما تريان أنكما ﴿ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ فى اليقظة بقدره ولونه ووقته ﴿ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ قبل أن يصل إليكما ، فيكون كتفسير المشكل ، وقيل : المراد إخبارهما بغيوب لا تعلق لها بالرؤيا بأن يعلمهما ما يحمل إليهما من الطعام كل وقت ويصف لهما ذلك ويقع الأمر على وفق وصفه ، وإنما ذكر هذا القدر من الثناء على نفسه ليتوصل منه إلى الدعوة إلى التوحيد مع أنه يناسب تأويل الرؤيا لأنه إخبار بالغيب ، وهذه طريقة الأخيار من الأنبياء والعلماء يقتصون الإرشاد والهداية بين يدى جواب الفتيا لينتبه السائل على أن الأولى به ما ذكر له لا ما يسأل عنه ، وفى حكاية الله ذلك إشارة إلى أن العالم إذا لم تعلم منزلته فى العلم يصف نفسه بما هو عليه فى نفس الأمر لئلا يضيع علمه لا لتزكية النفس المنهى عنه ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ﴾ وحياً وإلهاماً كأنهما قالا له من أين لك هذا العلم وفيما تقدم حث على إيمانهما ولذا قواه بقوله ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ ﴾ دين ﴿ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ ﴾ تأكيد ﴿ كَافِرُونَ ﴾ دليل على أن إخباره بالمغيبات تعليم من الله بالوحى لا بالكهانة والتنجيم الموجودين فى النفوس الخبيثة ، ومعنى الترك عدم التعرض له ، وليس من شرطه أن يكون قد دخل فيه ثم رجع عنه ، وذكره ليبين أنه وإن كان عند العزيز ، وهو كافر وجميع من معه كذلك : لم يكن على ملتهم بل كان على التوحيد والإيمان الصحيح ثم وصف نسبه الطاهر بعد ذكر حسبه تقوية لدعوة التوحيد ليثق السامع بخبره فقال ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ وهؤلاء مشهورون بالنبوة والرسالة ولذا بين نسبه منهم ليطيعا أمره ﴿ مَا كَانَ ﴾ ما صح ﴿ لَنَا ﴾ معشر الأنبياء ﴿ أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لعصمتنا ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ وهذا حث على إرشادهما أيضاً ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ وهم الكفار ﴿ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ الله فيشركون ، ثم صرح بدعائهما إلى الإيمان فقال ﴿ يَا صَاحِبَيِ ﴾ يا ساكنى ﴿ السِّجْنِ ﴾ أو يا صاحبىّ فيه فأضافهما إلى السجن على الاتساع كقولهم : يا سارق الليل ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ متعددون ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ كل شىء فهو تحت حكمه وسلطانه ، خير : استفهام تقرير فهو مثل ضربه لهم فى عبادة الله وعبادة الأصنام وكانوا يعبدونها ، ومعنى

« متفرقون » شتى من ذهب وفضة وصفر وحديد وخشب وحجارة وغير ذلك ، وصغير وكبير ومتوسط متباينون فى الصفة بلا نفع ولا ضر أى أأنتم أعظم صفة فى استحقاق الإلهية أم الله الواحد القهار الذى لا مثل له ولا شبيه ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ خطاب لهما ولمن على دينهما من أهل مصر ﴿ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ أى سميتم بها أصناما سميتموها آلهة وأربابا وهى حجارة خالية عن المعنى كما إذا سمى الحجر ذهبا فلا حاصل له إلا ذكر الاسم ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ حجة وبرهان تدل على تحقيق مسمياتها فيها ﴿ إِنِ ﴾ ما ﴿ الْحُكْمُ ﴾ فى أمر العبادة ﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ بيان لما حكم به ﴿ ذَلِكَ ﴾ التوحيد ﴿ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ المستقيم ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ وهم الكفار ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ مايصيرون إليه من العذاب فيشركون ، ولما فرغ يوسف عليه السلام من الدعاء إلى الله رجع إلى تعبير رؤياهما فقال ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا ﴾ أى الساقى فيخرج بعد ثلاث ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُ ﴾ سيده ﴿ خَمْرًا ﴾ على عادته : هذا تأويل رؤياه والعناقيد الثلاثة هى الأيام الثلاثة التى يبقى فيها فى السجن ﴿ وَأَمَّا الْآخَرُ ﴾ وهو الخباز فيخرج بعد ثلاث ﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾ هذا تأويل رؤياه فالسلال الثلاث هى القبالى الثلاث فقال الخباز ما رأيت شيئا وإنما قلته امتحانا فقال ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ عنه أى ما قلته كائن لا محالة صدقتما أم كذبتما وهذا ما علمنى ربى فى عاقبة أمركما ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ ﴾ أيقن يوسف ﴿ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ﴾ وهو الساقى ﴿ اذْكُرْنِي ﴾ أى اذكر حالى ﴿ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ سيدك الملك كى يخلصنى قل له إن فى السجن غلاما محبوسا ظلما ، فخرج ﴿ فَأَنْسَاهُ ﴾ أى الساقى ﴿ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ ﴾ يوسف عند ﴿ رَبِّهِ ﴾ أو أنسى الشيطان يوسف ذكر الله فى ذلك الوقت حتى استعان بغيره وإن جاز ذلك فلا يليق لمقامه ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ سبعا أو اثنى عشر والأول أشهر والثانى باعتبار أنه لبث قبل هذه الكلمة خمس سنين فالجملة اثنا عشر ، روى أنه لما قال الكلمة قال له جبريل يقول لك ربك أما تستحى منى إذ استغثت بالآدميين فوعزتى لأطيلن حبسك فى السجن بضع سنين ، قال يوسف وهو فى ذلك عنى راض ، قال نعم ، قال إذا لا أبالى . ولما أراد الله إخراجه من السجن رأى ملك مصر فى المنام سبع بقرات سمان قد خرجن من البحر ثم خرج عقبهن سبع عجاف فابتلعن السمان ورأى سبع سنبلات خضر وسبعا أخر يابسات قد التوت على الخضر حتى علون عليهن ولم يبق من خضرتها شىء فجمع السحرة والكهان والمعبرين فسألهم عن الرؤيا كما قال تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ الريان بن الوليد ﴿ إِنِّي أَرَى ﴾ أى رأيت ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ ﴾ يبتلعهن ﴿ سَبْعٌ ﴾ من البقر ﴿ عِجَافٌ ﴾ جمع عجفاء ، وإنما جعل السمان صفة المميز دون العدد للدلالة على أن السمن هو المقصود والوصف مكمل ، وحذف المميز فى سبع عجاف للعلم به ، وجعل الوصف للعدد للدلالة على أن العجاف سبع فقط وأن السمان لاتنحصر فى السبع ، هذا طبق الواقع لقلة السنة وكثرة الرخاء وجمع عجفاء على عجاف حملا على سمان وإلا فقياسه « عجف »

﴿وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ انعقد حبها ﴿وَأُخَرَ﴾ أى سبع سنبلات ﴿يَابِسَاتٍ﴾ أى أدركت فدالتوت على الخضر وعلت عليها وعلم كون اليابسات سبعاً بالسياق وحذف لتكرره كما حذف البقرات من العجاف ﴿يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ الأشراف، ناداهم لزيادة معرفتهم والوثوق بتأويلهم ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ عبروها، وآثر لفظ الإفتاء للإشكال ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ تحسنون عبارتها وهى الانتقال من الصور الخيالية إلى المعانى النفسانية التى هى مثالها، وخص التعبير بتفسير الرؤيا لأن المفسر عابر أى متجاوز من ظاهرها إلى باطنها ليستخرج معناها وهو أخص من التأويل لأنه يقال فيه وفى غيره : من عبرت النهر إذا جاوزته . قال البيضاوى : عبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيرا ، واللام فى «للرؤيا» لتقوية العامل ﴿قَالُوا﴾ هذه ﴿أَضْغَاثُ﴾ أخلاط ﴿أَحْلَامٍ﴾ جمع ضغث : قبضة حشيش مختلط رطبه باليابس ، استعير للرؤيا التى لا يعرف وجهها ، والأحلام : جمع حلم : ما يراه النائم . قال الثعالبى : والضغث فى كلام العرب أقل من الحزمة وأكثر من القبضة من النبات والعشب ونحوه ، وربما كان من جنس واحد ، وربما كان من أخلاط النبات ... إلى أن قال : والأحلام والرؤيا مما أثبتته الشريعة ، قال عليه السلام : « الرؤيا من الله وهى المبشرة والحلم المحزن من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليتفل عن يساره ثلاث مرات وليقل : أعوذ بالله من شر ما رأيت فإنها لا تضره» وأما ما كان عن حديث النفس فلا يلتفت إليه . اه ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ أى الأحلام المذكورة لأنها نكرة أعيدت معرفة أى ليس لها تأويل ولما قالوا هذا ومع ذلك لم يطمئن قلب الملك لأنه رأى الناقص قد استولى على الكامل حتى غلبه ومنع الله الكهنة والمعبرين عن تأويل هذه الرؤيا ليكون سبباً لخلاص يوسف قال له ساقيه ما أخبره الله به بقوله ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ من الفتيين وهو الساقى ﴿وَادَّكَرَ﴾ أى تذكر حال يوسف أو قوله اذكرنى ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ حين والجملة اعتراض بين القول ومقوله وهو ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ﴾ والضمير للملك ومن معه من المعبرين أوله فقط والجمع للتعظيم ﴿بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف فأرسلوه فأتاه فقال يا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ الكثير الصدق لأنه جرب أحواله وعرف صدقه لاسيما فى تأويل رؤياه وصاحبه ﴿أَفْتِنَا فِي﴾ رؤيا ﴿سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ واستغنى عن حال السنبلات بما قص من حال البقرات كما تقدم ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ الملك ومن عنده أو إلى أهل البلد إذ قيل إن السجن لم يكن فيه ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها أو فضلك وإنما عبر بلعل فيهما لعدم الجزم بالرجوع فربما اخترم دونهم وعدم الجزم بعلمهم فضله لأنهم سجنوه بعد ما رأوا الآيات الدالة على طهارته فمن لم يؤمن بذلك لا يبعد منه أن يجهل قدره بعد تأويل الرؤيا ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ أى ازرعوا ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾ متتابعة أو على عادتكم المستمرة وانتصابه على الحال أى دائبين أو على المصدر بإضمار فعله دأب فى العمل لازمه واعتاده وقرأ حفص بفتح الهمزة وتعبير الأمر بلفظ الخبر أبلغ من صريحه وهذا تأويل السبع السمان ﴿فَمَا

حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ ﴾ اتركوه ﴿ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ لئلا يفسد بالسوس اعتراض منه قبل تمام الرؤيا نصحاهم كأنه قد وقع ما أخبر به فهو يأمرهم بما فيه صلاحهم ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ فادرسوه واتركوا الأكثر فى سنبله لأنه أبقى له مع طول الزمان للسنين المجدبة ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى السبع المخصبات ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ مجدبات صعاب على الناس وهى تأويل السبع العجاف ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ من الحب المزروع فى السنين المخصبات أى تأكلونه فيهن فأسند الأكل إليهن مجازا تطبيقا بين المعبر والمعبر به ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ تحفظون وتدخرون لبذور الزراعة ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ السبع المجدبات ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ يمطرون من الغيث أو يغاثون من القحط : من الغوث ، يقال : استغثته :طلبت منه الغوث أو الغيث ، فأغاثنى من الغوث وغاثنى من الغيث . قال ذو الرمة لبعض العرب : كيف كان المطر عندكم؟ فقال غثنا ما شئنا ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ بالغيبة الجمهور مايعصر كالعنب والزيتون لكثرة الثمار ، وقيل يحلبون الضروع وبالخطاب لحمزة والكسائى تغليبا للمستفتح على نمط تزرعون وتأكلون وهذه بشارة بشرهم بها بعد تأويل الرؤيا والظاهر أنه علم ذلك بالوحى لأن انتهاء الجدب بالخصب وإن علم عادة لكن لا على هذا الوجه الذى أخبر به من عمومه وبلوغه الغاية حتى يعصروا وفى تكرير «فيه» وتقديمه مايشد أعضاء كونه مستندا إلى الوحى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ لما جاءه الرسول وأخبره بتأويلها ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ بالذى عبرها لأشاهده وأشافهه ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ ليخرجه وأخبره أن الملك طلبه ﴿ قَالَ ﴾ قاصدا إظهار براءته للملك ولا يراه بعين النقص ولا يقدر الحاسد أن يتوسل إلى تقبيح أمره ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ ﴾ أن يسأل ﴿ مَا بَالُ ﴾ حال ﴿ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ هل علمن منى سوءا ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ أى الله كامل العلم بكيدهن وإن كان بعيد الغور حين قلن : أطع مولاتك وقيل ربى : سيدى وغرضه نفى التهم خوفا من كيد الحاسدين مرة أخرى ، وفى الحديث : « لايلدغ المؤمن من جحر مرتين » ولم يذكر امرأة العزيز وإن كانت هى السبب الكلى كرما منه ومراعاة للأدب ، فرجع الرسول فأخبر الملك بمعهن ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ شأنكن العظيم الذى يحق أن يخاطب صاحبه فيه بسؤاله عن سببه ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ جعل مراودتهن أمرا لا إنكار فيه يحتمل أراد به امرأة العزيز وخاطب به جميعهن للستر عليها أو جميعهن راوده ، يقال : راود فلان جاريته على نفسها وراودته هى على نفسه حاول كل منهم الوطء برفق وعدى فى يوسف بعن لأنه ضمن معنى خادع والمفاعلة من واحد كداويت المريض أو على بابها هى تطلب منه الفعل برفق وهو يطلب منها الترك برفق والمراد بقوله «ماخطبكن» أى هل وجدتن منه ميلا إليكن ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ تنزيها له وتعجبا من قدرته على خلق عفيف مثله ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ قط لافيما دعوناه إليه ولا فى غيره ، زادوه على الجواب ثناء عليه لكنهن وإن أبرأن يوسف نصا لم ينصوا على إقرار مراودتهن عليه وإن فهمت ولذا قامت امرأة العزيز وحضرتها

نية صدق وتحقيق فأقرت على نفسها وأبرأته كما قال تعالى ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أى وضح وظهر وكان قبلُ مستورا من حص شعره إذا استأصله حتى ظهرت بشرة رأسه وثبت واستقر من حصحص البعير : ألقى مباركه يستنيخ ، وقرئ على البناء للمفعول ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فى قوله « هى راودتنى عن نفسى » واعتراف الخصم بأن غريمه على الحق وهو على الباطل لا يكون أبلغ منه فى الثناء وأمنع للشغب ، ولم تكتف بتصديقه فى القصة المذكورة بل أدرجته فى زمرة المتصفين بالصدق على الدوام الملازمين له وهذا هو الملائم للكرام إن أكرموا لأنه لم يتعرض لذكرها بل أدرجها فى النساء ستراً وإكراما ثم ذكر غرضه فى طلب البراءة فقال ﴿ذَٰلِكَ﴾ التأنى والتثبيت ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾ فى أهله ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال من الفاعل أو المفعول : أى غائبا عنه ، أو غائباً عنى ، أو ظرف أى بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة ، ويحتمل أن يكون القائل امرأة العزيز : أى ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب حين سئلت بل ذكرت ما هو الواقع ، والأول أوجه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ لا يمضى بكيدهم إلى ما توسلوا إليه : أى لا يهديهم فأوقع الفعل على الكيد مبالغة وهو تتميم لما قبله ، بأنه لو كان خائنا لما خلص من هذه الورطة وتعريض لامرأة العزيز فى خيانتها زوجها بأن كيدها لم ينتج شيئا وتأكيد لأمانته ولذا لما خاف التزكية على نفسه تواضع لله فقال ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِى﴾ من الزلل ، أو لم يكن ما قلت تنزيهاً لها ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ الجنس ﴿لَأَمَّارَةٌ﴾ كثيرة الأمر ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ هذه جبلتها سواء كانت نفس نبىّ أو غيره ولهذا استثنى بقوله ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ إلا وقت رحمة ربى ، أو إلا نفسا رحمها ربى فعصمها أو « ما » بمعنى « من » ، وقيل : الاستثناء منقطع والمعنى : لكن رحمة ربى هى التى تصرف السوء ﴿إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ﴾ للذنوب بعد وقوعها ﴿رَّحِيمٌ﴾ برحم من يشاء بالعصمة ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أجعله خالصا لى لا يشاركنى فيه أحد لعظم أمانته وكمال ديانته ولأن عادة الملوك أن ينفردوا بالأشياء النفيسة لا يشاركهم فيها أحد من الناس ، فجاء الرسول إلى يوسف وقال : أجب الملك ، فقام وودع أهل السجن ودعا لهم فقال : « اللهم اعطف عليهم قلوب الأخيار ولا تعمّ عليهم الأخبار » ولذا كان أهل السجن أعلم الناس بالأخبار فى كل بلد ، ولما خرج كتب على باب السجن : « هذه منازل البلاء وقبور الأحياء » ، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن ولبس ثيابا حسانا ولما بلغ باب الملك قال : حسبى ربى من خلقه ولما دخل ووصل إلى الملك قال : اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بك من شره وشر غيره ثم سلم عليه بالعربية ، فقال له الملك : ما هذا اللسان ؟ فقال : لسان عمى إسماعيل ثم دعا له بالعبرانية فقال له : ما هذا اللسان أيضا ؟ قال : لسان آبائى ، ثم كلمه بما شاء ، وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فأجابه بجميعها ، فتعجب منه وعظمه ، ولذا قال تعالى ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ وشاهد منه الرشد والحكم ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو منزلة رفيعة متمكن

مما أردت لعفتك ونزاهتك ﴿أَمِينٌ﴾ حق أمين على أمرنا لما ظهر منك من البراءة وغيرها فماذا ترى أن نفعل ؟ قال : أجمع الطعام وأزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين الخصبة وادخر الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقى له ويكون القصب والسنبل علفا للدواب ويأتيك الخلق ليمتاروا من سائر النواحى فيجتمع عندك من الكنوز والأموال ما لم يجتمع لأحد من قبلك . فقال الملك : ومن لى بهذا : أى من يجمع لى هذا ويكفينى هذا العمل ؟ ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿اجْعَلْنِي﴾ ولنى ﴿عَلَىٰ﴾ أمر ﴿خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أرضك مصر وغرضه فى ذلك الإحسان على الناس ورعاية المحاويج والفقراء فى أيام الشدة ولا يخالف حديث « لا نولى على عملنا من أراده » لأن ذلك حيث لم يتعين ، ويوسف رأى ذلك فرضا متعينا عليه لحق الفقراء لا لحظ نفسه إذ لم يكن هنالك غيره ﴿إِنِّي حَفِيظٌ﴾ كامل الحفظ من الضياع لمن لا يستحقها ﴿عَلِيمٌ﴾ كامل العلم بمصالح الخير ومصارف الأموال ووجوه المكاسب وهذا أيضاً منه تعريف بنفسه عن لا يعرفه إذ الملك قد علم أنه عالم بمصالح الدين فنبهه يوسف على أنه مع ذلك عالم بمصالح الدنيا مع أن يوسف عليه السلام رسول من الله فكل ما يفعله كان بأمره فلا يقاس عليه غيره ممن لم يكن فى مقامه . قال ابن العربى : سؤاله الولاية من الكافر سؤال له على تركها لتنتقل إليه فإن الله لو شاء لمكنه منها بالقتال والغلبة ولكن عامل بعض أنبيائه بالسياسة . اه وقال فى غاية الأمانى : وعن مجاهد : أن الملك أسلم على يده ثم ولاموان كان كافرا فإنما تولى منه يوسف لمصالح الكافة كما تتولى القضاة العادلة من الأمراء الظلمة والملوك الفسقه . اه . وفى البيضاوى : فيه جواز التولى من يد الكافر إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحق وسياسة الخلق إلا بالاستظهار به . وعن مجاهد : أن الملك أسلم على يديه . اه وقيل : معنى « حفيظ عليم » كاتب حاسب ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كإنعامنا عليه بالخلاص من السجن ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ ينزل ﴿مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ بالياء ولابن كثير بالنون : أىّ مكان أراد أن يتخذه منزلا اتخذه من غير مانع ولا مزاحم وكان عاقبة التقوى أن أورثه الله أرضهم وديارهم بعد الضيق والحبس روى أن الملك توّجه وختمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا إجلالا وعزل العزيز وولاه مكانه ومات العزيز بعد فزوجه امرأته فوجدها عذراء وولدت له ولدين أفرائيم وميشا وفوض له الأمر فدانت له الرقاب وأقام العدل بمصر ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل نأجرهم إما فى الآخرة أو فى الدارين على حسب ما اقتضته الحكمة وجرت به المشيئة ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ المعاصى ، والمعنى : أن المؤمن المتقى يؤجر على حسناته فى الدنيا والآخرة لكن بين الأجرين بون بعيد ولما استوزر الملك يوسف اجتهد فى تكثير الزراعات وضبط الطعام حتى دخلت السنون المجدبة وعم القحط مصر والشام ونواحيها وتوجه إليه الناس بعد أن أهلكوا فى السنة الأولى كل ما أعدوه فى السنين المخصبة فباعهم الطعام فى السنة الثانية بالنقود حتى لم يبق لهم دينار ولا درهم ثم فى الثالثة بالحلى والجواهر

ثم فى الرابعة بالدواب والمواشى ثم فى الخامسة بالعبيد والجوارى ثم فى السادسة بالضياع والعقار ثم فى السابعة بأولادهم ورقابهم ، فصار أهل مصر جميعاً ملكه، فقال للملك: ماترى ؟ فقال الرأى رأيك. فأعتقهم ورد عليهم أموالهم . وكان قد أصاب كنعان ما أصاب سائر البلاد فأرسل يعقوب عليه السلام بنيه غير بنيامين إليه للميرة ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ إلا بنيامين ليمتاروا لما بلغهم أن عزيز مصر يعطى الطعام بثمنه ولا يعطى الوارد أكثر من حمل بعير ويسوى بين الناس ﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ ﴾ بأول نظرة نظر إليهم لعدم تغير زيهم ولأنه فارقهم وهم رجال وكانت همته مصروفة إلى أن يقف على حالهم وحال أبيه المحزون ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ لبعد عهدهم به وظنهم هلاكه وتغيره إذ فارقوه فى سن الحداثة وتغير زيه لأنه فى زى الملوك على سرير، ورأوه من بعيد بين يديه الحجاب ولم يملأوا العين منه هيبة منه مع أنه كان متلثماً أبداً استراجالاه فكلموه بالعبرانى فأجاب بالقبطى بترجمان له كالمنكر عليهم : ماأقدمكم بلادى ؟ قالوا : للميرة وبين يديه الصواع فأطنه بحصاة وقال صدقتم . ثم قال : من أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا نبى الله يعقوب فأطنه وقال : صدقتم ، ثم قال : أوله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا وهلك فى البرية أكله الذئب وكان أحبنا إليه وبقى شقيقه فاحتبسه ليتسلى به عنه وأتينا بميره فأطنه ، وقال كذبتم إن الصواع يقول : لم يأكله الذئب فتغير لهم وقال : لعلكم عيون ، فقالوا : معاذ الله ، قال: من يشهد لكم ؟ قالوا : إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد قال: فدعوا بعضكم رهناً وأتونى بأخيكم يأخذ رسالة من أبيكم لأعرف صدقكم كما قال تعالى ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أى وفى لهم الكيل وأعطاهم ما يحتاجون إليه فى سفرهم، عبّر عنه بالجهاز إعلاماً بفعله مع فرح لمن أحب ، إذ أصله ما تزف به المرأة إلى زوجها ﴿ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم ﴾ نكّره ليريهم أنه لا يعرفه ﴿ مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ أى بنيامين لأعلم صدقكم فيما قلتم ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ ﴾ من غير بخس ﴿ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ وكانوا عاينوا منه ذلك ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ لاتدخلوا بلادى وهو إما نهى أو نفى معطوف على الجزاء وهذا نهاية التخويف والترغيب ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ سنجتهد فى طلبه منه برفق وحيلة حتى ننتزعه منه ﴿ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾ ما أمرتنا به ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ﴾ غلمانه الكيالين ، وقرأ حمزة والكسائى وحفص « لفتيانه » ﴿ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ ﴾ التى أتوا بها ثمن الميرة وكانت دراهم أو نعالا وأدماً ﴿ فِى رِحَالِهِمْ ﴾ أوعيتهم تفضلا عليهم بذلك ليجدوا ما يرجعون به ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ ﴾ فيعلموا التفضل أو يعرفون حق ردها ﴿ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ ﴾ وفرغوا أوعيتهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لذلك الإحسان وشكره لأنهم كرماء ، وأما التعليل بأنهم لا يستحلون إمساكها فضعيف ليس عليه دليل لسرورهم بردها فى قولهم « هذه بضاعتنا ردت إلينا إذ علموا أن يوسف أكرمهم بذلك ، ولأن قصده الاستئلاف وصلة الرحم ، ولما أرادوا الخروج اقترعوا فيما بينهم فأصابت القرعة شمعون فخلفوه عند يوسف وذهبوا ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ بعد هذا إن لم ترسل معنا

أخانا بنيامين إليه ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ بالنون الجمهور والياء لحمزة والكسائى أى: الأخ ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ البتة أن يناله مكروه حتى نرده إليك ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ ﴾ يوسف ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ وقد فعلتم به ما فعلتم وقد قلتم فيه « وإنا له لحافظون » كما تقولون الآن فكيف يحصل الأمان بقولكم ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا ﴾ تمييز ، فأتوكل عليه وأفوض أمرى إليه . ولحمزة والكسائى وحفص « حافظاً » تمييز أو حال كقه درة فارساً ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فأرجو أن يمن بحفظه ولا يجمع علىّ مصيبتين ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ وكانوا قبل فتح المتاع أخبروه بأنه أكرمهم غاية الإكرام . وقرئ بكسر الراء المنتقل إليه من الدال المدغمة ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾ « ما » استفهامية ، أى أى شىء نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا ؟ أكرمنا وأحسن مثوانا وباع منا ورد الثمن علينا ، أو نافية أى لا نطلب وراء ذلك إحساناً ، أو ما نطلب بضاعة أخرى منك ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ وهى كافية لنا . وقرئ ما تبغى على الخطاب ، أى أىّ شىء نطلب بعد هذا من الإحسان أو من الدليل على صدقنا ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ نأتى بالميرة لهم وهى الطعام من غير البلد عطف على مقدر أى رددت إلينا فنستظهر بها ونمير أهلنا بالرجوع إلى الملك ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ عن المخاوف فى ذهابنا وإيابنا ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ لأخينا أى حمله باستصحاب أخينا ، لأن يوسف إنما حمل لهم عشرة أبعرة ولم يحمل الحادى عشر لغيبة صاحبه قاله فى الجواهر ﴿ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ سريع سهل على الملك لسخائه ، وكأن أباهم قال : من أين لكم العلم بأن الملك يسمح لكم بحمل بعير ؟ فقالوا : ذلك كيل يسير لا يضايقنا فيه لجوده وشدة عطفه على الغرباء الواردين من بعيد ، ويحتمل الإشارة إلى ما أتوا به من الطعام ، أى ذلك مكيل قليل لا يكفينا ولا بد من الرجوع ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ ﴾ إذ رأيت منكم ما رأيت ﴿ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا ﴾ عهداً ﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ بأن تحلفوا ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِ ﴾ جواب القسم ﴿ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أى تموتوا أو تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان به ، فأجابوه إلى ذلك . من أحيط به : هلك أو منع وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، أى لتأتنى به على كل حال إلا حال الإحاطة ، أو من أعم العلل ، أى لا تمتنعوا من الإتيان به لأمر إلا للإحاطة بكم على أن قوله « لتأتنى به » فى تأويل النفى كقولهم : أقسمت بالله إلا فعلت : أى ما أطلب إلا فعلك ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ عهدهم المؤكد باليمين ﴿ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ شهيد بمعنى أنه موكول إليه هذا العهد أو رقيب مطلع ، وأرسله معهم ﴿ وَقَالَ يَا بَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا ﴾ مصر ﴿ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾ لئلا تصيبكم العين لأنهم كانوا ذوى جمال وأبهة وقوة وقامة مشتهرين فى مصر بسماع أنهم أولاد الأنبياء بالكرامة عند الملك وغيره فخاف عليهم أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانوا ولم يوصهم بذلك أول مرة لأنهم كانوا مجهولين حينئذ أو كان الداعى إليه خوفه على بنيامين ، ولا خلاف أن العين حقّ . وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن العين حق » وعن عائشة : كان يوصى العائن فيتوضأ ثم يغتسل منه المعين أخرجه أبو داود . قال ابن العربى : وهذا العين معنى يحدث بقدرة الله على جرى العادة فى المعين إذا أعجبته نظرة العائن فتلفظ به إما يؤدى إلى العدواء أو إلى الفناء بحسب ما يقدر الله ، ولذا نهى العائن عن التلفظ بالإعجاب لأنه إن لم يتكلم لم يضر عادة ، وكذا إذا برك أو غسل أطرافه واغتسل به المعين . اه . وفى الحديث « اللهم إنى أعوذ بكلمات الله التامة من كل هامة وعين لامة » ثم رجع يعقوب عليه السلام إلى علمه وفوض أمره إلى الله بقوله ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ قدره عليكم مجتمعين أو متفرقين لأن المقدور كائن وإنما ذلك شفقة ودفع لوسواس الشيطان لو فعلت كذا ربما لم يقع ﴿ إِنِ ﴾ ما ﴿ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ به وثقت لا على غيره ، من الاستحفاظ بالأخوة والعهد والميثاق والتفرق فإن تلك الوسائل عادة لا تنافى التوكل ، كلبس النبى صلى الله عليه وسلم لأمتين يوم أحد ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ الكاملون فى الاتكال ، حث على ما آثره لنفسه ليقتدى به ، إذ العمل بالأسباب فى الظاهر مع خلو الباطن من التعلق بها لأجل التعلق بالله أجل من تركها للجمع بين الحكمة والتوحيد ، ولذا مدح الله يعقوب بذلك بقوله « وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وجمع بين حرفين فى عطف الجملة على الجملة لتقدم الصلة للاختصاص كأن الواو للعطف والفاء لإفادة السبب فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم ﴾ من أبواب متفرقة ﴿ مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ ﴾ قضاءه ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ إذ رجعوا إلى أبيهم بخبر أحزن من خبر يوسف ﴿ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ ﴾ من إرادة دفع العين عنهم شفقة ﴿ قَضَاهَا ﴾ ومثل هذا الفعل سد النبى صلى الله عليه وسلم كوة فى قبر بحجر وقال « إن هذا لا يغنى شيئاً ولكنه تطييب لنفس الحى » أثنى الله على يعقوب بما فعل بقوله ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ لتعليمنا إياه سر القدر وأنه لا يغنى عنه الحذر ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما علمه يعقوب من ذلك ، أو المشركون لا يعلمون إلهام الله لأوليائه ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ ﴾ ضم ﴿ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ فى الطعام والمنزل . إذ روى أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال : أصبتم فأضافهم على الموائد مثنى مثنى فبقى بنيامين وحيداً فبكى وقال : لو كان أخى يوسف لجلس معى على مائدتى . فقال يوسف : هذا يجلس معى على مائدتى ثم قال : لينزل كل اثنين بيتاً وهذا لا ثانى له فيكون معى فبات عنده فقال له : أتحب أن أكون أخاك ؟ قال : من يجد أخاً مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى حينئذ يوسف وقال : بل ولدنى يعقوب وراحيل ، وقام إليه وعانقه ﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ يوسف فجلا له الأمر وأمره بكتمانه ، فقال بنيامين إنى لا أفارقك . فقال يوسف . هذا لا يمكننى إلا أن أشهرك بأمر فظيع ، أنادى عليك بالسرقة ، قال : فافعل ما شئت ﴿ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا ﴾ أى إخوتنا ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ فينا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا ، أراد يوسف

أن يصفى قلب أخيه كما صفى قلبه فيصفح عن الإخوة ، ويحتمل أن الضمير للفتية أى : لاتحزن بما يعملون من الحيلة فى إبقائك لأنه تواطأ مع أخيه على أن يبقيه عنده ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ ﴾ هى صاع من ذهب مرصع بالجواهر يشرب بها ، جعلها يوسف مكيالا أيام القحط لئلا يقع التبديل بغيرها ويبخس الناس ﴿ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ بنيامين فارتحلوا راجعين إلى بلادهم فأمهلهم يوسف حتى وصلوا منزلا وقيل : حتى خرجوا من العمارة ثم أرسل خلفهم من يستوقفهم ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ ﴾ نادام مناد ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ ﴾ القافلة أو الإبل تحمل الميرة لا واحد لها من لفظها أو كل ما امتير عليه إبلاً كانت أو حميراً أو بغالا ﴿ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أطلق السرقة عليهم مجازاً لكون الصاع فى رحلهم بحسب الصورة ﴿ قَالُوا وَ ﴾ قد ﴿ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ ما الذى فقدتم ؟ والفقد غيبة الشىء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه ﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ﴾ صاع ﴿ الْمَلِكِ ﴾ وهى السقاية المذكورة ﴿ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ ﴾ أى من دل على سارقه ﴿ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ من الطعام جعلا له ﴿ وَأَنَا بِهِ ﴾ بالحمل ﴿ زَعِيمٌ ﴾ كفيل أؤديه على من رده ، وفيه دليل على جواز الجعالة والكفالة وضمان المجعل قبل تمام العمل . قال ابن العربى : قائل هذا الكلام نائب عن يوسف فشرط حمل البعير على يوسف لمن جاء بالصاع وتحمل هو به عن يوسف ، فصار فيه ثلاث فوائد : الأولى الجعالة ، والثانية الكفالة ، والآية دليل على جوازهما ، والثالثة الضمان . وعلماؤنا على جوازه ولو مع جهالة المضمون عنه والمضمون له أوكليهما وهو الصحيح ، والآية دليل نص فى جهالة المضمون له وحمل جهالة المضمون عنه عليه . اه . ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ ﴾ قسم فيه معنى التعجب ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءتهم لاشتهارهم بأفعال الخير والطاعة . دخلوا مصر وأفواه رواحلهم معكومة لئلا تتناول زرعاً فى مسيرهم ولأنهم ردوا البضاعة التى دسها الفتيان ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يوماً من الدهر ما سرقنا قط ﴿ قَالُوا ﴾ المؤذن وأصحابه ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ السارق ﴿ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ فى قولكم « ما سرقنا قط » ووجد فيكم ﴿ قَالُوا جَزَاؤُهُ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ ﴾ يسترق سنة فى شرع يعقوب ثم أكد بقوله ﴿ فَهُوَ ﴾ أى السارق ﴿ جَزَاؤُهُ ﴾ المسروق لا غير وهو تقرير للحكم وإلزام له ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الجزاء ﴿ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴾ بالسرقة ، فصرفوا إلى يوسف لتفتيش أوعيتهم ﴿ فَبَدَأَ ﴾ المؤذن أو يوسف ﴿ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ ففتشها ﴿ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ لئلا يتهم وقال لا حاجة إلى تفتيش حمل هذا . فقال إخوته : لا بد منه لتطييب نفس الملك ولا يبقى ريب ﴿ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ والضمير للسقاية أو الصواع لأنه يذكر ويؤنث وفى « ثم » دلالة على أنهم لبثوا زماناً بعد تفتيش الأحمال ولم يبادروا إلى وعائه لإبعاد الظنون عن ارتكاب الحيلة فى شأنه . روى أنهم قالوا لبنيامين : يا بنى راحيل لا يزال البلاء ينالنا من جهتكم . فقال : بل بنو راحيل ينالهم البلاء منكم ، ذهبتم بأخى فأهلكتموه ، ووضع هذا الصواع فى رحل واضع الدراهم فى رحالكم فأخذ بنيامين

ورد إلى يوسف قال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الكيد ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ علمناه الاحتيال فى أخذ أخيه ، استعير الكيد للتدبير لشبهه به صورة ﴿ مَا كَانَ ﴾ يوسف ﴿ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ ﴾ رقيقاً عن السرقة ﴿ فِى دِينِ الْمَلِكِ ﴾ حكم ملك مصر لأن جزاءه عنده الضرب وتغريم مثلى المسروق لا الاسترقاق ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أن يجعل ذلك حكم الملك فالاستثناء من أعم الأحوال ويجوز أن يكون منقطعا أى لكن أخذه بمشيئة الله بإلهامه سؤالهم وجوابهم بسنة أبيهم ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ بالإضافة للجمهور والتنوين للكوفيين : أى بالعلم كيوسف ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ ﴾ من المخلوقين ﴿ عَلِيمٌ ﴾ كامل العلم وهو الله تعالى إشارة إلى أن يوسف مع كونه راسخ القدم فى العلم لم يتوصل إلى تحصيل أخيه إلا بإعلام الله تعالى إياه بالوحى وقيل الكلام فى الخلق والمعنى على هذا : أن يوسف قد فاق إخوته وإن كانوا علماء ، والله أعلم . قال ابن عطاء الله فى التنوير : اعلم أن العلم حيثما تقرر فى القرآن والسنة فإنما المراد به العلم النافع الذى تقارنه الخشية . اه . وقال البجائى : إذا كملت للعبد ثلاث خصال تفجر العلم من قلبه وعلى لسانه وهى : الزهد والإخلاص والتقوى ، ولا تنال إلا بعد علاج القلب من الكبر والحسد والغضب والرياء والسمعة وحب المحمدة والجاه والشرف والطمع والحرص والمداهنة والحقد والعداوة فيتصف بالتواضع والإخلاص والصدق والحلم والورع والصبر والرضى والتوكل وقصر الأمل والخشية فيضىء القلب بنور إلهى فينالا الإيمان وتصح المعرفة ويتسع اليقين وتنجلى الأسرار وليس بين العبد والترقى عن سفل إلى علو إلا حب الدنيا . اه ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى يوسف لأن عمته أخت يعقوب كانت حاضنته فأراد يعقوب انتزاعه منها وكانت شديدة الحب له فاحتالت عليه بأن شدت عليه منطقة ورثتها من أبيها تحت ثيابه ثم أظهرت أن المنطقة سرقت ففتشوا الناس ووجدت تحت ثياب يوسف فصارت أحق به لأن جزاء السرقة هو السارق فى شرعهم كما تقدم : هذا هو قول الجمهور ، وقيل : أخذ صنما لجده أبى أمه فكسره ، وقيل : أخذ دجاجة فى البيت فأعطى السائل ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ والضمير للكلمة التى فى قوله ﴿ قَالَ ﴾ فى نفسه ﴿ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا ﴾ من يوسف وأخيه لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له وتسمية هذا سرقة مجاز ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ﴾ عالم ﴿ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ تذكرون فى أمرنا ، أى : لا سرقت أنا ولا أخى ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ فى السن وفى القدر يحبه أكثر منا ويتسلى به عن ولده الهالك ويحزنه فراقه استعطاف له عليه ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ بدلا منه ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إلينا فأتم إحسانك ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ نصب على المصدر حذف فعله وأضيف إلى المفعول أى نعوذ بالله من ﴿ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ﴾ لم يقل من سرق تحرزا من الكذب ﴿ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ ﴾ إن أخذنا غيره ومراده على الحقيقة ، إن الله أذن لى أخذمن وجدنا الصاع فى رحله لمصلحته ورضاه فلو أخذت غيره كنت ظالما ، لأن الله أمره بذلك ليزيد بلاء يعقوب فيضاعف له الأجر كما أخبر عنه خبر يوسف

فى طول المدة مع قرب المسافة ثم إن روبيل ـ وكان أشد الإخوة ـ غضب وكان إذا غضب خرج شعره من ثيابه وقال : « أيها الملك لتردنّ علينا أخانا أو لنحاربنك فأصيح صيحة لايبقى بمصر امرأة حامل إلا وضعت ولدها» فقام إليه يوسف وجذبه بتلابيبه فصرعه وقال : أنتم يامعشر العبرانيين تزعمون أنه لا أحد أشد منكم فلما رأوا ما نزل به يئسوا من تخليص أخيهم ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا ﴾ يئسوا ﴿ مِنْهُ ﴾ من يوسف أن يجيبهم إلى ما سألوه أو من أخيهم أن يرد عليهم ، وقرأ البزى « استايسوا » بألف موضع الياء وياء موضع الهمزة ﴿ خَلَصُوا ﴾ اعتزلوا وامتازوا عن الخلق ﴿ نَجِيًّا ﴾ متناجين مصدر ولذا لم يجمع ، وعن الأخفش أن الجمع أنجية ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ فى السن وهو « روبيل » أوفى الرأى وهو « يهوذا » أو شمعون ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا ﴾ عهدا وثيقا ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ فى أخيكم ﴿ وَمِنْ قَبْلُ ﴾ من قبل هذا ﴿ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ قصرتم فى شأنه و « ما » صلة أو مصدرية محلها النصب بالعطف على مفعول «تعلموا» وهو أنأباكم كأنه قيل : ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم الموثق وتفريطكم من قبل فى يوسف أو موصولة ، والمعنى : ومن قبل ما فرطتموه فى يوسف : أى : قدمتموه فى حقه من الخيانة ومحلها ماتقدم وقيل مصدرية محلها الرفع مبتدأ خبره «من قبل» ، والمعنى : وقع من قبل تفريطكم فيه . قال البيضاوى : وفيه نظر لأن قبل « إذا » كان خبرا أوصلة لاينقطع عن الإضافة حتى لاينقص ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ﴾ لن أفارق ﴿ الْأَرْضَ ﴾ أرض مصر ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ بالرجوع إليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بخلاص أخى ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ أعدلهم لايكون حكمه إلا بالحق فمن سواه يحتمل السهو والنسيان والغرض فى أحكامه ﴿ ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ ﴾ على ماشهدنا منه ظاهرا ، وقرئ « سُرِّق » أى نسب إلى السرقة . روى أن ابن سيرين : رأى يوسف فى منامه فقال له يوسف لم تقرأ يا ابن سيرين قوله تعالى « إن ابنك سرق » على بناء المفعول ، قال : لانه لم يكن سارقا ، فقال له يوسف : افتح فاك ، ففتحه فبزق من ريقه فى فم ابن سيرين فألهمه الله تأويل الرؤيا ببركة ذلك الريق ﴿ وَمَا شَهِدْنَا ﴾ عليه ﴿ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ تيقنا من مشاهدة الصواع فى رحله ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ ﴾ لما غاب عنا ﴿ حَافِظِينَ ﴾ لاندرى هل سرق أم دس الصواع فى رحله ، أو ما كنا عالمين حين أخذ الميثاق أنه سيسرق ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ هى مصر أى أرسل إلى أهلها فاسألهم ، والقرية مجتمع الناس المتوطنين كبيرة كانت أو صغيرة ﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وهم قوم كنعان يشهد كل من أهل مصر والعير بذلك ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى قولنا ، تذييل بما فيه معنى القسم ، فرجعوا إليه وقالوا ذلك ﴿ قَالَ ﴾ لم يسرق ابنى ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴾ زينت وسهلت لكم ﴿ أَمْرًا ﴾ ففعلتموه خيلت لكم أنه سرق وما سرق ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى أمرى ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ ﴾ يوسف وبنيامين وأخيهما الذى تخلف بمصر ﴿ جَمِيعًا ﴾ إذ علم أن رؤيا يوسف حق والبلاء إذا اشتد قوى الرجاء بسرعة كشفه ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بحالى وغيرها ﴿ الْحَكِيمُ ﴾

فيما يقضيه ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ تاركا خطابهم كراهة لما سمع منهم ملتجئاً إلى الله فيه ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَا﴾ بالألف بدل من ياء الإضافة أى: ياحزنى ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ والأسف أشد الحزن وبينه وبين يوسف شبه الاشتقاق وتأسف عليه دون أخيه لأن رزءه قاعدة المصائب، والحادث يهيج القديم من الأحزان، وكان متمم بن نويرة يبكي على أخيه مالك كلما رأى قبراً جديداً، وقال فى ذلك:

يقولُ أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَهُ • لقبرٍ ثوى بين اللوى والدكادكِ
فقلتُ له إنّ الأسى يبعثُ الأسى • فدعني فهذا كلُّه قبرُ مالكِ

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ محق سوادهما وبدل بياضاً من بكائه، لم ير شيئاً ست سنين لغلبة الدمع لا للعمى ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ عليه ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مغموم لا يظهر كربه لأحد، من كظم فاه إذا ستره، فعيل بمعنى المفعول والكظم محركا مخرج النفس أو بمعنى الفاعل من كظام الشيء اجترعه، ومنه كظام البعير جرته ردها إلى جوفه، وروى الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم: أن يعقوب عليه السلام حزن حزن سبعين ثكلى وأعطى أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله قط ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ لا ﴿تَفْتَأُ﴾ أى لا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ دنف الجسم مذابه مشرفاً على الهلاك متغير العقل للحزن وهو فى الأصل مصدر «حرض» ولذا يستوى فيه الواحد وغيره وفى هذه الألفاظ من البدائع ائتلاف الألفاظ بالمعانى والألفاظ بالألفاظ، ولما كان ذكر يوسف فى ذلك الوقت أغرب شيء أتى فى ذلك بأغرب ألفاظ القسم وهو التاء وأغرب ألفاظ الهلاك وهو الحرض، فتجاور اللفظ الغريب بالغريب للمعنى الغريب ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ الموتى ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي﴾ هو عظيم الحزن الذى لا يصبر عنه صاحبه حتى يبثه إلى الناس ﴿وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ لا إليكم ولا إلى غيركم، فخلونى وما أنا فيه، فبحصر بثه على الله عد من الصابرين، لأن دمع العين وحزن القلب لا يؤاخذ المرء به إذ لا يدخلان تحت التكليف، ولذا لما دمع عين النبي عليه السلام على ولده إبراهيم لما رآه يموت قال «إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا» وفى رواية «فهذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن رؤيا يوسف حق وهو حى أو ما لا تعلمون من عظيم رحمة الله وإجابته للمضطر إذا دعاه. وقال السدى: لما أخبره بنوه بسيرة ملك مصر وكمال حاله طمع أن يكون هو يوسف فعند ذلك قال ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اطلبوا خبرهما من الحس، حسه: طلب علمه بإحدى الحواس وغلب فى الخير والتجسس فى الشر ومنه الجاسوس ﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾ تقنطوا ﴿مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ فرجه ورحمته وأصله نسيم الريح ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ بالله وصفاته فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله فى شيء من الأحوال، ورواية البزى بألف بعدها ياء مفتوحة فى الكلمتين، فانطلقوا نحو مصر ليوسف ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا

يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ الجوع أو سوء الحال من جهات كثيرة ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ﴾ قطعة من المال المتجر فيه ﴿ مُزْجَاةٍ ﴾ مدفوعة يدفعها كل من رآها لرداءتها ، وكانت دراهم زيوفا أو صوفاً وأقطاً أو حبوب الصنوبر أو سويق المقل ﴿ فَأَوْفِ ﴾ أتم ﴿ لَنَا الْكَيْلَ ﴾ وإن كان الثمن رديئاً ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ بالمسامحة عن رداءة بضاعتنا أو بإطلاق أخينا ، ولم يطلبوا نفس الصدقة لأنها محرمة على الأنبياء قبل نبينا عند الجمهور لأنها أوساخ الناس ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ أحسن الجزاء ، ولم يقولوا يجزيك لأنهم لا يعلمون إسلامه ، والتصدق : التفضل مطلقاً وتخصيصه بالهبة لثواب الآخرة عرفي طارئ ، ولما سمع يوسف قولهم رق عليهم وأدركته الرحمة فرفع الحجاب بينه وبينهم ثم ﴿ قَالَ ﴾ لهم تذكيراً بما فعلوا ليثوبوا إيماء لهم بأن ذلك أهم من كشف الضر الذي بهم ﴿ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ ﴾ من الضرب والبيع وغير ذلك ﴿ وَأَخِيهِ ﴾ من هضمكم له بعد فراق أخيه ﴿ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ما يئول إليه أمر يوسف ، وقيل إنما كشف الأمر يوسف لأجل كتاب وصل إليه : من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله إذا وصل إليك كتابي فرد عليّ ابني وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من أولادك . فلما قرأ يوسف الكتاب بادر إلى كشف الأمر ﴿ قَالُوا ﴾ بعد أن عرفوه لما ظهر لهم من شمائله مع رفعه التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها ثم تبسم فعرفوه بثناياه ﴿ أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ استفهام تقرير فيه تعجب وتخييل كأنهم لم يصدقوا بأنه هو ، مع كونهم موقنين بذلك ، ولذا أكدوه بإنّ واللام ، وقراءة ابن كثير بحذف همزة الاستفهام تؤيد أن الاستفهام ليس على أصله ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ صرح باسمه وأضاف إليه أخاه ، ولم يكتف « بنعم » لإرادة نفي الريب والشبهة ﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ بالسلامة والاجتماع والكرامة ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ ﴾ الله في الأوامر والنواهي كأنه يراه ﴿ وَيَصْبِرْ ﴾ على ما يناله من البلايا والأذى ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر ليدل على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر لأن الإحسان أرفع المقامات ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ ﴾ فضلك ﴿ عَلَيْنَا ﴾ بحسن الصورة والسيرة ومحاسن الأخلاق والملك وأحوجنا إليك ﴿ وَإِنْ ﴾ مخففة أي إنا ﴿ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ آثمين في أمرك ، من خطئ - بالكسر - إذا تعمد الذنب ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ لا عتب ولا توبيخ ، من الترب وهو الشحم الذي يغشى الكرش والتفعيل للإزالة أي إزالة الترب ، فاستعير للتقريع الذي يذهب ماء الوجه و « اليوم » متعلق به أي : لا أثربكم اليوم الذي هو مظنة التثريب فكيف بسائر الأيام أو بقوله ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ لأنكم اعترفتم وتبتم ، وإنه لغفار لمن تاب ، وهذا تبشير لهم بعد نفي التثريب عنهم ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ يغفر الذنوب جميعاً . ولما فتح صلى الله عليه وسلم مكة قال لقريش : ماترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وقد قدرت فقال أقول كما قال أخي يوسف : لا تثريب عليكم اليوم . ومن كرم يوسف أنه لما عرّف نفسه إخوته

كان يدعوهم إلى الطعام بكرة وعشياً فأرسلوا إليه نحن نستحي منك لما فرط منا . فقال : إن أهل مصر كانوا يستنكرون عليّ ما أنا فيه ويقولون عبد ثمنه عشرون ديناراً فلما عرفوا أني أخوكم وأنني من نسل إبراهيم عظمت في أعينهم ، ثم سألهم عن حال أبيه فقالوا : ذهب بصره لكثرة البكاء عليك ، فقال ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا ﴾ وهو قميص إبراهيم الذي لبسه حين ألقي في النار كان في عنق يوسف في الجب تميمة وهو من الجنة ، أمره جبريل بإرساله وقال إن فيه ريحها ولا يلقى على مبتلى إلا عوفي . قال ابن عطية : وهذا يحتاج إلى سند والظاهر أنه قميص يوسف كسائر القمص وهو وحي من الله ﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ ﴾ بصرٌ ﴿ بَصِيرًا ﴾ فالإتيان مجاز عن الصيرورة ، أو يأت إليّ بصيراً معافى ﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ النساء والأولاد والموالي ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ خرجت من عريش مصر أي من عمرانها ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ لمن حضره من أحفاده وسائر أهله ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ أوصلته إليه الصبا بإذنه تعالى من مسيرة ثلاثة أيام أو أكثر ﴿ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ تنسبوني إلى الفند وهو نقصان عقل يحدث من هرم ، ولذا لا يقال عجوز مفندة لأن نقصان عقلها ذاتيّ ، وجواب « لولا » محذوف ، أي : لصدقتموني ، وأصل الفند الكذب ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ ﴾ خطئك ﴿ الْقَدِيمِ ﴾ أي ذهابك عن الصواب قدما بالإفراط في محبة يوسف ورجاء لقائه على بعد العهد ، وهذا هو التفنيد الذي عانه ﴿ فَلَمَّا أَنْ ﴾ زائدة ﴿ جَاءَ الْبَشِيرُ ﴾ يهوذا بالقميص بين يدي العير حافياً حاسراً ، وكان حامل قميص الدم ، فأحب أن يفرحه كما أحزنه ﴿ أَلْقَاهُ ﴾ طرح القميص ﴿ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ ﴾ رجع ﴿ بَصِيرًا ﴾ قوياً مسروراً فقال للبشير : على أي دين تركت يوسف ؟ قال : على الإسلام . قال : الحمد لله الآن كملت النعمة وقال : تركته ملك مصر قال : ما أصنع بالملك ﴿ قَالَ ﴾ لمن يفنده ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من حياة يوسف وإني أجد ريحه وأن الله يجمع بيننا ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ وحق على الأنبياء إذا جاءهم تائب أن يطلبوا له المغفرة ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أخر ذلك إلى السحر على قول الجمهور ليكون أقرب إلى الإجابة ، وقيل إلى الجمعة تحرياً لوقت الإجابة ، أو إلى أن يستحل لهم من يوسف ويعلم أنه عفا عنهم لأن عفو المظلوم شرط المغفرة . روى أنه دعا مع يوسف وجميع بنيه فقال له جبريل : قد أجاب الله دعوتك في ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة . قال البيضاوي : إن صح فدليل على نبوتهم وأن ما صدر عنهم كان قبل النبوة . اهـ . روى أن يوسف وجه مع إخوته إلى أبيه رواحل وأموالا ليتجهزوا إليه فتوجهوا إلى مصر ، وخرج يوسف والأكابر لتلقيهم في أربعة آلاف من الجند ، وكان مع يعقوب اثنان وسبعون من أولاده يومئذ وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضع عشر رجلا سوى الذراري والهرمى ، فلما نظر يعقوب إلى الخيل والناس قال لابنه « يهوذا » وكان متكئاً عليه : هذا فرعون مصر . قال : بل هو ابنك يوسف ﴿ فَلَمَّا

دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ﴾ وصلوا إليه فى مضربه ﴿ ءاوَىٰ ﴾ ضم ﴿ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أباه وأمه راحيل أو خالته ليا . قال فى الجواهر : والأول أظهر ، وقال فى اللباب : كونها خالته أصح . اه . أى رفعهما فوق سريره وتعانقا به بعد السلام وفعلا كما يفعل الوالد مع ولده وبكيا معه ، ثم قال يوسف لأبيه : بكيت علىّ حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ، قال : بلى ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بينى وبينك ﴿ وَقَالَ ﴾ لهم ﴿ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ من كل مكروه على أنفسكم وأهليكم ، وإنما قال ذلك لعلمه أن الناس يخافون الدخول على ملوك مصر ، فدخلوا وجلس يوسف على سريره ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ ﴾ أجلسهما معه ﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ الكرسى ﴿ وَخَرُّوا ﴾ أى أبواه وإخوته ﴿ لَهُ سُجَّدًا ﴾ سجود انحناء وتواضع لا وضع جبهة لقصد العبادة ، وكان تحيتهم فى ذلك الزمان ، فلما جاء الإسلام أبطل ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ ﴾ التى رأيتها ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أيام الصبا ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ صدقا ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِى ﴾ إلىّ ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ لم يقل من الجب لئلا يكون تثريبا عليهم ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ البادية خلاف الحضر لأن الشخص يبدو ويظهر فيه ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ﴾ أفسد ﴿ ٱلشَّيْطَانُ ﴾ بإلقاء العداوة ﴿ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ من نزغ الدابة إذا نخسها ﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ لطيف التدبير له يوجده برفق بحيث يدق عن الأفكار إذ ما من صعب إلا وينفذ فيه مشيئته ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الكامل العلم بأحوال الأشياء ومصالح العباد ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه يوجد الأشياء على وفق ما اقتضته الحكمة فى كل عصر ، وهو دليل على كونه لطيفا . وأقام عنده أبوه أربعا وعشرين سنة أو سبع عشرة سنة ، وكانت مدة فراقه ثمانى عشرة أو أربعين سنة وحضره الموت فوصى يوسف أن يحمله ويدفنه عند أبيه فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد إلى مصر وأقام ثلاثا وعشرين سنة وقد ولدت له زليخا «منشا» جد «يوشع بن نون» و «رحمة» امرأة أيوب و «إفرائيم» ولما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى الملك الدائم فقال ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ الكتب أو الرؤى ، ومن للتبعيض فى الموضعين إذ لم يؤت ملك مصر كله ولا كل التأويل ﴿ فَاطِرَ ﴾ خالق ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّى ﴾ متولى مصالحى ﴿ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من آبائى فى الرتبة والكرامة ، وليس فيه ما يدل على أنه تمنى الموت فوراً فعاش بعد ذلك أسبوعا أو أكثر ، ومات وله مائة وعشرون سنة فاختصم أهل مصر فى مدفنه كل طائفة تريد أن يكون قربهم لينالوا بركته ثم اتفقوا على أن يجعلوه فى تابوت من مرمر فدفنوه فى أعلى النيل لتعم البركة جانبيه فيمر عليه الماء ويكونوا فى ذلك سواء . وكان هناك إلى أن أخرجه موسى ودفنه عند آبائه فسبحان من لا انقضاء لملكه . قلت : فالنيل الذى جعلوه فوقه هو البحر اليوسفى الذى ينسب إليه لأن بنى إسرائيل لما تمكنوا فى مصر رجع الشرف إليهم لخدمتهم العمالقة أهل مصر فشكوه إلى الملك فدعا يوسف فقال له رد علىّ مملكتى فاجتمع رأى الناس على القسمة بالقرعة فاقترعوا فوقع الجانب

الغربى من مصر ليوسف عليه السلام وكانت عليه قفار ورمال وتلال ففرح العمالقة بذلك فأمر الله جبريل عليه السلام فشق ليوسف نهرا بجناحه طرفة فى عين من النيل من الجهة القبلية إلى آخره بحر القلزم فعمر القناطر وبنى المدائن فى جانبيه ثلثمائة وستين وملك بنو إسرائيل جانبيه واتخذوا المغارس والمساكن فكان جميع غربى مصر من الفيوم إلى آخر الصعيد من الجهة الغربية مختصا ببنى إسرائيل وكان لايرى شاطئ البحر اليوسفى لكثرة الجنان من سائر الجهات فلما أفسدوا بالمعاصى نزع الله تلك النعمة من أيديهم وسلط عليهم العمالقة والقبط والروم فغلبوهم واحتووا على الملك واستعملوهم خداما بناءين ونجارين وغير ذلك ولم يزالوا فى ذلك الضيق إلى أن بعث موسى فأخرجهم بإهلاك فرعون كما ذكر فى القرآن . والله أعلم . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ المذكور من أمر يوسف ﴿ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ من أخبار ما غاب عنك يا محمد ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ خبران لاسم الإشارة ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ لدى إخوة يوسف ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ فى كيده أى عزموا عليه ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به أى لم تحضرهم فتعرف قصتهم فتخبر بها وإنما حصل لك علمها من جهة الوحى لأنك نشأت أميا فى أمة أمية لم تسافر إلى غير بلدك ولم تلق العلماء بالكتب المتقدمة فإتيانك بهذه القصة الطويلة على حسن ترتيب وأفصح عبارة دليل على أنه وحى سماوى قدسى معجزة آخر الدهر ، وهذا غاية إلحام المنكرين عليه بالوحى لأن العلم بهذا إما بالسماع فلا يقولونه وإما بالمشاهدة والعيان ولا يظن به عاقل ، وجملة « وما كنت ... إلى آخره » كالدليل على الخبرين ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ ﴾ على إيمانهم وبالغت فى إظهار الآيات عليهم ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر ﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ ﴾ على القرآن أى تبليغه ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ تأخذه كما يفعله حملة الأخبار ﴿ إِنْ ﴾ ما ﴿ هُوَ ﴾ أى القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ ﴾ عظة من الله ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ كافة الخلق من غير تخصيص بطائفة فلا يتصور أخذ الأجر عليه ﴿ وَكَأَيِّن ﴾ وكم ﴿ مِّنْ ءَايَةٍ ﴾ دالة على وحدانية الله ﴿ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ لاينفكرون فيها ولا يعتبرون بها فإذا قصصت عليهم من أنباء الغيب فلم يؤمنوا فلا تحزن ولا تعجب ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ ﴾ حيث يقرون أنه الخالق الرازق ﴿ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ به بعبادة الأصنام ولذا كانوا يقولون فى تلبيتهم لبيك لاشريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك ، يعنونها أو بالنظر إلى الأسباب ونحوها وهذا أبلغ فى الذم من الإعراض لأن المعرض لم يعتبر وهذا اعتبر فأداه إلى الإشراك ﴿ أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ ﴾ عقوبة ﴿ غَاشِيَةٌ ﴾ تغشاهم ﴿ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ أى نوع منه كالصاعقة يحيط بهم ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً ﴾ فجأة من غير سبق علامة ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بوقت إتيانها قبله غير مستعدين لها فما حالهم حينئذ وما اعتذارهم ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ هَٰذِهِ ﴾ الدعوة إلى التوحيد والاستعداد للمعاد ﴿ سَبِيلِى ﴾ المؤدى إلى الجنة ﴿ أَدْعُو إِلَى ﴾ دين ﴿ اللَّهِ ﴾ استئناف لبيان السبيل ، أو حال من الياء ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ برهان واضح ويقين ، حال من فاعل « أدعو »

أى مستيقناً أو متعلق به ﴿ أنا ﴾ تأكيد للمستتر فى الجار والمجرور إن جعل حالا ، وإلا فللمستتر فى أدعو و « أنا » مبتدأ خبره « على بصيرة » ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف على المستتر على الوجهين الأولين وعلى الثالث على « أنا » ﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ أى وأنزه الله تنزيهاً عن الشركاء ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ من جملة سبيله أيضاً وفيه تعريض للخصم ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾ لا ملائكة ولا نساء ردّ لقولهم « لولا أنزل علينا الملائكة » وقرأ حفص بالنون وكسر الحاء ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ﴾ الأمصار لأنهم أعلم وأحلم بخلاف أهل البوادى لجفائهم وجهلهم . قال ابن عطية : والتبدى مكروه إلا فى الفتن وحين يفر بالدين ولا يعترض بدو يعقوب لأنه إنما جعل بدواً بالإضافة إلى مصر ، وفى الصحيح : الغلظ والقسوة فى الفدادين أهل الوبر ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ أى المكذبون والمكبون على الدنيا ﴿ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى آخر أمرهم فيحذروا التكذيب والانهماك على الدنيا ﴿ وَلَدَارُ ﴾ الحال أو الساعة أو الحياة ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ أى الجنة ﴿ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الله بترك الحطام الفانى ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء لنافع وابن عامر وعاصم ويعقوب ، وبالياء للباقين ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية لما دل عليه الكلام ، أى : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا جاهدوا فى سبيل الله وتراخى عليهم النصر حتى ﴿ إِذَا اسْتَيْأَسَ ﴾ وللبزى : بألف بعد التاء مع فتح الياء بعدها ، أى يئس ﴿ الرُّسُلُ ﴾ عن النصر ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أيقن الرسل ﴿ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ بالتشديد تكذيباً لا إيمان بعده ، وقرأ الكوفيون بالتخفيف ، أى ظن الأمم أن الرسل أخلفوا ما وعدوا به من النصر ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُنْجِي ﴾ بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم وسكون الياء مضارع « أنجى » للجمهور ، وبحذف الثانية وشد الجيم وفتح الياء ماض لابن عامر وعاصم ويعقوب ﴿ مَنْ نَشَاءُ ﴾ النبي والمؤمنين ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ عذابنا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ إذا نزل بهم غيّر الأسلوب ليدل الإجرام على استحقاق حلول العذاب ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ الرسل وأممهم ، أو يوسف وإخوته ﴿ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أصحاب العقول السليمة من الأوهام ﴿ مَا كَانَ ﴾ هذا القرآن ﴿ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ يختلق ﴿ وَلَٰكِنْ ﴾ كان ﴿ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قبله من الكتب الإلهية ﴿ وَتَفْصِيلَ ﴾ تبيين ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ يحتاج إليه فى الدين لأنه القانون الذى يرجع إليه سائر الأدلة الشرعية فلا تستند الأحكام إلا إليه إما ابتداء أو بواسطة ﴿ وَهُدًى ﴾ من الضلال ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لأنه سبب النجاة فى الدارين ، والمصادر مبالغة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به لأنهم المنتفعون بما فيه . أماتنا الله على الإيمان به بجاه من أنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم .

[تم تفسير سورة يوسف]

سورة الرعد

مكية إلا « ولا يزال الذين كفروا ... الآية » ، « ويقول الذين كفروا لست مرسلا ... الآية »
أو مدنية إلا « ولو أن قرآنا ... » الآيتين — ثلاث أو أربع أو خمس أو ست وأربعون آية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الٓمٓرٰ) الله أعلم بمراده بذلك ، يحتمل أنه اسم للسورة أو طائفة من الحروف للإيقاظ ، أو أنا الله أسمع وأرى (تِلْكَ) هذه الآيات (ءَايَٰتُ الْكِتَٰبِ) القرآن ، والإضافة بمعنى « من » (وَالَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) أى القرآن مبتدأ خبره (الْحَقُّ) لا شك فيه أو عطف على الكتاب عطف العام على الخاص ، والجملة كالحجة على الأولى ، وهذا إن أريد بالكتاب بعضه وهو هذه السورة ، وأما إن أريد به كله فمن عطف الصفة على الأخرى ، والسنة والقياس من المنزل ضمناً ، فلا اعتراض فى الحصر المستفاد من تعريف الخبر (وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) لعدم النظر والتأمل أو للجحود استكباراً (ٱللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَٰوَٰتِ) مبتدأ وخبر لتقرير ماقبله كأنه قيل كيف لا يكون كلام من هذه أفعاله هو الحق ، ويجوز أن يكون الموصول صفة والخبر « يدبر الأمر » (بِغَيْرِ عَمَدٍ) فى محل النصب على الحال جمع « عماد » أو « عمود » وهو الأسطوانة (تَرَوْنَهَا) صفة لعمد أو استئناف الاستشهاد برؤيتهم السموات كذلك وهو صادق بأن لا عمد أصلا ، وهو دليل على وجود الصانع الحكيم والمرئى وإن كان السماء الدنيا إلا أنه يعلم منه سائرها بالطريق الأولى (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) استواء يليق به ، أو هو كناية عن إجراء الأحكام فى الملك والملكوت بالتدبير والحفظ ، فإن الملك يجلس على سريره ثم يظهر أوامره (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) ذللهما لما أراد منهما كالحركة المستمرة على حد من السرعة ، وهو إشارة إلى معنى الاستواء (كُلٌّ) منهما (يَجْرِى) فى فلكه (لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) يتم فيه أدواره أو ينقطع فيه سيره « إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت » (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) يقضى أمر ملكه (يُفَصِّلُ) يبين (الْآيَاتِ) على قدرته ، وهما حالان من الضمير فى قوله « ثم استوى على العرش » على الوجه الأول لأن قوله « وسخر الشمس والقمر » من تتمته وخبران على الوجه الثانى ولم يعطف أحدهما على الآخر لاستقلال كل منهما بشأن ، إذ الأول عبارة عن أفعاله كالإماتة والإحياء والإيجاد والإعدام ، والثانى عن أقواله كالإيحاء وإنزال الكتب . والله أعلم (لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ) بالبعث (تُوقِنُونَ) لأن هذه الأشياء أدلة قاطعة على أن موجدها له كمال القدرة على كل شىء (وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ)

دحاها وبسطها طولا وعرضا ليثبت عليها الأقدام وينقلب عليها الحيوان ، قدم العلويات على السفليات فى الدلالة على كمال القدرة لأنها أدلّ ﴿ وَجَعَلَ ﴾ خلق ﴿ فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت شوامخ ﴿ وَأَنْهَاراً ﴾ جارية ، ضمها مع الجبال لأنها أسباب لتولدها ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ متعلق « بجعل » وقوله ﴿ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ من كل نوع مستأنف للبيان أو متعلق بما بعده أى جعل فيها زوجين أى صنفين اثنين من كل الثمرات كأسود وأبيض ، وحلو وحامض ، وصغير وكبير ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ يجعل الليل مكان النهار فيصير الجو مظلما بعد ما كان مضيئا ، وإنما عبر عنه بالغشيان مبالغة فى الاستتار وعدم بقاء آثاره كالشىء الملفوف فى لباس ساتر ، وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائى « يغشى » مشددا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ دلالات على وحدانيته تعالى ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فى المذكورات من قوله « مد الأرض » إلى آخر الآية فى كل واحد منها دلالة على كمال القدرة والحكمة باعتبار الكمّ والكيفيات لمن تدبرها بعين الاعتبار ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ ﴾ بقاع مختلفة الطبائع ﴿ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ متلاصقات فمنها طيب وسبخ ، ومنبت وغير منبت ، وممسك للماء وغير ممسك له وقليل الريع وكثيره ، ورخو وصلب ، وصالح للزرع دون الشجر والعكس ، هذا الاختلاف مع اتحاد الماهية دليل على الصانع الحكيم وذكر التجاور لأن الاختلاف فيه أغرب ﴿ وَجَنَّاتٌ ﴾ بساتين تحن الأرض بأشجارها ﴿ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ ﴾ بالجر فيهما الجمهور أى فى الجنات أشجار وزرع وحده لأنه مصدر فى الأصل وبالرفع لابن كثير وأبى عمرو وحفص ويعقوب عطفا على جنات ﴿ صِنْوَانٌ ﴾ جمع صنو وهى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ﴿ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ منفردة و « غير » فى القراءة والإعراب كزرع ونخيل ﴿ تُسْقَىٰ ﴾ بالتاء للجمهور أى الجنات وما فيها ، والياء لابن عامر وعاصم ويعقوب أى المذكور ﴿ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ ﴾ بالنون للجمهور والياء لحمزة والكسائى مسندا إلى ضمير « الله » ﴿ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ بسكون الكاف لنافع وابن كثير وضمها للباقين أى المأكول فمن حلو وحامض وخص الأكل بالذكر دون الشكل واللون والرائحة لأنه العمدة فى المنافع ، أو المراد بالأكل الثمر على تقليب الزرع أى نفضل بعضها فى الثمر شكلا وقدرا ورائحة وطعما ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يتدبرون ، ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ ﴾ يا محمد من إنكارهم الإعادة ﴿ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ الآتى أى حقيق أن يتعجب منه لأن من قدر على إنشاء هذه الأصول والفروع المتقدمة فبالأولى أن يقدر على الإعادة أو إن تعجب من قدرة موجدها فازدد عجبا من قول منكر الإعادة مع اعترافه بما تقدم أو إن تعجب من اتخاذ المشركين مالا يضر ولا ينفع مع اعترافهم بأن الله هو الخالق الرازق فعجب قولهم أو إن تعجب من تكذيبهم إياك مع تسميتهم لك بالأمين الصادق فعجب قولهم منكرين للبعث ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ مقول قولهم أو بدل منه بالاستفهام فى الأول والإخبار فى الثانى لنافع والكسائى ، وعكسه لابن عامر والباقون بالاستفهام فيهما على ما علم لهم فى أصولهم ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ

﴿كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ بقدرته على البعث أى الكاملون فى الكفر ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ يوم القيامة وعيد أو فى الدنيا مقيدون بالضلال لا يرجى خلاصهم كما قيل :

كَيْفَ الرَّشَادُ وَقَدْ خُلِّفْتُ فى نَفَرٍ ... لَهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَقْيَادُ

﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ينفكون عنها وتوسيط الفصل لتخصيص الخلود بالكفار ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ استهزاء ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ النقمة ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ العافية أو الإيمان بقولهم «اللهم إن كان هذا ... الآية» ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ عقوبات أمثالهم من المكذبين أفلا يعتبرون بهم ، جمع مَثُلة كسَمُرة : نقمة تنزل بالإنسان فتحصل مثالا يرتدع غيره به كالنكال وفى القاموس : مثل لفلان مثلا ومثلة بالضم نكل وهى المثلة بضم الثاء وسكونها . اه وفى الجواهر : المثلات هى العقوبات المنكلات التى تجعل الإنسان مثلا يتمثل به ومنه التمثيل بالقتلى ومنه المثلة بالعبد . اه ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى﴾ مع ﴿ظُلْمِهِمْ﴾ وإلا لم يترك على ظهرها دابة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه ، وفى الحديث «لولا عفو الله وتجاوزه لما هنأ لأحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد» ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كالعصا واليد والناقة ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ مرسل للإنذار كسائر الرسل وليس عليك إتيان ما اقترحوا من الآيات ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبى داع إلى الله مثلك بما يعطيه من الآيات لا بما يقترحون رد لهم بأبلغ وجه ، وقف ابن كثير على هاد بالياء والباقون بحذفها وعليه الرسم ثم أردف عدم إجابتهم إلى ما اقترحوا من الآيات كمال علمه وقدرته ليعلم أن عدمها لكونهم معاندين بقوله ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ من ذكر وأنثى وواحد ومتعدد سوى الخلق وغيره و « ما » مصدرية أو موصولة أى حملها أو ما تحمله ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾ تنقص ﴿الْأَرْحَامُ﴾ من مدة الحمل ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ منها أو ما تنقص من دم الحيض وما تزداد ، وجاء ازداد وغاض متعديا ولازما فأقل مدة الحمل ستة أشهر وأكثرها خمس سنين عند مالك وأربع عند الشافعى وسنتان عند الحنفى وأعلى عدد الحمل لا حد له ، وقيل نهايته أربعة غالبا ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ بقدر وحد لا يتجاوزه ولا ينقص منه فى وقته وحاله وهيأ له أسبابا مسوقة إليه تقتضى ذلك ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ ما غاب وما شوهد ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم ﴿الْمُتَعَالِ﴾ على خلقه بالقهر وعلا عن كل ما لا يليق بجلاله ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ﴾ فى علمه تعالى ﴿مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ فى نفسه ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ أسمعه غيره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ طالب استتار ﴿بِاللَّيْلِ﴾ بظلامه ﴿وَسَارِبٌ﴾ بارز ظاهر بذهابه فى سربه أى طريقه ﴿بِالنَّهَارِ﴾ يراه كل أحد من سرب سروبا إذا برز وهو عطف على « من » أو مستخف على أن « من » فى معنى الاثنين كأنه قال سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار وإنما لم يأت بـ « من » كما فى المعطوف عليه إشارة إلى كمال علمه بالخفايا وذلك هو النكتة فى زيادة « هو » ولذلك أيضا قدم أسر وأعم فى صريح القول وأتى فى الجهر بالضمير مؤخرا والآية متصلة بما قبلها مقررة لكمال

عليه وشموله ﴿ لَهُ ﴾ لمن أسرّ أو جهر أو استخفى أو سرب أو قه ﴿ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ ملائكة تعتقبه فى حفظه جمع معقبة بمعنى معقب والتاء للمبالغة كراوية أو بمعنى جماعة والتشديد فى عقب للمبالغة أيضا وأصله عَقَبَهُ جاء على أثره ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ قدامه ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ ورائه أى من جميع جهاته كلها وخص الجهتين بالذكر لأن العدو أكثر ما يقصد منهما ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى بأمره من الجن وغيرهم مالم يجئ القدر فإذا جاء خلوا عنه فإذا صعدت ملائكة الليل عقبها ملائكة النهار وبالعكس . وأخرج الطبرى : أن عثمان سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن عدد الملائكة الموكلة بالآدمى فقال : لكل آدمى عشرة بالليل وعشرة بالنهار واحد عن يمينه وآخر عن شماله واثنان من بين يديه ومن خلفه واثنان على جبينه وواحد قابض على ناصيته إن تواضع رفعه وإن تكبر وضعه واثنان على شفتيه لايحفظان عليه إلا الصلاة على النبى والعاشر يحرسه من الحية أن تدخل فاه إذا نام . اه . وقيل المعنى يحفظونه من أجل أمر الله أو من بأس الله بالاستغفار لقوله «ويستغفرون لمن فى الأرض» ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ لايسلبهم عافيته ونعمته ﴿ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ من الحالة الجميلة بالقبيحة فيحل عليهم نقمته ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ﴾ عذابا ﴿ فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ لاراد له من المعقبات ولا غيرها ﴿ وَمَا لَهُمْ ﴾ حينئذ ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ غيره ﴿ مِنْ وَالٍ ﴾ ناصر يمنعه عنهم أومن يلى أمرهم فيدفع عنهم السوء ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا ﴾ عند لمعانه من أذاه كالصواعق ﴿ وَطَمَعًا ﴾ فى الغيث أو خوفا لمن يضره المطر وطمعا لمن ينفعه وانتصابهما على العلة بتقدير المضاف أى إرادة خوف وطمع أو بالتأويل بالإخافة والإطماع أو على الحال من البرق ، أو المخاطبين على إضمار ذوى أو إطلاق المصدر على المفعول أو الفاعل ﴿ وَيُنْشِئُ ﴾ يخلق ﴿ السَّحَابَ ﴾ الغيم المنسحب فى الهواء ﴿ الثِّقَالَ ﴾ بالمطر جمع ثقيلة وصف به السحاب لأنه اسم جنس فى معنى الجمع ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ ﴾ وهو ملك موكل بالسحاب يسوقه ملتبسا ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ أى يقول « سبحان الله وبحمده » هذا ما عليه أكثر المفسرين ، وقيل الرعد صوت اصطكاك أجرام السحاب أى يسبح سامعوه وعلى الأول فقوله ﴿ وَ ﴾ تسبح ﴿ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ أى الله من عطف العام على الخاص لكمال علمهم بعظيم سلطانه وكل من كان أعلم كان أخشى ، وعن ابن عباس إذا سبح الرعد لاينبغى لملك فى السماء إلا رفع صوته بالتسبيح فعند ذلك ينزل المطر ، وعن على رضى الله عنه : السحاب غربال الماء ، وقال ابن عباس : من سمع صوت الرعد فقال سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شىء قدير فإن أصابته صاعقة فعلىّ ديته ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ وهى نار تخرج من السحاب ﴿ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ﴾ فتحرقه كأربد بن قيس بن ربيعة بعث إليه النبى صلى الله عليه وسلم من يدعوه فقال من رسول الله وما الله أمن ذهب أم من فضة أونحاس ؟ فنزلت صاعقة فذهبت بقحف رأسه ، نعوذ بالله من الجرأة على الله وقيل وفد مع عامر بن الطفيل على النبى صلى الله عليه وسلم قاصدين قتله فأخذ عامر يجادله بما تقدم ودار أربد

من خلفه ليضربه بالسيف فاختطر شبرا من سيفه فحبسه الله ولم يقدر على سله فاطلع الرسول عليه فقال : اللهم اكفنيها بما شئت فأرسل على أربد صاعقة فأحرقته فولى عامر هاربا يقول : يا محمد دعوت ربك فقتل أربد لأملأنها عليك خيلا فأصابه طاعون تحت أذنه فدخل فى بيت امرأة سلولية وقد أخذه مثل النار يقول أغدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية فمات وكفى الله رسوله من شره ﴿ وَهُمْ ﴾ أى الكفار ﴿ يُجَادِلُونَ ﴾ يخاصمون النبى ﴿ فِى ٱللَّهِ ﴾ حيث يكذبون رسوله فيما يصفه به من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم ، والجملة معطوفة على قوله : « ويقول الذين كفروا لولا أنزل . . . » المعطوف على « يستعجلونك » والعدول من الفعلية إلى الاسمية للدلالة على أنهم ما ازدادوا بالآيات إلا عنادا وقيل الواو للحال من مفعول « يصيب » أى يصيبهم فى حال جدالهم فى الله كقصة أربد وعامر المتقدمة ﴿ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾ القوة أو الأخذ أو المكايدة لأعدائه من محل بفلان إذا كاده وعرضه للهلاك ﴿ لَهُ ﴾ تعالى ﴿ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ﴾ أى كلمته وهى « لا إله إلا الله » أو أن الله هو الذى يحق أن يعبد ويدعى إلى عبادته دون غيره . أو له الدعوة المجابة يجيب من دعاه ويؤيده ما بعده واتصال الجملتين بما قبلهما ظاهر إن كان المراد قصة عامر وأربد إذ إهلاكهما من حيث لم يشعرا به محال من الله وإجابة لدعوة رسوله فكان دعاؤه دعوة حق وإن كان عاما فالذين يجادلون فى الله فكذلك لأنه وعيد للكفرة على مجادلة رسوله بحلول محاله بهم وتهديدهم بإجابة دعاء الرسول عليهم أو بيان لضلالتهم وفساد رأيهم ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ أى والأصنام الذين يدعونهم الكفار ويعبدونهم لحذف الراجع أو المشركون الذين يدعون الأصنام لحذف المفعول لدلالة قوله ﴿ مِن دُونِهِ ﴾ أى غيره عليه ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ ﴾ مما يطلبونه من دفع ضر أو جلب نفع لأنها جمادات ﴿ إِلَّا ﴾ استجابة ﴿ كَبَاسِطِ ﴾ أى كاستجابة باسط ﴿ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَاءِ ﴾ على شفير البئر يدعوه ﴿ لِيَبْلُغَ فَاهُ ﴾ بارتفاعه من البئر إليه ﴿ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِ ﴾ أى فيه أبدا فكذلك ما هم بمستجيبين لهم شبه الداعون للأصنام بمن بسط كفيه ناشرا أصابعه يريد اغتراف الماء فى أنهما لا يحصلان على طائل لأن الماء يتوصل إليه بالقبض لا بالبسط فالاستثناء من أعم الأحوال ووجه الشبه عقلى اعتبارى أو شبه حال آلهتهم حين التجائهم إليها فى دفع ما أهمهم فى عدم الشعور فضلا عن الاستطاعة للإجابة بماء بمرأى من عطشان أحوج ما هو إليه يناديه عبارة أو إشارة والمنادى لا إدراك له ولا حراك وعلى الوجهين فيه شائبة تهكم ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ عبادتهم الأصنام أو حقيقة الدعاء ﴿ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ ضياع سواء دعوا الأصنام أو الله تعميم وتيئيس لهم من جميع الجهات ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ يحتمل أن يكون السجود على حقيقته فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعاً حالتى الشدة والرخاء والكفرة كرهاً حالة الشدة والضرورة أو يراد به انقيادهم لإحداث ما أراده فيهم شاءوا أو كرهوا أو اعترافهم له بالعظمة والربوبية . قال فى الباب : حقيقة السجود

وضع الجبهة على الأرض ، وقال فى غاية الأمانى : أصل السجود الانحناء والانخفاض وتخصيصه بوضع الجبهة عرف طارئ ﴿ وَ ﴾ تسجد له ﴿ ظِلَالُهُمْ ﴾ قال المفسرون ظل كل شيء يسجد لله ولا يبعد وقيل سجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب آخر وطولها وقصرها بسبب ارتفاع الشمس ونزولها ﴿ بِالْغُدُوِّ ﴾ البكر ﴿ وَالْآصَالِ ﴾ العشايا : ظارف ليسجد والمراد بهما الدوام أو حال من الظلال ، وتخصيص الوقتين لأن الظلال تعظم وتكثر فيهما ، والغدو جمع غداة كقنى وقناة وهى من أول النهار إلى الزوال ، والآصال جمع أصيل ما بين العصر والمغرب ، وانتصاب « طوعا وكرها » على الحال أو المفعول له ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ خالقهما ومتولى أمورهما ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾ إن لم يقولوه لاجواب غيره ثم ألزم الحجة عليهم بعد إقامة الدلائل القاطعة على تفرد الله بالملك والملكوت بقوله ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى غيره ﴿ أَوْلِيَاءَ ﴾ أصناماً تعبدونها ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ وتركتم مالكهما ؟ استفهام توبيخ والهمزة داخلة على الفاء العاطفة ، أى أبعد أن علمتم أنه رب السموات والأرض جعلتم مكانه أرباباً تعبدونها ، وكان مقتضى ذلك العلم التوحيد فكيف عميت بصائركم ، وقوله « لايملكون » دليل ثان على ضلالتهم وفساد رأيهم فى اتخاذ الأصنام أولياء رجاء أن يشفعوا لهم ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ الكافر والمؤمن أو الجاهل والعالم ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ﴾ بالتاء للجمهور ، والياء لحمزة والكسائى وشعبة ﴿ الظُّلُمَاتُ ﴾ الكفر ﴿ وَالنُّورُ ﴾ الإيمان . لا . جمع الظلمات لاشتمال الكفر على الشبهات والشكوك بخلاف النور فهو واضح أبلج ، وفائدة الاستفهام الإنكارى الحث على التأمل وألا يرضى السامع بدخوله فى زمرة العمى المستغرقين فى الظلمات ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ﴾ صفة شركاء ﴿ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ ﴾ أى خلق الشركاء بخلق الله ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ فاعتقدوا استحقاق عبادتهم لخلقهم : استفهام إنكار ، أى ليس الأمر كذلك ولا يستحق العبادة إلا الخالق ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ لا شريك له فيه فلا شريك له فى العبادة جعل الخلق موجباً لاستحقاق العبادة ثم نفاه عن غيره ليكون دليلا على قوله ﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ ﴾ فى الألوهية ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ لعباده ، ولما شبه الله الكافر بالأعمى والمؤمن بالبصير ، والكفر بالظلمات ، والإيمان بالنور ضرب مثلا للحق والباطل فقال ﴿ أَنْزَلَ ﴾ تعالى ﴿ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ مطراً ، والسماء : السحاب إذ كل ما علاك سماء أو الفلك لأنه المبدأ الأول للماء ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ ﴾ أنهار جمع واد وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء بكثرة ، فاتسع فيه واستعمل للماء الجارى وتنكيرها لأن المطر يأتى على تناوب بين البقاع ﴿ بِقَدَرِهَا ﴾ بملئها أو بمقدارها الذى علم الله أنه نافع غير ضار أو بمقدارها فى الصغر والكبر ﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا ﴾ غثاء أو وضراً ﴿ رَابِيًا ﴾ عالياً عليه وهو ما على وجهه من قذر ونحوه ﴿ وَمِمَّا تُوقِدُونَ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى وحفص ، والضمير للناس ﴿ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ من المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد ﴿ ابْتِغَاءَ ﴾ طلب ﴿ حِلْيَةٍ ﴾ زينة ﴿ أَوْ مَتَاعٍ ﴾ ينتفع به كالأوانى وآلات

الحرب والحرث إذا أذيب ﴿ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ أى مثل زبد السيل وهو خبثه الذى ينفيه الكير ، و « من » للابتداء أو التبعيض ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ﴾ يمثلهما ويبرزهما فى صورة المحسوس إزاحة للشبهة مثل تمثيل الحق وأهله بالماء المنزل من السماء السائل فى أودية وانتفع الناس به أنواعاً من الانتفاع وبالفلز من صوغ الحلى واتخاذ الآلات والأوانى التى تبقى مدداً متطاولة ، والباطل فى سرعة زواله وانسلاخه عن المنفعة بالزبد الذى يرمى به الماء أو الفلز فينعدم فى الحال وينمحى أثره ، وبيّن ذلك بقوله ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ ﴾ من السيل وما أوقد عليه من الجواهر ﴿ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ﴾ مجفوءا أى مرمياً يرميه السيل والفلز : نصب على الحال وأصله الخفة ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ﴾ من الماء والجواهر ﴿ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ زماناً ينتفع به أهله كالماء فى المنابع والآبار وما ينشأ منه من الثمار والحبوب المذخرة وكالخالص المعادن ، وقيل شبه القرآن المنزل بالماء ، والقلوب بالأودية ، ووساويس الشياطين وهواجس النفوس بالزبد الذى يعلو الماء والحق الذى استفيد من القرآن واستنبط منه بالجواهر والذهب الخالص من الخبث والباطل الذى يتولد من تلك الوساويس بالجفاء ، وكما أن الأودية تتفاوت فى الصغر والكبر ، كذلك القلوب فى أخذ المعارف وإدراك لطائف التنزيل بحسب الفطرة والاستعداد ، وكذلك نسبة القلوب إلى الجواهر والمعادن بعضها كالذهب وبعضها كالنحاس وبعضها كالحديد ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ لإيضاح الشبهات ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ﴾ بالطاعة الاستجابة ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ واللام متعلقة بيضرب ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ ﴾ عطف على المجرور وهم الكفرة ، جعل ضرب المثل لشأن الفريقين ضرب المثل لهما ، وقيل « للذين استجابوا » خبر مبتدؤه « الحسنى » وهى الجنة « والذين لم يستجيبوا » مبتدأ خبره ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ﴾ من العذاب ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ ﴾ وهو المناقشة فيه بأن يؤاخذوا بكل ما عملوه لا يغفر منه شىء ، وفى الحديث : « من نوقش فى الحساب هلك » ﴿ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ الفراش هى ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ ﴾ فاستجاب وآمن كحمزة بن عبد المطلب وعمار بن ياسر ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ عمى القلب لا يعلمه ولا يؤمن كأبى جهل ، والهمزة لإنكار أن تقع شبهة فى تشابههما بعد ما ضرب من المثل المشبه للأول بالماء والإبريز والثانى بالزبد والخبث ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ ﴾ يتعظ فيؤمن ويراقبه ﴿ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أصحاب العقول الخالصة الناظرين بها نظر الاستبصار . قال الغزالى : من آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة ليس من ذوى الألباب ولذا لا تنكشف له أسرار الكتاب ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ المأخوذ عليهم فى عالم الذر ، وفى كتبه المنزلة من الأحكام والحدود وكل عهد ، وأصل العهد حفظ الشىء ومراعاته حالا بعد حال ﴿ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله كالإيمان والفرائض وبين العباد ، وهو تعميم بعد تخصيص ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾

من الأرحام وموالاة المؤمنين والإيمان بجميع الأنبياء والإحسان إلى كافة المؤمنين للأخوة الثابتة بقوله « إنما المؤمنون إخوة » ، وفي الحديث « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وفيه « إن من الصدقة أن تلقى أخاك المؤمن بوجه طلق » وفيه « لايدخل الجنة قاطع رحم » أخرجه الشيخان ، وفيه « ليس الواصل بالمكافئ: الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها» أخرجه البخاري ، وفيه « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم » أخرجه الترمذي ، وهي بر الأهل والأقارب والإحسان إليهم وضده القاطع ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ وعيده عموما ﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ خصوصا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، وعبر بالخشية في الرب والخوف في سوء الحساب لأن الخشية خوف شابه هيبة وتعظيم بخلاف الخوف ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ حبسوا أنفسهم على ما تكرهه النفس ويخالفه الهوى في المواطن كلها ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ طلباً لمرضاته لا لطلب المدح ولا لخوف الذم ولا غيرهما والعطف فيه وفي الذي قبله من عطف الصفات ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾ أدوها على وجه الكمال ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ أي بعضه ﴿ سِرًّا ﴾ في التطوع ﴿ وَعَلَانِيَةً ﴾ في الواجب إيثاراً للأفضل ، وقيل سراً لمن لم يعرف بالمال وعلانية لمن عرف به ليقتدى به ولئلا يتهم بالبخل ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ يدفعونها بها كالجهل بالحلم والأذى بالصبر ، ولذا قيل: إنَّ المداوةَ تستحيلُ مودةً • بتدارُك الهفوات بالحسَنَات

وفي الحديث: « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ، وعن الحسن: « إذا حرموا أعطوا ، وإذا ظُلِموا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا » ﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ خبر « الذين يوفون » أو « الذين » صفة أولوا الألباب » والأول أوجه ، المعنى: لهم العاقبة المحمودة في الدار الآخرة . قال ابن المبارك: هذه ثمان خلال مشيرة إلى ثمانية أبواب الجنة . وقال أبو بكر الوراق: هذه ثمانية جسور فمن أراد القرب من الله عبرها ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بدل من عقبى الدار أو مبتدأ خبره ﴿ يَدْخُلُونَهَا ﴾ والعدن الإقامة مصدر « عدن » إذا أقام ، سميت « جنات عدن» لأنها دار إقامة لا لارتحال عنها ﴿ وَمَنْ صَلَحَ ﴾ آمن ﴿ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ عطف على فاعل يدخلونها وجاز الفصل بالمفعول أو منصوب على المعية ، والمعنى أنهم يلحق بهم من صلح ممن ذكر وإن لم يبلغ فضلهم تعظيما لشأنهم ليقرب بعضهم ببعض زيادة في الأنس ، والتقييد بالصلاح دلالة على أن مجد النسب لاينفع وإذا قارنه أدنى عمل صالح نفع . وفي الحديث « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» ﴿ وَالْمَلَـٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ من أبواب الجنة أو القصور للتهنئة وإيصال الهدايا أول دخولهم يقولون ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم ﴾ بشارة بدوام السلامة . هذا الثواب ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ واحتملتم من المشاق أو متعلق بعليكم لأنه ظرف مستقر ﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ عقباكم ، ولما ذكر الله أحوال السعداء وما أعد لهم من الكرامات أتبعه أحوال الأشقياء وما لهم من العقوبات فقال ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ﴾ عليهم بالإيمان ﴿ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ بالإقرار والقبول ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ

أَنْ يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام وسائر الحقوق ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ البعد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي العاقبة السيئة في الدار الآخرة وهي جهنم ثم بين ما أطغاهم فقال ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يشاء على مقتضى الحكمة ﴿وَفَرِحُوا﴾ أي أهل مكة فرح بطر لا فرح سرور بنعمة الله ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم فيها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ في جنب حياة الآخرة ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ شيء قليل يتمتع به ويزول سريعا كرائحة الورد وزاد الراعي ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد ما شاهدوا الخوارق كانشقاق القمر والقرآن المعجز ﴿لَوْلَا﴾ هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كالعصا واليد والناقة ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ إضلاله باقتراح الآيات فلا تغني عنه شيئا ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ إلى دينه ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ رجع إليه عن العناد في ما آتاني من الآيات ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل من «من» أو خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين آمنوا ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ تسكن ﴿قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي وعده بعد الاضطراب من خشيته كقوله ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله أو القرآن الذي هو أقوى المعجزات وهذا الوجه يناسب قوله «لولا أنزل عليه آية» كما أن الأول يناسب الإنابة أو بأدلة التوحيد ثم نبه الكفار المسترفين في قلق الشبهات بقوله ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي قلوب المؤمنين لا بالآيات المقترحة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مبتدأ خبره ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ مصدر من الطيب على وزن فعلى كبشرى، أبدلت الواو من الياء لضم ما قبلها أو شجرة في الجنة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها، وهذا هو الصحيح لتظاهر الأحاديث الصحاح على ذلك ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ مرجع وطيب عيش ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما أرسلنا الأنبياء قبلك ﴿أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أرسلوا إليهم فليس ببدع إرسالك إليها، وإنما كذبوك عناداً ﴿لِتَتْلُوَ﴾ تقرأ ﴿عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ من القرآن الذي لا يدع شبهة إذ لا نبيّ بعدك يزيلها ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ أي والحال أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة الذي أحاطت بهم نعمه وخصوصا ما أنعم عليهم بإرسالك إليهم وإنزال القرآن الذي هو مناط منافع الدارين وقيل المراد قولهم لما قيل «اسجدوا للرحمن» قالوا وما الرحمن» ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في أموري كلها ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعي ومرجعكم. ونزل لما قالوا: إن كنت نبيا فسير عنا جبال مكة بقرآنك فإن الجبال قد سخرت لداود واجعل لنا فيها أنهارا وعيونا لنغرس ونزرع أو سخر لنا الريح كما سخرت لسليمان لنركبها إلى الشام ونتجر ثم نرجع في يومنا أو ابعث لنا آباءنا الموتى كالقصي يكلمونا أنك نبي فإن عيسى كان يحيي الموتى ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ نقلت عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾ شققت ﴿بِهِ الْأَرْضُ﴾ لتتفجر عنها الأنهار أو قطعت بالسير السريع على الريح ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ بأن يحيوا والجواب لما آمنوا أو المعنى لو فعل هذا بقرآن أي مقروء من الكتب قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم وعن الفراء أن الآية متصلة بما قبلها،

والمعنى وهم يكفرون بالرحمن ، ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، فعلى هذا هى جملة حالية وجواب الشرط محذوف لدلالة السابق عليه وما بينهما اعتراض ﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ لا لغيره فلا يؤمن إلا من شاء إيمانه دون غيره وإن أوتوا ما اقترحوا ونزل لما أراد الصحابة إظهار ما اقترحوا طمعا فى إيمانهم ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ ﴾ بعلم ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ ﴾ مخففة أى أنه ﴿ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ إلى الإيمان من غير آية أو اليأس على بابه أى : ألم ييأسوا عن إيمانهم مع مارأوا من أحوالهم علما منهم أن ... الخ ، وعلى الأول الجمهور واستعمل بمعنى العلم لأن الآيس عن الشىء عالم بأنه لايكون والاستفهام للتقرير أى علموا ذلك ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ من أهل مكة ﴿ تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا ﴾ بصنعهم أى كفرهم وسوء أعمالهم ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ داهية تقرعهم بصنوف البلاء من القتل والأسر والجدب ، والقرع : الضرب الشديد ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ يا محمد بجيشك ﴿ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ ﴾ مكة ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ بالنصر عليهم بفتح مكة ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ وقد حل بالحديبية حتى أتى فتح مكة أو المراد لايزال الكفار تصيبهم داهية مهلكة كما أصابت المستهزئين أو تحل قريبا من دارهم بالهجرة والنزول بالمدينة حتى يأتى ظهور أمرك أو القيامة أو فتح مكة ، قال فى غاية الأمانى : وهذا أوجه لأن السورة مكية . اه والمقصود من الآية تقوية النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بوعد النصر وقوله إن الله لا يخلف الميعاد : تذييل لتحقيق الوعد ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ كما استهزئ بك ، وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ فَأَمْلَيْتُ ﴾ أمهلت ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ تركهم ملاوة من الزمان فى خفض العيش ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ بالعقوبة ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى هو واقع موقعه فكذلك أفعل بمن استهزأ بك ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾ رقيب ﴿ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ من خير وشر وهو الله كمن ليس كذلك من الأصنام ؟ لا : دل على هذا ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ استئناف أو عطف على الخبر المقدر للمبتدأ أى فمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه وجعلوا له شركاء ويكون وضع الظاهر موضع المضمر للتنبيه على أنه المستحق للعبادة ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ له من هم ؟ أمر تعجيز إذ لا أسماء لها والقصد تحقيرها بأنها لا تستحق أن تذكر باسم أو المعنى صفوهم فانظروا هل لهم مايستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ﴿ أَمْ ﴾ بل أ ﴿ تُنَبِّئُونَهُ ﴾ تخبرون الله ﴿ بِمَا ﴾ بشريك ﴿ لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ ﴾ استفهام إنكار أى لاشريك له إذ لو كان لعلمه ـ تعالى عن ذلك ﴿ أَمْ ﴾ بل تسمونهم شركاء ﴿ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ من غير أن يكون تحته طائل بل مجرد صوت من غير معنى كتسمية الزنجى كافورا وهذا احتجاج بليغ على أسلوب عجيب فإنه هدم قاعدة الإشراك بقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ثم أبطله بأن من لايجوز له شريك قد أشركوا به شركاء لا أسماء لها فضلا عن المسمى ثم بالغ فى نفيها بأن نفى العلم بوجودها ليلزم منه نفى المعلوم على طريقة الكناية وسلك بذلك مسلك الإنكار توبيخا لهم بأنهم يريدون أن ينبئوا عالم الخفيات بما لا يعلمه وذلك محال آخر ، ثم قال ليس مايقولونه كلاما يلتفت إليه بل مجرد صوت ثم أضرب عن ذلك كله وأشار إلى أصل ذلك الضلال

بقوله ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ كيدهم للإسلام بالشرك ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ طريق الهدى قرأ الكوفيون بضم الصاد والباقون بفتحها ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ يوفقه لسلوك الرشاد ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بالقتل والأسر وسائر مايصيبهم من المصائب ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أشد منه لدوامه وشدته ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ أى عذابه ﴿ مِنْ وَاقٍ ﴾ مانع ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ صفتها التى هى مثل فى الغرابة مبتدأ خبره محذوف أى فيما نقص عليكم أو خبره ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى مثل الجنة جنة تجرى وعلى الأول فتجرى حال من العائد المحذوف من الصلة ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع ثمرها ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ دائم لا تنسخه شمس لعدمها فيها ﴿ تِلْكَ ﴾ الجنة الموصوفة ﴿ عُقْبَى ﴾ عاقبة ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الشرك ، أى مآل أمرهم ﴿ وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ لا غير : إطماع للمؤمنين وإقناط للكافرين ﴿ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ كعبد الله بن سلام من مؤمنى اليهود وكثمانين من النصارى ، أربعين من نجران ، وثمانية من الشام ، واثنين وثلاثين من الحبشة ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ لموافقته ما عندهم ﴿ وَمِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ الذين تحزبوا عليك بالمعاداة من المشركين وأهل الكتاب ﴿ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ﴾ كذكر الرحمن وما عدا القصص مما يخالف شريعتهم ﴿ قُلْ ﴾ للمنكرين منهم ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ فيما أنزل إلىّ ﴿ أَنْ ﴾ أى بأن ﴿ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ وهو العمدة فى كل دين فلا سبيل إلى إنكاره وكذا ماخالف شرائعكم فى جزئيات الأحكام فليس ببدع فى الشرائع ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُوا ﴾ لا إلى غيره ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ مرجعى للجزاء لا إلى غيره ، وهذا هو القدر المتفق عليه بين الأنبياء ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ مثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الديانة المجمع عليها ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ أى القرآن ﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ بلغة العرب تحكم به بين الناس ، سمى عربياً لكونه مستفاداً منه تسمية الحال باسم المحل لأن الألفاظ أوعية المعانى أو الحكم بمعنى المحكم المتقن كالذكر الحكيم ، وسمى القرآن حكيما لكونه سبباً للحكم ، أو لما حكم على جميع الخلق بالعمل بمقتضاه سمى حكما ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ التى يدعونك إليها كتقرير دينهم والصلاة إلى قبلتهم بعد ما حولت عنها ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بالتوحيد ونسخ قبلتهم ﴿ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ وَلِيٍّ ﴾ ناصر ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ مانع لعذابه عنك ، وهذا ونظائره من باب حث السامع على الثبات فى الدين والحسم لأطماع الكفار فى اتباعهم . قرأ ابن كثير بالياء وقفاً . ونزل لما عيره الكفار بكثرة النساء وقالوا : إن هذا الرجل ليس له همة إلا النساء ولو كان رسول الله لترك الدنيا كلها ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أولاداً ، وأنت مثلهم . واستبعاد ذلك من الرسول جهل لأنه إنما أرسل للتبليغ وليس من لوازمه مخالفة نوعه بل كونه مثلهم أدعى إلى المتابعة ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ منهم ﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ لأنهم عبيد مربوبون ، رد لاقتراحهم الآيات منه ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ ﴾ وقت ومدة ﴿ كِتَابٌ ﴾ مكتوب فيه تحديده ، أو لكل وقت حكم يكتب فيه على العباد على وفق ما اقتضته الحكمة ﴿ يَمْحُو اللَّهُ ﴾

ينسخ منه ﴿ مَا يَشَاءُ ﴾ ردٌّ لإنكارهم النسخ ﴿ وَيُثْبِتُ ﴾ بالتشديد لنافع وابن عامر وحمزة والكسائى ، والتخفيف للباقين : يثبت ما اقتضت حكمته إثباته من الأحكام وغيرها ، وقيل : يمحو سيئات التائبين ويثبت مكانها الحسنات ، وقيل : يمحو من ديوان الحفظة ما ليس من الطاعات والمعاصى لأنهم مأمورون بكتابة كل حركة وسكون ويثبت غيره مما يتعلق به الجزاء ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أصل كل كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، أو علمه الشامل ، فإن اللوح من الكتاب أيضاً ، وهو معنى قول السيوطى فى التكملة : أصله الذى لا يغير منه شيء وهو ما كتبه فى الأزل ﴿ وَإِمَّا ﴾ فيه إدغام نون « إن » الشرطية فى « ما » المزيدة ﴿ نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ﴾ من العذاب فى حياتك ، وجواب الشرط محذوف أى : فذلك ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل تعذيبهم ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ لا غير ، ويحتمل أن يكون هذا جواباً لإنْ مع ما عطف عليه أى إن أريناك بعض ما أوعدناهم أو توفيناك قبله فإنما عليك البلاغ فقط ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ المجازاة فلا تستعجل عذابهم ، ثم ذكر طلائعه بقوله ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴾ نقصد أرض الكفار ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ بالفتح على النبى بما يدخل فى دينه من القبائل والبلاد المجاورة لهم أفلا تعتبرون بذلك وهذا على أن الآية مدنية ، وعلى أنها مكية فالمراد تنقيصها بتخريب العمران والموت ونقص الثمرات من مجاوريهم أى هلا اعتبروا بذلك ﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ ﴾ فى خلقه بما يشاء ﴿ لَا مُعَقِّبَ ﴾ لا مغير أو لا مبطل أو لا راد ﴿ لِحُكْمِهِ ﴾ وهو فى موضع النصب على الحال ، وأصل التعقيب أن تعمل عملا ثم تعود فيه بالإبطال ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ فعما قليل يجازيهم بالعذاب السرمد ﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم بأنبيائهم كما مكروا بك ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ فلا يؤبه بمكر غيره لأنه القادر على ما أراده ، ومكر غيره تحيل باطل ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ من الخير والشر وقد أعد لها جزاءه ، وهذا هو المكر كله لأنه يأتيهم به من حيث لا يشعرون ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ ﴾ المراد به الجنس ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أى العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة أنهم أم للنبى والمؤمنين ، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى فإنه أخفى أمر العاقبة عنهم فوقعوا فى الضلال المؤدى إلى النار ، وقرأ الكوفيون وابن عامر « الكفار » وهى أوفق لقراءة ابن مسعود الكافرون ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لك ﴿ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ على صدق بالمعجزات الدالة على رسالتى وهى شهادة لا تحتمل الريب ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ من علماء اليهود كعبد الله بن سلام وابن يامين والنصارى كسلمان ، أو الكتاب القرآن فيدخل فيه جميع المؤمنين لأنهم يشهدون برسالته بما علموا من إعجازه ، والله أعلم بأسرار كتابه .

[تم تفسير سورة الرعد]

سورة إبراهيم

مكية أو إلا « ألم تر إلى الذين بدلوا ... الآيتين »
إحدى أو اثنتان أو أربع أو خمس وخمسون آية

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الر﴾ الله أعلم بمراده بذلك. هذا القرآن ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ بدعائك إلى ما فيه من المعارف والأحكام ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ من أنواع الضلال ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الهدى، استعارتان للضلال والهدى ﴿بِإِذْنِ﴾ بأمر ﴿رَبِّهِمْ﴾ وبتوفيقه وتسهيله، مستعار من الإذن الذى هو تسهيل الحجاب وهو صلة « لتخرج » أو حال من فاعله أو مفعوله ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ﴾ الغالب الذى لا يذل سالكه ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود المستحق لجميع المحامد الذى لا يخيب سائله و« إلى صراط » بدل من قوله إلى النور، استعار النور أولا للهدى لظهوره ثم جعله جادة لا زيغ فيها موصلة، ويحتمل الاستئناف كأنه قيل إلى أى نور فقيل إلى صراط الله، وإضافته إليه لأنه مقصده أو المظهر له ﴿اللَّهِ﴾ بالرفع لنافع وابن عامر مبتدأ خبره الموصول بعد، وبالجر للباقين بدل أو عطف بيان، وما بعده صفة ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا ﴿وَوَيْلٌ﴾ هلاك وحزن ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بالكتاب ولم يخرجوا به من الظلمات ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ يقعون فيه، أو لهم هذه الكلمة عند ذلك فإن الواقع فى الهلاك ينادى بها، والويل نقيض الوأل وهو النجاة، وأصله النصب لأنه مصدر، إلا أنه لم يشتق منه لكنه رفع لإفادة الثبات ﴿الَّذِينَ﴾ نعت ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فإن المؤثر للشىء يطلب من نفسه حبه ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دين الإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يطلبون لها ﴿عِوَجًا﴾ عيبا أو زيغا وميلا إلى أهوائهم، ويحتمل أن الموصول مبتدأ خبره ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحق، أى ذى بعد لا نهاية لغوره، أو وصف الضلال بالبعد مجاز لأنه حال الضال ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ﴾ بلغة ﴿قَوْمِهِ﴾ الذين هو منهم وبعث فيهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ليفهمهم ما أتى به بيسر وسرعة ثم ينقلوه ويترجموه لغيرهم فإنهم أولى الناس إليه بأن يدعوهم وأحق بأن ينذرهم، ولذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإنذار عشيرته أولا، ولو أرسل بلغات مختلفة بحسب الأمم المبعوث إليهم لأدى إلى إضاعة فضل الاجتهاد فى تعلم الألفاظ ومعانيها والعلوم المتشعبة عنها لجزيل الثواب، وقرئ « بلسن » لغة فى اللسان ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بالخذلان عن الإيمان ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالتوفيق له ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فى ملكه ﴿الْحَكِيمُ﴾ فى صنعه لا يضل ولا يهدى

إلا لحكمة . ولما بين أنه قد أرسل قبل رسول الله رسلا بالكتب السماوية ذكر قصة موسى منهم مع قومه لكثرة عنادهم وتعنتهم تسلية لرسول الله بقوله ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ التسع وقلنا له ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ ﴾ بنى إسرائيل ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ ﴾ الكفر وشبه الضلال ﴿ إِلَى النُّورِ ﴾ الإيمان ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ وقائعه التي وقعت على الأمم الدارجة ، ومنه أيام العرب لحروبها ووقائعها ، وعن ابن عباس : أيام الله نعماؤه ، أي قل لهم قولا يتذكرون به نعم الله وفي إضافتها إليه تعظيم لشأنها والترهيب والترغيب بالوعيد والوعد بما حل على المكذبين من النقم وما أنعم على المصدقين من النعم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ التذكير ﴿ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ ﴾ على الطاعة ﴿ شَكُورٍ ﴾ على النعم ، أو كثير الصبر على البلاء دائم الشكر على النعماء ويحتمل أنه كناية عن المؤمن كمي مستوى القامة في كناية الإنسان . ولما أمر الله موسى أن يذكر قومه أيام الله امتثل ذلك وذكرهم بما أخبره الله بقوله ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ ظرف للنعمة لأنها بمعنى الإنعام أي إنعامه عليكم ذلك الوقت ويجوز أن يكون بدل اشتمال ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ بالاستعباد ﴿ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ والجمل الثلاث أحوال من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين ، زيد الواو هنا لأن المراد هنا بالعذاب غير المراد به في البقرة والأعراف لأنه ثم مفسر بالذبح والقتل ، والذبح معطوف عليه هنا فهو هنا جنس من العذاب كالاستعباد ﴿ وَفِي ذَٰلِكُمْ ﴾ الإنجاء أو العذاب ﴿ بَلَاءٌ ﴾ إنعام أو ابتلاء والبلاء يطلق على الخير والشر لقوله « ونبلوكم بالشر والخير » ﴿ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وكون عذابهم من ربكم من حيث إقداره إياهم عليه وإمهالهم فيه ، وكون استحياء النساء بلاء من حيث تركهن تحت أيديهم كالإماء ﴿ وَ ﴾ اذكروا أيضاً ﴿ إِذْ ﴾ ﴿ تَأَذَّنَ ﴾ أعلم ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ من كلام موسى أيضاً ، وتأذن بمعنى آذن كتوعد بمعنى أوعد غير أنه أبلغ لما في التفعل من المبالغة أي أعلم إعلاما لا يبقى معه ريب ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ ﴾ يابني إسرائيل ما أنعمت به عليكم من الإنجاء وغيره بالإيمان الخالص والعمل الصالح ﴿ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ لأضاعفن لكم ما أنعمت نعمة بعد نعمة ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ ﴾ النعم بالكفر والمعاصي لأعذبنكم ، دل عليه ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ولم يسند العذاب إلى ذاته كما أسند زيادة النعم إشارة إلى غلبة رحمته ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ لقومه ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ من الثقلين ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ ﴾ عن خلقه ﴿ حَمِيدٌ ﴾ محمود في صنعه حمد أو لم يحمد ، وفي الحديث « حمد الله نفسه قبل حمد الحامدين » ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ استفهام تقرير من كلام موسى أو ابتداء كلام من الله مع هذه الأمة ولا يخفى ما فيه حينئذ من حسن التخلص ﴿ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ ﴾ قوم هود ﴿ وَثَمُودَ ﴾ قوم صالح ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ لكثرتهم جملة وقعت اعتراضا لفائدة الترقي كأنه قيل : ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى عددهم فدع التفصيل فإنه لا مطمع فيه أو الذين من بعدهم عطف على قوم نوح فلا يعلمهم إلا الله اعتراض كأنه قيل : ألم يأتكم نبأ الجم الغفير . وعن ابن

عباس : بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون ، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية يقول كذب النسابون قد نفى الله عنها عن العباد ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الحجج الواضحات على صدقهم ﴿ فَرَدُّوا ﴾ أى الأمم ﴿ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى إليها ليعضوا عليها من شدة الغيظ أو وضعوها عليها تعجبا مما جاءوا به واستهزاء عليه كمن غلبه الضحك أو إسكاتا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأمرا لهم بإطباق الأفواه أو أشاروا بها إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم إنا كفرنا تنبيها على أن لا جواب لهم سواه أو ردوها فى أفواه الأنبياء يمنعونهم من التكلم وعلى هذا يحتمل أن يكون تمثيلا للرد ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ﴾ على زعمكم ﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ موقع فى الريبة أو ذى ريبة وهى قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الشىء. ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ استفهام إنكار أى لا شك فى توحيده للدلائل الظاهرة عليه أدخلت همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام فى المشكوك فيه لا فى الشك أى إنما ندعوكم إلى الله وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة ، أشار إلى بعضها بقوله ﴿ فَاطِرِ ﴾ خالق ﴿ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وهو صفة أو بدل وشك مرتفع بالظرف ﴿ يَدْعُوكُمْ ﴾ إلى طاعته لم يسندوا الدعوة إلى أنفسهم كما أسندها إليهم الكفار إشارة إلى أن الداعى فى الحقيقة هو الله « والله يدعو إلى دار السلام » ﴿ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ « من » زائدة فإن الإسلام يغفر به ما قبله أو تبعيضية لإخراج حقوق العباد والأول المعتمد ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ ﴾ بلا عذاب ﴿ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أجل الموت ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ لا فضل لكم علينا فكيف تكونون رسلا دوننا ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا ﴾ بدعواكم الباطلة ﴿ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ برهان قاطع يدل على فضلكم واستحقاقكم لهذه المزية أو على صحة ادعائكم النبوة وهذا ديدن المعاند لا يرضى بالمعجزة ويشرع فى الاقتراح تعنتا ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ كما قلتم نحن وأنتم سواء فى البشرية ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ بالنبوة فهى فضل لا مكسبة فكوننا بشرا لا ينافى رسالتنا ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا ﴾ ما صح لنا ﴿ أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ بإرادته أو بأمره لأنا عبيد مربوبون ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ فى دفع شرور أعدائهم عنهم ، عمموا الأمر للإشعار بما يوجب التوكل وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا وهو أبلغ من على الله توكلنا ﴿ وَمَا لَنَا ﴾ أى عذر لنا ﴿ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ أى لا مانع لنا من ذلك أو ما يحصل لنا فى عدم التوكل ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ التى عرفناه بها وعرفنا أن الأمور كلها بيده ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ على أذاكم بالقول أو بالفعل تأكيد للتوكل وعدم مبالاة بما يجرى عليهم من الكفار ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أى ليزدادوا فيه فالتوكل الأول استحداثه ، وهذا الثانى إدامته ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾ لتصيرن ﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ منعوا الخلو من أحد الأمرين إما الإخراج أو العود إلى ملتهم والرسل لم يكونوا على ملتهم يوما إجماعا

فالعود أريد به الصيرورة من إطلاق المقيد على المطلق أو غلبوا الأمة على الرسل ، وآثروا « فى » الذى للظرفية على « إلى » للدلالة على الاستقرار فيها ، وإخراج الرسل عن أرضهم سيرة الله فى رسله (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ) أى الرسل (لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) بالكفر : مقول القول ، لأن الإيحاء نوع منه ، وهذا بشارة بذلك أى فلا تخافوهم (وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ) أرضهم (مِنْ بَعْدِهِمْ) بعد هلاكهم وفى الحديث « من آذى جاره ورثه الله داره » (ذَٰلِكَ) النصر وإيراث الأرض (لِمَنْ خَافَ مَقَامِي) أى مقامه بين يدى للحساب ، أو قيامى عليه وحفظى لأعماله (وَخَافَ وَعِيدِ) بالعذاب . قال ربيع بن خثيم : من خاف الوعيد قرب عليه البعيد ، ومن طال أمله ساء عمله (وَاسْتَفْتَحُوا) استنصر الرسل بالله على قومهم . من الفتاحة وهى الحكم ، وقيل الكفرة ، وقيل الضمير للفريقين : كل فريق سأل النصر على عدوه ففتح الله لهم (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ) عات متكبر على الله (عَنِيدٍ) معاند للحق ولم يفلح فأفلح المؤمنون ورسلهم (مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ) أى بين يديه أو وراء حياته . قال الأخفش : يقال هذا الأمر وراءك : أى سيأتيك والأكثر يفسره بالأمام . قال فى الجواهر : وليس الأمر كما ذكروا بل الوراء على بابه أى هو ما يأتى بعد فى الزمان وذلك أن التقدير فى هذه الحوادث بالأمام والوراء إنما هو بالزمان وما تقدم فهو أمام وهو بين اليد كما تقول فى التوراة والإنجيل : إنهما بين يدى القرآن ، والقرآن وراءهما ، وعلى هذا فما تأخر فى الزمان وراء المتقدم . اه قلت : وما قاله نفيس واضح لكل من أنصف : أى سيدخل النار (وَيُسْقَىٰ) فيها (مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ) هو ما يسيل من جوف أهل النار مختلطا بالقيح والدم ، وهو عطف بيان أبهمه أولا ثم بينه تعظيما لشدته (يَتَجَرَّعُهُ) يتكلف جرعه مرة بعد مرة لشدة عطشه ومرارته وحرارته ونتنه وهو حال من الضمير فى يسقى أو صفة لماء (وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ) يزدرده لبشاعته ولا ينحدر فى الحلق إلا بشدة إذ يغص به ليطول عذابه ، وفى الحديث : « يقرب إلى فيه فيكرهه فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره » . رواه الترمذى . (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ) أى أسبابه المقتضية له من أنواع العذاب (مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) قيل يأتيه تحت كل شعرة ألم مستقل (وَمِنْ وَرَائِهِ) بعد ذلك العذاب (عَذَابٌ غَلِيظٌ) قوى متصل دائم لا يوصف كحبس الأنفاس عليهم أى يستقبله فى كل وقت عذاب أشد مما هو عليه وكنى الخلود فى النار (مَثَلُ) صفة (الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) مبتدأ خبره كرماد ويبدل منه (أَعْمَالُهُمْ) الصالحة كصلة رحم وصدقة فى عدم الانتفاع بها أو التقدير مثل أعمال الذين كفروا أو مثل مبتدأ محذوف الخبر أى فيما يتلى عليكم وأعمالهم حينئذ مستأنف لبيان مثلهم (كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ) بالجمع لنافع والإفراد لغيره (فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ) شديد هبوب الريح لجعلته هباء منثورا لا يقدر عليه ، والعصف اشتداد الريح وصف به زمانه للمبالغة أو المراد أعمالهم للأصنام (لَا يَقْدِرُونَ) أى الكفار يوم القيامة

﴿ مِمَّا كَسَبُوا ﴾ عملوا فى الدنيا ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ أى لايجدون له ثوابا لعدم شرطه وهو فذلكة التمثيل ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَٰلُ ﴾ الهلاك ﴿ الْبَعِيدُ ﴾ الذى لايرجى خلاص من فيه أو ذلك الضلال منهم هو غاية البعد عن الحق ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ متعلق بخلق أى بالحكمة التى يحق أن تخلق عليها بأن تكون دليلا على قدرته على الإعادة وغيرها ، وقرأ حمزة والكسائى خالق السموات ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس ﴿ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ بدلكم لأن من قدر على خلق السموات والأرض قادر على إعدامكم وإتيان أمثالكم ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ بمتعذر ولا متعذر وأصل العزة القوة والشدة ﴿ وَبَرَزُوا ﴾ أى الخلائق من قبورهم ، والتعبير فيه وفيما بعده بالماضى لتحقق وقوعه ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ للحساب والمجازاة أى خرجوا من قبورهم إلى الله ليحاسبهم ويجازيهم على قدر أعمالهم والبراز الفضاء وتبرز حصل فيه ﴿فَقَالَ الضُّعَفَٰؤُا﴾ الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ المتبوعين ، رسمت الهمزة بالواو لأن قياس تخفيفها بالتسهيل كأولو والألف بعدها تشبيها بواو الجمع ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ جمع تابع كغيب وغائب أو مصدر نعت به للمبالغة ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ ﴾ دافعون اليوم ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ من الأولى للتبيين والثانية للتبعيض قدم البيان على المبين للاهتمام ويجوز كون الثانية للتبعيض والأولى بيان حال أى هل أنتم مغنون عنا بعض شىء حال كونه بعض عذاب الله أو الأولى مفعولا والثانية مصدرا أى فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض إغناء ﴿ قَالُوا ﴾ أى الرؤساء ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ للإيمان ﴿ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ لدعوناكم إلى الهدى لكن ضللنا فأضللنا كما اخترنا لكم إلا ما اخترنا لأنفسنا فلا عتب ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ أى جزعنا وصبرنا مستويان علينا لفوات وقت الاعتذار ، والجزع أبلغ من الحزن لأنه يصرف الإنسان عما هو بصدده ويقطعه عنه . قاله فى اللباب ﴿مَّا لَنَا مِن﴾ زائدة ﴿مَّحِيصٍ ﴾ ملجأ ومهرب مما نحن فيه من العذاب من حاص إذا تأخر ويجوز أن يكون كلام الفريقين جميعا ، والمحيص إما مكان أو مصدر . روى أنهم يجزعون يكون خمسمائة عام فلا ينفعهم ثم يصبرون كذلك ثم يقولون سواء علينا ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ ﴾ إبليس ﴿ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أحكم وفرغ منه وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار واجتمعوا عليه فيها يلومونه ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ الذى لاخلف فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة بالجزاء بعد البعث فصدقكم ﴿ وَوَعَدتُّكُمْ ﴾ وعد الباطل أنه غير كائن ﴿ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ جعل تبين خلف وعده كالإخلاف منه لكونه سببه ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ قوة وقدرة أقهركم على متابعتى جبرا ﴿ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إلا دعائى إياكم إلى الكفر والمعاصى بتسويلى فالاستثناء منقطع لأن تسويله ليس من جنس السلطان أى لكن دعوتكم ﴿ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أى أسرعتم فى إجابتى لأنه وافق رأيكم ﴿ فَلَا تَلُومُونِي ﴾ بوسوستى فمن علم أنه عدو لايلام على مثل ذلك ﴿ وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ فى إجابتى وترك إجابة ربكم ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثكم من العذاب أصله من الصراخ الصوت وهمزة أصرخ للسلب أى ما أنا بمزيل صراخكم ﴿ وَمَا أَنتُم

﴿ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ بفتح الياء للجمهور وكسرها لحمزة على أن الإضافة إلى ياء ساكنة كياء غلامي فلما سقط النون بالإضافة اجتمع الساكنان فحركت الثانية ليمكن الإدغام ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ ﴾ بإشراككم إياي مع الله ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ في الدنيا بمعنى تبرأت منه واستنكرته «ما» مصدرية قال تعالى ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم، وحكاية مثل هذا إيقاظ للسامعين ليتدبروا العواقب. ولما بين حال الأشقياء شرع في بيان ما أعد للسعداء من النعيم العظيم الدائم المقرون بالتعظيم فقال ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ ﴾ أدخلهم الملائكة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا ﴾ من الله ومن الملائكة وفيما بينهم ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ عليكم طبتم فادخلوها خالدين. ولما بين أحوال الأشقياء وأحوال السعداء أردفها بضرب المثل كشفا عن حقيقتها وإبرازا للمعقول في صورة المحسوس فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تنظر ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ أي كيف وضعه، والاستفهام للتقرير وفائدته الإيقاظ له أو المعنى ألم تعلمه ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ تفسير لقوله «ضرب الله مثلا» ويجوز أن تكون «كلمة» بدلا من «مثلا» و «كشجرة» صفتها أو خبر مبتدإ محذوف، أي: هي كشجرة وأن تكون أول مفعولي «ضرب» والثاني «مثلا» على تضمينه معنى التصيير أي كيف صير كلمة طيبة مثلا والشجرة الطيبة هي: النخلة، كما في الصحيحين، والكلمة الطيبة هي «لا إله إلا الله» كما عليه جمهور المفسرين ﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ ﴾ في الأرض راسخ فيها بعروقه آمن من الزوال كثبوت الكلمة في قلوب المؤمنين ﴿ وَفَرْعُهَا ﴾ غصنها أو أعلاها ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وارتفاع الأغصان يدل على ثبات الأصل وبعدها عن عفونات الأرض فثمارها نقية طاهرة عن جميع الشوائب كارتفاع فروع الكلمة من الأعمال الصالحات تصعد إلى السماء ولا تحجب حتى تنتهي إلى الله «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» ﴿ تُؤْتِي ﴾ تعطي ﴿ أُكُلَهَا ﴾ ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ ﴾ كل وقت لأن ثمر النخل تؤكل ليلا ونهارا، صيفا وشتاء، إما تمرا أو رطبا أو بسرا أو طلعا أو جمارا وكذلك عمل المؤمن ينال بركته وثوابه كل وقت ولذا اختلفوا في المراد بالحين هنا، فقال مجاهد وعكرمة: «والسنة» لأن النخلة تثمر كل سنة مرة، وقال سعيد بن جبير وقتادة والحسن: «ستة أشهر» يعني من وقت طلعها إلى حين صرامها، وقيل أربعة أشهر من حين ظهور حملها إلى إدراكها وقيل شهران من وقت أكلها إلى صرامها وهو قول سعيد بن المسيب، وقال الربيع: كل وقت من بدء خروجها من الجمار إلى التمر ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ بإرادته ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ يبينها ﴿ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ فيؤمنون لأن في ضربها تصوير المعقول في صورة المحسوس تقريبا للمعاني على الأفهام ووجه تشبيه الكلمة بالنخلة واضح مما قدمنا ووجه تمثيلها بالشجرة على الإطلاق أن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ وأصل قائم وفرع عال وكذا الإيمان لا يتم إلا بتصديق القلب وقول اللسان وعمل الجوارح ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ هي الحنظل كما في الترمذي ﴿ اجْتُثَّتْ ﴾

استؤصلت جثتها بالكلية ﴿ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ﴾ لأن عروقها قريبة ﴿ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ ثبات لكون عروقها على وجه الأرض تتجفف بأدنى ريح وفرعها لم يصعد إلى السماء، كذلك كلمة الكفر لاثبات لها ولا فرع ولا بركة ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ كلمة التوحيد ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فلا يتزلزلون إذا فتنوا فى دينهم كأصحاب الأخدود ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أى فى القبر لما يسألهم الملكان عن ربهم ودينهم ونبيهم فيجيبون بالصواب كما فى حديث الشيخين ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ بالكفر والمعصية فلا يهتدون للجواب بالصواب بل يقولون لاندرى كما فى الحديث ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من تثبيت بعض وإضلال آخرين من غير اعتراض عليه وفيه تنبيه للمؤمن أن لايتكل على ما هو عليه ولا يأمن مكر الله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعلم ﴿ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ أى شكرها ﴿ كُفْرًا ﴾ هم كفار قريش من الله عليهم بمحمد فلم يقبلوا نعمته وآثروا الكفر عليها ﴿ وَأَحَلُّوا ﴾ أنزلوا ﴿ قَوْمَهُمْ ﴾ الذين اتبعوهم على دينهم بإضلالهم إياهم ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ الهلاك ﴿ جَهَنَّمَ ﴾ عطف بيان منها أو بدل ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ يدخلونها حال منها أو من القوم أى داخلين فيها مقاسين حرها ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ المقر هى، جعلها نفس القرار مبالغة وسأل ابن عباس عمر بن الخطاب عن هؤلاء فقال : هم الأجران بنو مخزوم وبنو أمية أخوالى وأعمامك فأما أخوالى بنو مخزوم فاستأصلهم الله يوم بدر وأما أعمامك بنو أمية فأملى الله لهم إلى حين، والمراد الغالب فى البطنين لكن عموم الآية شامل لجميع الكفار ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ شركاء ﴿ لِيُضِلُّوا ﴾ بضم الياء لنافع وابن عامر والكوفيين وبفتحها للباقين ﴿ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ التوحيد دين الإسلام ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ بدنياكم وهواكم - عبادة الأوثان - قليلا أمر تهديد وفى الإتيان به إيذان بأنهم منهمكون فى الشهوات كأنهم مأمورون بها لتفضيهم إلى المهدد به إيذانا بأن الأمرين كائنان لا محالة ولذا علله بقوله ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ ﴾ مرجعكم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ فاستوفوا العاجل قبل فواته ثم أمر المؤمنين المتلذذين بالطاعات بها كاستلذاذ الكفار بالشهوات فقال ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءامَنُوا ﴾ أضافهم إلى نفسه تشريفا لهم جمع عبد، وهذا الجمع فى العرف للتكرمة بخلاف العبيد ومقول « قل » محذوف دل عليه جوابه، أى : قل لعبادى الذين آمنوا أقيموا الصلاة وأنفقوا ﴿ يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ ويجوز أن تكون اللام محذوفة لدلالة قل عليه ليصح تعلق القول بها ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ نصبا على المصدر أى إنفاق سر وعلانية أو على الحال أى مسرين ومعلنين أو ذى سر وعلانية أو على الظرف أى فى سر وعلانية والأحب إعلان الواجب وإخفاء التطوع ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ ﴾ فداء ﴿ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾ مخالة أى صداقة تنفع : هو يوم القيامة لاينفع فيه إلا الإنفاق لوجه الله، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالفتح فيهما على النفى العام. ولما بين أحوال السعداء والأشقياء ورغب ورهب عاد إلى دلائل التوحيد على عادة القرآن وبدأ بأظهرها فقال ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ والخبر ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ تعيشون

به وهو يشتمل المطعوم والملبوس مفعول لأخرج و « من الثمرات » بيان له قدم عليه للاهتمام أو حال منه ويحتمل عكس ذلك ويجوز أن يراد به المصدر فينتصب بالعلة أو المصدر لأن أخرج فى معنى رزق ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ بمشيئته إلى حيث توجهتم ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ بإقرار مائها لانفور أو بتصرفكم فيها أو بتعليمكم كيفية الانتفاع بها ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ فى سيرهما لايفتران وإنارتهما وإصلاح ما يصلحان من المكونات ولولاهما لم يتصور تعيش الحيوان عادة وبهما تعرف الشهور والسنون بتسخير الله وإنعامه بذلك ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ لتسكنوا فيه ﴿وَالنَّهَارَ﴾ لتبتغوا فيه من فضله ﴿وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بلسان المقال أو الحال بعض جميعه ، يعنى : من كل شىء سألتموه شيئاً على حسب مصالحكم إذ لايحل للإنسان جميع ما يطلبه و « من » تبعيضية على رأى سيبويه ، ومفعول « آتى » الثانى محذوف أى شيئا وعلى رأى الأخفش زائدة فى المفعول الثانى وما موصولة أو موصوفة أو مصدرية بمعنى المفعول أو نافية ، أى آتاكم من كل شىء غير سائليه على قراءة تنوين كل ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ بمعنى إنعامه ﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تطيقوا عدها وحفظها فى أنواعها فضلا عن أفرادها فضلا عن شكرها ، ولذا قال عليه السلام « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » لأنها غير متناهية ، وفيه دليل على أن الفرد يفيد الاستغراق بالإضافة ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ﴾ كثير الظلم بوضع الكفران موضع الشكر وظلوم للنعمة بإغفال الشكر ولنفسه بتعريضها للحرمان ﴿كَفَّارٌ﴾ شديد الكفران يجمع ويمنع إن أنعم عليه ، والمراد بالإنسان الجنس لقوله « وقليل من عبادى الشكور » لكن إن كان الظلم والكفر من جاحد فعلى معنى يليق به أو من عاص فعلى معنى آخر يليق به ، ولما كان سياق الآيات فى تذكير كفار مكة ـ الذين جعلوا لله أندادا ـ نعم الله ليشكروها بالإيمان أردفه بقصة إبراهيم الذى يدعون أنهم على ملته ليتبين كذبهم فقال ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ﴾ مكة ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن وقد أجاب الله دعاءه فجعله حرما لايسفك فيه دم إنسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه و « أل » إشارة إلى مافى الذهن ونكر فى البقرة لأن المسئول هناك جعله بلداً من البلاد ثم جعله آمنا ، والمسئول هنا الأمن فقط بعد أن كان بلدا . والله أعلم ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ بمعنى ﴿وَبَنِيَّ﴾ عن ﴿أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ عن عبادتها أى اجعلنى وإياهم منها على جانب بعيد يقال جنبه وأجنبه وجنّبه بالتشديد فالأولان لنجد والثالث للحجاز ، والأصنام ماكان مصورا صورة إنسان من حجر أو صفر أو نحو ذلك والأوثان ماكان غير مصور والمراد بنوه الموجودون حالة الدعاء : أولاده وأولاد أولاده ولا شك أن إبراهيم قد أجيب فيهم وليس المراد جميع نسله إذ عبادة قريش للأصنام لايخفى ولقوله «لا ينال عهدى الظالمين» وقوله «ومن كفر فأمتعه قليلا» وما حكى عن سفيان بن عيينة أن أحدا من أولاد إسماعيل لم يعبد الأصنام محمول على أولاد صلبه ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أى الأصنام ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا

مِنَ النَّاسِ ﴾ بعبادتهم لها ، أسند الإضلال إليهن باعتبار السببية أى فلذلك سألت منك العصمة واستعذت بك من إضلالهن ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ على دينى التوحيد ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ بعضى لاينفك عنى فى أمر الدين متصل بى ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ بالتوبة أو تقدر أن تغفر له حتى الشرك إلا أن الوعيد فرق بينه وبين غيره ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ أى بعضها أو ذرية من ذريتى لحذف المفعول وهى إسماعيل ومن ولد منه فإن إسكانه متضمن إسكانهم أو إسماعيل مع أمه هاجر لما غارت عليها سارة فركب ابراهيم البراق معهما لجاء فى يوم واحد من الشام إلى مكة وهى يومئذ فلاة لاماء ولا أنيس فيها فتركهما هناك بوحى من الله ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم ركب منصرفا فاتبعته أم إسماعيل وقالت أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى لا أنيس فيه ولا ماء ؟ وهو لايلتفت إليها فقالت آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يضيعنا فرجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا تراه استقبل بوجهه البيت ثم قال « ربنا إنى أسكنت من ذريتى » ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ هو مكة ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ الذى كان قبل الطوفان أى الذى حرمت التعرض له والتهاون به إذ لم يزل معظما تهابه الجبابرة وأراد بالبيت مكانه إذ لم يكن هناك بناء إلا بعد ما نشأ إسماعيل أى أسكنتهم به إيثاراً لشرف الجوار ثم صرح بالغرض الأصلى وهو تمييزه بأنواع العبادات بقوله ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ اللام لام كى متعلقة بأسكنت أو لام الأمر والمراد به الدعاء لهم بإقامة الصلاة كأنه طلب منهم الإقامة وسأل من الله أن يوفقهم لها ثم بعد تقديم الوسيلة دعا بقوله ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي ﴾ تميل وتحن ﴿إِلَيْهِمْ﴾ شوقا و « من » للتبعيض قال ابن عباس لو قال أفئدة الناس لحنت إليه فارس والروم والناس كلهم . وروى هشام عن ابن عامر أفئيدة بياء بعد الهمزة يقال هوى إليه يهوى أسرع فهو دعاء للمؤمنين أن يرزقوا حج البيت ودعاء لسكان مكة من ذريته أن يرتفقوا بمن يأتى إليهم لجمع فى دعائه من أمر الدين والدنيا ماظهر بيانه وعمت بركته ﴿وَارْزُقْهُمْ﴾ مع سكناهم واديا لانبات فيه ﴿ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ بأن تجلب إليهم من سائر البلاد أو يرزقونها فيها كما رزقها سكان القرى ذوات الماء والزرع وقد أجاب الله دعاءه لجعله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كل شىء وبنقل الطائف إليه ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ تلك النعم إذا جاءت من حيث لاتحتسب وذلك أدعى إلى الشكر وفيه دليل على أن طلب منافع الدنيا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ نستر ﴿وَمَا نُعْلِنُ﴾ علما لاتفاوت فيه فأنت أعلم بمصالحنا وأرحم بنا فلا حاجة لنا إلى الطلب إلا إظهار العبودية والتلذذ بالتذلل بالافتقار إليك وقيل ما نخفى من الوجد بفراق إسماعيل وأمه بواد غير ذى زرع وما نعلن من البكاء أو ما نخفى من الحزن فى القلب وما نعلن من مقاولتى لأم إسماعيل حين قالت : إلى من تكلنا ؟ قال إلى الله ، قالت : إذاً لايضيعنا ، وتكرير النداء للمبالغة فى التضرع واللجأ إلى الله ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ ﴾ زائدة ﴿ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ يحتمل أن يكون من تتمة كلام

إبراهيم أو من كلام الله تصديقا لإبراهيم وهو تأويل الأكثر . ولما كمل إبراهيم أدعيته ذهب إلى الشام ثم إن أم إسماعيل لما رجعت إلى مكانها الذى تركها فيه عند دوحة عند زمزم فى أعلى المسجد جعلت ترضع إسماعيل وتشرب من ماء السقاء حتى إذا نفد عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى فانطلقت كراهية أن تنظر إليه يموت فوجدت الصفا أقرب جبل إليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى هل ترى أحدا فلم تر أحدا فهبطت حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها فسعت سعى المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات . قال عليه السلام : فلذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه ـ تريد نفسها ـ ثم تسمعت فسمعته أيضا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ـ والأسم : الغوث ، بالضم والفتح شاذ ـ فإذا بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بقدر ماتغرف . قال عليه السلام : لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا فشربت وأرضعت ولدها فقال الملك : لاتخافوا الضيعة فإن ها هنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله فكانت كذلك حتى مرت بها رفقة من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا طائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى ما فيه ماء فأقبلوا إلى ذلك المكان فإذا هم بأم اسماعيل عند الماء فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت : نعم لكن لاحق لكم فى الماء . قالوا : نعم فنزلوا فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كانوا أهل أبيات وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك تزوج امرأة منهم وماتت أم اسماعيل فجاء ابراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته .. الحديث بطوله . أخرجه البخارى وغيره ثم ألهم الله اسماعيل بالعربية البينة فكان أفصح من يعرب وجرهم ابنى قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وكان قحطان أول من تكلم بالعربية عند تبلبل الألسنة. والله أعلم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى﴾ مع ﴿الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾ ولد وله تسع وتسعون سنة ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ ولد وله مائة وثنتا عشرة سنة وعلى الكبر فى موضع الحال قيد الهبة بحال الكبر استعظاما للنعمة وإظهارا لما فيه من الآية ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ لمجيبه من قولك سمع الملك كلامى وهو من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل ، أضيف إلى مفعوله أو فاعله على إسناد السماع إلى دعاء الله على المجاز وفيه إشعار بأنه دعا ربه وسأل منه الولد بقوله : «رب هب لى من الصالحين» فأجابه ووهب له سؤاله حين وقع اليأس منه ليكون من أجل النعم وأجلاها ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ بأركانها فى أوقاتها أو مواظبا عليها ﴿وَ﴾ اجعل ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ من يقيمها وأتى بـ «من» لإعلام الله تعالى له أن منهم كفارا ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ المذكور أو عبادتى أو بعث محمد صلى الله عليه وسلم الذى دعاه بقوله « ربنا وابعث فيهم رسولا ... الآية » ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ هذا قبل أن يتبين له عداوتهما لله ، وقيل أراد آدم وحواء ، وقيل أسلمت

أمه وقرئ والدى مفردا وولدى ، وقدم مغفرة نفسه ليكون أقرب إجابة لمن دعا له بعد ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كلهم ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ﴾ يثبت ﴿ الْحِسَابُ ﴾ شبه ثبوته بقيام الشخص على رجليه كما فى قولهم قامت الحرب على ساق أو المعنى يوم يقوم الناس إليه ، فأسند الفعل إليه مجازا ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ تنبيه على اطلاعه على أحوالهم ووعد بأنه يعاقبهم على قليله وكثيره ونهى عن الاغترار بإمهاله وتسلية المظلوم وتهديد للظالم ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ بلا عذاب ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ فلا تقر فى أماكنها لهول ما ترى . شخص بصر الرجل : بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما لشدة الدهشة والحيرة ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين إلى الداعى مقبلين بأبصارهم حال ﴿ مُقْنِعِي ﴾ رافعى ﴿ رُءُوسِهِمْ ﴾ إلى السماء أصله من القنوع وهو السؤال لأن السائل يرفع رأسه أو يده لدى السؤال ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ بصرهم ومن صفة أهل الموقف أنهم رافعون رءوسهم إلى السماء قد شغلهم ما بين أيديهم ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ ﴾ قلوبهم ﴿ هَوَاءٌ ﴾ خالية من العقل لفزعهم ، ولذا يقال للأحمق وللجبان قلبه هواء أى لا رأى فيه قال زهير « من الظلمان جؤجؤه هواء » ﴿ وَأَنْذِرِ ﴾ خوف ﴿ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ مفعول ثان لأنذر يوم القيامة أو يوم الموت فإنه أول أيام عذابهم ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصى ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا ﴾ أخر العذاب عنا وردنا إلى الدنيا وأمهلنا ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ مقدار ما نؤمن بك ﴿ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ إلى التوحيد ﴿ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ فى أوامرهم ونواهيهم جزم على الجواب للأمر ، وقيل يقولون ذلك عند الموت فيقال لهم توبيخا ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ ﴾ حلفتم ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ فى الدنيا ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ عنها إلى الآخرة بقسمكم لا يبعث الله من يموت أو شبه حالهم بحال من أيقن بالخلود حيث شيدوا البنيان وطال بهم الزمان بنوا مشيدا وأملوا بعيدا ﴿ وَسَكَنْتُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى من الأمم السابقة ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ بما شاهدتم فى منازلهم من آثار ما نزل بهم وما تواتر عندكم من أخبارهم فلم تنزجروا وفاعل تبين هو مضمون كيف فعلنا لتجرده عن الاستفهام ﴿ وَضَرَبْنَا ﴾ بينا ﴿ لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ فى القرآن فلم تعتبروا أو بينا لكم أنكم مثلهم فى استحقاق العذاب بالكفر أو بينا لكم صفاتهم التى فعلوا وما فعل بهم التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا ﴾ لإبطال الحق وتقرير الباطل ﴿ مَكْرَهُمْ ﴾ المستفرغ فيه جهدهم ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ علمه وجزاؤه وضمير الجمع للذين ظلموا أنفسهم أو لكفار قريش ومكرهم ذكر فى آية « وإذ يمكر بك الذين كفروا » ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ كَانَ مَكْرُهُمْ ﴾ وإن عظم ﴿ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ المعنى لا يعبأ به ولا يضر إلا أنفسهم ، والمراد بالجبال هنا قيل حقيقتها وقيل شرائع الإسلام المشبهة بها فى القرار والثبات واللام لام الجحود ، وقرأ الكسائى بفتح اللام ورفع الفعل فإن هى المخففة واللام هى الفارقة ، والمراد تعظيم مكرهم بكونه يروم إزالة ما هو كالجبال من شريعته ومعجزاته

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ بالنصر الذى وعدهم فى مواضع شتى كقوله إنا لننصر رسلنا كتب الله لأغلبن . وقدم المفعول الثانى اهتماما ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعجزه شىء ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ من أعدائه لأوليائه ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ﴾ نصب يوم على البدل من يوم يأتيهم العذاب أو باذكر مقدراً أو ظرف للانتقام وهو يوم القيامة ويحتمل أن يكون التبديل فى الذات ويدل له حديث الصحيحين : « يحشر الناس على أرض بيضاء نقية » وفى مسلم سئل النبى صلى الله عليه وسلم « أين الناس يومئذ ؟ قال : على الصراط » وعن على : « تبدل الأرض أرضاً من فضة والسماء سماء من ذهب » وفى الصحيحين : « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة نزلا لأهل الجنة » وعلى هذا التأويل جمهور المفسرين ، ويحتمل أن يكون التبديل فى الصفات . روى عن ابن عباس : تبدل أوصاف الأرض بتسيير جبالها وتفوير بحارها فتستوى لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً ، وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها . قال فى غاية الأمانى : هذا التأويل هو الظاهر لآية « يومئذ تحدث أخبارها » وهو أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل عليها ، ولما قال أهل اللغة : إن التبدل تغيير الصفات مع بقاء الجوهر والإبدال تنحية الجوهر وإحداث آخر ، وأجاب الأولون عن الآية بأن يكون الإخبار قبل التبديل . والله أعلم ﴿وَبَرَزُوا﴾ خرجوا من القبور ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فلا مستغاث لأحد إلى غيره ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ ﴾ مشدودين مجمعين مع شياطينهم أو قرن بعضهم مع بعض بحسب مشاركتهم فى العقائد والأعمال أو مع ما اكتسبوا أو قرنت أيديهم وأرجلهم ﴿ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ القيود أو الأغلال متعلق بمقرنين أو حال من ضميره ﴿ سَرَابِيلُهُمْ ﴾ قمصهم ﴿ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ هناء الإبل وهو ما يتحلب من الأبهل أو العرعر فيطبخ فيهنأ به الإبل الجرب فيحرق الجرب بحدته وهو أسود منتن تشتعل فيه النار بسرعة ، يطلى به جلود أهل النار حتى يكون طلاؤه لهم كالقمص ليجتمع عليهم لذع القطران ووحشة لونه ونتن ريحه مع إسراع النار فى جلودهم . وفى غاية الأمانى : الأبهل شجر كبير له شوك وأولاد يطبخ ويطلخ به جلود الإبل الجرب . اهـ . وقرأ يعقوب من قِطرٍ آن على أنها كلتان القطر : النحاس ، والآنى المنتهى فى الحرارة ﴿ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ ذكر الوجوه لأنها أشرف الأعضاء ، وسرابيلهم استئناف ، وتغشى وجوههم عطف عليه لإفادة الاستمرارين وليس حالا ، إذ جعل المضارع المثبت حالا مع الواو لا يرضاه البلغاء ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ ﴾ متعلق ببرزوا ﴿ كُلَّ نَفْسٍ ﴾ مؤمنة وكافرة ﴿ مَا كَسَبَتْ ﴾ من خير وشر ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ إذ لا يشغله حساب عن حساب ﴿ هَذَا ﴾ القرآن أو ما فى هذه السورة من العظة والتذكير ، أو ما وصفه من قوله « فلا تحسبن الله » ﴿ بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ كفاية لهم فى الموعظة أو أنزل لتبليغهم ، وهذا كالفذلكة لما فى السورة لتكون الخاتمة على منوال الفاتحة وفيه من براعة الختام ما لا يخفى ﴿ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ عطف على محذوف أى لينصحوا به ولينذروا به ﴿وَلِيَعْلَمُوا﴾ بما فيه من الحجج ﴿أَنَّمَا هُوَ﴾ أى الله ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾

لأنهم إذا أنذروا وخافوا دعاهم ذلك إلى النظر الموصل إلى التوحيد لأن الخشية أصل الخير كله ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ ﴾ بإدغام التاء في الأصل في الذال ينعظ ﴿ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ العقول الخالصة إن عرض لهم ذهول فيتذكروا ويرتدعوا عما يرديهم ويتذرعوا بما يحظيهم ، واعلم أن الله تعالى ذكر لهذا البلاغ ثلاث فوائد التي هي الغاية . والحكمة في إنزال الكتب : تكميل الرسل للناس واستكمال القوة النظرية التي منتهى كمالها التوحيد واستصلاح القوة العملية الذي هو التدرع بلباس التقوى ، جعلنا الله من الفائزين بها ، وحشرنا في زمرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وآله الطيبين .

[تم تفسير سورة إبراهيم]

سورة الحجر
مكية ـ تسع وتسعون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ الر ﴾ الله أعلم بمراده بذلك ﴿ تِلْكَ ﴾ هذه الآيات ﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ القرآن والإضافة بمعنى « من » ﴿ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ مظهر للحق من الباطل ، عطف بزيادة صفة وتنكيره للتفخيم أي آيات الجامع بكونه كتاباً كاملا وقرآناً يبين الرشد من الغي بياناً غريباً ﴿ رُبَمَا ﴾ بالتخفيف لنافع وعاصم والتشديد للباقين لغتان والأولى أفصح لأهل الحجاز ﴿ يَوَدُّ ﴾ يتمنى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين ، أو حين ظهور الإسلام ، أو حين حلول الموت ، أو حين إخراج الموحدين من النار ﴿ لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ قبل ذلك وما كافة تكف رب عن الجر فتجوز دخوله على الفعل وحقه أن يدخل الماضي لكن المترقب في كلامه تعالى كالماضي المحقق وقيل « ما » نكرة موصوفة و « رب » للتقليل أو التكثير ﴿ ذَرْهُمْ ﴾ اترك الكفار يا محمد بعد ما بلغت وأنذرت ﴿ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ بلذات دنياهم ﴿ وَيُلْهِهِمُ ﴾ يشغلهم ﴿ الْأَمَلُ ﴾ أي يوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال عن الاستعداد للمعاد ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم إذا عاينوا جزاءه والمقصود إقناط الرسول من ارعوائهم وإيذانه بأنهم من أهل الخذلان وأن نصحهم اشتغال بما لا طائل تحته وفيه إلزام للحجة وتحذير عن إيثار التنعم وما يؤدي إليه طول الأمل . قال في لباب التأويل : وفي الآية دليل على أن إيثار التلذذ والتنعم في الدنيا

يؤدى إلى طول الأمل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين . اه . ومثله فى غاية الأمانى ، وفى الحديث « شرار أمتى الذين ولدوا فى النعيم وغذوا به : همتهم ألوان الطعام وألوان الثياب يتشدقون فى الكلام » اه . وفى « ذرهم يأكلوا » وعيد وتهديد وفى « فسوف يعلمون » وعيد ثان ، قيل : الأول فى الدنيا والثانى فى الآخرة ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أريد أهلها ﴿ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ ﴾ أجل مقدر كتب فى اللوح المحفوظ ﴿ مَعْلُومٌ ﴾ محدود لهلاكها فلا تستبطئن هلاكهم فإنه واقع لا محالة ولكن له وقت معلوم كما جرى للأمم المكذبة ، والمستثنى جملة واقعة صفة لقرية ، والأصل أن لا يدخلها الواو كقوله فى الشعراء « إلا لها منذرون » لكن أدخلت عليه تأكيداً للصوقها بالموصوف لدلالة الواو على الجمع والمعية لأن الوصف هنا ألصق بالموصوف مما فى الشعراء أى لأنه لازم عقلى وذلك عادى جرت به سنة الله ﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا ﴾ المكتوب ﴿ وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ، ذكر الضمير لاعتبار المعنى ﴿ وَقَالُوا ﴾ أى كفار مكة للنبى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ القرآن فى زعمه ﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ أى تقول قول المجانين تدعى أن الله أنزل عليك الذكر : استبعاد لذلك منهم ﴿ لَوْ مَا ﴾ هلا ﴿ تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ ﴾ لتشهدوا أنك نبى أو لإهلاكنا ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى قولك إنك نبى وإن هذا القرآن من عند الله ، وأصل « لو » للشرط فإذا ركبت مع « ما » أو « لا » تأتى لامتناع الشىء لوجود غيره فى الأسماء وللتحضيض فى الأفعال قال تعالى ﴿ مَا تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ بالبناء للفاعل وفيه حذف إحدى التاءين للجمهور وبالبناء للمفعول لشعبة وبالنون مسنداً إلى الله لحمزة والكسائى وحفص ونصب الملائكة ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ بالعذاب أو الوحى أو بالحكمة ولا حكمة فى إرسال الملائكة إليهم لما تقدم فى قوله « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا .. الآية » ﴿ وَمَا كَانُوا إِذًا ﴾ حين نزول الملائكة بالعذاب ﴿ مُنْظَرِينَ ﴾ مؤخرين ، أو المعنى : لو نزلوا عياناً لزال إمهالهم ثم أجاب عن إنكارهم إنزال الذكر عليه بقوله ﴿ إِنَّا نَحْنُ ﴾ تأكيد لاسم إن أو فصل ﴿ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ القرآن ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من التبديل والتحريف والزيادة والنقص بأن جعلناه معجزاً مباينا لكلام البشر بحيث لا يخفى تغيير نظمه على أهل الدين وبصونه عن المعارضة فلم يقدر أحد أن يعارضه ويجعل العلماء الراسخين يذبون عنه إلى آخر الدهر فلم يقدر الملحدة على إفساد معناه فلا ينطرق إليه خلل ، وقيل الضمير فى « له » للنبى والأول أوجه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ﴾ رسلا ﴿ مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ﴾ فرق ﴿ الْأَوَّلِينَ ﴾ من شايعه اتبعه ، أو من شاع الأمر ظهر واشتهر ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ كاستهزاء قومك بك ، وهذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم و « ما » نفى للحال لا يدخل إلا مضارعاً بمعنى الحال أو ماضياً قريبا منه وهذا على حكاية الحال الماضية ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أى مثل إدخالنا التكذيب فى قلوب أولئك الأولين ﴿ نَسْلُكُهُ ﴾ ندخله ﴿ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ كفار مكة ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ بالنبى أو القرآن ﴿ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم وهؤلاء مثلهم

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ على هؤلاء المقترحين ﴿ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ ﴾ فى الباب ﴿ يَعْرُجُونَ ﴾ يصعدون إلى السماء نهاراً لا لبس فيه ويرون عجائبها أو يصعد الملائكة وهم يشاهدونهم ﴿ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ ﴾ بتشديد الكاف للجمهور وبالتخفيف لابن كثير أى سدت بالسحر ﴿ أَبْصَارُنَا ﴾ من سكرت النهر سددته ، أو من السكر وأريد به لازمه وهو اختلال العقل والتحير ﴿ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴾ سحرنا محمد وما نراه لا حقيقة له بل يخيل إلينا بنوع من السحر والمعنى أنهم معاندون لا تنفعهم كل آية ، ولذا أردفه بدلائل الوحدانية الظاهرة فى الآفاق التى فيها غنية عن طلب غيرها بقوله ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ اثنى عشر مختلفة الهيئات والخواص وهى الحمل محركة ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . وهى منازل الكواكب السبعة السيارة : الزحل ، والمريخ كسكين ، والمشترى ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر . وهذه البروج مقسومة على ثمانية وعشرين منزلا لكل برج منزلان وثلث منزل تقطعها الشمس فى كل سنة مرة والقمر فى ثمانية وعشرين يوماً ، وأصل البرج فى اللغة الظهور ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بالكواكب البهية الأشكال نزهة ﴿ لِلنَّاظِرِينَ ﴾ لكل من يتأتى منه النظر أو المعتبرين المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها ﴿ وَحَفِظْنَاهَا ﴾ بالشهب ﴿ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ مرجوم ، صفة ذم لامفهوم له ، فلا يقدر أن يصعد إليها ويطلع على أحوالها أو يتصرف فى أمرها أو يسوس أهلها ﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ ﴾ اختلسه وخطفه بدل من كل شيطان أو نصب على الاستثناء المنقطع ، أى لكن من استرق السمع ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ كوكب يضىء مثل شعلة النار يحرقه أو يثقبه أو يخبله ، ومعنى « مبين » ظاهر يراه كل ذى بصر ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ جبالا ثوابت لئلا تتحرك بأهلها ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ مقدر بمقدار معين تقتضيه حكمته أو مستحسن مناسب من قولهم كلام موزون أى مايوزن ويقدر ، أو له وزن أى قدر فى أبواب النعمة ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾ بالياء ، تعيشون بها أى أسباب العيش من سائر الأنواع من المطاعم والملابس ﴿ وَ ﴾ جعلنا لكم ﴿ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ من العيال والعبيد والدواب والأنعام ، وإنما يرزقهم الله ، تزعمون أنكم ترزقونهم وأنتم مخطئون فى ذلك فإن الله هو الرزاق ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ﴾ مفاتح خزائنه أو نحن قادرون عليه شبه اقتداره على الإيجاد بحال من يكون تحت يده خزانة لا مانع له من إخراج ما فيها وشبه المقدورات بالمخزونات وقيل المراد فى العرش تمثال جميع الخلق ﴿ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ أى ماننزل المطر الذى هو سبب الأرزاق من السماء ، أو ما ننزل الموجودات من سماء القدرة إلا على حسب المصالح أو حسب الأوقات والأشخاص على مقتضى الحكمة ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ حوامل للخير أو للسحاب ، جمع لاقحة أو ملاقح تلقح الشجر والسحاب فتملئ ماء جمع ملقحه ، حذفت الميم تخفيفا ، وفى القاموس : ألقحت الرياح الشجر فهى

لواقح وملاقح ، وقال الجوهرى : لايقال ملاقح أو هو من النوادر قال فى لباب التأويل : والأظهر إلقاحها السحاب ﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ السحاب ﴿ مَاءً ﴾ مطرا ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ جعلناه لكم سقيا يقال سقيته : أعطيته مايشرب من يدى إلى فيه وأسقيته جعلت له سقيا فالأول لاتعب فيه لمن يشرب ولذا يعبر به لما فى الآخرة نحو « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » بخلاف الثانى فلذا يعبر به لما فى الدنيا ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أى ليست خزائنه بأيديكم أى لستم قادرين على إخراجه ولا حفظه فى الغدران والعيون والآبار لأن طبيعة الماء تقتضى الغور فوقوفه لابد له من سبب مخصص أثبت لنفسه الاقتدار على كل ممكن بطريق التمثيل بالخزانة المملوءة مايحتاج إليه الناس ثم نفى عنهم الاقتدار على ممكن خاص هو الماء الذى لا يصبرون عنه على وجه تضمن إثباته لغيرهم وليس الغير إلا القادر تعالى شأنه ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي﴾ كل حيوان ونام ﴿وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقون نرث جميع الخلق ، كرر الضمير فى إنا لنحن للدلالة على الحصر ، وأكده بإن واللام لكون الكلام مع من يقول : «ما هى إلا حياتنا الدنيا» ولما بين كمال قدرته وهو دليل على علمه أردفه ببيان كمال علمه فقال : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ ﴾ من تقدم منكم ولادة وموتا من لدن آدم ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ المتأخرين إلى يوم القيامة أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد أو من تقدم فى الإسلام أو الجهاد أو كل طاعة ومن تأخر . قال ابن العربى : وفيه دليل على فضل أول الوقت والصف الأول لكن ماجاور الإمام لايكون لكل أحد وإنما هو لمن قال عليه السلام : « ليلنى منكم أولوا الأحلام والنهى » فما يلى الإمام ينبغى أن يكون لمن هذا صفته فإن نزله غيره أخر عنه ويتقدم هو إليه لأنه حقه بأمر صاحب الشريعة كالمحراب هو موضع الإمام تقدم أو تأخر . اهـ . وقال ابن حجر : قد صح أن الخلفاء الأربعة وباقى العشرة كانوا أبدا أمام رسول الله فى القتال وخلفه فى الصلاة فى الصف الأول ليس أحد من المهاجرين والأنصار يقوم مقام واحد منهم غاب أو شهد . اهـ . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ لا محالة للجزاء وتوسيط الضمير للدلالة على أنه القادر والمتولى لحشرهم لاغير ، وتصدير الجملة بإن لتحقق الوعد والتنبيه على أن ماسبق من الدلالة على كمال قدرته وعلمه بتفاصيل الأشياء يدل على صحة الحكم كما صرح به بقوله ﴿ إِنَّهُ حَكِيمٌ ﴾ باهر الحكمة متقن فى أفعاله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ وسع علمه كل شىء ويجوز أن يكون الوصفان نشراً لقوله « إنا لنحن نحيى ونميت » ولقوله «ولقد علمنا المستقدمين» . ولما ذكر جملا من الآيات المبثوثة فى الآفاق أشار إلى آيات الأنفس حثاً على الشكر للنعمة بها بقوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ آدم أو الجنس ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ طين يابس أجوف يزوج بالرمل قبل الطبخ يسمع له صلصلة أى صوت إذا نقر فإذا طبخ كان فخاراً ﴿ مِنْ حَمَإٍ ﴾ طين أسود منتن من طول مجاورة الماء ، صفة لصلصال أى كائن من حما أو بدل بإعادة الجار ﴿ مَسْنُونٍ ﴾ مصور صورة إنسان من سنة الوجه أى صفحته أو مصبوب كالجواهر المذابة تصب فى القوالب كأنه

أفرغ الحمأ فصور منها صورة الإنسان ، أو منتن من سن الماء إذا تغير ﴿وَالْجَانَّ﴾ أبا الجن وهو إبليس وقيل الجان أبو الجن وإبليس أبو الشياطين والأول أصح لأن الشياطين نوع من الجن لاشتراكهم فى الاجتنان أى الاستتار وقيل أريد به الجنس كما أريد به الإنس وانتصابه بفعل يفسره ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أى قبل آدم أو قبل الإنس ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ الحر الشديد النافذ فى المسام أصل السموم حر النهار كما أن الحرور حر الليل ، وإضافه النار إليه مبالغة كما فى رجل سوء ، قاله فى غاية الأمانى ، وقال السيوطى فى التكملة : هى نار لادخان لها تنفذ فى المسام ، وفى اللباب : يعنى من ريح حارة تدخل مسام الإنسان من لطافها وقوة حرارتها فتقتله إلى أن قال : كان إبليس نوعا من الملائكة يسمى الجان خلقوا من نار السموم وخلقت الجن من مارج من نار وخلقت الملائكة من النور ومساق الآية للدلالة على كمال قدرة الله وبيان بدء خلق الثقلين تنبيها على المقدمة الثانية التى يتوقف عليها إمكان الحشر وهى قبول المواد للجمع والإحياء فبغاية الأجساد أن تعود ترابا كما كانت حالة البدء ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ صورته وأكملت خلقه ﴿وَنَفَخْتُ﴾ أجريت ﴿فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فصار حيا وإضافة الروح إليه تشريف لآدم إضافة مزية لاجزئية وخصوصية لاجنسية ﴿فَقَعُوا﴾ اسقطوا ﴿لَهُ سَاجِدِينَ﴾ سجود تحية بالانحناء وهو أمر إيجاب ذكر بلفظ الوقوع وهو سقوط الشىء من غير اختيار حثا على المبادرة إلى المأمور به بعد وجود الشرط ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ عطف على مقدر أى ثم بعد تلك المقالة خلقه ونفخ فيه الروح فسجد الملائكة وأكد بتأكيدين لئلا يتوهم خروج بعض المقربين ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ هو أبو الجن كان بين الملائكة ﴿أَبَىٰ﴾ امتنع من ﴿أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ فالاستثناء إن جعل منقطعا اتصل به « أبى » أى لكن إبليس أبى وإن جعل متصلا كان استثنافا على أنه جواب سائل ما الباعث له على ذلك فقيل أبى وجمعه مع استكبر فى « البقرة » والاقتصار هنا على الإباء وفى « ص » على الاستكبار تفنن يسمى بالاقتدار فى أنواع البديع لأن تلك الأفعال كلها صادرة منه دالة على كفره وتمرده ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ أى مانع منعك ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ فـ « لا » زائدة أو أى غرض لك فى عدمه ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ اللام لتأكيد النفى أى لا يصح لى فى حالى أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ﴾ جثمانى وأنا روحانى ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ وهو أخس العناصر ، وخلقنى من نار وهى أشرفها لا يليق بى أن أكون مكرما له فعدل عن قوله من روحى وتقدم الكلام فى ذلك فى سورة الأعراف ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو السماء أو الملائكة ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرود ، وأصل الرجم القتل بالحجارة ويلزمه البعد فاستعمل فيه وهذا وعيد دل على أن شبهته واهية لاتستحق الجواب أو يتضمن الجواب ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ الجزاء على الأعمال فإنه منتهى أمد اللعن ويرى بعده ما ينسى اللعن عنده أو لأنه أبعد غاية يضربها الناس ومعناها أبدا ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ الفاء

جواب شرط دل عليه الكلام أى إذا كنت مطرودا فأمهلنى ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى الناس وهو نهاية دار التكليف أراد أن يجد فسحة فى الإغواء ونجاة من الموت إذ لا موت بعد البعث فأجابه إلى الأول دون الثانى ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وقت النفخة الأولى ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أى بإغوائك لى والباء للقسم وجوابه ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ المعاصى أو المراد بالأرض الدنيا حتى يستحبوها على الآخرة ويطمئنوا إليها ، وإنما عدى الفعل بـ «فى» دلالة على أنها مستقر التزيين يمكن فيها تمكن المظروف من الظرف ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأحملنهم على الغواية ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام لنافع والكوفيين من أخلصته اخترته ، وبكسرها للباقين أى أخلصوا نفوسهم وأعمالهم فلا يعمل فيهم كيدى ﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ أى حق على أن أراعيه أو يؤدى إلى الوصول إلىّ آثر على لكونه أدل من إلى على التمكن ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا اعوجاج فيه وهو ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المؤمنين المخلصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قوة أو المراد بعبادى الجنس ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ الكافرين استثناء منقطع على الأول متصل على الثانى والأوجه انقطاعه على الوجهين إذ لا سلطان له على الغاوى أيضا لقوله « وما كان لى عليكم من سلطان » ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ الغاوين ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وهم من اتبعك منك تأكيد للضمير لا حال لأنه علم للتأكيد والموعد مكان أو مصدر بتقدير مضاف أى مكان وعدهم ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ يدخلون منها لكثرتهم أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى المتابعة وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية لأن أهلها سبع فرق ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ من الأتباع ﴿جُزْءٌ﴾ وقرأ أبو بكر بضم الزاى ﴿مَقْسُومٌ﴾ فأعلاها للموحدين العصاة والثانى للنصارى والثالث لليهود والرابع للصابئين والخامس للمجوس والسادس للمشركين والسابع للمنافقين ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ المخلصين من عبادى ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ تجرى فيها أى لكل واحد جنات وعيون متعددة أو لكل واحد جنة واحدة وعين والأول أوجه ، وقراءة ابن كثير وحمزة والكسائى وأبى بكر وابن ذكوان بكسر العين فى جميع القرآن ويقال لهم ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أى سالمين من كل مخوف أو مع سلام أى سلموا وادخلوا أو مسلما عليكم من رب رحيم ﴿آمِنِينَ﴾ من كل آفة وزوال ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ حقد أصله الخيانة ﴿إِخْوَانًا﴾ حال من هم والعامل معنى الإضافة كما فى ملة ابراهيم أى لا يتحاسدون على درجات الجنة ومراتب القرب لأن كلا راض بما هو فيه ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ حال منه أيضا أى لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرة بهم ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب استئناف أو حال أخرى أو حال من ضمير متقابلين ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبدا إذ تمام النعمة بالخلود ﴿نَبِّئْ﴾ خبر يا محمد ﴿عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ﴾ للمؤمنين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ للعصاة ﴿هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ المؤلم فذلكة لما سبق من الوعد والوعيد ترغيبا للمتقين وترهيبا للغاوين وأسند الغفران والرحمة إلى ذاته صريحا دون العذاب إيماء

إلى وفور رحمته ولذا أكده بأن وأنا وأل ، وفيه تسكين روع الخائفين ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهم ملائكة اثنا عشر أو عشرة أو ثلاثة منهم جبريل ، أى : أخبرهم بحديث الضيف فإن فيه تذكرة الفريقين وعطفه على « نبئ عبادى » ليكون كالبرهان على الوصفين وبدأ بذكر الضيف لأنهم المنشأ وأدرج فى القصة ذكر القنوط على طريق السؤال والجواب تحذيرا منه فإن نسمة من رحمته تزيل جبالا من الذنوب ولذلك كان القنوط كفرا لأنه تكذيب لقوله أو سلب للقدرة منه ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ أى وقت دخولهم عليه ﴿ فَقَالُوا ﴾ سلمنا ﴿ سَلَامًا ﴾ أو نسلم عليك سلاما ﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم لما عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا ﴿ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴾ خائفون ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ لا تخف ﴿ إِنَّا ﴾ رسل ربك ﴿ نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ إذا بلغ ، استئناف جار مجرى التعليل أى بشروه بالولد ليسكن خوفه والغلام هو إسحاق وحيث ذكره الله فى القرآن مع البشارة وصفه بالعليم وحيث ذكر إسماعيل وصفه بالحليم ولعل ذلك لتفاوت الأخلاق وكان الغالب على كل منهما تلك الصفة ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي ﴾ بالولد ﴿ عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾ حال أى مع مسه إياى استفهام تعجب أو إنكار بمقتضى العادة وكذا قوله ﴿ فَبِمَ ﴾ فبأى شىء ﴿ تُبَشِّرُونَ ﴾ بكسر النون مخففا لنافع على حذف نون الجمع لاجتماعه بنون الوقاية مع حذف الياء لدلالة الكسر عليها وبكسر النون مشددا لابن كثير على إدغامها فى نون الوقاية وبفتح النون للباقين على حذف نون الوقاية والمفعول معا ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ بالصدق الثابت فى نفس الأمر وهو قول الله ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ الآيسين من ذلك والنهى عن الشىء لا يستلزم صدوره ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ ﴾ بفتح النون للجمهور والكسر لأبى عمرو والكسائى وقرئ بالضم ﴿ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ الكافرون الذين لا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ﴾ شأنكم الذى أرسلتم لأجله سوى البشارة ﴿ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ولعله علم أن كمال المقصود ليس البشارة لأنهم كانوا عددا والواحد يكفى فى البشارة ولأنهم بشروه بعد ما خاف لإزالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدءوه بها ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ كافرين أى قوم لوط لإهلاكهم ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ ﴾ المؤمنين به إن كان استثناء من قوم كان منقطعا إذ القوم موصوفون بالإجرام وإن كان من الضمير فى مجرمين كان متصلا ، والمعنى : أرسلنا إلى قوم أجرم كلهم إلا آل لوط منهم لنهلك أولئك وننجى أولاء ويدل عليه ﴿ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لحمزة والكسائى مما يعذب به القوم ﴿ أَجْمَعِينَ ﴾ والجملة استئناف إذا اتصل الاستثناء ومتصل بآل لوط جار مجرى خبر لـ « لكن » إذا انقطع وعلى هذا جاز أن يكون قوله ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ ﴾ استثناء من آل لوط أو من ضميرهم وعلى الأول لا يكون إلا من ضميرهم لاختلاف الحكمين . قال ابن العربى فى الأحكام : الاستثناء الثانى يرجع إلى ما يليه لا إلى الكلام الأول لأنه تناقض أى أرسلنا إلى إهلاك قوم مجرمين إلا آل لوط فليسوا منهم إلا امرأته فإنها خارجة عن آله فيترتب على هذه المسألة من الفقه أن قول المقر :

له عندى عشرة إلا ثلاثة إلا واحداً يلزمه ثمانية وقول المطلق أنت طالق ثلاثا إلا اثنتين إلا واحدة فتلزمه اثنتان . اه ﴿قَدَّرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقين فى العذاب لكفرها ، من غبر إذا بقى وهو من الأضداد . وقرأ شعبة قدرنا بالتخفيف وإنما علق والتعليق من خواص أفعال القلوب لتضمنه معنى العلم أو فيه معنى القول وأصله جعل الشىء على مقدار غيره وإسناد الملائكة التقدير إلى أنفسهم لقربهم من الله كما يقول خواص الملك يسندون فعله إليهم ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ﴾ أى لوطا ﴿الْمُرْسَلُونَ . قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ لا أعرفكم ولا أعرف لأىّ غرض دخلتم علىّ فعند ذلك ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا﴾ أى قومك ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يشكون وهو العذاب الذى كنت توعدهم به . وعبر بالموصول لتحقق العذاب وتحقق صدقه ، وفى لفظ الامتراء تذكير ما كان يكابد منهم من التكذيب والجحود وبل لإضراب الإنكار ، أى ما جئناك بما تنكرنا لأجله بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك ﴿وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ باليقين من عذابهم ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به ، وعبر فى العذاب بجاء وفى الحق بأتى لأن جاء موضوع للأعيان المشاهدة ، وأتى للأزمان والمعانى . والله أعلم . وكل هذا تأكيد وتنفيس للكرب عن لوط وإلا فإنه لم يشك فى قولهم بعد علمه بأنهم مرسلون ﴿فَأَسْرِ﴾ بهمز وصل لنافع وابن كثير والقطع للباقين ، وقرئ فسر ﴿بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ﴾ طائفة ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ والقطع بسكون الطاء ظلمة آخر الليل ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ امش خلفهم تسرع بهم وتطلع على حالهم وهو إرشاد إلى ما هو أدخل فى الحزم بأن يقدم أهله أمامه ليكون فارغ القلب ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم أو كناية عن السرعة لأن الملتفت لا بد له من أدنى وقفة ، وفيه إشارة إلى أن من أراد السفر الحقيقى أى إلى الله فهو أولى بقطع العلائق وهدم العوائق والإقبال بالكلية على الله ﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ وهو الشام أو مصر ، وإنما عدى « امضوا » إلى « حيث » تعديته إلى الظرف المبهم لإبهامه فى الأمكنة وكذلك الضمير المحذوف فى « تؤمرون » ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ﴾ أوحينا مقضياً ولذا عدى بإلى وفائدة تعبيره بالقضاء أن يعلم أنه كائن لا محالة ﴿ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ تفسيره ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ محله النصب على البدل منه أبهمه ثم فسره تعظيما للأمر وتفخيما له وقرئ بالكسر على الاستئناف ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أى يتم استئصالهم فى الصباح ، حال من هؤلاء أو من الضمير فى مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فإن دابر هؤلاء فى معنى مدبريهم ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ وهم قوم لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حال أى بأضياف لوط لما رأوهم أجمل الخلق طمعاً فى فعل الفاحشة ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ والضيف فى الأصل مصدر ولذا يستوى فيه الواحد والجمع فى الغالب وقد يجمع على أضياف وضيوف وضيفان ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بفضيحة ضيفى فالإساءة إلى الضيف إساءة إلى المضيف وإنزال عار به ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ باجتناب الفاحشة ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ لا تذلونى من الخزى وهو الذل أو من الخزاية وهى الحياء أى لا تخجلونى ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أن تجير منهم أحداً أو عن

إضافتهم ﴿ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ نساء أمتى تكفيكم فى قضاء الشهوات ﴿ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ فتزوجوهن أو إن كنتم فاعلين ما أقول لكم ولا أظنكم تفعلون ، شك فى قبولهم النصح قال تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم أى وحياتك ، أو الخطاب للوط ، قالت الملائكة له ذلك وهو بفتح العين لغة فى العمر بضمها ولا يستعمل إلا باللام فى القسم ، وهو مبتدأ محذوف الخبر أى لعمرك قسمى ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ قوم لوط أو قريش والجملة حينئذ اعتراض ﴿ لَفِي سَكْرَتِهِمْ ﴾ شدة غوايتهم وغفلتهم ﴿ يَعْمَهُونَ ﴾ يتحيرون لا يفرقون بين الخطأ والصواب وكيف يسمعون نصحك كف للوط أو النبى صلى الله عليه وسلم عن إرادة نصحهم لعدم القابلية . قال ابن عباس : ماأقسم الله بحياة أحد سوى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن العربى : لا يجوز لمخلوق أن يحلف بغير الله فإن فعل أثم فقط ولا يلزم به كفارة ، وقال ابن حنبل : من أقسم بالنبى لزمته كفارة إن حنث إذ لا يتم الإيمان إلا به . اهـ . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ﴾ صيحة جبريل فهلكوا ، والتعبير بالأخذ إشارة إلى كمال التمكن ﴿ مُشْرِقِينَ ﴾ داخلين فى وقت شروق الصبح أو الشمس ، فقوله « مصبحين » باعتبار الابتداء ، و « مشرقين » باعتبار الانتهاء ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا ﴾ قراها ﴿ سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ طين طبخ بالنار ، وتقدم مزيد بيانه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ دلالات على وحدانية الله ﴿ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ للناظرين المتفرسين الذين يعرفون الشىء بسمته ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » أخرجه الترمذى وقال : حسن غريب . قال فى لباب التأويل : والفراسة على نوعين أحدهما ما دل عليه ظاهر الحديث وهو ما يوقعه الله فى قلوب أوليائه فيعلمون بذلك أحوال الناس بنوع من الكرامات ، والثانى يحصل بالتجارب حتى يتعرف بذلك أحوال الناس أيضاً . اهـ . قلت : ومن الثانى أو الأول ما حكى أن الشافعى ومحمد بن الحسن كانا جالسين بفناء الكعبة فدخل رجل على باب المسجد فقال أحدهما أراه نجاراً وقال الآخر : بل حداداً ، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجاراً قبل وأنا الآن حداد ، قال ابن العربى : زعمت الصوفية أنها كرامة وقال غيرهم : بل هى استدلال بالعلامة ومن العلامة ما لا يبدو إلا للآحاد ثم قال ابن العربى ومع كونها من معالم المؤمنين فلا يترتب عليها حكم ولا يؤخذ به متوسم ولا متفرس لأن مدارك الأحكام معلومة شرعاً مدركة قطعاً وليست الفراسة منها ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ أى قرى قوم لوط ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ ثابت يسلكه قريش وغيرهم إلى الشام ويرون آثارها أفلا يعتبرون ذلك ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالله ورسوله ﴿ وَإِن ﴾ مخففة أى إنه ﴿ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ الغيضة قرب مدين وهى الشجر المتكاثف ، وكانت عامة شجرهم المقل أى شجر الدوم ، وهم قوم شعيب بعث إليهم وإلى أهل مدين ﴿ لَظَالِمِينَ ﴾ بتكذيب شعيب ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ بأن أهلكناهم بشدة الحر ﴿ وَإِنَّهُمَا ﴾ أى قرى قوم لوط والأيكة ، أو مدين والأيكة . دل على مدين ذكر الأيكة ﴿ لَبِإِمَامٍ ﴾ طريق

﴿ مُبِينٍ ﴾ واضح أفلا يعتبر بهم أهل مكة ، والإمام فى الأصل مصدر معناه ما يؤتم به يطلق على الطريق لأن المارة تأتم به ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ ﴾ واد بين المدينة والشام وهم ثمود ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴾ بتكذيبهم صالحاً لأنه تكذيب لباقى الرسل لاشتراكهم فى المجىء بالتوحيد . وعن جابر قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لنا : لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين لئلا يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر راحلته حتى خلفها . قال ابن العربى فى الأحكام : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط ولا التيمم بها ولا الوضوء من مائها فكل ذلك مستثنى من حديث « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » . اه . ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ كالناقة وما نصب لهم صالح من الأدلة ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ لا يتفكرون فيها ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾ لطول أعمارهم وكثرة أموالهم ﴿ ءَامِنِينَ ﴾ من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الأعداء ، أو من العذاب لظنهم أنها تنجى من عذاب الله ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ وقت الصباح ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من نحت الجبال وبناء القصور الوثيقة واستكثار الأموال والعدد ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا ﴾ خلقاً ملتبساً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ لا يلائم الفساد ولذا أهلكنا المفسدين فهو كالدليل على استحقاقهم الهلاك لأن خلقها بالحق يقتضى إزالة الباطل ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ فينتقم الله لك ممن كذبك ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ أعرض عنهم إعراضاً لا تعجل بالانتقام منهم والصفوح الحليم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ كامل القدرة على الخلق فهو قادر على استصالهم ولكن الحكمة اقتضت الإمهال فأمرك وأمرهم بيده ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بحقائق الأشياء كلها يعلم ما فى الصفح من الحكمة فكل إليه أمرهم حتى يحكم فيهم ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعاً ﴾ أى سبع آيات ﴿ مِنَ الْمَثَانِى ﴾ هى الفاتحة كما فى الصحيحين ، من التثنية وهى التكرير لأنها تكرر فى الصلاة وغيرها أو من الثناء بما فيها من الثناء على الله واحدها مثناة أو مثنية صفة للآية و « من » للبيان ، وقيل هى السبع الطوال والسابعة الأنفال والتوبة فهما فى حكم سورة أو الحواميم والأول الصحيح ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ من عطف العام على الخاص ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً ﴾ أصنافاً ﴿ مِنْهُمْ ﴾ من الكفار كلام جار مجرى التعليل كأنه يقول إذا أوتيت القرآن العظيم الذى يستحقر دونه كل نعمة فعليك به واستغن عن غيره واستغن بالعلم عن الشهوات . وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : من أوتى القرآن فرأى أن أحداً أوتى أفضل مما أوتى فقد صغر عظيما وعظم صغيراً ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على عدم إيمانهم أو مشاركتهم فى الدنيا أو لا تحزن على فقر أمتك فتتمنى لهم الدنيا ، وفى الصحيحين « انظروا إلى من هو أسفل منكم - أى فى الدنيا - ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم » قال عوف بن عبد الله بن عتبة : كنت أصحب الأغنياء فأرى دابة خيراً من دابتى وثوباً خيراً من ثوبى فلما سمعت الحديث صحبت الفقراء فاسترحت ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾ ألن جانبك ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الفقراء لا للكفار الأغنياء

﴿ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ ﴾ من عذاب الله أن ينزل عليكم ﴿ الْمُبِينُ ﴾ البين الإنذار ﴿ كَمَا أَنْزَلْنَا ﴾ صفة مصدر محذوف يدل عليه ، ولقد آتيناك فإنه بمعنى أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا ، أو مفعول النذير أقيم مقامه أى أنذركم مثل العذاب الذى أنزلنا ﴿ عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴾ اليهود والنصارى ، بين الاقتسام بقوله ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أجزاءً حيث قالوا لما يوافق كتبهم منه إنه حق ، ولما يخالف إنه باطل أو القرآن ما يقرءونه من كتبهم المنزلة حيث آمنوا ببعض وكفروا ببعض بالتحريف والتبديل ، وقيل : المقتسمين الذين تقاسموا على صالح : لنبيتنه الآية ، وعضين جمع عضة أصلها عضو من عضا الشاة إذا جعلها أعضاء وقيل فعلة من عضهته إذا بهته وإنما جمع جمع السلامة جبراً لما حذف منه والموصول بصلته صفة للمقتسمين على الأول أو مبتدأ خبره ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ على الوجهين سؤال توبيخ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الكفر والمعاصى ﴿ فَاصْدَعْ ﴾ اجهر وامض يامحمد ﴿ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا أو أبنه إبانة لايلتئم آخر الدهر كصدع الزجاجة لايقبل الالتئام أى فرق بين الحق والباطل و «ما» مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أى بما تؤمر به من الشرائع واستعير كسر الزجاجة للتبليغ لما فيهما من التأثير فى القلوب ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ فلا تلتفت إلى مايقولون فى استهزائهم ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ بك بإهلاك كل منهم بآفة وهم الوليد بن المغيرة ، والعاصى بن وائل ، وعدى ابن قيس ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، أشار جبريل إليهم فقال النبى صلى الله عليه وسلم قد كفيتهم فماتوا جميعا قبل الهجرة ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ صفة أو مبتدأ ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء فى خبره وهو ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة أمرهم فى النارين ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ من الاستهزاء والتكذيب بقولهم « يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » فانتظمت الخاتمة مع الفاتحة ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أى فافزع إلى الله بالتسبيح والتحميد يكفك أو نزهه عما يقولون حامدا له على أن هداك للحق ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ المصلين ، وفى الحديث كان عليه السلام إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ الموت ، أى فاعبده مادمت حيا ولا تتخل عن العبادة لحظة ، وفى الآية دليل على أن التسبيح والعبادة سبب النجاة من ضيق الصدر والكرب ... رزقنا الله حسن الخاتمة .

تم تفسير سورة الحجر

سورة النحل

مكية : إلا « وإن عاقبتم ... إلى آخرها »
مائة وثمان وعشرون آية

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ • أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى الساعة أو ما وعد الكفار من العذاب لما روى، أنه نزل لما استبطأوا العذاب فقيل لهم « أتى أمر الله » بالماضي لكونه واجب الوقوع لا محالة ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ تطلبوه قبل حينه فلا خير لكم فيه ولا خلاص لكم منه وفيه إيقاظ لما بعده من دلائل التوحيد متمكنا فى نفس حاضرة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيها له ﴿ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به غيره أو عن إشراكهم وجل عن أن يحوم حوله شريك يدفع ما أراد بهم ، وقرأ حمزة والكسائى بتاء الخطاب ، ولما كان السبيل إلى علم دنو القيامة الوحى بيّنه بقوله ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ من التنزيل للجمهور ، ومن الإنزال لابن كثير وأبى عمرو ﴿ الْمَلَائِكَةَ ﴾ كجبريل ﴿ بِالرُّوحِ ﴾ الوحى الذى يحيى به القلوب الميتة بالجهل فيقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد وفيه الاستعارة المكنية ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ بأمره أو من أجله ﴿ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم الأنبياء ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا ﴾ أى بأن أنذروا أى أعلموا الكافرين بالعذاب مع التخويف فأن مصدرية بدل من الروح أو مفسرة لأن التنزيل فيه معنى القول أو مخففة بتقدير ضمير الشأن أى بأن الشأن أنذروا ﴿ أَنَّهُ ﴾ أى الشأن ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ أى أن الشأن انحصار الألوهية فى فخافونى ، والتفت إلى ضمير المتكلم لأنه أعرف وأبعد عن اللبس ومقام التوحيد يلائمه والآية تدل على أن نزول الوحى بواسطة الملائكة وأن حاصله التنبيه على التوحيد الذى هو منتهى كمال القوة العلمية والأمر بالتقوى الذى هو أقصى كمالات القوة العملية وأن النبوة عطائية بالمشيئة والآيات التى بعدها كالدليل عليها وهى ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى محقا على أن لا شريك له ولو كان لقدر على خلقهما « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ﴿ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ به من الأصنام التى لا تقدر على خلقهما بل تفتقر فى وجودها وبقائها إليهما وفيه دليل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام ، وقرأ حمزة والكسائى بالخطاب كما تقدم ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ منىّ مهين لاحسّ به ولا حراك إلى أن صيره قويا شديدا ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ شديد الخصومة ﴿ مُبِينٌ ﴾ موضح لحججه بعد ما كان جمادا وهو دليل على قدرة موجده وعظيم نعمه أو خصيم لربه ينكر قدرته على البعث قائلا « من يحيى العظام وهى رميم » وفيه تقبيح ما فعلوا من جحد نعمة الله مع ظهورها عليهم ﴿ وَالْأَنْعَامَ ﴾ الإبل والبقر والغنم ، ونصبه بفعل يفسره

﴿ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ فى جملة الناس ﴿ فِيهَا دِفْءٌ ﴾ ما يدفأ به لدفع البرد كالأكسية والأردية والبرانس من أشعارها وأصوافها وأوبارها ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ أخر من النسل والألبان والركوب ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ قدم الظرف للفاصلة لا للحصر فلا يقدح الأكل من الطيور وأنواع الصيد أو لأن أكلها هو المعتاد فى المعاش وغيرها للتفكه أو التداوى والضرورة غالباً ، ويحتمل أن قوله «والأنعام» عطف على الإنسان و «خلقها لكم» بيان لما خلق لأجله وما بعده تفصيل له ، ويحتمل تمام الكلام عند قوله «لكم» وابتدأ «فيها دفء» ولكن الأولى أن يكون الوقف عند قوله خلقها والابتداء بقوله « لكم فيها دفء » لمناسبة قوله « ولكم فيها جمال» وقدم اللباس على الأكل لأن منفعته من الأنعام عند العرب أعظم من الأكل إذ لا يجدونه إلا منها ويجدون المآكل غيرها وامتن هنا بالدفء كما امتن بالظل فى قوله « سرابيل تقيكم الحر » اكتفاء فى كل محل بما ذكر فيه . والله أعلم ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ زينة ﴿ حِينَ تُرِيحُونَ ﴾ تردونها إلى مراحها بالعشى ﴿ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ تخرجونها إلى المرعى بالغداة فإن الأفنية تتزين بها فى الوقتين ويجمل أهلها فى أعين الناظرين إليها ، وتقديم الإراحة لأن الجمال فيها أظهر فإنها تقبل ملأى البطون حافلة الضروع . وفى اللباب : أكثر ما يكون هذا الجمال أيام الربيع إذا سقط الغيث ونبت العشب والكلأ وخرجت العرب للنجعة وحينئذ يتم أغراض أصحاب المواشى فى التجمل بها لأن الرعاة حين يسرحونها وحين يريحونها تسمع لها رغاء وخواراً وثغاء تتجاوب بعضها بعضاً فعند ذلك يفرح أربابها ويتجمل بها الأفنية ويعظم وقعها عند الناس . اهـ . قال ابن العربى : وهذا الجمال أمر يدركه البصر فيلقيه إلى القلب ملائماً فيتعلق بالنفس من غير معرفة بوجه ذلك وكل ما كثر من إبل أو بقر أو غنم أو خيل أو بغال يكون له جمال لكن الحمير ليس فيها زينة ولكن المنفعة بها مضمونة . اهـ . ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ جمع ثقل بفتح القاف متاعكم ﴿ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ ﴾ بغيرها ولو مجردين عن الأثقال فضلا عن حملها على ظهوركم ﴿ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ بمشقتها ، وقرئ بالفتح وهو لغة فيه ، وقيل المفتوح مصدر شق عليه الأمر وأصله الصدع والمكسور بمعنى النصف كأنه ذهب نصف قوته بالتعب ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ ﴾ كثير الرأفة ﴿ رَحِيمٌ ﴾ بكم حيث خلقها لكم ﴿ وَ ﴾ خلق ﴿ الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ﴾ مفعول له عطف على محل « لترکبوها » أو مصدر بتقدير فعله أى ولتتزينوا بها زينة وإنما غير الأسلوب لأن الركوب مقصود والزينة تحصل بالعرض ، واحتج بالآية مالك وأبو حنيفة على تحريم الخيل لقول ابن عباس حين تلاها هذه للركوب ولأن منفعة الأكل أعظم من الركوب فلو جاز أكلها لكانت المنة به أولى ، وذهب الشافعى وأحمد إلى إباحتها لأن التعليل بالركوب والزينة لتعريف النعم فلا ينافى أكل الخيل لثبوت إباحته فى حديث الصحيحين « نحرنا على عهد رسول الله فرساً وأكلناه» وحديثهما أيضاً «نهى الرسول عن لحوم الحمر الأهلية وأذن فى الخيل» ولما كانت الآية تقتضى أن الخيل والبغال والحمير مخلوقة للركوب والزينة وكان الأكل مسكوتاً عنه دار الأمر فيه على

الإباحة والتحريم فوردت السُّنَّة بإباحة الخيل والنهي عن البغال والحمير فأخذنا به ، والبغال والحمير محرمة في مشهور مذهب مالك وفاقاً لسائر الأئمة ، وقيل مغلظة الكراهة ، قال الثعالبي : يجب على من ملكه الله شيئاً من هذه الحيوانات أن يرفق به ويشكر الله على هذه النعمة . وفي الموطأ مرفوعاً « إن الله رفيق يحب الرفق ويرضاه ويعين عليه ما لا يعين على العنف فإذا ركبتم هذه الدواب العجم فأنزلوها منازلها فإن كانت الأرض جدبة فانجوا عليها بنقيها وعليكم بسير الليل فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار وإياكم والتعريس على الطريق فإنها طرق الدواب ومأوى الحيات » الحديث ، وفيه أمن المسافر في الخصب أن يمشي رويداً ويكثر النزول لترعى دوابه إذ لا ضرورة في السرعة ، فأما الأرض الجدبة فالسنة أن يسرع السير ليخرج عنها وبدابته شيء من الشحم والقوة والنِّقي الشحم والودك ، ولا يجوز أن يحملها ما يضرها ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ من الأشياء النافعة والعجيبة ، والمقصود بيان كمال الاقتدار ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ بيان مستقيم الطريق الموصل إلى الحق رحمة وفضلا ، والتعبير بـ « على » إعلام بأنه واقع لا محالة بموجب الوعد ، يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم ﴿ وَمِنْهَا ﴾ من جنس السبيل سبيل ﴿ جَائِرٌ ﴾ حائد عن الاستقامة لا يصل إلى الحق ، غير الأسلوب وإن كان الإضلال بمشيئته لأنه ذكره بالعرض ليتنزه عن سبيل الحق ولأنه لم يتحمل بيان طريق الضلال ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إلى قصد السبيل ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ استدل أولا على وحدانيته بخلق السموات والأرض لأنها الأصول ثم بخلق الإنسان وسائر الحيوان ثم بأحوال النبات إزاحة للشبهة عن أشرف المطالب ﴿ لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ ﴾ تشربونه و « لكم » صلة « أنزل » أو خبر « شراب » و « من » تبعيضية متعلقة به ﴿ وَمِنْهُ ﴾ من ذلك الماء ﴿ شَجَرٌ ﴾ ما له ساق من نبات الارض ينبت بسببه ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون مواشيكم بالرعي من أسام الماشية فسامت هي رعاها أصله من السومة وهي العلامة لأنها تؤثر في الأرض بالرعي بعلامات ومن الشجر ما يبقى شتاء وربيعاً وهو العظام ومنه ما يبقى أصله في الشتاء وينبت في الربيع ومنه ما لا يبقى له شيء كالبقول ، ويجب على صاحب المواشي رعيها أو علفها فإن أجدبت الأرض تعين علفها أو بيعها أو ذبحها إن كانت مما يؤكل ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ ﴾ بذلك الماء ﴿ الزَّرْعَ ﴾ قرأ أبو بكر بالنون على التعظيم التفاتاً من الغيبة ﴿ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي بعض كلها لأن ما في الإمكان لم يقع كله بالفعل لا في الدنيا ولا في الجنة وتقديم ما يسام فيه على ما يؤكل منه لكونه أهم عند العرب المخاطبين لأن جل عيشهم ألبان الأنعام وملبسهم أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ومن ذلك تقديم الزرع والتصريح بالأجناس الثلاثة وترتيبها فذكر الثمار تفصيلا وإجمالا كما فعل في الحيوان لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ المذكور ﴿ لَآيَةً ﴾ علامة دالة على القدرة والوحدانية ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في صنعه فيؤمنون فمن تأمل أن الحبة تقع في الأرض وتصل إليها

نداوة تنفذ فيها فينشق أعلاها ويخرج منها ساق الشجر وينشق أسفلها فيخرج منه عروقها ثم ينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والثمار والحبوب مشتملا على أجسام مختلفة الأشكال والطبائع مع اتحاد المواد علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدس عن منازعة الأضداد والأنداد ولعل فصل الآية به لذلك ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ ﴾ بالنصب للجمهور عطف على ما قبله ، وبالرفع لابن عامر مبتدأ ﴿ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ ﴾ بالوجهين ﴿ مُسَخَّرَاتٌ ﴾ بالنصب حال وبالرفع خبر ﴿ بِأَمْرِهِ ﴾ بإرادته كيف شاء لينفعكم بها وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين الذين يعتقدون أن هذه النجوم لها التصرف فى العالم السفلى إذ أخبر الله أنها مسخرات فى نفسها تحت قهره ليس لها تصرف فى نفسها فضلا عن غيرها بل هو الذى سخرها لمنافع عباده ولذا ختم الآية بقوله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم جمع الآية وذكر العقل لأن ما ذكر يدل على أنواع من الدلالة ظاهرة لذوى العقول السليمة لا تحتاج إلى فكر كأحوال النبات ﴿ وَ ﴾ سخر لكم ﴿ مَا ذَرَأَ ﴾ خلق ﴿ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ من حيوان ونبات وغير ذلك ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ وأصنافه حتى لا يشتبه بعضها ببعض ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أن اختلافها ليس إلا بصنع صانع حكيم ، ولما كان اللون فى غاية الظهور ختم الآية بالتذكير الذى هو التفات النفس إلى الحاصل عندها بلا تكلف ، ولما ذكر بدائع العالم العلوى والسفلى خص عجائب البحر وكثرتها فقال ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ لركوبه والغوص فيه والصيد فيه ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ غضا هو السمك وصفه بالطراوة لأنه أرطب اللحوم يسرع إليه الفساد فيسارع إلى أكله ويكون عذباً طرياً ولو فى ماء زعاق وتمسك به مالك على أن من حلف لا يأكل اللحم يحنث بأكل السمك خلافاً لباقى الأئمة قالوا لأن مبنى الأيمان على العرف ، فمن قال لعبده اشتر اللحم فجاء بالسمك لم يعد ممتثلا لأنه لا يفهم عند الإطلاق ألا ترى أن الله سمى الكافر دابة ولا يحنث الحالف لا يركب دابة بركوبه إجماعا ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ كاللؤلؤ والمرجان ، جعل اللبس لهم وإن كان اللابس نساءهم لأن غرض التزين عائد إليهم ، تمسك بهذا الشافعى على أن من حلف أن لا يلبس حلياً فلبس لؤلؤاً حنث خلافاً لأبى حنيفة. قال ابن العربى من المالكية : لم أر لعلمائنا فيه نصًّا فإن لم تكن له نية حنث وقال اللؤلؤ والمرجان لا يحرم لبسه للرجال والنساء ، وإنما المحرم على الرجال الذهب والفضة ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ ﴾ السفن ﴿ مَوَاخِرَ ﴾ جوارى ﴿ فِيهِ ﴾ تمخر الماء أى تشقه بحيزومها مقبلة ومدبرة بريح واحدة . وعن الفراء : المخر صوت الفلك عند جريها وإنما غير الأسلوب وزاد لفظ الرؤية إشارة إلى أنها مع كونها نعماً آيات على قدرته باهرة ﴿ وَلِتَبْتَغُوا ﴾ عطف على لتأكلوا تطلبوا ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ سعة رزقه بركوبها للتجارة ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الله على ذلك ، ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى فى باب الإنعام حيث جعل مظنة الهلاك سبباً للانتفاع وتحصيل المعاش على أهون الوجوه لأنها تقطع المسافة البعيدة فى لمحة الطرف ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ

رَوَاسِيَ) جبالا ثوابت كراهة ﴿أَنْ تَمِيدَ﴾ تضطرب ﴿ بِكُمْ ﴾ لأنها خلقت على وجه الماء فلم تستقر فأرسى الجبال فيها فاستقرت ﴿ وَ ﴾ جعل لكم فيها ﴿ أَنْهَارًا ﴾ كالنيل عطف على رواسى بحسب المعنى لأن الإلقاء يلزمه الجعل ووصلها بالجبال لأن معظم عيون الأنهار وأصولها تكون من الجبال ﴿ وَسُبُلًا ﴾ طرقا مختلفة ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى مقاصدكم أو إلى معرفة الله ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ تستدلون بها على الطرق كالجبال والأشجار والأحجار بالنهار ﴿ وَبِالنَّجْمِ ﴾ بمعنى النجوم كالجدى والفرقدين والثريا وبنات نعش ﴿ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ إلى الطرق فى البرارى والبحار وإلى القبلة بالليل ، ولعل الضمير لقريش الذين لهم رحلة الشتاء والصيف وغيرهما ولذا أخرج الكلام عن سنن الخطاب إذ الشكر فى ذلك عليهم أوجب وتقديم النجم وإقحام الضمير للاختصاص كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً يهتدون لاشتهارهم بالاهتداء بها فى مسايرهم ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ﴾ وهو الله ﴿ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ وهو الأصنام حتى تشركونها معه فى العبادة . وهذا إنكار بعد إقامة الأدلة المتكاثرة على كمال قدرته وتفرده بخلق ما عدد أن يسوى بينه وبين ما لا يقدر على خلق شىء ، وأجرى الأصنام مجرى أولى العلم لتسميتهم لها آلهة ومن حق الإله أن يعلم أو للمشاكلة أو للمبالغة ، فكأنه قيل : إن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم فكيف بمن لا علم عنده ولا إدراك ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتعرفوا فساد ذلك فتؤمنوا فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذى يحضر عنده بأدنى تذكر والتفات . ولما عدد النعم العظام من أنواع شتى أشار إجمالا إلى سائرها فقال ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ لا تضبطوا عددها فضلا أن تطيقوا شكرها وهذا تنبيه على أن نعمه لا تنحصر وأن حق عبادته غير مقدور ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ ﴾ حيث يتجاوز عن تقصيركم فى أداء شكرها ﴿ رَحِيمٌ ﴾ لا يقطعها لتفريطكم ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ من عقائدكم وأعمالكم ، فيه وعيد وحث على الإخلاص ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ بالتاء للجمهور ، والياء لعاصم : تعبدون ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ فلا يشاركون الله فى شىء ، ثم أكد ذلك بأن أثبت لهم صفات تنافى الألوهية فقال ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ يصورون من الحجارة وغيرها وهذا من الترقى فى البرهان ﴿ أَمْوَاتٌ ﴾ لا روح فيهم خبر ثان ﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ لم تعترهم حياة قط وأحرى أن تكون لهم الحياة الذاتية ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ أى الخلق ، وكل هذا تهكم بالمشركين : أى لا شعور لها بوقت بعثهم فكيف تقدر على الشفاعة وإيصال الثواب والعقاب لأن البعث من لوازم التكليف حتى لا يضيع أجر المحسنين فكيف تعبد إذ لا يكون إلها إلا الخالق الحى بذاته العالم بالغيب ، وقيل المعنى : لا تدرى الأصنام متى تبعث ، وفيه دليل على أنها تجعل فيها الحياة وتبعث يوم القيامة حتى تتبرأ من عابديها والله أعلم ﴿ إِلَٰهُكُمْ ﴾ المستحق للعبادة منكم ﴿ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا نظير له فى ذاته ولا فى صفاته وهو الله ، وهذا تكرير للمدعى بعد إقامة البرهان تقريراً ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ ﴾ جاحدة للوحدانية بعد وضوحها ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن الإيمان بها اتباعا للأسلاف وركونا إلى المألوف : أى

عدم إيمانهم بالآخرة هو الذى اقتضى إصرارهم على الجحود بعد وضوح الحق لأن المؤمن يكون طالباً للدليل متأملا فيما يسمع فينتفع به. والكافر بالعكس ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهم بذلك، وأن وما بعدها فى موضع رفع بجرم لأنه مصدر أو فعل، ومذهب سيبويه أن لا نفى لما تقدم من الكلام، و «جرم» معناه وجب أو حق ومع ذلك «لا» ملازمة لجرم لاتنفك هذه من هذه، ولذا عمل فيه ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أى جنسهم فضلا عن الذين استكبروا عن التوحيد. وفى الجواهر: عام فى الكافرين والمؤمنين يأخذ كل أحد بقسطه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لكفار مكة والقائل بعضهم على التهكم أو الوافدون عليهم أو المسلمون ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ ماذا منصوب بأنزل، المعنى: أى شىء أنزل أو مرفوع بالابتداء، أى أىّ شىء أنزله ﴿قَالُوا﴾ إضلالا للناس ﴿أَسَاطِيرُ﴾ أكاذيب ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ أى ما تدعون نزوله أساطيرَ الأولين، على النصب، وعلى الرفع، فالمنزل أساطير الأولين ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوبهم ﴿كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لم يُكفّر منها شىء. فاللام للعاقبة أو الأمر أو لام كى ﴿وَمِنْ﴾ بعض ﴿أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ بتسبب الضلال ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول أى يضلونهم غير عالمين بأنهم ضلال، أو يريدون إضلالهم. وفائدتها الدلالة على أن جهلهم لايعذرهم، بل كان عليهم البحث حتى يظهر لهم المحق من المبطل، وفيه أن كيدهم لايضر أولى الألباب بل إنما يقلدهم البلداء. وفيه ذم لهم، أو حال من الفاعل أى غير عالمين بما يستحقون من العذاب، وقال الواحدى لفظة «من» ليست للتبعيض إذ لاينقص الأتباع من وزرهم بل للجنس أى ليحملوا من جنس أوزار الأتباع. اه. قلت ويؤيده حديث مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً» قال فى لباب التأويل: معنى الآية والحديث أن الرئيس والكبير إذا سن سنة حسنة أو قبيحة فتبعه عليها جماعة فعملوا بها فان الله يعظم ثوابه أو عقابه حتى يكون ذلك الثواب أو العقاب مساويا لكل ما يستحقه كل من الأتباع. اه ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ يحملونه حملهم هذا ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من قبل قريش رسلهم قيل هو نمرود بن كنعان بنى ببابل صرحا طوله خمسة آلاف ذراع أو قدر فرسخين ليصعد منه إلى السماء ليقاتل أهلها ﴿فَأَتَى اللَّهُ﴾ قصد ﴿بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أصوله وهى الأساطين التى تقيم البناء أو الأساس ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ وهم تحته إذ لابقاء للسقف بعد ذهاب القواعد ﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من جهة لاتخطر ببالهم، وقيل هذا عام فى جميع الماكرين للرسل، وهو تمثيل لإفساد ما أبرموا من المكر بالرسل. وهو أولى والأول أظهر. وفى المثل: «من حفر لأخيه قليبا وقع فيه قليبا» ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يذلهم بعذاب النار ﴿وَيَقُولُ﴾ لهم على لسان الملائكة توبيخا ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ وللبزى شركاى بغير همز أى بزعمكم ﴿الَّذِينَ

كُنْتُمْ تُشَاقُّونِ ﴾ بكسر النون لنافع للوقاية حذف منها الياء اكتفاء بالكسرة أى تخالفونى فى شأنهم بمخالفة المؤمنين وبفتحها للباقين نون رفع أى تخالفون المؤمنين ﴿فِيهِمْ﴾ فى شأنهم ﴿قَالَ﴾ أى يقول ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من الأنبياء والملائكة والمؤمنين جميعا ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ ﴾ الذلة ﴿الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يقولونه شماتة بهم أخبر الله ذلك لطفا بالسامعين ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة ﴿ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ بالكفر أو بتعريضها للعذاب المخلد ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ انقادوا واستسلموا عند الموت قائلين ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ فألقوا عطف على قوله «قال الذين أوتوا العلم» فيقول لهم أولو العلم ﴿ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فيجازيكم به ويقال لهم ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ﴾ مأوى ﴿ الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ جهنم ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الشرك والكذب والزور هم أصحاب محمد والقائل هم الوافدون لاستكشاف خبر رسول الله من القبائل أيام الموسم فإذا سألوا الكفار قالوا أساطير الأولين فارجع ولا تلقه فيقول الوافد أنا شر وافد إن رجعت إلى قومى دون أن ألقاه فيدخل مكة فيرى أصحاب رسول الله فيسألهم ﴿ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾ أى أنزل خيرا وفى نصب الجواب دليل على أنهم لم يتلعثموا فيه بل أطبقه على السؤال معترفين بالإنزال على خلاف الكفرة حين عدلوا بالجواب عن السؤال وقالوا هو أساطير الأولين ليس من الإنزال فى شىء ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ حياة طيبة ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أى ثوابهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ مما فى الدنيا ﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ الجنة وقوله للذين أحسنوا وما بعده يجوز أن يكون بدلا من خيرا كأنهم أجملوا فى الجواب ثم فصلوا إيضاحا للمسترشدين. ويحتمل أن يكون كلاما مبتدأ ثناء على القائلين فى جوابهم وأنه من حسناتهم معدوداً من جملتها وهذا الوجه أحسن طباقا لأن هذا الوعد فى مقابلة الوعيد لقوله « ليحملوا أوزارهم » والله أعلم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ خبر مبتدإ محذوف أى هى ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح فنعم وأن يكون مبتدأ والخبر ﴿ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ خبر آخر وعلى الوجهين الأولين هما حالان من فاعل نعم ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ﴾ من الملاذ وتقديم الظرف للدلالة على أن الإنسان لا ينال جميع ما يشاء إلا فى الجنة ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ مثل هذا الجزاء ﴿الَّذِينَ﴾ نعت ﴿ تَتَوَفَّاهُمُ ﴾ بالتاء والياء كما مر ﴿ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ طاهرين من الكفر والمعاصى لأنه فى مقابلة ظالمى أنفسهم أو فرحين ببشارة الملائكة فإن المؤمن يبشر إذا احتضر: من طابت نفسه أو بالتوجه إلى حضرة القدس ﴿ يَقُولُونَ ﴾ لهم عند الموت ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ لا يلحقكم بعد مكروه ويقال لهم فى الآخرة أى الآن فإن قبر المؤمن روضة من رياض الجنة. ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فإنها معدة لكم على أعمالكم ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ ﴾ ما ينتظر الكفار ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ ﴾ بالتاء للجمهور والياء لحمزة والكسائى ﴿ الْمَلَائِكَةُ ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ للعذاب المستأصل أو القيامة المشتملة عليه ﴿ كَذَلِكَ ﴾ كما فعل هؤلاء ﴿ فَعَلَ الَّذِينَ

مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الامم كذبوا رسلهم فأهلكوا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بتدميرهم بغير ذنب ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر والمعاصي المؤدية إلى ذلك ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أى جزاؤها ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ العذاب أى أحاط بهم والحيق لا يستعمل إلا فى الشر ، وفيه تسلية الرسول بأن من يتربص له الدوائر عليه دائرة السوء. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أتى بالموصول موضع الضمير إشارة إلى أن قولهم صادر عن الكفر لانه يستلزم رفع التكليف وهو ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قالوا ذلك إنكاراً لبعث الرسل أى لا فائدة فيه لأن ما شاء الله يجب وما لم يشأ يمتنع والشرك وتحريم البحائر ونحوها لو كان قبيحا لما شاء الله صدورها عنهم وهذا جهل منهم بأن أمره يغاير مشيئته ولا يسأل عما يفعل ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فأشركوا بالله وحرموا ما أحله وردوا رسله فأهلكوا ﴿فَهَلْ﴾ فما ﴿عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الإبلاغ البين وليس عليهم هداية لكنهم واسطة ليتبين من شاء الله له الخير باتباعهم ومن شاء له الشر بالإعراض عنهم ، ثم بين أن بعث الرسول إلى الامم سنة إلهيه قديمة فقال ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ كما بعثناك فى هؤلاء ﴿أَنِ﴾ بأن ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحدوه ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الاوثان أن تعبدوها وهذا برهان قاطع على فساد دعوى الجبرية ولو كانت مشيئة الله رافعة للوم على الشرك والمعاصى لما أرسل الرسل ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ إلى طريق الجنة فاتبع الرسل ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ﴾ وجبت ﴿عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فى علم الله فكذبهم فهلك ، وفيه دلالة على أن إرادة الله ضلالهم لا يكون عذرا لهم ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يا كفار مكة ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ رسلهم كعاد وثمود وغيرهم من الهلاك لعلكم تعتبرون فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴿إِنْ تَحْرِصْ﴾ يا محمد ﴿عَلَى هُدَاهُمْ﴾ وقد أضلهم الله لا تقدر على ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ بالبناء للمفعول والفاعل للكوفيين ﴿مَنْ يُضِلُّ﴾ يريد إضلاله ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ مانعين من عذاب الله ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أى غاية اجتهادهم فيها ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ جواب القسم والقسم وجوابه عطف على «وقال الذين أشركوا» إيذاناً بأنهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث مقسمين عليه زيادة فى البت على فساده فرد الله عليهم أبلغ رد بقوله ﴿بَلَى﴾ يبعثهم ﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكد لنفسه وهو ما دل عليه « بلى » فإن يبعث موعد من الله تعالى ﴿عَلَيْهِ﴾ صفة للوعد أى عليه إنجازه لمقتضى الحكمة ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى للوعد أى محققاً أو هو والوعد منصوبان بفعلهما المقدر ، أى وعد ذلك وعداً وحقه حقا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يبعثون لعدم علمهم بأنه من مواجب الحكمة التى جرت عادته بمراعاتها وقصورهم على المألوف فيتوهمون امتناعه ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ متعلق بيبعثهم المقدر ﴿لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ﴾ مع المؤمنين ﴿فِيهِ﴾ من أمر الدين بتعذيبهم وإثابة المؤمنين ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ فى إنكار البعث بيان للسبب الداعى إلى البعث من حيث الحكمة وهو التميز بين الحق والباطل والمحق والمبطل والثواب والعقاب ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ

﴿إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أردنا إيجاده و « قولنا » مبتدأ خبره ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ بالرفع للجمهور أى فهو يكون . وبالنصب لابن عامر والكسائى هنا وفى يس عطفاً على «نقول» تمثيل لسرعة تكوّن مراده بعد تعلق الإرادة بوجود المأمور به من المأمور المطيع لأوامر الأمير المطاع تقريرا للبعث لدخوله فى عموم شىء ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ فى شأنه فرارا بدينه وهم رسول الله وأصحابه ومن اقتدى بهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ بأذى المشركين ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ مباءة أى دارا ﴿حَسَنَةً﴾ هى المدينة أو تبوئة حسنة بنيل بقعة حسنة وكل أمر مستحسن ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ﴾ أى الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ أعظم مما يعجل لهم فى الدنيا وكان عمر بن الخطاب إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء يقول خذ هذا بارك الله لك فيه وما أدخر الله لك فى الآخرة خير من هذا وأفضل ﴿لَوْ كَانُوا﴾ أى الكفار أو المتخلفون عن الهجرة ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ما للمهاجرين من خير الدارين لوافقوهم أو لو علم المهاجرون مالهم لزادوا فى اجتهادهم وصبرهم . قال عبد الرحمن فى الجواهر « والذين هاجروا فى الله » هم الذين هاجروا إلى أرض الحبشة هذا قول الجمهور وهو الصحيح فى سبب الآية لأن هجرة المدينة لم تكن وقت نزول الآية والآية تتناول كل من هاجر أولا وآخرا . اه هم ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أذى المشركين والهجرة لإظهار الدين أو هو رفع أو نصب على المدح ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيرزقهم من حيث لا يحتسبون . قال فى اللباب : وفى قوله «هاجروا فى الله» دليل على أن الهجرة إذا لم تكن لله خالصة لم يكن لها موقع وكانت بمنزلة الانتقال من بلد إلى آخر ويدل عليه حديث « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» أخرجه الشيخان فى صحيحيهما . وقال فى اللباب أيضاً فى قوله «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون» ذكر الله الصبر والتوكل وهما مبدأ السلوك إلى الله تعالى ومنتهاه أما الصبر فهو قهر النفس وحبسها على أعمال البر وسائر الطاعات واحتمال الأذى من الخلق والصبر عن الشهوات المباحات وأحرى المحرمات والصبر على المصائب . وأما التوكل فالانقطاع عن الخلق بالكلية والتوجه إلى الحق بالكلية ؛ فالأول مبدأ السلوك والثانى هو آخر الطريق ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ ولحفص نوحى بالنون وكسر الحاء أى لا ملائكة رد لقولهم أبعث الله بشرا رسولا ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ العلماء بالتوراة والإنجيل ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك فإنهم يعلمونه وأنتم إلى تصديقهم أقرب من تصديق المؤمنين بمحمد ، وفيه وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ متعلق بمحذوف أى أرسلناهم بالحجج الواضحة ﴿وَالزُّبُرِ﴾ الكتب المنزلة عليهم ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ القرآن ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فيه من الحلال والحرام والوعد والوعيد ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيتنبهوا للحقائق وقد بين عليه السلام فى أحاديثه ما أجمل فى القرآن ولم يترك للأمة شبهة والحمد لله على ذلك ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا﴾ المكرات ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ احتالوا لهلاك الأنبياء أو لمحمد بدار الندوة على ما تقدم وراموا صد أصحابه

عن الإيمان ﴿ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ كقارون ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ بغتة من جانب السماء ﴿ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى من جهة لا تخطر ببالهم كما فعل بقوم لوط وعاد ، وقد أهلك قريش ببدر ولم يكونوا يقدرون ذلك ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ﴾ فى أسفارهم للتجارة ﴿ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ بفائتين العذاب ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ تنقص شيئاً فشيئاً حتى يهلك الجميع ، حال من الفاعل أو المفعول . روى أن عمر بن الخطاب قال على المنبر : ما تقولون فى قوله تعالى « على تخوف » فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال هذه لغتنا التخوف التنقص ، فقال هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ قال نعم قال شاعرنا أبو كثير يصف ناقته : تخوف الرحل منها تامكا قرداً • كما تخوف عود النبعة السفن

قال عمر : عليكم بديوانكم لا تضلوه . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم . اه . قلت : التامك هو السنام ، والقرد هو الذى تمعّر شعره ، والنبعة واحد النبع شجر السهام ، والقسى ينبت فى قلة الجبل والنابت منه فى السفح الشريان ، وفى الحضيض الشوحط ، والسفن محركة حجر ينحت به ويلين به السهام أو كل ما ينحت به . والله أعلم . وقد جاء إلى عمر أيضاً رجل فقال : إن أبى يتخوفنى مالى فقال عمر : الله أكبر أو يأخذهم على تخوف منه . ومنه قول النابغة :

تَخَوَّفَهُم حَتَّى أَذَلَّ سَرَاتَهُم • بِطَعْنٍ ضِرَارٍ بَعْدَ نَبْحِ الصَّفَائِحِ

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ بالياء للجمهور والتاء لحمزة والكسائى ﴿ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ له ظل كشجر وجبل و «ما» موصولة و «من» بيانية ﴿ يَتَفَيَّأُ ﴾ يتميل ﴿ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ﴾ جمع شمال أو عن جانبيهما أول النهار وآخره ، أفرد اليمين وجمع الشمائل اعتباراً للفظ والمعنى ولم ينعكس لأن قوة اليمين جابرة نقصان الجمع لفظاً ، والفىء هو الظل الراجع بعد الزوال يتفيأ ظلاله من استعمال المقيد فى المطلق ، وقرأ أبو عمرو بالتاء ﴿ سُجَّدًا لِلَّهِ ﴾ حال من الظلال ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ خاضعون لما يراد منهم ، حال من ضمير ظلاله المجرور ، أو هما حالان منه وفى توحيده وجمعه فيهما اعتباراً للفظ والمعنى أيضاً وفيه ترتيب حسن على الأول فإنه لما أوقع السجود حالا عن الظلال جعل الدخور الذى هو انقياد قهرى وصفاً لأصحابها وفى جعلهما حالين من الظلال فوات ذلك الحسن والعامل فى الحال الثانية يتفيأ أيضاً كما فى ملة إبراهيم حنيفاً ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ بيان لما فى السموات والأرض جميعاً فله خلق يدبون فى السموات كدبيب الأناس وسائر الحيوان فى الأرض ، أو هو بيان لما فى الأرض وحده أى نسمة تدب عليها بمعنى يخضع له كل بما يراد منه ، وغلب فى الإتيان بما مالا يعقل لكثرته ، والدبيب هو الحركة الجسمانية ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ عطف على المبين عطف الخاص على العام تفضيلا ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادته حال من الملائكة ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ ﴾ استئناف لبيان نفى الاستكبار أى يخافون أن يرسل عذابه ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أو حال

من ربهم أى يخافونه عالياً عليهم بالقهر ، ويحتمل كون يخافون حالا من ضمير يستكبرون ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ به من الطاعة والتدبير وفيه دليل على أنهم مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء معصومون لا يعصون الله ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ تأكيد قاله الزجاج وقال غيره التقدير لا تتخذوا اثنين إلهين إذ الإثنان لا يمكن كون كل واحد منهما إلهاً لأن الاثنينية تنافى الألوهية نهى معصب النهى تنبيهاً على أن الوحدة من لوازم الألوهية ولذا قال ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فالمقصود نفى التعدد والنهى عنه لا خصوصية الاثنين . المعنى : لا شريك له رأساً وفى ذلك إثبات الألوهية والوحدانية معاً له تعالى ولذا قال ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ خافونى دون غيرى وفيه التفات عن الغيبة إلى التكلم مبالغة فى الترهيب وتصريحاً بالمقصود كأنه قال فأنا ذلك الإله الواحد فارهبونى إياى لا غيرى ، ولما ثبت بالبرهان أن لا شريك له فى الألوهية وجب كون جميع المخلوقات مماليك له وهو ما أشار إليه بقوله ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ملكا وخلقاً وعبادة ﴿ وَلَهُ الدِّينُ ﴾ الطاعة لا لغيره ﴿ وَاصِبًا ﴾ دائما حال من الدين والعامل فيه معنى الظرف من وصب يصب وصوبا دام وثبت كأوصب إذ تقرر أنه الإله وحده لا يرهب غيره قال ابن قتيبة : لا يطاع أحد إلا انقطعت طاعته فى حياته أو بموته إلا الحق سبحانه فإن طاعته دائمة أبداً ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ بعد ما بين لكم أنه المتوحد فى الألوهية والحقيق بالتقوى لا ضار ولا نافع سواه ، استفهام إنكار فيه تعجب وتوبيخ ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ لا يأتى بها غيره و « ما » شرطية أو موصولة فنعمة الإسلام وصحة الأبدان وسعة الأرزاق والأموال والأولاد وغير ذلك منه فيجب أن لا يشكر غيره كما وجب أن لا يخاف غيره ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾ أصابكم الفقر والمرض ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والدعاء لا إلى غيره ، وأصل الجؤار رفع الصوت الشديد ومنه جؤار البعير ، والمعنى أن كل نعم حصلت لكم ودامت لكم فهى منه وإذا عرض لكم ضر فى بعض الأوقات فلا تفزعون إلا إليه إذ قد علتم أنه لا قادر على كشفه إلا هو ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وهم الكفار لأن قوله « وما بكم من نعمة » شامل للمؤمن والكافر ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ من النعمة فكان الواجب عليهم شكرها كأنهم قصدوا بشركهم كفران النعمة وإنكار كونها من الله إذ ينسبون كشف الضر إلى أصنامهم ، أو اللام للعاقبة أو الأمر للتهديد كما فى قوله ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ باجتماعكم على عبادة الأصنام أو باللذات التى جعلها الله لكم أمر تهديد ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة ذلك ﴿ وَيَجْعَلُونَ ﴾ أى المشركون ﴿ لِمَا ﴾ أى الأصنام ﴿ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بل جاهلون بها لاعتقادهم أنها تضر وتنفع وهى لا تضر ولا تنفع ، والعائد محذوف ، أو يجعلون لأشياء لا علم لها جمادات ، وضمير العقلاء لادعائهم ذلك فيها ﴿ نَصِيبًا ﴾ مفعول يجعلون ﴿ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ من الضروع والزروع تقرباً إليها وتقدم فى سورة الأنعام ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ سؤال توبيخ وفيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب تهويلا ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ من أنها

تستحق الألوهية والتقرب ، أو تفترون على الله من أنه أمركم بذلك ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ ﴾ بقولهم الملائكة بنات الله لاستتارهم كالنساء وتأنيث لفظهم ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له عما زعموا تحديد لقبائحهم ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أى البنون والجملة فى محل رفع أو نصب ليجعل المعنى يجعلون له البنات التى يكرهونها وهو منزه عن الولد ويجعلون لهم الأبناء التى يختارونها ويختصون بالأسنى وفيه غاية الوعيد حيث ارتضوا للخالق ما لم يرتضوا لأنفسهم وعلى وجه النصب فالظرف أيضاً مستقر لا لغو فلم يجتمع ضميرا الفاعل والمفعول فى غير فعل القلب ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ﴾ أى أخبر بولادتها ، عبر عنه بالبشارة وإن كرهوه لأن الولد مطلقاً نعمة من الله ﴿ ظَلَّ ﴾ صار ﴿ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ متغير تغير مغتم بسبب الكآبة والحياء من الناس ، وعبر بظل لأنه من الظلول فإنه وقت اجتماع الناس وحينئذ يقع الخجل قاله فى غاية الأمانى ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ممتلئ غماً وهو كاظمه لا يظهره أو مملوء غضباً من المرأة والأول أنسب لقوله ﴿ يَتَوَارَى ﴾ يختفى ﴿ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ قومه حياء ﴿ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ لأنه عار عليه عرفاً فيختفى خوفا من التعيير متردداً عما يفعل به ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ يتركه بلا وأد ﴿ عَلَى هُونٍ ﴾ ذل ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ ﴾ بأن يئده ، وجملة أيمسكه فى موضع الحال من فاعل يتوارى ، والمعنى : يستتر من الناس متردداً بين أن يتركه ويرضى بالذل وبين أن يدفنه فى التراب وتذكير الضمير للفظ ما ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ حكمهم هذا حيث نسبوا لخالقهم البنات اللاتى هى عندهم بهذا المحل ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ ﴾ صفة ﴿ السَّوْءِ ﴾ النقص وهى الاحتياج إلى الولد والاستعانة وإلى كل قليل وكثير ، وضع الموصول موضع الضمير إشارة إلى أن صدور ذلك منهم منشأه عدم الإيمان بالآخرة ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ الصفة العليا وهى الغنى المطلق الذى هى معنى لا إله إلا الله فهو منزه عن صفات المخلوقين ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الغالب على كل شىء فلا احتياج له إلى ولد يستظهر به ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى صنعه المنفرد بالحكمة ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ بكفرهم ومعاصيهم ﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أى على الأرض ، دل عليها ذكر الناس ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ نسمة تدب عليها بشؤم المعاصى . وعن ابن عباس من دابة من مشرك وعليه فذكر الدابة للتحقير ﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ لحكمة اقتضت ذلك إما ليتوب بعضهم أو يولد من يتوب أو ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ ﴾ المحتوم ﴿ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ عنه ﴿ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ عليه عطف على الشرطية وإضافة الظلم إلى الناس باعتبار وقوعه بينهم فلا يلزم العموم لخروج الأنبياء عليهم السلام ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ لأنفسهم من البنات والشريك فى الرياسة وإهانة الرسل وإعطاء أراذل الأموال فى الصدقات ووجوه البر ﴿ وَتَصِفُ ﴾ تقول ﴿ أَلْسِنَتُهُمُ ﴾ مع ذلك ﴿ الْكَذِبَ ﴾ وهو ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ بدل من الكذب أو بأن لهم الحسنى عندالله فى مقابلة ذلك القبيح كقوله «ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى» قال تعالى ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ حقا ﴿ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴾ بكسر الراء لنافع من أفرط فى المعصية بالغ فيها وبفتحها

لباقى السبعة اسم مفعول من أفرطه قدمه أى مقدمون إلى النار أو من أفرطه تركه وراء ظهره أى متروكون فيها وهذا أبلغ وأليق بالمقام رد لكلامهم وإثبات ضده ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ رسلا كما أرسلناك ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ السيئة فرأوها حسنة فكذبوا الرسل وأصروا على ذلك إلى أن ماتوا عليه ففيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ﴾ متولى أمورهم ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أى فى الدنيا عبر باليوم عن زمانها أى إنما كانوا مخذولين فى الدنيا لكون الشيطان وليًا لهم ، وفيه تسلية لرسول الله ووعيد للمشركين ، أو المراد يوم يعذبون بالنار لا ناصر لهم إلا الشيطان وفيه تهكم ونفى للناصر على أبلغ وجه ، أو اليوم الزمان الحاضر ، والمعنى زين للأمم قبلك وفرغ من أمرهم فهو الآن ولى هؤلاء الذين يكذبونك وفيه مزيد التسلى والتشفى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يوم القيامة ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ من أمر الدين وأحوال المبدأ والمعاد أصولا وفروعا ، أو من التوحيد والقدر وأحوال المعاد وأحكام الأفعال ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ به ، معطوفان على محل «لتبين» ولم يظهر اللام لأنهما فعلا المنزل بخلاف التبيين وتخصيصهما بالمؤمنين بمعنى أنهم قبلوه والتزموا العمل بموجبه وعم التبيين للناس لأنه الكشف عن موضع اللبس بحيث لا يخفى على أحد سواء قبله أو لا ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ﴾ بالنبات ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يبسها وهذا رجوع إلى بيان دلائل التوحيد الذى بدأ به بعد أن حكى أنواعا من الكفر والضلالات ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ دالة على التوحيد والبعث ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ سماع تدبر لأن من لم يتدبر بعد السماع فكأنه لم يسمع ومن لم يسمع بقلبه لم ينتفع بالآيات ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ دليلا يعبر به من الجهل إلى العلم بوجود صانع حكيم ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ بفتح النون لنافع وابن عامر وأبى بكر وبعقوب وبضمها الباقين فى الموضعين ، بيان للعبرة ﴿ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ أى الأنعام ، ذكر الضمير ووحده هنا للفظ وأنثه فى سورة المؤمنين للمعنى فإن الأنعام اسم جمع ، ولنا عنه سيبويه فى المفردات كثوب أخلاق ، ومن قال إنه جمع نعم جعل الضمير للبعض لأن اللبن لبعضها دون جميعها ﴿ مِنْ ﴾ للابتداء متعلقة بنسقيكم ﴿ بَيْنِ فَرْثٍ ﴾ ثفل الكرش ﴿ وَدَمٍ لَبَنًا ﴾ متوسطا بينهما أسفل البطن محل الفرث وأعلاه محل الدم والقلب والكبد ذات اليمين وذات الشمال مستعليان ينبوعا الدم وعن ابن عباس إذا استقر المأكول فى الكرش وطبخته كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما والكبد مسلطة عليها تقسمها بتقدير الله سبحانه فيجرى الدم فى العروق واللبن فى الضروع ويبقى الثفل فينزل إلى الأمعاء إلى وقت خروجه ، قال فى اللباب فإذا خرج لا يسمى فرثا ، قال البيضاوى : إن صح ما روى عن ابن عباس فالمراد أن وسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذى يغذى البدن لأنهما لا يتكونان فى الكرش بل الكبد يجذب صفاة الطعام المهضم فى الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها ثانيا فيحدث أخلاطا أربعة منها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين وتدفعها إلى الكلية

والمرارة والطحال ثم يوزع الباقى على الأعضاء بحسبها فيجرى إلى كل حقه على مايليق به بتقدير العليم الحكيم ثم إن كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد أولا إلى الرحم لأجل الجنين فإذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه إلى الضروع فيبيض بمجاورة لحومها البيض فيصير لبنا .اه. ومن الأولى تبعيضية لأن اللبن بعض ما فى بطونها ﴿ خَالِصًا ﴾ صافيا لا يشوبه شىء من رائحة الفرث ولون الدم ﴿ سَائِغًا ﴾ سهل المرور فى الحلق ﴿ لِلشَّارِبِينَ ﴾ لا يغص به أحد وكل هذا دليل على كمال القدرة وامتنان بالنعم قال عليه السلام « من سقاه الله لبنا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه» وقال «ليس شىء يجزى مكان الطعام والشراب غير اللبن» رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ﴾ أى وإن لكم عبرة أيضاً فيما نسقيكم من ثمراتهما أى من عصيرهما ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴾ خمرا يسكر سميت بالمصدر وهذا قبل تحريمها أو من ثمرات متعلقة بتتخذون ومنه تكرير الظرف تأكيدا أو خبر لمحذوف صفته تتخذون أى ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه وتذكير الضمير على الوجهين الأولين المضاف المحذوف الذى هو العصير أو لأن الثمرات بمعنى الثمر ﴿ وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ كالتمر والزبيب والدبس والخل فإن كانت الآية قبل تحريم الخمر فدلالة على أنها ليست رزقا حسنا. فتكره وإلا فلجامعة بين العتاب والمنة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ على قدرته تعالى ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يتدبرون فى المصنوعات ثم شرع فى نوع آخر من الدلائل فقال ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ وحى إلهام أى يقذف فى قلوبها ﴿ أَنِ ﴾ مفسرة أو مصدرية ﴿ اتَّخِذِي ﴾ وتأنيث الضمير على المعنى لأن النحل مذكر اسم جمع كالناس ﴿ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ﴾ مسدسة تأوين إليها ﴿ وَمِنَ الشَّجَرِ ﴾ بيوتا ﴿ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ أى الناس يبنون لك من الأماكن أى بعض الجبال والشجر وما يعرشون لأنها لاتبنى فى الكل ولا فى كل مكان منها والبيت ما يبيت فيه الحيوان ويأوى إليه إنسانا كان أو غيره ومنه بيت العنكبوت فلا احتياج إلى التشبيه ببيت الإنسان ولكون بيوتها مسدسة تتصل حتى تصير كالقطعة الواحدة وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجامت بينهما فرج إلا الشكل المسدس فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه القطعة الواحدة قاله ابن العربى فى الأحكام ولا خفاء لما فى بيوتها من حسن الصنعة وصحة القسمة التى لا يقوى عليها حذاق المهندسين بآلات وأنظار دقيقة ولعل ذكره التعبير عن الإلهام بالوحى للتنبيه على ذلك وإن لم يوح إليها لم تأو إلى الأماكن ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ التى تشتهينها من حلو أو مر إرشاد لها إلى عمل بعد اتخاذ المنزل والمراد بعض كل الثمرات وفيه طباق بين من ولفظ كل وبين كلى وكل شبه الاشتقاق وفيه الازدواج ومن النحل وحشى يسكن الجبال والشجر ويأوى إلى الكهوف ومنه أهلى يبنى له الناس أماكن ولها أمير كبير نافذ الحكم فيهم يكون أكبرهم جثة يسمى يعسوب النحل أى ملكهم حكاه الجوهرى ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ﴾ طرقه فى طلب الرعى أو فى عمل العسل أو فى الرجوع من الرعى لا تلتبس عليك

﴿ ذُلُلًا ﴾ جمع ذلول حال من السبل أى مسخرة لك فلا تعسر عليك وإن توعرت أو لاتضل عن العود منها وإن بعدت وقيل من الضمير فى اسلكى أى منقادة لما يراد منك ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا ﴾ من أفواهها تمجه كاللعاب ﴿شَرَابٌ﴾ هو العسل ولا زكاة فيه مع كونه طعاما مقتاتا ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ إلى أبيض وأسود وأحمر وأصفر وغير ذلك بحسب ما تأكل من الثمار والأزهار وبحسب اختلاف سن النحل والفصول، وإنما عدل من الخطاب إلى الغيبة لفراغ التعليم المقتضى له والشروع فى المقصود الذى كان ذلك الإلهام والتعليم لأجله وهو الامتنان على الإنسان بإيصال ذلك النفع البالغ إليه، والشفاء القاطع للمرض مع كون الدواء من أمقت الأشياء كما قال تعالى ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ إما بنفسه كما فى الأمراض البلغمية أو مع غيره فى سائر الأمراض إذ قل ما يكون معجون إلا والعسل جزء منه مع أن التنكير فيه مشعر بالتبعيض أى نوع منه ويجوز أن يكون للتعظيم والصحيح أنه شفاء لكل الأمراض بدون ضميمة شىء لكن بنيته أى يجرى على نية كل أحد فمن قويت نيته وصح يقينه انتفع به على كل حال كما روى عن ابن عمر أنه كان لا يشتكى شيئاً إلا جعل عليه عسلا حتى الدمل إذا خرج عليه طلاه بعسل. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعجبه الحلوى والعسل وكان يقول إن كان فى شىء من أدويتكم خير ففى شرطة محجم وشربة عسل ولذعة نار، وقد أمر بالعسل من استطلق بطنه رواه الشيخان ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى بدائع صنع الله فيعلمون أن اختصاص النحل بهذه العلوم الدقيقة التى لا يطلع عليها إلا حذاق علم الهندسة لابد له من خالق قادر حكيم يلهمها ذلك ولغموض مافى هذه الصنعة ختم الفاصلة بالتفكر الذى يقتضى إعمال الروية وترتيب المبادئ ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾ ولم تكونوا شيئا ﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ بانقضاء آجال مختلفة ﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ أى أخسه من الهرم الذى يشابه الطفولية فى نقصان القوة والعقل وفساد الحواس لكنه خص بالرذالة إذ لا رجاء فى العود. روى عن على رضى الله عنه أنه خمس وسبعون وعن قتادة خمس وتسعون والحق أنه يختلف باختلاف الأشخاص وتفاوت القوى والعقول ورب ابن خمسين وهو فى أرذل العمر ورب ابن تسعين ليس فيه ومراتب الإنسان فى عمره أربعة سن النشوء من أول العمر إلى ثلاث وثلاثين فالوقوف إلى أربعين وهو غاية كمال العقل فالكهولة إلى الستين وفيه الشروع فى النقصان نقصا خفيفا لا يظهر فالشيخوخة والانحطاط إلى آخر العمر ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ كالصبى الذى لا عقل له وهو كناية عن غاية النسيان لتكون قدرته على نقل الإنسان من العلم إلى الجهل دليلا على قدرة نقله من الموت إلى الحياة للبعث قال عكرمة من قرأ القرآن لم يصر إلى أرذل العمر ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بالأشياء كمقادير الأعمار ﴿ قَدِيرٌ ﴾ على ما يريد يميت الشاب النشيط ويبقى الهرم الفانى وفيه تنبيه على أن تفاوت آجال الإنسان ليس إلا بتقدير قادر حكيم ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ فمنكم غنى وفقير ومالك ومملوك وكذا فى الخلق والعقل والصحة والسقم والحسن والقبح والعلم والجهل فهم متفاوتون فى كل ذلك على

مقتضى الحكمة ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾ أى الموالى ﴿ بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أى بجاعل ما رزقناهم من الأموال وغيرها شركة بينهم وبين مماليكهم ﴿ فَهُمْ ﴾ أى المماليك والموالى ﴿ فِيهِ سَوَاءٌ ﴾ شركاء المعنى ليس لهم شركاء من مماليكهم فى أموالهم فكيف يجعلون بعض مماليك الله شركاء له وجملة فهم لازمة للجملة المنفية أو مقررة لها ويحتمل أن المراد لومهم على عدم مساواة العبيد فى الرزق ولذا قال عليه السلام « إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم أطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون » أخرجه البخارى أو المراد لايحسبن الموالى أنهم رادون على مماليكهم من الرزق شيئا لأن الله هو الرازق حقيقة ﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ يكفرون حيث يجعلون له شركاء أو حيث لاينفقون على أمثالهم مع أنهم عباد مربوبون أو حيث لايرضون بالمساواة مع عبيدهم وإمائهم فى الرزق وقرأ أبو بكر يجحدون بالخطاب ثم أشار إلى نوع آخر من دلائل الأنفس مع كونها نعما جزيلة فقال ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ جنسكم الآدميين ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ زوجات مخلق حواء من ضلع آدم وسائر النساء من نطف الرجال والقصاء لتأنسوا بها وليكون أولادكم مثلكم ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ جمع حافد المسرع فى الخدمة يعنى البنات لأنهن تخدمن فى البيوت أتم خدمة أو أولاد الأولاد وقيل الأختان على البنات وقيل الربائب أو البنون أنفسهم والعطف لتغاير الوصفين وأضاف البنين للأزواج لانفصال الولد صورة وروحا منهن ولأجل ذلك يتبع الولد أمه فى الرق والحرية وصار مثلها فى المالية لأنه انفصل من الأب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة وإنما اكتسب ذلك منها كما لو أكل رجل تمرا فى أرض رجل فسقطت منه نواة فى الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فإنها ملك لصاحب الأرض دون الآكل بإجماع الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها قاله ابن العربى فى الأحكام ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ من أنواع الثمار والحبوب والحيوان ومن للتبعيض فإن المرزوق فى الدنيا بعض الطيبات ولا يحصل كلها إلا فى الجنة ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ ﴾ باعتقاد منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها أو أن من الطيبات مايحرم عليهم كالبحائر ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ بإشراكهم وتحريمهم ما أحل الله وإضافة نعمته إلى الأصنام وتقديم الصلة للحصر لأن من جعل المؤهوم متيقنا وأنكر المتيقن لا أكفر منه . أو للمحافظة على الفواصل ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى غيره ﴿ مَالَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ ﴾ بالمطر ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ بالنبات ﴿ شَيْئًا ﴾ بدل من رزقا إن كان بمعنى المرزوق أو منصوب به لأن رزقا اسم مصدر يعمل عمله ، ومن السموات والأرض صلة الرزق إن كان مصدرا بمعنى لايرزق من السموات مطرا ولا من الأرض نباتا وصفة إن كان اسما لما يرزق ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ لايقدرون على شىء نفى للإمكان بعد نفى الفعل ترقيا وجمع الضمير وأفرده باعتبار لفظ « ما » ومعناه وقيل ضمير الجمع راجع إلى الكفار أى هؤلاء مع كونهم أحياء لايقدرون على ذلك فكيف بالجمادات ولا حاجة إلى تقدير

الراجع إلى الرزق لأن المعنى نفى الاستطاعة رأسا ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ لاتجعلوا له أشباها تشركوهم به لأن من أشرك به شيئاً فقد شبهه به ففى النهى عن ضرب المثل نهى عن التشبيه به ذاتا ووصفا وفى لفظ الأمثال لمن لا مثل له نعى عظيم على القائل وتسجيل على غباوته ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ فساد ما تقولون وعظم جرمكم فيما تفعلون ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ولو علمتموه لما جرأتم عليه فهو تعليل للنهى أو أنه يعلم كنه الأشياء وأنتم لا تعلمونها فدعوا رأيكم مع نصه أو أنه يعلم كيف تضرب الامثال وأنتم لا تعلمون ثم علمهم كيف يضرب فضرب مثلا لنفسه ولمن عبد من دونه فقال ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ ويدل منه ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ صفة تميزه من الحر فإنه عبد الله ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لعدم ملكه أخرج به المكاتب والمأذون ﴿وَمَنْ﴾ نكرة موصوفة أى حرا ﴿رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أى يتصرف فيه كيف شاء والأول مثل الأصنام والثانى مثله تعالى ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ العبيد العجزة والحر المتصرف ؟ لا . وفى الآية إشارة إلى أن المملوك لا يملك وتقييد الرزق بالحسن لإخراج الحرام إذ لا مدح فى إنفاقه ويحتمل أن يراد به الكثرة ليتسع مجال الإنفاق وجمع الضمير فى «يستوون» للمعنى لأن المراد بعبدا و«من» الجنس ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد لأنه المتفرد بالإيجاد فلا استحقاق لغيره ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ المشركون ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ مايصيرون إليه من العذاب فيشركون به ويضيفون نعمه إلى غيره ويعبدونه لأجلها وقيد الأكثر لإخراج الأقل فإنهم يقولون جحودا ثم ضرب مثلا لذلك أوضح من الأول فقال ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ ويدل منه ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ ولد أخرس ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لأنه لا يفهم ولا يُفهم ﴿وَهُوَ كَلٌّ﴾ ثقل وعيال ﴿عَلَى مَوْلَاهُ﴾ ولى أمره حاصله أنه عديم النفع مع الضرر الظاهر ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ﴾ يصرفه فى طلب حاجة أو كفاية ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بنجح لأن مناط الخير القول أو الفعل وهو عار منهما وهذا مثل الصنم الذى هو جماد لا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا ينطق ولا يعقل وهو كل على ما يعبده بكلفة الحمل والنقل والخدمة ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ الأبكم المذكور ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ ومن لازمه النطق والعلم والقدرة أى فهم منطبق ذو كفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على النفع ومنعهم من الضر ﴿وَهُوَ﴾ فى نفسه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعى أو استقامته فى الاعتقاد والعمل وإنما قدم الأمر بالعدل على الاستقامة تشريفا وهذا مثل قد بما يفيضه على عباده من إنعامه وآثار رحمته وقيل الآية مثل للكافر والمؤمن وعليه فقيل على العموم فى كل كافر ومؤمن وقيل على الخصوص فالذى يأمر بالعدل هو رسول الله والأبكم أبو جهل ، أو فى عثمان بن عفان ومولى له يأمره عثمان بالإسلام ويأمر عثمان بالإمساك عن الإنفاق فى سبيل الله ، أو فى أبى بن خلف وحمزة والله أعلم ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ علم ما غاب فيهما بيان لكمال علمه بعد إبطال الشبهة وقبل غيبهما القيامة فإن علمها غائب عن أهلها ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ قيامها فى السرعة والسهولة ﴿إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها

﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ منه لأنه بلفظ كن فيكون وأو للتخيير أو الإضراب بمعنى بل ، والعرب إذا استهانوا فعل شيء يضربون له بذلك مثلا ، وهو بيان لكمال قدرته وتساوى الممكنات بالنسبة إليها ولذا قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ برهاناً على ذلك لاندراجه فى الكلية ثم دل على قدرته فقال ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ قرأ حمزة والكسائى بكسر الهمزة إذا وصل بما قبله للإتباع وزاد حمزة كسر الميم للاتساع والهاء زائدة ﴿ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ من الأشياء والجملة حال ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾ آلات الإدراك ﴿ السَّمْعَ ﴾ بمعنى الأسماع ﴿ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ القلوب تدركون بالأولين جزئيات الأشياء ثم تنبهون بقلوبكم بمشاركات ومباينات بينها بتكرار الإحساس حتى يحصل لكم العلوم البديهية وتتمكنوا من تحصيل العلوم الكسبية بالنظر فيها ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ مولى تلك النعم بالإيمان والطاعة ثم ذكر دلائل الآفاق بعد دلائل الأنفس بقوله ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة ويعقوب بالخطاب ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مذللات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب الموائية له ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ أى الهواء بين السماء والأرض وجو الشيء داخله . قال كعب الأحبار : إن الطير ترتفع فى الجو اثنى عشر ميلا ولا ترتفع فوق ذلك ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ بقدرته إذ لا دعامة هناك ولا علاقة والجسد بثقله يقتضى السقوط ، وفى هذا حث على الاستدلال بذلك على أن لها ممسكا أمسكها فى حال قبض أجنحتها وبسطها واصطفافها ووقوفها فى الهواء وهو الله ، ولذا قال ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ دالات على علم الصانع وقدرته من وجوه شتى : خلق الطير على الحالة التى يمكن لها الطيران ، وخلق الجو على الوجه الذى يمكن الطيران فيه ، وإمساك الطير فى الهواء على خلاف مقتضى الطبع ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المنتفعون بها استدلالا على وحدة الصانع وقدرته ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ موضعاً تسكنون فيه وقت إقامتكم كالبيوت المتخذة من الحجر والمدر والخشب ، فعل بمعنى مفعول ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ هى القباب المتخذة من الأدم ويجوز أن يتناول الخيام المتخذة من الوبر والصوف والشعر فإنها من حيث إنها نابتة على جلودها يصدق عليها أنها من جلودها ﴿ تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ تجدونها خفيفة يخف عليكم حملها ونقلها ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ سفركم بفتح العين لنافع وابن كثير وأبى عمرو وبسكونها للباقين ﴿ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ فى وضعها أو ضربها وقت الحضر أو النزول فاليوم لمطلق الزمان بمعنى الوقت ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا ﴾ أى الضأن ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ أى الإبل ﴿ وَأَشْعَارِهَا ﴾ أى المعز ﴿ أَثَاثًا ﴾ متاعاً باللبس والفرش فى الأكسية والبسط ﴿ وَمَتَاعًا ﴾ بالتجربة وقيل الأثاث متاع البيت الكثير من أث أى كثر وقيل جميع المال ، ومتاعاً ما يتمتع به فى البيت خاصة ، عطف على سكناً باعتبار الصفة أو من عطف الخاص على العام ، ولم يذكر القطن والكتان لأنه لم يكن فى بلاد العرب المخاطبين به وإنما خوطبوا بما عرفوا فما قام مقامه يدخل فى الاستعمال والنعمة مدخله ، وقيل ترك ذكر القطن والكتان والحرير إعراضاً عن السرف إذ ملبس الصالحين هو الصوف غالباً ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

تبلى فيه أو إلى حين انقضاء أعماركم ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ﴾ من الشجر والغمام وغير ذلك ﴿ ظِلَالًا ﴾ جمع ظل تتقون به من حر الشمس ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾ من الكهوف والسروب جمع كن ما يستكن فيه أى يستتر من حر أو برد ، والمسافر إما غنى فيستكن بالخيام ونحوها أو فقير فيستكن بكل ما يقيه من الكهوف أو السروب أو غير ذلك ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ ﴾ ثياباً من الصوف والكتان والقطن وغيرها ﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ أى والبرد خص الأول بالذكر لأنه أكثر عندهم أو اكتفاء بأحد الضدين لأن دافع أحدهما دافع للآخر ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ أى حربكم أى الطعن والضرب فيها كالدروع والجواشن ، والسربال يعم كل ما يلبس ﴿ كَذَلِكَ ﴾ كإتمام هذه النعم التى تقدمت ﴿ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ ﴾ فى الدين والدنيا ﴿ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ تنقادون لحكمه إذا نظرتم فيها ، والكلب ينقاد لمن يطعمه كسرة يابسة فكيف يكون أكثر شكراً منكم ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ الإبلاغ البين . وقد بلغت وتمهد عذرك فذكر السبب ليدل على المسبب ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ أى يقرون أنها من عنده ﴿ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ بإشراكهم غيره فى العبادة وقولهم إنما نرزق ببركة الأصنام وشفاعتها أو يعرفون نعمته عليهم بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم أنكروها ، ومعنى « ثم » استبعاد الإنكار بعد المعرفة ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ الجاحدون عناداً وذكر الأكثر إما لأن بعضهم لم يعرفوا الحق لنقصان العقل أو التفريط فى النظر ، وإما لأنه يقام مقام الكل كما فى قوله «بل أكثرهم لا يعلمون» ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ هو نبيها يشهد لها وعليها بالإيمان والكفر وهو يوم القيامة ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فى الاعتذار إذ لا حجة لهم ، وقيل فى الكلام أصلا ، وقيل فى الرجوع إلى الدنيا ، والمعنى أنهم بعد شهادة الأنبياء يقعون فيما هو أعظم منها وهو عدم الإذن فى الكلام لأن الواقع فى البلية قد يتنفس بعض تنفس إذا أذن له فى إبداء العذر وإن كان موقناً بأنه لا يجدى به نفعاً ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ لا يطلب منهم العتبى وهو الرضا أى لا يطلب منهم الرجوع إلى ما يرضى الله ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ ﴾ النار ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ ﴾ العذاب ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ لا يمهلون عنه إذا رأوه ، والفاء فى مثل هذا فصيحة ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾ من الشياطين وغيرها ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا ﴾ نعبد ﴿ مِنْ دُونِكَ ﴾ اعتراف بأنهم كانوا خاطئين فى ذلك أو التماس بأن يشطر عذابهم ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ ﴾ أى أجابوهم بقولهم ﴿ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ فى قولكم عبدتمونا سيكفرون بعبادتهم إن أريد بهم الشياطين والأصنام وإن كان القوم من الملائكة وعيسى وعزير فالمعنى عبدتم الشياطين دوننا بل كانوا يعبدون الجن ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ استسلموا لحكمه بعد الاستكبار فى الدنيا ﴿ وَضَلَّ ﴾ غاب ﴿ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ من أن آلهتهم تشفع لهم وتنصرهم أى بطل عنهم ذلك حين كذبوهم وتبرءوا منهم ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ دينه

بمنع الإسلام والحمل على الكفر ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ الذى استحقوه بكفرهم ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ بكونهم مفسدين بصدهم ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ يَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ هو نبيهم ﴿ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يا محمد ﴿ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ أمتك المؤمن والكافر ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ القرآن ﴿ تِبْيَانًا ﴾ بيانا ﴿ لِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ يحتاج إليه من أمر الشريعة ومرجع السنة والإجماع والقياس إليه ﴿ وَهُدًى ﴾ للضالين إلى الصواب ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ لجميع الخلق وحرمان المحروم من تفريطه ﴿ وَبُشْرَىٰ ﴾ بالجنة ﴿ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ الموحدين المنقادين لأحكامه العاملين بما فيه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ استئناف فى غاية الجزالة فإنه لما بيّن أن الكتاب تبيان لكل شىء كأنه سئل عن كيفيته فبين ذلك على الإجمال فقال «إن الله يأمر بالعدل» بالتوسط فى الأمور اعتقاداً كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، وعملا كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب، وخلقاً كالجود المتوسط بين البخل والتبذير، والشجاعة المتوسطة بين الجبن والتهور ﴿ وَالْإِحْسَانِ ﴾ أى الإخلاص فى تلك الأمور أصولا وفروعاً على ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه» ودخل فيها الشفقة على خلق الله ﴿ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ ﴾ القرابة حقه ما يحتاج إليه من صلة وغيرها، تخصيص بعد تعميم للمبالغة. قال فى لباب التأويل: أصل العدل المساواة فى كل شىء، والإحسان أن تقابل الخير بأكثر منه والشر بالعفو عنه، وصلة الرحم أن تعطيهم من فضل ما رزقك الله وإن لم يكن لك فضل فدعاء حسن وتودد ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ﴾ الكبيرة ﴿ الْفَحْشَاءِ ﴾ التى تفاحش قبحها أى تجاوز عن الحد لاشتمالها على ذنوب شتى كالزنا وجميع المعاصى الشهوانية ﴿ وَالْمُنْكَرِ ﴾ كل ما ينكره الشرع صغيراً كان أو كبيراً من المعاصى الغضبية ﴿ وَالْبَغْىِ ﴾ الظلم للناس وجميع المعاصى الوهمية أو خصه بالذكر وإن كان داخلا فى المنكر لعظم أمره اهتماماً به كما بدأ بالفحشاء كذلك. قال البيضاوى: ولا يوجد من الإنسان شىء إلا وهو مندرج فى هذه الأقسام صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث يعنى القوة الشهوانية والغضبية والوهمية ولذا قال ابن مسعود هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فى القرآن غيرها لصدق عليه أنه تبيان لكل شىء ولعل إيرادها عقب قوله «ونزلنا عليك الكتاب» للتنبيه عليه. اهـ. وقال ابن عطية: العدل فعل كل مفروض والإحسان فعل كل مندوب وإيتاء ذى القربى لفظ يقتضى صلة الرحم ويعم جميع أسداء الخير إلى القرابة، والفحشاء الزنا ويتناول سائر المعاصى، والمنكر أعم منه لأنه يعم جميع المعاصى والرذائل على اختلاف أنواعها والبغى هو الظلم ﴿ يَعِظُكُمْ ﴾ بالأمر والنهى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ فإن قبح الإفراط والتفريط يدرك بأوائل العقول ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ رسوله فى بيعته وكل من دخل فى الإسلام فقد بايع رسول الله، وقيل هو النذر وقيل اليمين وقيل الحلف وقيل كل أمر يجب الوفاء به ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ ﴾ أيمان البيعة أو مطلق الأيمان ﴿ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ توثيقها بذكر الله وعقد القلب عليها فخرج لغو اليمين ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾

أى شاهداً أو رقيباً بالوفاء حيث حلفتم به ، والجملة حال ، فكما أن الكفيل يطالب بأداء الدين فكذلك الحالف مطالب بالبر لئلا يكون استخفافا باسمه تعالى ، قاله فى غاية الأمانى . قال فى اللباب لما ذكر الله فى الآية المتقدمة المأمورات والمنهيات على الإجمال ذكر فى هذه بعضها على التفصيل فبدأ بالأمر بالوفاء بالعهد لأنه أوكد الحقوق انتهى . قال القتبى العهد يمين يجب الوفاء به إذا كان فيه صلاح أما إذا لم يكن فيه صلاح فلا . اه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فى نقض الأيمان والعهود تهديد لهم ثم ضرب الله سبحانه وتعالى لنقض العهد مثلا فقال ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ ﴾ أفسدت ﴿ غَزْلَهَا ﴾ ما غزلته مصدر بمعنى المفعول ﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ إحكام له وإبرام متعلق بنقضت ﴿ أَنْكَاثًا ﴾ طاقات جمع نكث وهو ما ينكث وهو حال من غزلها أو مفعول ثان لنقضت بمعنى صيرت أو مصدر جمع مبالغة وكانت فى مكة امرأة حمقاء تفعل ذلك تغزل طول يومها ثم تنقضه وفى تشبيه الناقض بحالها تحذير وإشارة إلى أن ذلك ليس من فعل العقلاء وأن فاعله داخل فى أعداد النساء الحمق ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ حال من ضمير تكونوا أى لا تكونوا مثلها فى اتخاذكم ﴿أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا﴾ فسادا وخديعة ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ ثانى مفعولى تتخذون وأصله مايدخل فى الشىء وليس منه وإنما كانت الأيمان المنقوضة دخلا لوقوع الفتنة بينهم بنقضها ﴿ أَنْ ﴾ أى لأن ﴿ تَكُونَ أُمَّةٌ ﴾ جماعة ﴿ هِيَ أَرْبَى ﴾ أكثر عددا أو قوة ﴿ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ المعنى لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أولا تنبذوهم لقوة غيرهم وكانوا فى الجاهلية يعقدون الحلف مع طائفة فإذا رأوا أعداء تلك الطائفة أكثر وشوكتهم أوفر نقضوا العهد وحالفوا أولئك ، فنهى المؤمنون عن فعل ذلك و«أن تكون» علة لاتخاذهم دخلا وكان إما تامة و «هى أربى» فى موضع رفع صفة أو ناقصة والجملة خبرها ولا يجوز كون الضمير فصلا لأن الاسم الأول نكرة ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ بما أمر به من الوفاء بالعهد لينظر المطيع منكم والعاصى أو بكون أمة أربى لينظر أتفون أم لا ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فى الدنيا من أمر العهد وغيره بأن يعذب الناكث ويثيب الوافى وفيه وعد لمن حفظ العهد ووعيد لمن غدر ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أهل دين واحد ﴿ وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بالخذلان ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ بالتوفيق ﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ ﴾ يوم القيامة سؤال تبكيت ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ باختياركم وإن كان واقعاً بمشيئته تعالى فتجازوا عليه وفيه إشارة إلى ما هو الحق من التوسط بين الجبر والقدر ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ كرره تأكيدا وإظهاراً لعظم فساده ومبالغة فى التحذير من ارتكابه ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ ﴾ أى أقدامكم عن محجة الإسلام ﴿ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ استقامتها عليها مجاز عن تبدل الرشد بالغى والصيرورة من الصواب إلى الخطأ أفرد القدم إشارة إلى أن زلل قدم واحدة عظيم فكيف بأقدام كثيرة ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ ﴾ العذاب فى الدنيا بالقتل والأسر إشارة إلى أن نقض العهد يؤدى إلى ذلك ﴿ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى بصدكم عن الوفاء بالعهد أو بصدكم غيركم عنه لأنه يستن بكم ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فى الآخرة ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾

ولا تستبدلوا ﴿ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ فى مبايعة رسوله وغير ذلك ﴿ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ من الدنيا بأن تنقضوه لأجله وفيه منع الرشوة ﴿ إِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من الثواب والنعيم الدائم ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ من المتاع الفانى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ذلك فلا تنقضوا . ﴿ مَا عِنْدَكُمْ ﴾ من الدنيا ﴿ يَنْفَدُ ﴾ يفنى ويزول ﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ من النصر والثواب وخزائن رحمته ﴿ بَاقٍ ﴾ دائم لا يزول برهان على أن ما عند الله خير إذ لا نسبة للفانى مع الباق ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾ بالياء لنافع وأبى عمرو وحمزة والكسائى وابن عامر وبالنون لغيرهم ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ على الوفاء بالعهود وأذى الكفار ومشاق التكاليف ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ بأرجح أعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بجزاء أحسن من أعمالهم وفى الحديث « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى » أو أحسن بمعنى حسن ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ بينه بالنوعين دفعا للتخصيص ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ إذ لا اعتداد بعمل دون الإيمان ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ فى الجنة أو فى الدنيا بالقناعة أو الرزق الحلال فإن كان المؤمن غنيا فظاهر وإن كان فقيرا كان طيب عيشة بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الأجر العظيم فى الآخرة بخلاف الكافر فإنه إن كان معسرا فظاهر وإن كان موسرا لم يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ من الطاعات ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ أى أردت قراءته من إطلاق المسبب على السبب ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ أى قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كذا روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول قبل القراءة أى فاسأل الله تعالى أن يعيذك من وساويسه لئلا يوسوسك فى القراءة والجمهور على أنه للاستحباب وتعقيبه لذكر العمل الصالح والوعد إيذان بأن الاستعاذة عند القراءة من هذا القبيل وإن قال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم فلا بأس به وحديث ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الزيادة لم يصح ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ ﴾ تسلط وولاية ﴿ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فإنهم لا يطيعون أمره ولا يقبلون وساويسه إلا حال غفلة ثم يستعيذون فيتنبهون ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴾ بطاعته عبر بعمل وسوسته فيهم بالسلطان للمشاكلة والازدواج ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ ﴾ بالله ﴿ مُشْرِكُونَ ﴾ والأول أعم من المشرك أو العطف باعتبار تغاير الصفة والضمير فى به للشيطان أى بسببه ولما كان النسخ بابا عظيما من أبواب وسوسة الشيطان بكونه يوهم التناقض والله منزه عنه ذكره بعد الأمر بالاستعاذة فقال ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ بنسخها وإزال غيرها لمصلحة العباد ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ بالتشديد للجمهور والتخفيف لابن كثير وأبى عمرو أى من مصالح العباد فلعل ما يكون مصلحة بالأمس مفسدة باليوم والجملة اعتراض بين الشرط وجزائه وهو ﴿ قَالُوا ﴾ أى الكفار للنبى صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ كذاب تقوله من عندك تأمر بشىء ثم يبدو لك فتنهى عنه ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حكمة الأحكام ولا يميزون الخطأ من الصواب ولذا لم

يعرفوا فائدة النسخ ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾ جبريل جواب لقولهم إنما أنت مفتر وإسناد الإنزال إليه ليدل على التقدس المنافي للافتراء ﴿ مِن رَّبِّكَ ﴾ بالأمر الثابت منه ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ متعلق بنزل أو ملتبسا بالحكمة وفيه دلالة على أن النسخ حق ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لإيمانهم به إذ علموا ما فيه من الحكمة وازدادوا طمأنينة ﴿ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لحكمه وهما معطوفان على محل ليثبت أى تثبيتاً وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول أضداد ذلك لغيرهم ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ ﴾ القرآن ﴿ بَشَرٌ ﴾ وهو قين نصرانى وقى تعيينه واسمه اضطراب تركته لذلك قال تعالى ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ ﴾ بضم الياء للجمهور وفتحها لحمزة والكسائى يميلون ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أنه يعلمه ﴿ أَعْجَمِيٌّ ﴾ لا يفصح فى كلامه ﴿ وَهَٰذَا ﴾ القرآن ﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ذو بيان وفصاحة فكيف يعلمه أعجمى ؟ قال فى اللباب : والأعجمى هو الذى لا يفصح فى كلامه والعجمى المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا بالعربية . اه وفى هذا دليل على أن قولهم جهل وعناد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ القرآن بقولهم هذا من قول البشر ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ مؤلم فى الآخرة هددهم على كفرهم بالقرآن بعد ما أماط شبههم ورد طعنهم فيه ثم غلظ الأمر عليهم فقال ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ لأنهم لا يخافون عقابا يردعهم عنه ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ الكاملون فى الكذب لأن تكذيب آيات الله من أعظم الأكاذيب ، أوهم الذين عادتهم الكذب لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين أو الكاذبون فى قولهم إنما أنت مفتر وهو رد له وقلب عليهم والتأكيد بالتكرار وإن وغيرهما لمقابلة ذلك القول ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ ﴾ من مبتدأ أو شرطية والخبر أو الجواب له وعيد شديد ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ على التلفظ بالكفر فتلفظ به ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ كعمار بن ياسر أخذه الكفار وأخذوا أباه ياسرا وأمه سمية فعذبوهم ليرجعوا عن الإسلام فأبى ياسر وسمية فقتلا فهما أول قتيلين قتلا فى الإسلام وأما عمار فأعطاهم ما أرادوه بلسانه مكرها فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمارا كفر فقال « كلا إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه » فأتى عمار إلى رسول الله يبكى فقال : ما ورائك يا عمار فقال شر فأخبره فقال كيف وجدت قلبك قال مطمئنا بالإيمان فقال « إن عادوا لك فعد لهم بما قلت » فنزلت ، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب وعلى جواز التكلم بلفظ الكفر لمن أكره رخصة والصبر لإعزاز الدين أفضل لما صح أن مسيلمة أخذ رجلين من المسلمين فقال لأحدهما ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فأنا قال أنت أيضاً فخلى سبيله وقال للآخر ما تقول فى محمد قال رسول الله قال ما تقول فىّ ؟ قال لم أسمع فأعاد عليه فأعاد مقالته فقتله فبلغ ذلك رسول الله فقال « أما الأول فقد أخذ برخصة الله وأما الآخر فقد صدع بالحق هنيئا له » قاله فى غاية الأمانى . وقال فى لباب التأويل : أجمعوا على أن من أكره على الكفر لا يجوز له التلفظ به تصريحا بل يأتى بالمعاريض وبما يوهم أنه كفر فلو أكره على التصريح يباح له ذلك بشرط طمأنينة القلب ولو صبر حتى قتل كان أفضل كما

فعل ياسر وسمية ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ له أى فتحه ووسعه بمعنى طابت به نفسه ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إذ لا أعظم من جرمه ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الكفر بعد الإيمان أو ذلك الشرح أو ذلك الوعيد عليه ﴿ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ اختاروها ﴿ عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ فى علمه الذين ذرأهم للنار ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ فأبت عن إدراك الحق والتأمل فيه ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الكاملون فى الغفلة عما يراد بهم حيث آثروا الفانى على الباقى ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ حقا ﴿ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الكاملون فى الخسران لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ عذبوا وتلفظوا بالكفر كعمار أو بالولاية والنصرة، وثم لتباعد حال هؤلاء عن حال أولئك. وقرأ ابن عامر فتنوا بالبناء للفاعل أى كفروا أو عذبوا المؤمنين كالحضرمى أكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا وسهيل هو ابن بيضاء عذب ابنه أبا جندل ثم أسلم بعد ﴿ ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاق وعلى الطاعة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ أى الفتنة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ بهم وخبر إن الأولى دل عليه خبر الثانية وقيل الجار والمجرور خبر الأولى كأنه قيل إن ربك لهم لا عليهم والثانية مع خبرها بيان لكونه لهم ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ ﴾ تحاج ﴿ عَن نَّفْسِهَا ﴾ فى طلب الاعتذار لا يهمها غيرها وهو يوم القيامة ويوم منصوب برحيم أو باذكر ﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ جزاء ﴿ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ شيئاً من جزائهم ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ﴾ لكل قوم أنعم عليهم فكفروا النعمة فأنزل بهم نقمته لأن النفوس تزجر بعذاب الدنيا أكثر مما تزجر بعذاب الآخرة ولذا شرعت الحدود ﴿ قَرْيَةً ﴾ بدل من مثلا وهى مكة والمراد أهلها وقيل مفروضة والأول الصحيح لأن ضرب المثل إنما يكون بأمر بديع فى البشاعة جرى فى الأزمنة الماضية زجرا للسامع من ارتكاب موجبه ﴿ كَانَتْ آمِنَةً ﴾ من الغارات لانتهاج ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ﴾ لا تحتاج إلى الانتقال عنها لضيق أو خوف ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ واسعاً ﴿ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من كل جانب من جوانبها كقوله تجبى إليه ثمرات كل شىء وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ بتكذيب النبى صلى الله عليه وسلم وهى جمع نعمة أو نعم كبؤس وأبؤس ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ ﴾ فقحطوا سبع سنين حتى أكلوا جيف الكلاب ﴿ وَالْخَوْفِ ﴾ من سرايا النبى، والجوع والخوف آفتان باطنتان لا شىء أشد على النفس من إحداهما فكيف إذا اجتمعا، شبه أولا ما يدرك الإنسان من ألم الجوع والضر بما يدركه من الطعم المر البشيع ثم شبه ذلك الألم والضر باللباس من حيث الاشتمال وحذف المشبه وذكر المشبه به وهو اللباس فالأولى استعارة مكنية والثانية تصريحية، وأوقع الإذاقة على اللباس دون الكسوة لأنه يفيد زيادة التأثير والتأثر فكان التجريد فى هذا المقام أبلغ من الترشيح وإنما لم نقل إنه ترشيح، مع أن ألم الجوع المشبه أمر معقول والمدرك بالذوق لا بد أن يكون محسوساً فالإذاقة حينئذ

ترشيح لا تجريد فهو من توابع الطعم المز البشيع لأن الإذاقة كثر استعمالها فى البلايا والشدائد بمعنى الإصابة فجرت مجرى الحقيقة فيها فبذلك الاعتبار كانت تجريداً قال الشاعر :

وَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا فَإِنِّى طَعِمْتُهَا ٥ وَسِيقَ إِلَىَّ عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا

إنما قلنا المشبه باللباس هو الألم من حيث الاشتمال لأن جعله شعوب اللون ورثاثة الهيئة اللازمين للجوع يذهب حلاوة الإذاقة ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ من الكفر والإخلال بالشكر ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ الجوع والخوف وواقعة بدر فقلع شأفتهم ﴿ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ حال التباسهم بظلم الكفران ﴿ فَكُلُوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ بطاعته إذ استبان لكم ما حل بمن كفر بها لئلا يحل بكم ما حل بهم ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ثم عدد المحرمات بقوله ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وما عداها حل لكم مما تحرمون والحصر بـ«إنما» بالنسبة إلى ما يحرمون من البحائر ونحوها فلا يمنع حرمة الحمر الأهلية وغيرها مما دل عليه الدليل ولذا أتبعه بقوله ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ أى للشىء الذى تصفه ألسنتكم بالحل والحرمة من غير سند ﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ لما لم يحله ولم يحرمه و«الكذب» مفعول «تقولوا» و«هذا حلال» بدل منه أو «ما» مصدرية واللام للتعليل أى لا تقولوا لأجل وصف ألسنتكم الكذب وفيه مبالغة فى وصف كلامهم بالكذب حتى كأن حقيقة الكذب مجهولة وألسنتهم تصفها وتعرفها وكل هذا تأكيد للنهى عن التحريم والتحليل بالأهواء ﴿ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ بنسبة ذلك إليه ، تعليل خال عن الغرض ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ وإن حصل لهم ما حصل لهم فعاقبته وخيمة ثم بين نفى الفلاح بقوله ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ ما يفترون لأجله أو ما هم فيه قليل ينقطع عن قريب ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فى الآخرة فانتفى الفلاح ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ أى اليهود ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ فى قوله فى سورة الأنعام «وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر» إلى آخرها ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ متعلق بقصصنا أو بحرمنا ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ بالتحريم ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بارتكاب المعاصى الموجبة لذلك وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم فى التحريم وأنه كما يكون للمضرة يكون للعقوبة ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ ﴾ الشرك وغيره ﴿ بِجَهَالَةٍ ﴾ غير متدبرين العاقبة لغلبة الشهوة ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ عملهم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا ﴾ أى الجهالة أو التوبة ﴿ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يغفر ما سبق ويثيب على التوبة ثم عقب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والتحليل والتحريم بخصال إبراهيم لأنه جادل المشركين وأبطل مذاهبهم بقوله ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ إماما قدوة جامعا لخصال الخير ﴿ قَانِتًا ﴾ مطيعا ﴿ لِلَّهِ ﴾ قائما بأوامره ﴿ حَنِيفًا ﴾ مائلا عن الباطل إلى الدين القيم ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ﴾ صرح به من وإن علم «حنيفاً» تكذيباً لقريش الزاعمين أنهم على ملته ﴿ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ﴾ آثر جمع القلة إيماء إلى أنه لم يخل بالشكر، لو قلت فكيف وهي من الكثرة بحيث لا تحصى ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ اصطفاه بالنبوة ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ دين الإسلام والدعوة إلى الله ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ هي الثناء الحسن في كل أهل الأديان وأولاد طيبة وعمر طويل في السعة والطاعة وامرأة حسنة وهي سارة كانت أجمل النساء وأتقاها ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ الذين لهم الدرجات العلى، ولما وصف خليله بهذه الصفات العلية أمر حبيبه باتباعه فيها فقال ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يا محمد ﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ دينه، وذلك أيضاً من أجل ما أوتيه إبراهيم، ولا يخفى ما فيه من تنويه بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ حَنِيفًا ﴾ أي اتبعه في التوحيد والدعوة إليه بالرفق وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى والمجادلة مع كل واحد بحسب فهمه ﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ بل كان قدوة الموحدين، كرر رداً على زعم اليهود والنصارى أنهم على دينه ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ ﴾ فرض تعظيمه والتخلي فيه للعبادة ﴿ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ على نبيهم وهم اليهود، أمرهم موسى أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة فأبى أكثرهم وقالوا نريد يوم السبت لأن الله فرغ فيه من الخلق فألزمهم الله السبت وشدد الأمر عليهم، ثم أخل بالتعظيم بعضهم فاصطاد فيه فمسخوا على ما تقدم، وقيل معناه إنما جعل وبال السبت الذي هو المسخ على الذين اختلفوا فيه فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى وذكرهم هنا لتهديد المشركين كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله لاشتراكهما في انقلاب النعمة نقمة بالكفر والعصيان ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ من أمره بأن يثيب الطائع ويعذب العاصي باتهاك حرمته ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ دينه ﴿ بِالْحِكْمَةِ ﴾ القرآن أو الدليل الموضح للحق ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ الخطابات المتقنة والعبر النافعة بالرفق، والأولى لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق، والثانية لدعوة عوامهم، وهو متصل باتباع ملة إبراهيم وموضح كيفية الاتباع ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي ﴾ أي بالمجادلة التي ﴿ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ كالدعاء إلى الله بآياته بالحجج الواضحة برفق ولين وإيثار الوجه الأيسر ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ ﴾ عالم ﴿ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ فيجازيهم إنما عليك البلاغ والدعوة. ولما أمره بالدعوة وبين طرقها أمره هو وجميع من اتبعه بالعدل مع الأعادي فقال ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ أي جازيتم الكفار على ما فعلوا بكم من المثلة، لأنها نزلت لما قتل حمزة ومثل به وقال عليه السلام: لأمثلن بسبعين منهم مكانك ﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ فإن أحكام الدنيا على القصاص والمماثلة فإذا جازيتهم بمثل فعلهم فقد أخذت بثأرك ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ ﴾ عن الانتقام ﴿ لَهُوَ ﴾ أي الصبر ﴿ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ فقال عليه السلام «بل أصبر» وكفر عن يمينه ونهى عن المثلة فهي محرمة إجماعا في سائر الحيوانات بأسرها في الأقطار كلها، قاله في غاية الأماني. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن للقصاص أن يماثل الجاني وليس له أن يجاوزه وحث على العفو تعريضاً. اهـ. وفي لباب

التأويل : المعنى : إن صنع بكم سوء من قتل أو مثلة ونحوه فقابلوه بمثله ولا تزيدوا عليه . اه . قال مجاهد : نزلت فيمن ظلم ظلامة فلا يحل له أن يتناول من ظالمه أكثر مما نال منه الظالم ﴿ وَاصْبِرْ ﴾ فى المواطن كلها وليس تصريحا بما علم ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ بإرشاده وتوفيقه ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ على الكافرين فإن الله وعدك بالنصر والعاقبة أو لاتحزن عليهم إن لم يؤمنوا لحرصك على إيمانهم أو لاتحزن على المؤمنين بما حل بهم يوم أحد ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ ﴾ بفتح الضاد للجمهور وكسرها لابن كثير لغتان أو المفتوح مخفف ضيق ﴿ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ من مكرهم أى لا تهتم به فأنا ناصرك عليهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الكفر والمعاصى بالنصر علة للنهى عن الحزن وضيق الصدر ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ بالطاعة مخلصون فى تقواهم أو محسنون بالترحم على خلق الله وفيه إشارة إلى أن من صبر وتجاوز محسن متفضل وفيه ربط آخر السورة بأولها لأن قوله « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » فى المعنى أمر بالصبر لمجىء الفرج والله أعلم .

[تم تفسير سورة النحل]

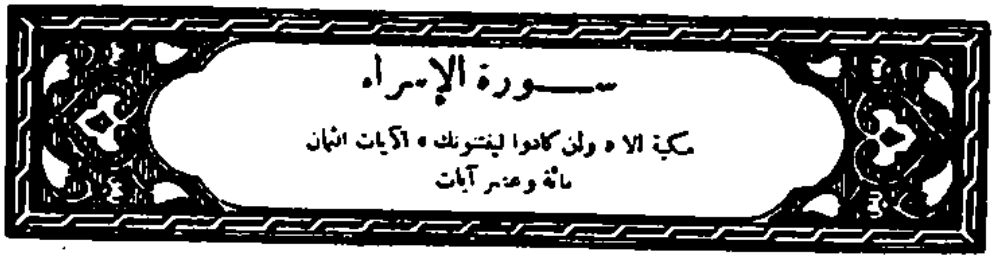

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ سُبْحَانَ ﴾ تنزيه ﴿ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم أجمعت الأمة أنه المراد به ﴿ لَيْلًا ﴾ نصب على الظرف ، والإسراء سير الليل وفائدة ذكره الإشارة بتنكيره إلى تقليل المدة و « سبحان » علم للتسبيح أى التنزيه البليغ من السبح وهو الإبعاد والإتيان به علماً دالاً على الحقيقة الحاضرة فى الذهن للدلالة على أن ما يرد بعده من الأمور البديعة ، فالله منزه عن العجز عن إيجادها ونصبه بفعل واجب الترك وما فى تعظيم الزمان من تنكير ليلا أىّ أىّ ليل له شأن دنا فيه الحبيب من محبوبه وما فى الباء من معنى الاتصال وإضافة العبد إلى ضمير الله الدال على أنه العبد الحقيق إشارة إلى استحقاقه تلك الرتبة السنية التى لم ينلها أحد من المرسلين ؛ ولذا قال له « إن فضله كان عليك كبيراً » ﴿ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ مكة ليلة السابع والعشرين من ربيع الأول بعد بعثته بعام أو ونصف أو بخمس سنين أو قبل الهجرة بسنة ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ بيت المقدس لبعده منه ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ بركات

الدين والدنيا لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء ومحفوف بالأنهار والأشجار وغالب أنواع الثمار ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ عجائب قدرتنا كذهابه في جزء من الليل مسيرة شهر ومشاهدته بيت المقدس وتمثيل الأنبياء له ووقوفه على مقاماتهم ، والتفات الكلام من الغيبة إلى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات كتعظيم المكانين بالحرام والبركة لما حوله والتعظيم بالإضافة والجمع في الآيات . وقرئ ليريه بالياء ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ لأقوال محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ الْبَصِيرُ ﴾ العالم بأفعاله ، فأنعم عليه بالإسراء المشتمل على اجتماعه بالأنبياء وعروجه إلى السماء ورؤية عجائب الملكوت ومناجاته له تعالى فإنه صلى الله عليه وسلم قال « أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن قال جبريل أصبت الفطرة قال ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل قد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل قيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل إليه قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل قيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد أرسل إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد فقيل وقد أرسل إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل فقيل ومن معك قال محمد قيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم فإذا هو مسند إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا أوراقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع يصفها من حسنها قال فأوحى إليّ ما أوحى وفرض عليّ في كل يوم وليلة خمسين صلاة فرجعت حتى انتهيت إلى موسى فقال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة قال ارجع إلى ربك فسله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربي فقلت أي رب خفف عن أمتي فحط عني خمسا فرجعت إلى موسى فقال ما فعلت قلت حط عني خمسا قال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع

إلى ربك فسله التخفيف لأمتك قال فلم أزل أرجع بين ربي وموسى ويحط عني خمسا خمسا حتى قال يا محمد هي خمس صلوات في كل يوم وليلة لكل صلاة عشرة فتلك خمسون صلاة ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة وإن عملها كتبت عشرا ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته فقال ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت» رواه الشيخان واللفظ لمسلم . وروى الحاكم في المستدرك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأيت ربي عز وجل» قال في غاية الأماني قد اشتهر وكاد أن يتواتر أنه عرج به واختلف في كيفية ذلك فذهب جمع إلى أنه كان مناماً ورؤيا نوم والذي عليه المحققون أنه أسري بجسده ولذا وقع الارتياب في ذلك . اه . ولما كان معراج موسى إلى الطور ومعراجه عليه السلام إلى سدرة المنتهى أتبعه بذكر موسى ووصف كتابه تمهيدا لذكر القرآن فقال ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ لَا تَتَّخِذُوا ﴾ أي على أن لا تتخذوا ﴿ مِنْ دُونِي وَكِيلًا ﴾ تفوضون إليه أمركم وقرأ أبو عمرو يتخذوا بالياء ﴿ ذُرِّيَّةَ ﴾ نصب على الاختصاص أو النداء ﴿ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ في السفينة وفيه تذكيرهم بما أنعم على آبائهم ليشكروا ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ كثير الشكر لنا حامدا في جميع أحواله تعليل للنهي كأنه قيل أنتم أولاد ذلك العبد الشكور فاقتدوا به ﴿ وَقَضَيْنَا ﴾ بمعنى أوحينا ولذا عدى بإلى ﴿ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ التوراة وقيل في اللوح قال ابن عطية المعنى عندي أنه مما قضاه في أم الكتاب على بني إسرائيل وأخبرهم به في التوراة على لسان موسى فلما أراد هنا إعلامنا بالأمرين جميعاً في إيجاز جعل قضينا دالة على النفوذ في أم الكتاب وقرن بها إلى دالة على إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل في التوراة ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ جواب قسم محذوف أو لقضينا على إجرائه مجرى القسم ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ أرض الشام أو بيت المقدس بالمعاصي ﴿ مَرَّتَيْنِ ﴾ إفسادتين أولاهما مخالفة أحكام التوراة وقتل شعياء وثانيتهما قتل زكرياء ويحيى وقصده في عيسى عليهم السلام ﴿ وَلَتَعْلُنَّ ﴾ لتستكبرن عن طاعة الله أو لتظلمن الناس ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ مفرطا وذلك سبب للدمار كما قيل الملك يدوم مع الكفر ولا يدوم مع الظلم ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أولى مرتي الفساد أي وعد عقابها عبر عنه بالوعد دلالة على لزوم وقوعه ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ أصحاب قوة وبطش في الحرب وهم بختنصر وجنوده عامل نهراسف الفارسي ببابل وقيل هم جالوت الخزري وجنوده ملك الجزيرة وفيهم وفي كيفية الواقعة اختلاف شديد ﴿ فَجَاسُوا ﴾ ترددوا لطلبكم ﴿ خِلَالَ الدِّيَارِ ﴾ وسطها للقتل والغارة كناية عن التمكن التام الدال على أنواع العذاب ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ أي لا بد أن يفعل وقد أفسدوا الأولى بما تقدم فبعث الله عليهم بختنصر وجنوده أو جالوت وجنوده فقتلوا كبارهم وسبوا صغارهم وحرقوا التوراة وخربوا بيت المقدس روي أنهم قتلوا ألوفاً من علمائهم وسبوا منهم سبعين ألفاً وكان أرميا

قد وعظهم وأخبرهم ذلك فلم يرفعوا له رأساً بل حبسوه ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ الدولة والغلبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بعد مائة سنة بأن ألقى الله فى قلب بهمن بن إسفنديار بن كستاسف بن نهراسف شفقة عليهم لما ورث الملك من جده فرد أسرى بنى إسرائيل إلى الشام وملك دانيال عليهم فاستولوا على من كان فى الشام من أتباع بختنصر فعادت الدولة إليهم فيها أو بأن سلط داود على جالوت فقتله ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ عشيرة مما كنتم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وهو مفرد وقيل جمع نفر وهم المجتمعون للذهاب إلى العدو وقلنا لكم ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابه لها ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ بالفساد ﴿فَلَهَا﴾ أسأتم لا ينجاوزها ذكرها باللام ازدواجاً ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ﴾ المرة ﴿الْآخِرَةِ﴾ عقوبتها آثر الآخرة على الأخرى فى مقابلة أولاهما إشارة إلى ألا عقوبة بعدها إن استقاموا والعطف بالفاء للدلالة على أن مجىء وعد الآخرة لم يتراخ عن كثرتهم وأنهم بطروا سريعاً ونسوا ما كان حل بهم ففاجأهم عذاب الله ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ يحزنوكم بالقتل والسبى حزناً يظهر فى وجوهكم واللام متعلقة بمحذوف دلالة الأول عليه . وقرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر بالياء وفتح الهمزة على التوحيد والضمير فيه للوعد أو البعث أو الله ويعضده قراءة الكسائى بالنون ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ بيت المقدس فيخربوه ﴿كَمَا دَخَلُوهُ﴾ وخربوه ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا﴾ يهلكوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ غلبوا عليه ﴿تَتْبِيرًا﴾ إهلاكا وقد أفسدوا الثانية بقتل يحيى وقصدهم قتل عيسى فبعث عليهم بختنصر أو خردوس ملك بابل من ملوك الطوائف فقتل منهم ألوفاً وسبى ذرياتهم وخرب بيت المقدس ودخل مذبح قرابينهم فوجد دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان لم يقبل فقال ما صدقتمونى فقتل عليه ألوفا منهم ثم قال إن لم تصدقونى لم أترك منكم أحداً فقالوا دم يحيى فقال يا يحيى قد علم ربك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله فسكن الدم لأنهم لما قتلوا يحيى جعلوا على دمه ترابا فعلاه فاجتمعوا يجعلون عليه التراب وهو يعلوه حتى علا على السور . فتركوه يغلى والله أعلم وقلنا فى الكتاب ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد المرة الثانية إن تبتم ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى الفساد ﴿عُدْنَا﴾ إلى العقوبة وقد عادوا بتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وقصد قتله فعاد الله تعالى بتسليطه عليهم فقتل قريظة بعد نفى النضير وضرب الجزية عليهم إلى يوم نزول عيسى فيقتلهم هذا لهم فى الدنيا ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ محبساً ومجناً لا يقدرون على الخروج منها أبداً وقيل بساطاً كما يبسط الحصير وعلى الأول هو فعيل بمعنى فاعل أى حاصرا أو مفعول ولذا لم يؤنث ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي﴾ أى للطريقة التى ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ أعدل وأصوب ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ بخبرهم ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو النار ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ﴾ على نفسه وأهله إذا ضجر وغضب أو يدعو الله بما يحسبه خيراً وهو شر ﴿دُعَاءَهُ﴾ كدعائه له ﴿بِالْخَيْرِ﴾ وهو ليس فى شىء من الطريقة التى هى أقوم ولذا أتبعه ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾

فى أموره ولذا يدعو بالشر دعاءه بالخير لعدم النظر فى العاقبة ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ دالتين على قدرتنا وهذا بيان لما يهدى إليه القرآن من دلائل التوحيد والقدرة والمراد بهما الليل والنهار وهما القمر والشمس ﴿ فَمَحَوْنَآ آيَةَ ٱلَّيْلِ ﴾ القمر بنقص نوره أو الليل والنهار آيتان بدلالتهما بتعاقبهما على الدوام على مدبرهما وبكون المصالح الدنيوية لا تتم إلا بهما والإضافة للبيان كإضافة العدد إلى المعدود ﴿ وَجَعَلْنَآ آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ مبصرا فيها بالضوء ﴿ لِتَبْتَغُوا ﴾ فيه ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ بالكسب ﴿ وَلِتَعْلَمُوا ﴾ بهما ﴿ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ للأوقات ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ ﴾ تحتاجون إليه فى أمر الدين والدنيا ﴿ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ بيناه تبييناً شافياً ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ ﴾ عمله وما قدر له كأنه طار إليه من عش الغيب ووكر القدر ، لما كانوا يتيمنون ويتشاءمون بسنوح الطائر وبروحه استعير لما هو سبب الخير والشر من قدر الله تعالى وعمل العبد ﴿ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ جعلناه لازماً له لزوم القلادة والغل وخص العنق لأنه محل الزين بالقلائد والأطواق ومناط الشين بالأغلال ولأن اللزوم فيه أشد . وقال مجاهد ما من مولود يولد إلا وفى عنقه ورقة مكتوب فيها شقى أو سعيد . وفى الجواهر لما كانت العرب تعتقد أن الطيرة قاضية بما يلقى الإنسان من خير وشر أخبرهم تعالى أنه سبق به القضاء وألزم كل إنسان عمله وحظه فى عنقه ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا ﴾ مكتوباً فيه عمله وهو مفعول أو حال من مفعول محذوف وهو ضمير الطائر فى « نخرج » ﴿ يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ صفتان لكتاب أو « يلقاه » صفته و « منشورا » حال من مفعوله ، وقرأ ابن عامر يلقّاه بالتشديد وبناء المفعول ، والمعنى أن الإنسان إذا مات طويت صحيفة عمله وجعلت فى عنقه معه فى قبره فإذا بعث نشر له ويقال له ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ ﴾ فيقرأه ولو لم يكن قارئاً قبل ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ﴾ أى كفى نفسك والباء مزيدة ﴿ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ محاسباً تمييز وعلى صلته من حسب عليه كذا ، وذكر على تأويل النفس بالشخص ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ لأن ثواب اهتدائه لها ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى لا ينفع اهتداؤه غيره ولا يردى ضلاله سواه ﴿ وَلَا تَزِرُ ﴾ لا تحمل نفس ﴿ وَازِرَةٌ ﴾ آثمة ﴿ وِزْرَ ﴾ نفس ﴿ أُخْرَىٰ ﴾ وأما قوله « وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم » فالمراد أثقال ضلالهم وإضلالهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ ﴾ أحداً ﴿ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ يبين له ما يجب عليه ، وفيه دليل على أن ما وجب إنما وجب بالسمع لا بالعقل ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ منعميها يعنى رؤساءها ، بالإيمان والطاعة على لسان رسلنا فخالفوا ذلك الأمر ﴿ فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ خرجوا عن الأمر وقد ردّ بعض المفسرين تقدير الإيمان والطاعة فى أمرنا ، وقالوا إنه حذف مالا دليل عليه وهو غير جائز بل التقدير أمرنا مترفيها بالفسق ففسقوا بمعنى مكناهم منه بالوصول إلى الشهوات فكأنهم أمروا به وقولهم مردود بما قال أبو حيان فى البحر : دلالة النقيض على النقيض كدلالة النظير على النظير فكما تقول : أمرته فقام أمرته فقزا ، كذلك تقول أمرته فلم يحسن ، وليس المعنى أمرته بعدم الإحسان فلم يحسن بل أمرته بالإحسان فلم يحسن

وهذه الآية من هذا القبيل . اهـ . ومنهم من فسر أمرنا بأكثرنا ، يقال أمرهم الله إذا أكثرهم ، ومنه الحديث «خير المال مهرة مأمورة» أى كثيرة النسل والنتاج ﴿ فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ بالعذاب ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها ﴿ وَكَمْ ﴾ أى كثيراً وهو مفعول ﴿ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ ﴾ بيان وتمييز لكم ، من القرون الأمم ﴿ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ كعاد وثمود ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ عالماً ببواطنها وظواهرها فيعاقب عليها وتقديم الخبير لتقدم متعلقه ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ بعمله ﴿ الْعَاجِلَةَ ﴾ أى الدنيا مقصوراً عليها همه ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ التعجيل له بدل من له بإعادة الجار ، وقيد المعجل والمعجل له بالمشيئة والإرادة لأنه لا يعجل كل متمن ما يتمناه ولا كل واحد جميع ما يهواه وليعلم أن الأمر بالمشيئة ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ ﴾ فى الآخرة ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا ﴾ يدخلها ﴿ مَذْمُومًا ﴾ ملوماً ﴿ مَدْحُورًا ﴾ مطروداً عن رحمة الله ، من دحرته إذا دفعته بالإهانة ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ عمل لها العمل اللائق بها وهو الإتيان بما أمر والانتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم ، وفائدة اللام اعتبار الإخلاص والنية ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ حال إيماناً صحيحاً ، إذ لا ينفع العمل إلا مع إيمان راسخ وعلم مصيب ونية خالصة ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ عند الله أى مقبولا مثاباً عليه ﴿ كُلًّا ﴾ من الفريقين العاصى والطائع والتنوين عوض عن المضاف إليه أى كل أحد ﴿ نُمِدُّ ﴾ بالعطاء مرة بعد أخرى ﴿ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ﴾ بدل من كلا ﴿ مِنْ ﴾ متعلق بنمد ﴿ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ فى الدنيا ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ ﴾ فيها ﴿ مَحْظُورًا ﴾ ممنوعا عن أحد مؤمن أو كافر تفضلا ثم يختلف الحال فى الآخرة ، من الحظار وهو الحجاب ﴿ انْظُرْ ﴾ يا مخاطباً بالبصيرة ﴿ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ فى الرزق والجاه ، وانتصاب كيف بفضلنا على الحال ، قاله البيضاوى ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ ﴾ أعظم ﴿ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ من الدنيا فينبغى الاعتناء بها دونها لأن التفاوت فى الآخرة بالجنة ودرجاتها والنار ودركاتها . روى أن أشراف قريش اجتمعوا يوماً بباب عمر بن الخطاب ومعهم بلال وصهيب ، فخرج الإذن لبلال وصهيب ولم يؤذن لهم ، فشق ذلك عليهم ، فقال سهيل بن عمرو منهم : يا قوم إنما أتينا من قبل أنفسنا ، دعى هؤلاء إلى الإسلام ودعينا فأسرعوا وأبطأنا وإذا كان هذا حالنا فى باب عمر فكيف حالنا فى الآخرة فإن حسدتموهم على باب عمر فأنتم إلى ما أعد الله لهم من المراتب بالحسد أولى ﴿ لَا تَجْعَلْ ﴾ الخطاب لكل أحد ﴿ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أى لا تعتقد له شريكا فى الألوهية وخواصها لما تقدم أن من سعى سعياً للآخرة وهو مؤمن كان مشكورا ، بين حقيقة الإيمان وفصل طرائق السعى بما يذكر فى الآيات ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا ﴾ بذلك ربك على ذلك ﴿ مَخْذُولًا ﴾ لا ناصر لك من الشركاء أى جامعا على نفسك الذم من الله والملائكة والمؤمنين والخذلان من الله والمفهوم أن المؤمن يكون ممدوحاً منصوراً والمنصوبان خبراء تقعد ، لكونه بمعنى صار وآثر لفظ القعود إشارة إلى سقوط الرتبة وأن لا يليق له الرياسة بل الخمول والقهر خجلا ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾

أمر أو حكم حكما مبتوتا لا يقبل المحو والتبديل ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ والعبادة فعل على نهاية التعظيم ونهاية التعظيم لا تليق إلا لمن له نهاية الإنعام وأن مصدرية بتقدير الباء والكلام نفى ، أو مفسرة ولا ناهية ﴿ وَ ﴾ بأن تحسنوا أو وأحسنوا ﴿ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ بأن تبروهما لأنهما السبب الظاهر للوجود والتعيش ولا تتعلق الباء بإحساناً لأن صلته لا تتقدم عليه قاله البيضاوى ورده فى غاية الأمانى فقال والأولى جعله متعلقاً بإحساناً ، وعدم جواز عمل المصدر فى الصلة المتقدمة ممنوع ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ﴾ فاعل ﴿ أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ وقرأ حمزة والكسائى يبلغان مسنداً إلى ضمير الوالدين فأحدهما بدل البعض وكلاهما بدل الكل لا توكيد لأن أحدهما صارف عنه إذلو أريد تأكيد التثنية لقيل كلاهما فقط ومعنى عندك أن يكونا فى كنفك وكفالتك ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ بكسر الفاء منونا لالتقاء الساكنين والتنكير لنافع وحفص ، ومخففا لأبى عمرو وحمزة والكسائى وأبى بكر على أصل التقاء الساكنين ، وبفتحها مخففاً لابن كثير وابن عامر أى لا تتضجر ولا تستثقل من مؤنتهما ما تستثقل من غيرهما ولا تستقذر منهما ما تستقذر من غيرهما اسم صوت أصله إذا سقط على المرء رماد أو نحوه ينفخ فيه ليزيله بقوله أف ثم توسعوا بذكره عند كل مكروه أو اسم فعل وهو أتضجر أى يعطى معنى ذلك الفعل وفى التكملة مصدر بمعنى نتنا وقبحا ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ تزجرهما إذا فعلا ما لا يعجبك ﴿ وَقُلْ لَهُمَا ﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿ قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ جميلا ولا تنادهما بأسمائهما مواجهة ولا تقل لهما إلا قول العبد الذليل المذنب للسيد الفظ الغليظ ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴾ أى ألن لهما جانبك الذليل استعارة بالكناية استعير للذل جانب جعلا لما ليس بمرئى مرئيا ثم الجانب جناح لأنه أبلغ فى بيان لصق الجنب بالأرض المبنى تواضع لهما غاية التواضع شبه هيئة الإنسان عند تذلله لوالديه بهيئة الطائر إذا خفض جناحه عند رؤية طائر يخافه أو خفضه على أفراخه شفقة عليها فذكر الخفض ترشيح ﴿ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ لأجل رحمتك إياهما حيث افتقرا إلى من كان أفقر إليهما بالأمس ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا ﴾ أى ادع ربك أن يرحمهما رحمته الباقية ولا تقتصر على رحمتك الفانية وارحمها وإن كانا كافرين بقضاء حوائجهما وطاعتهما فى غير المعصية ﴿ كَمَا ﴾ رحمانى حين ﴿ رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ حين كنت أحوج خلق الله إليهما وفى الحديث أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أبواى بلغا من الكبر حتى إنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر فهل قضيت حقهما ؟ قال لا فإنهما كانا يفعلان معك وهما يريدان بقاءك وأنت تفعل وتريد موتهما . وفى الصحيحين : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه فى الجهاد ، قال أحى والداك ؟ قال نعم قال ففيهما فجاهد . وفيهما أيضاً جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من أحق الناس بحسن صحابتى قال أمك ثم أمك ثم أباك ثم أدناك أدناك وفى مسلم لن يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه وفى الصحيحين أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال سألت رسول الله أى العمل أحب إلى الله ؟ قال الصلاة على وقتها قلت ثم أى

قال بر الوالدين قلت ثم أى قال الجهاد فى سبيل ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ منكم من إضمار البر والعقوق وعدٌ لمن أضمر البر ووعيد لمن خالف وحث على الإخلاص بأن يكون ما تفعله لهما خالصا لوجهه تعالى لا خوفاً من ملامة الناس ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أى إن قصدتم الصلاح فوقعت إساءة لا ينفك البشر عنها فى حقهما ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ الرجّاعين إلى طاعته ﴿غَفُورًا﴾ لما صدر منهم فى حق الوالدين من بادرة وهم لا يضمرون عقوقا وضع الظاهر موضع المضمر ليعم كل جان تائب لأن الأواب هو التائب فكأنه يأتى التوبة من كل الجهات إذ الأوب هو الجانب ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى﴾ القرابة مطلقاً ﴿حَقَّهُ﴾ المالى وغيره من البر والصلة والزيارة وحسن المعاشرة وهذا تعميم بعد التخصيص وقيل المراد بذى القربى قرابة الرسول عليه السلام والجمهور على أن الآية وصية للناس كلهم بصلة قرابتهم وسد خلاتهم والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ بالإنفاق فى الباطل أو على وجه السرف فى مباح كالعمارة ولا سرف فى طاعة الله ولو أنفق الإنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق درهما فى الباطل كان مبذرا، قاله فى اللباب ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى على طريقتهم يطيعونهم فى الإسراف والصرف فى المعاصى أو أمثالهم فى الشر وفيه غاية الذم شبه قران الصحابة بقران القرابة كانوا فى الجاهلية يصرفون الأموال فى غير طاعة الله كالميسر رياء وفخرا فأمرهم بالإنفاق فى طاعته وبين لهم المصارف ونهاهم عما كانوا عليه ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ شديد الكفر لنعمه فكذلك أخوه المبذر وهو علة للنهى عن التبذير ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ المذكورين من ذى القربى وما بعده حياء منهم ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أى لفقد ما ترحمهم به من رزق ربك حال كونك راجيا أن تفتح عليك أو لطلب رزق تنتظره يأتيك فتعطيهم فعلى الأول وضع الابتغاء موضع الفقد إقامة المسبب مقام السبب وفيه لطيفة بإشارة أن ذلك الإعراض لهم مآلا وإن كان عنهم حالا ويجوز كون الإعراض كناية عن عدم النفع والابتغاء مجازاً عن عدم الاستطاعة والمعنى إن لم تقدر على نفعهم لعدم الاستطاعة ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ ذا يسر ولين مثل يفتح الله رزقك الله أو بأن تعدهم بالإعطاء عند مجىء الرزق وفى الحديث «الكلمة الطيبة صدقة» ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ أى لا تمسكها عن الإنفاق كل المسك ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ فى الإنفاق ﴿كُلَّ الْبَسْطِ﴾ نهى عن الإفراط والتفريط وهما الشح والإسراف ليلزم منه الاقتصاد المحمود وهو الجود فالغل والبسط كنايتان عنهما روى أنه عليه السلام كان عليه ثوب لم يكن له غيره فاستكسته امرأة فكساها إياه فقعد وحده فى البيت عريان فأذن بلال فلم يقدر على الخروج وانتظره الناس فنزلت وهذا لا ينافى ما تقدم من أنه لا سرف فى الخير لأن ذلك حيث لا يترتب عليه مفسدة ولا شك أن قعوده فى البيت لعدم المقدرة على الخروج فيه فوات مصالح له ولغيره لا تحصى ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ عند الله وعند الناس راجعٌ للأول ﴿مَحْسُورًا﴾

منقطعاً لاشيء عندك راجع للثانى أو منقطعاً عن الناس من حجره السفر ثم إن الله تعالى سلى نبيه بعد أن عتبه بالسخاء بقوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يضيقه لمن يشاء فالكل بمشيئته تابعاً لحكمته فما ينالك من الضيق حتى لا تلجأ إلى كل البسط ليس لهوان عليك بل لمصلحتك وفيه إيماء له إلى أن الله تعالى مع سعة رزقه يبسط ويقدر فاستنوا به أنتم أيضاً ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ عالماً ببواطنهم وظواهرهم فرزقهم على حسب مصالحهم وهو يعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ، والآية تمهيد لقوله ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ﴾ بالوأد ﴿ خَشْيَةَ ﴾ مخافة ﴿ إِمْلَاقٍ ﴾ إذ قد ضمن لكم الرزق بقوله ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فلا وجه للقتل ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا ﴾ إثما ﴿ كَبِيرًا ﴾ عظيما والخطأ كالإثم لفظاً ومعنى قراءة الجمهور مصدر خطئ الصواب ولابن كثير بالمد كقيام ولابن ذكوان بالقصر كفرح ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا ﴾ أبلغ من لا تفعلوه بأن عدوا أنفاس الرجال وأنفاس النساء أى لا تقربوه بالعزم والإتيان بالمقدمات فضلا أن تباشروه ﴿ إِنَّهُ كَانَ ﴾ فعله ﴿ فَاحِشَةً ﴾ ظاهرة القبح زائدته لاشتماله على أنواع من المعاصى ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ طريقاً هو وهو الغصب على الأبضاع المؤدى إلى قطع الأنساب وتهييج الفتن وخراب البلاد ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتلها بإيمان أو أمان ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ الذى بينه عليه السلام بقوله « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بأحد ثلاثة : كفر بعد إيمان وزنا بعد إحصان وقتل مؤمن معصوم » يعنى اختياراً فلا إشكال بقتل الصائل دفعاً ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ لوارثه ﴿ سُلْطَانًا ﴾ تسلطا على القاتل بالقصاص ﴿ فَلَا يُسْرِفْ ﴾ بالياء ولحمزة والكسائى بالتاء لا يتجاوز ما أذن له ﴿ فِي الْقَتْلِ ﴾ بأن يقتل غير قاتله أو بالمثلة أو بقتل جماعة بواحد أو بعد أخذ الدية أو العفو ولو من بعض ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ علة للنهى والضمير لولى المقتول بإيجاب القصاص له وأمر الولاة بمعونته أو للمقتول نصر فى الدنيا بثبوت القصاص بقتله وفى الآخرة بالثواب ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ ﴾ فضلا عن أكله ﴿ إِلَّا بِالَّتِي ﴾ أى بالطريقة التى ﴿ هِيَ أَحْسَنُ ﴾ من حسن النظر فيه بأن يحفظه ويثمره ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ فيلى ماله ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ إذا عاهدتم الله أو الناس ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ عنه مطلوباً من المعاهد الوفاء به كسائر الحقوق أو الناكث يسأل عن حال العهد ويعاقب عليه ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ ﴾ أتموه ﴿ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ للناس ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ بضم القاف للجمهور وكسرها لحمزة والكسائى وحفص الميزان ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ السوى وكان أبو الفضل الجوهرى الواعظ يقول : إن فى هيئة اليد بالميزان عظة يعنى لأن الأصابع تجىء منها حينئذ صورة ألف ولامين وهاء فكأن الميزان يقول له الله الله قال ابن عطية وهذا وعظ جيل ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ مآلا من آل الأمر إلى كذا رجع ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ لا تتبع ﴿ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ قولا كان أو فعلا لا ترم أحدا بما ليس لك به علم ولا تقل رأيت ولم تر ولا سمعت ولم تسمع ولا علمت ولم تعلم ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ ﴾ القلب ﴿ كُلُّ أُولَٰئِكَ ﴾ الأعضاء ﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ ماذا

فعل به أى كل هذه الأعضاء وأولاء يشار به إلى العقلاء وغيرهم على السواء قال جرير • والعيش بعد أولئك الأيام • وفى كان وعنه ومسئولا ضمير عائد إلى كل وعنه نائب فاعل لمسئولا منع تقديم الفاعل ونائبه لخوف اللبس بالمبتدإ ولا لبس هنا ، قاله فى غاية الأمانى . وفى الترمذى عن شكل بن حميد قلت يا نبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به قال فأخذ بيدى ثم قال « قل اللهم إنى أعوذ بك من شر سمعى وشر بصرى وشر لسانى وشر قلبى وشر منيى» قال يعنى فرجه . وقال صاحب الكلم الفارقية : لا تدع جدول سمعك يجرى فيه أجاج الباطل فيذهب باطنك بنار الحرص على العاجل تجرى المسموعات إلى وعاء القلب فإن كانت شريفة شرفته أو خبيثة خبثته وكذلك البصر منفذ من منافذ القلب فالحواس الخمس كالجداول تؤدى ما فيها إلى القلب . اه .
﴿وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ ذا مرح بالكبر والخيلاء والمرح الفرح الشديد أو الاختيال ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ لا تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك وشدة وطئك ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاولك تعليل للنهى وتهكم بالمختال ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الخصال الخمس والعشرين من قوله ولا تجعل مع الله إلها آخر وعن ابن عباس أنها المكتوبة فى ألواح موسى ﴿كَانَ﴾ المنهى عنه ﴿سَيِّئَةً﴾ بفتح الهمزة وبالتاء منونة لنافع وأبى عمرو منصوبا خبر كان وبضم الهمزة وبالهاء والتذكير للكوفيين وابن عامر ولفظ كل للشمول والسيئ فى المنهى فعله وفى المأمور تركه وسيئه اسم كان والخبر ﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ وعلى الأول خبر آخر أو بدل أو حال من المستكن فى كان ﴿ذَٰلِكَ﴾ المتقدم من الأحكام ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ المواعظ التى هى معرفة الحق لذاته والخير للعمل به من الحكمة بدل من ما أوحى أو حال من العائد المحذوف ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ كرره للتنبيه على عظم شأن التوحيد وأنه المبدأ والمنتهى ورتب عليه أولا ما يترتب على تركه من الذم والخذلان وثانيا ما يثمره فى الآخرة بقوله ﴿فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ﴾ كما يلقى الحطب ﴿مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ يلومك كل أحد مبعدا من رحمة الله ولما نهى عن الشرك أردفه بما هو قريبه وهو نسبة الولد إليه تعالى عن ذلك بقوله ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ أخلصكم بأفضل الأولاد ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ بنات لنفسه هذا خلاف ما عليه المعقول والهمزة للإنكار ولذا قال ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بإضافة الأولاد إليه وهى خاصة بعض الأجسام ثم بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون ثم بجعل الملائكة الذين هم من أشرف الخلق أدونهم ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بينا ﴿فِى هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ أى كررنا القول بعبارات مختلفة على إبطال الولد فى هذه الآيات المشتملة على إبطاله فالإشارة إلى البعض أو إلى الكل صرفنا القول فى مواضع فى هذا القرآن ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ يتعظوا فإن للتكرار تأثيرا بليغا وقرأ حمزة والكسائى ليذكروا من الذكر ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التكرار ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق وعدم

طمأنينته إليه ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَوْ كَانَ مَعَهُ ﴾ أى الله ﴿ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا ﴾ طلبوا ﴿ إِلَى ذِى الْعَرْشِ ﴾ أى إلى مغالبة الله الملك ﴿ سَبِيلًا ﴾ طريقاً إلى مالك الملك ولذا عبر بذى العرش كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، وقرأ ابن كثير وحفص «يقولون» بياء الغيبة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له ﴿ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ من الشركاء ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ تعالياً متباعداً غاية البعد عما يقولون فإنه فى أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته واتخاذ الولد من أدنى مراتب الوجود فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ بالياء ولأبى عمرو وحمزة والكسائى وحفص بتاء التأنيث ﴿ لَهُ ﴾ ينزهه ﴿ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أى تدل على وجوده بحدوثها وإمكانها وعلى وحدانيته بأوصافها ونظامها شبه الدلالة بالنطق وعبر عنه بالتسبيح استعارة بالكناية والإسناد إلى من لا يصح النطق منه قرينة وتخييل ومن جواز استعمال المشترك فى معنييه حمل التسبيح فى المعطوف على الحقيقة لأن «من» أريد به الملائكة والثقلان ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ مِنْ شَىْءٍ ﴾ من الخلق ﴿ إِلَّا يُسَبِّحُ ﴾ ملتبساً ﴿ بِحَمْدِهِ ﴾ أى يقول سبحان الله وبحمده حالا أو مقالا ﴿ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ لأنه ليس بلغتكم أو لإخلالكم بالنظر الصحيح ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا ﴾ حين لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم ﴿ غَفُورًا ﴾ لمن تاب منكم ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ عن أعين الناس لا يرونه أو ساتراً لك عنهم فلا يرونك نزل فيمن أراد الفتك به صلى الله عليه وسلم أو حجاباً يحجبهم عن فهم ما تقرؤه عليهم بيان لكونهم مطبوعين على الضلالة ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أغطية تمنعهم ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ فهم القرآن أو كراهة أن يفقهوه ﴿ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ ثقلا يمنعهم السماع ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾ منفرداً عن آلهتهم ﴿ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ عنه ، مصدر بمعنى ولى أو جمع نافر هرباً من استماع التوحيد أو نافرين عنه ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ ﴾ بسببه من الهزء ﴿ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ قراءتك ، ظرف لأعلم مبالغة فى الوعيد بأنه أحاط بما فعلوه وبوقته لم يفته شىء ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ ﴾ أى ونحن أعلم بتناجيهم أيضاً حين هم ذوو نجوى يتناجون به ، مصدر ، ويحتمل أن يكون جمع نجى ﴿ إِذْ ﴾ بدل من إذ قبله ﴿ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ فى تناجيهم وضع الظاهر موضع المضمر دلالة على أن تناجيهم من باب الظلم ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ مخدوعاً مغلوباً على عقله قال تعالى ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ مثلوك بالساحر تارة وبالمسحور أخرى ، وبالكاهن والشاعر والمجنون ﴿ فَضَلُّوا ﴾ بذلك عن الهدى ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ إليه لانحصاره فى الطريق الذى أنت عليه وهم عنه ناكبون ﴿ وَقَالُوا ﴾ عطف على «فضلوا» وهو باب آخر من أبواب الضلال منكرين للبعث ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ هو كل ما دق وكسر فتفتت أجزاؤه ﴿ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ إنكار للبعث واستبعاد له والعامل فى إذا ما دل عليه مبعوثون لا نفسه لصدر الاستفهام ، وخلقاً إما حال بمعنى مخلوق أو مصدر ﴿ قُلْ ﴾ لهم ﴿ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ

خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ﴾ يعظم عن قبول الحياة فضلا عن العظام والرفات فلا بد من إيجاد الروح فيكم لأن نسبة قدرته إلى كل الممكنات سواء ، وقيل فيما يكبر عن قبول الحياة هو الموت عندهم وقد ورد فى الحديث أنه يؤتى به على صورة كبش فيذبحه يحيى بن زكريا بين الجنة والنار ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ﴾ إلى الحياة ﴿ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ ﴾ خلقكم ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ من العدم وأنتم معترفون بذلك وقد كنتم تراباً وهو أبعد من الحياة ، فالقادر على البدء قادر على الإعادة بل هى أهون ﴿ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾ يحركونها نحوك تعجباً واستهزاء ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ استهزاء ﴿ مَتَىٰ هُوَ ﴾ أى البعث ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ كل آت قريب فاذا عذركم بعد الوقوع ، نصب « قريباً » على الخبر لكان أو الظرف أى يكون فى زمان قريب و « أن يكون » اسم « عسى » أو خبره والاسم مضمر ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ ﴾ يناديكم من القبور على لسان إسرافيل ، أسنده إلى نفسه إجلالا له ، وقيل الدعاء والاستجابة استعارتان للبعث والانبعاث تنبيهاً على سرعة وقوعهما وسهولة أمرهما مع الدلالة على أنهم مطلوبون للحساب . قال فى الجواهر : يوم يدعوكم بدل من قوله قريباً ويظهر أن يكون المعنى هو يوم جواباً لقولهم متى هو . اه . وقال فى غاية الأمانى : لم يبين لهم الوقت لأنه منفرد بعلمه من الخمس التى لا يعلمها غيره ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ بأمره وقيل وله الحمد ، وقيل منقادين معترفين بقدرته على البعث ووحدانيته حيث لا ينفعكم ، وقيل إن الخلائق ينفضون التراب عن رءوسهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك ﴿ وَتَظُنُّونَ إِنْ ﴾ ما ﴿ لَبِثْتُمْ ﴾ فى الدنيا ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لهول ما ترون أى تستحقرون المكث فى الدنيا وفى القبور بنسبة مدة القيامة والخلود فى الآخرة ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي ﴾ المؤمنين أضافهم إلى نفسه تشريفاً لهم ﴿ يَقُولُوا ﴾ للكفار الكلمة أو الحجة ﴿ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ لخلوها عن الجدال والخشونة ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ ﴾ يفسد ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ بالحمل على المخاشنة وتهييج المراء والشر فيفضى بهم إلى العناد وازدياد الفساد ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ بين العداوة ، وقيل أمر الله المؤمنين فيما بينهم بحسن الآداب وخفض الجناح ولإلانة القول واتقاء نزغات الشيطان ، وقوله ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ تفسير للتى هى أحسن على الأول وما بينهما اعتراض ، أى قولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ولا تقولوا لهم أنتم أهل النار لإثارة الفتن مع عدم علم العاقبة ﴿ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بالتوبة والإيمان ﴿ أَوْ إِنْ يَشَأْ ﴾ تعذيبكم ﴿ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ بالموت على الكفر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ فتجبرهم على الإيمان ، وهذا قبل الأمر بالقتال ، وقيل لا تنافى بين هذا وأمر القتال ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وأحوالهم ليختار منهم لنبوته وولايته من يشاء ، وهو رد لاستبعاد قريش أن يكون يتيم آل أبى طالب نبياً والمراة الجوّع أصحابه ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ بالفضائل الروحانية العلمية والعملية لا بالأموال والأتباع كتخصيص موسى بالكلام وإبراهيم بالخلة ومحمد بالإسراء وغيره مما لا يوازيه به غيره منهم ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴾ تنبيه على وجه فضله وأنه إنما

هو بالكتاب والمعارف لا بالملك والمماليك وإيماء إلى أن محمداً أفضل الأنبياء بأن ذلك فى الزبور كما قال « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » وهو خاتم الرسل وأمته خير الأمم ﴿ قُلِ ﴾ لهم ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ آلهة ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ كالملائكة وعيسى وعزير ﴿ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ له إلى غيركم كالمرض والفقر والقحط ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ هم آلهة ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾ القربة بالطاعة ﴿ أَيُّهُمْ ﴾ بدل من واو يبتغون أى يبتغيها الذى هو ﴿ أَقْرَبُ ﴾ إليه فكيف بغيره ، وقيل فى « يبتغون » معنى الحرص أى يطلبون الوسيلة إلى ربهم بالطاعة يحرصون على الأقربية ، فالابتغاء إلى الوسيلة الحرص على الأقربية أو المعنى ينظرون إليهم وإليه أيهم أقرب فيتوسلون به . وعن ابن مسعود : نزلت فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم أولئك الجن ولم يعلم الإنس فتمسكوا بعبادتهم فعيرهم الله بذلك ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ كغيرهم فكيف يكونون آلهة ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ حقيقاً بأن يحذره كل أحد حتى الأنبياء والملائكة ﴿ وَإِنْ ﴾ ما ﴿ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ أريد أهلها ﴿ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ بالموت والاستئصال والخراب ﴿ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ بالقتل والسبى ، وقيل الصالحة بالموت والطالحة بالعذاب . وقال عبد الله ابن مسعود : إذا ظهر الزنا والربا فى قرية أذن الله فى هلاكها ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ ﴾ اللوح المحفوظ ﴿ مَسْطُورًا ﴾ مكتوباً فيه . وفى الحديث : قال عليه السلام : أول ما خلق الله القلم فقال اكتب ما هو كائن إلى الأبد . أخرجه الترمذى ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ ﴾ التى اقترحها أهل مكة أى ما تركناها ﴿ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ إلا لتكذيب الأولين الذين هم أمثالهم فى الطبع كعاد وثمود فأهلكناهم ولو أرسلناها إلى هؤلاء لكذبوها فاستحقوا الإهلاك وقد حكمنا بإمهالهم لإتمام أمر محمد ولأن فيهم من يؤمن أو يلد من يؤمن ، ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فقال ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ ﴾ آية ﴿ مُبْصِرَةً ﴾ مضيئة واضحة من أبصر إذا أضاء ، أو جاعلة إياهم بصراء من أبصرته جعلته ذا بصيرة ، وإنما أفردها بالذكر لكونها قريبة من ديارهم يشاهدها صادرهم وواردهم ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ كفروا بها فأهلكوا ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ ﴾ المعجزة ﴿ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ للعباد من عذاب الاستئصال أو عذاب الآخرة لأنها طلائعه ليؤمنوا ومن الآيات الكسوف والرعد والزلزلة وقوس قزح ﴿ وَ ﴾ اذكر ﴿ إِذْ قُلْنَا لَكَ ﴾ أوحينا إليك ﴿ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ فهم فى قبضته فلا تخف أحداً فهو يعصمك منهم ، أو معنى أحاط بهم أهلكهم يعنى كفار قريش فى قوله « سيهزم الجمع » « ستغلبون » فهو بشارة بنصره وشفاء صدره والتعبير بالماضى لتحقق وقوعه ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ ﴾ عياناً ليلة الإسراء ﴿ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ أهل مكة إذ كذبوا وارتد بعض ضعفاء الإيمان لما أخبرهم بها وهذا ما عليه أكثر المفسرين من أن المراد ما رأى عليه السلام ليلة المعراج من العجائب كما قال ابن عباس هى رؤيا عين

أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به إلى بيت المقدس أخرجه البخاري وقد تعلق بذكر الرؤيا من قال إنها في المنام وليس له فيه دليل لعدم اختصاص الرؤيا بالمنام فهي هنا بمعنى الرؤية وقيل هي رؤيا رآها عام الحديبية أنه دخل مكة آمنا وفيه أن الآية مكية إلا أن يقال رآها بمكة وحكاها حينئذ وقيل غير ذلك وعطف على الرؤيا قوله ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ المبعدة عن رحمة الله لأنها في أصل الجحيم ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ وهي الزقوم أي جعلنا ذكرها في القرآن في سورة الصافات وغيرها فتنة لهم إذ قالوا النار تحرق الشجر فكيف تنبته ولم يعلموا أن من قدر أن يحفظ دود السمندل من أن تأكله النار وأحشاء النعامة من أذى الجمر تبتلعه قادر أن يخلق في النار شجرة ويحتمل تعلق في القرآن بالملعونة ولعنها فيه وصفها بأنها في أصل الجحيم ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواع التخويف ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تخويفنا ﴿إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ عتوا مجاوزا للحد ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ أي من طين نصب بنزع الخافض أو حال من الراجع إلى الموصول أي خلقته وهو طين إيماء إلى العلة واستطرد هنا قصة إبليس مع آدم إشارة إلى أن هؤلاء من أتباعه لا تنفع فيهم الآيات والنذر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ﴾ أخبرني أو تأمل ﴿هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ﴾ فضلت ﴿عَلَيَّ﴾ بالأمر بالسجود له وأنا خير منه خلقتني من نار وكاف أرأيتك لتأكيد الخطاب لا محل له من الإعراب وهذا مفعول أول والذي صفته والمفعول الثاني محذوف لدلالة الصفة عليه والمعنى أخبرني عن هذا الذي كرمته عليّ لم كرمته عليّ والحال يقتضي عكس ذلك ثم ابتدأ الكلام منتقلا منه بقوله ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ واللام موطئة للقسم وجوابه ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ لأستأصلن ﴿ذُرِّيَّتَهُ﴾ بالإغواء ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ منهم ممن عصمته والاحتناك قلع الشيء من أصله من احتنك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلا أو مأخوذ من الحنك من قولهم احتنك الدابة سخرها بحبل في حنكها الأسفل وتفرس ذلك مما رآه ركب في الإنسان من القوة الوهمية والشهوانية والغضبية فظن ذلك منهم فصدق عليهم ظنه ﴿قَالَ﴾ تعالى له ﴿اذْهَبْ﴾ امض لما قصدته وهو طرد وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه منظراً إلى وقت النفخة الأولى ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ أنت وهم ﴿جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ وافرا كاملا تبين له بما جره إليه سوء اختياره ونصب جزاء على المصدر أو على الحال الموطئة أو المؤكدة ﴿وَاسْتَفْزِزْ﴾ استخف واخدع ﴿مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ بدعائك بالغناء والمزامير وجميع آلات الملاهي لأنها أصوات مختصة بالمعاصي فهي مضافة إلى الشيطان قاله مجاهد وكذا بكل داع إلى المعصية واستفزز من الفز وهو خفة العقل ونقصان الرأي ﴿وَأَجْلِبْ﴾ صح وهول ﴿عَلَيْهِمْ﴾ والجلبة الصياح الهائل ﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قرأ حفص بكسر الجيم على أنه وصف والخيل اسم جمع وكذا الرجل

كركب وصحب وهم الركب والمشاة إلى المعصية أو هم جنوده من الشياطين وفى الحديث أن إبليس يبسط عرشه على الماء ثم يفرق سراياه للفساد فأقربهم عنده من فرق بين المرء وزوجه وقيل تمثيل له لتمكينه من الإغواء وتوفير أسباب ما هو بصدده بمنوال صات على قوم فاستفزهم من أماكنهم وأجلب عليهم بجنده حتى استأصلهم ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ بالربا والغضب والزنا أو بنحو البحائر وعبد يغوث وعبد العزى ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ بأن لا بعث ولا جزاء ولو كان فالأصنام تشفع وبتسويف التوبة والاتكال على كرامة الآباء ﴿ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ باطلا لا حقيقة له من الغرة وهى الغفلة ، والغرور : تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب اعتراض لبيان مواعيده لئلا يغتروا بها ﴿ إِنَّ عِبَادِى ﴾ المؤمنين المخلصين دل على التخليص إضافة التشريف ﴿ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ تسلط وقوة على إغوائهم ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ حافظاً لهم منك فعليه يتكلون فى دفع وساوسك وإغوائك ثم رجع إلى دلائل التوحيد بإفاضة النعم على غير الشاكرين بقوله ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى ﴾ يسوق ﴿ لَكُمُ الْفُلْكَ ﴾ السفن يسيرها بإرسال الريح ﴿ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ تعالى بالتجارة والربح وتحصيل ما تحتاجون إليه مما ليس عندكم ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ فى تسخيرها لكم لتيسير المعاش فى البحر الذى هو مظنة الهلاك ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾ الشدة ﴿ فِى الْبَحْرِ ﴾ من خوف الغرق عند تلاطم الأمواج ﴿ ضَلَّ ﴾ ذهب عن خواطركم كل ﴿ مَنْ تَدْعُونَ ﴾ تعبدون من الآلهة فلا تدعون ﴿ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ وحده فإنه لا يزال فى ذلك الوقت فى خاطركم لعلمكم بأنه القادر على الإنجاء ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ ﴾ من الغرق وأوصلكم ﴿ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ عن التوحيد وتخصيصه بالدعاء ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ جحودا للنعم كالتعليل للإعراض ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ ﴾ تقرير وفيه معنى الإنكار والفاء عاطفة على مقدر أى أنجوتم من الغرق فأمنتم ﴿ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ أى الأرض بأن يجعلكم تحتها مقلوبة عليكم كقارون وهو عذاب من جنس الغرق فلا وجه لأمنكم مع استواء القدرة على النوعين من العذاب وإنما ذكر الجانب للدلالة على أن الجوانب والجهات كلها مستوية بالنسبة إلى قدرته وذكر البر فى مقابلة البحر فقوله بكم حال أى أن يخسف جانب البر وأنتم عليه وقرأ أبو عمرو وابن كثير بالنون فى نخسف وفى الأربعة بعده ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ يرميكم بالحصباء كقوم لوط من جانب الفوق ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ حافظاً يقوم بنصركم ومنه الوكيل فى أسمائه تعالى ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ ﴾ فى البحر ﴿ تَارَةً أُخْرَى ﴾ بأن يخلق لكم دواعى الركوب ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ ﴾ ريحاً شديدة لا تمر بشىء إلا قصفته فتكسر فلككم ﴿ فَيُغْرِقَكُمْ ﴾ وليعقوب بالتاء ﴿ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ بكفركم ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ تابعاً نصيراً يطالبنا بما فعلنا بكم ثم حث

الإنسان على الشكر بعد ماتقدم من حفظه له فقال ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ فضلناهم بالعلم والنطق واعتدال الخلق والحواس والقوى بحيث صار نسخة العالم وبالاهتداء إلى أسباب المعاش والمعاد والتسلط على ما فى الأرض والتمكن من الصناعات وانساق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية إلى ما يعود عليهم بالمنافع إلى غير ذلك فهم أفضل الخلق لأن الجمهور على تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة وتفضيل رسل الملائكة وخواصهم على عامة المؤمنين وعامة المؤمنين على عامة الملائكة والله أعلم ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على الدواب ﴿وَالْبَحْرِ﴾ على السفن ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المستلذات مما يحصل بفعلهم وبغير فعلهم كالحلواء والثمر والسمن واللحم وغير ذلك ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ كالبهائم والوحوش بالغلبة والاستعلاء أو بالشرف والكرامة ﴿تَفْضِيلًا﴾ فمن بمعنى ما أو على بابها ويشمل الملائكة على ما قدمنا من التفضيل والتكريم فى الأمور الخلقية الذاتية كالعقل والنطق وحسن الصورة والتفضيل فى الأخلاق المكتسبة كالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة قاله فى اللباب ولما بين كرامة النوع على الإطلاق فى الدنيا أشار إلى التفاوت فى الدرجات فى الآخرة بقوله ﴿يَوْمَ﴾ منصوب باذكر أو بدل من يوم يدعوكم ﴿نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ نبيهم فيقال يا أمة فلان أو بكتاب أعمالهم فيقال يا صاحب الخير ياصاحب الشر أو بكتابهم المنزل عليهم كيا أهل القرآن يا أهل التوراة أو بمقدمهم نبيا أو غير نبي وهو يوم القيامة ﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ منهم ﴿كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وهم السعداء أولو البصائر فى الدنيا ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ فرحاً وسروراً بما فيه من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ لاينقصون من أعمالهم ﴿فَتِيلًا﴾ قدر قشرة النواة وجمع اسم الإشارة والضمير لأن من فى معنى الجمع ولم يذكر من أوتى كتابه بشماله دلالة على أنه إذا أطلع على ما فيه غشيهم من الخجل والحيرة ما يحبسهم عن القراءة فلا يقدرون على إقامة حروفه فقراءتهم كلا قراءة مع إشعارهم بقوله ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ﴾ الدنيا ﴿أَعْمَى﴾ عن الحق ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ عن طريق النجاة وقراءة الكتاب وإقامة الحجة ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ منه فى الدنيا لزوال الاستعداد وفوات المحل والأعمى مستعار من فاقد الحاسة وقيل الثانى للتفضيل من عمى بقلبه، ونزل فى ثقيف لما وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا نبايعك على أن تحرم وادينا وأن لا ننحنى فى الصلاة وأن تمتعنا باللات سنة فقال لهم لا خير فى دين لا ركوع فيه ولا سجود وأما اللات فإنى غير ممتعكم بها فألحوا عليه فى تحريم الوادى وقالوا نحب أن تسمع العرب أنك أعطيتنا مالم تعط أحدا فإن سألوا فقل الله أمر بذلك ﴿وَإِنْ﴾ مخففة ﴿كَادُوا﴾ قاربوا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ يوقعونك فى الفتنة باستنزالك ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ من الأحكام ﴿وَإِذًا﴾ لو فعلت ذلك ﴿لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾

برياً عن خلقي وقيل الآية نزلت في قريش حين اجتمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له أنت سيدنا وابن سيدنا أقبل على بعض أمرنا ونقبل على بعض أمرك قال ابن عطية فهي حينئذ في معنى قوله « ودوا لو تدهن فيدهنون » ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ على الحق بالعصمة ﴿لَقَدْ كِدْتَ﴾ قاربت ﴿تَرْكَنُ﴾ تميل ﴿إِلَيْهِمْ شَيْئًا﴾ ركونا ﴿قَلِيلًا﴾ لشدة كيدهم وغاية اهتمامك بإيمانهم والمعنى أنك على صدد الركون إلى اتباع مرادهم لولا العصمة التي منعتك أن تقرب من الركون فضلا عن أن تركن إليهم وهو صريح أنه عليه السلام ماهم بإجابتهم مع قوة الدعاء إليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه وكان عليه السلام يقول بعد ذلك اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ﴿إِذًا﴾ لو ركنت ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ﴾ عذاب ﴿الْحَيَاةِ وَضِعْفَ﴾ عذاب ﴿الْمَمَاتِ﴾ أي مثلي ما يعذب به غيرك في الدنيا والآخرة والإضافة بمعنى في لأن أصل الكلام عذابا ضعفاً في الحياة وعذاباً ضعفاً في الممات بمعنى مضاعفاً ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت كما يضاف موصوفها ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ مانعاً منه ﴿وَإِنْ﴾ مخففة ﴿كَادُوا﴾ أي كفار مكة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ يزعجونك بمعاداتهم ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ مكة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ﴾ ولابن عامر وحمزة والكسائي وحفص خلافك وهما بمعنى ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم يهلكون كإهلاكهم ببدر بعد الهجرة بسنة وقيل الآية نزلت في اليهود حسدوا مقام النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا إن كنت نبياً فالحق بالشام فإنها أرض الأنبياء حتى نؤمن بك ، قال في غاية الأماني : هذا ليس له أصل ولا نقله أحد . ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أي كسنتنا فيهم من إهلاك من أخرجهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ تبديلا وفيه دليل على أن إضافة السنة إلى الرسل مجاز لوقوعها لهم ، ولما قرر الله التوحيد والإلهيات أتبعها بالفروع وبدأ بالصلاة فقال ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي من وقت زوالها وأصل الدلك الانتقال ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ ظلمته غسق وأغسق أظلم أي الظهر والعصر والمغرب والعشاء ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ صلاة الصبح سميت قرآناً مصدر قرأ لطول القراءة فيها من إطلاق الجزء على الكل ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار أي تجتمع عندها ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ﴾ أي اترك الهجود أي النوم بعض الليل للصلاة ﴿بِهِ﴾ بالقرآن ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ فريضة زائدة على الصلوات الخمس لك خاصة دون أمتك ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ﴾ يقيمك ﴿رَبُّكَ﴾ في الآخرة ﴿مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ يحمدك فيه الأولون والآخرون وهو مقام الشفاعة في فصل القضاء وتميز الفريقين يرغب إليه الأولون والآخرون ويحمدونه على ذلك : نطقت به الأحاديث الصحيحة في الصحيحين وغيرهما ، نصب « مقاماً » على الظرفية بمقدر أي فيقيمك أو على تضمين يبعث معنى أقام ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي﴾ في جميع أموري الدنيوية والأخروية

﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ أى إدخالا مرضياً عندك ﴿ وَأَخْرِجْنِي ﴾ منها ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ على أداء الحقوق ، وقيل إدخال القبر والإخراج منه ، وقيل إدخال مكة ظاهراً على أهلها وإخراجه منها آمناً ، وقيل إدخاله النار آمناً وإخراجه منه سالماً . والحق كما فى غاية الأمانى التعميم فى كل مايلابسه من أمر الدنيا والآخرة ، والصدق يستعمل فى الأفعال كما يستعمل فى الأقوال ويراد به الإخلاص ﴿ وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً ﴾ قوة تنصرنى بها على أعدائك ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ ﴾ الإسلام ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ هلك الكفر واضمحل ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ مضمحلا زائلا ، وقد دخل صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح فوجد حول البيت ثلثمائة وستين صنما فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول جاء الحق وزهق الباطل حتى سقطت كلها رواه الشيخان ، وقوله «إن الباطل» كلام مستقل دال على حكم كلى جار مجرى المثل فإن كل باطل وإن كان له دولة وصولة يرتحل سريعاً ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ لما فى الصدور من الضلالة ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ به و «من» للبيان قدمت على المبين للاهتمام أو للتبعيض ، أى ننزل أبعاضه الشافية على حسب تجدد الداء شيئاً فشيئاً ، وكذا يشتق ببركاته من الأمراض كالفاتحة وآيات الشفاء . وقرأ البصرى ننزل بالتخفيف ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ ﴾ الكافرين ﴿ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لكفرهم ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ﴾ بالصحة والسعة والأمن وتوفير الأسباب ﴿ أَعْرَضَ ﴾ عن ذكر الله والقيام بالشكر ﴿ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ﴾ ثنى عطفه عن الشكر متبخترا ولابن ذكوان ناء بتقديم الألف على القلب أو على أن معناه نهض ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ الفقر والشدة ﴿ كَانَ يَئُوسًا ﴾ قنوطاً من رحمة الله ﴿ قُلْ ﴾ للكفار ﴿ كُلٌّ ﴾ منا ومنكم أو قل كل أحد ﴿ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ طريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ طريقاً فيثيبه ، وفسرت المشاكلة بالدين والطبيعة والعادة ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ أى اليهود ﴿ عَنِ الرُّوحِ ﴾ الذى يحيى به بدن الإنسان ويدبره ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ لا طريق لأحد إلى معرفته ، ولذا أردفه بقوله ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ بالنسبة إلى علمه تعالى والروح من الكثير الذى ما أوتيتم علمه ، ووجه اتصال الكلام بما تقدم هو أن القرآن الذى هو شفاء لا يتدبرونه ولا يسألون عنه ويسألونك بما لا ضرورة تدعوهم إليه وهو الروح ، ولما كان سؤالهم تعنتاً أجابهم بجواب مجمل وهو كونه من أمر ربه والله أعلم . ثم حث على استدامة الشكر بإنزال القرآن بعد ما بين أنه شفاء ورحمة بقوله ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى القرآن بأن نمحوه من الصدور والمصاحف ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ كفيلا يضمن رده عليك ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ استثناء متصل أى إلا رحمته فإنها تقدر على الرد بعد الذهاب أو منقطع ، والمعنى : لكن رحمنا أمركنك فتركته غير مذهوب به وكل ذلك

امتنان بإبقائه بعد المنة فى تنزيله حثاً على الشكر ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ حيث أنزله عليك وأبقاه وأعطاك المقام المحمود وغير ذلك من الفضائل ، وصف فضله عليه بالكبر تارة وبالعظم أخرى ملاحظة للكم والكيف دلالة على كمال عنايته من كل وجه ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾ فى الفصاحة والبلاغة وكمال المعانى وهو استئناف لبيان ذلك الفضل الكبير ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ معيناً نزل رداً لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا ، وقوله لا يأتون جواب القسم المحذوف ولولا اللام الموطئة لجاز أن يكون جواباً للشرط لكونه ماضياً ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بيّنا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ صفة لمحذوف أى مثلا من جنس كل مثل أى من كل معنى هو كالمثل فى غرابته ووقوعه موقعاً فى الأنفس كمباحث المبدإ والمعاد وأخبار الأنبياء مع الأمم ، كرر كل ذلك بأساليب مختلفة ليتدبروا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ جحوداً للحق وكفراً لهذه النعم وجاز الاستثناء المفرغ فى الإثبات وإن لم يصح «ضرب إلا زيداً» لأن «أبى» نفى معنى ﴿وَقَالُوا﴾ عطف على أبى ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ عيناً ينبع منها الماء ، قالوا ذلك لعدم الاعتداد بما فى القرآن من الإعجاز والمعانى وقصر النظر على الفانى من الماء والثمار كسائر البهائم ، وقائله عبد الله بن أبى أمية أو أبو جهل أو نضر بن الحارث ، واليَنبوع يفعول من نبع الماء بناء للمبالغة ، أى عيناً كثيرة الماء ، وقرأ الكوفيون تفجر مخففاً ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بستان ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا﴾ وسطها ﴿تَفْجِيرًا ، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ قطعاً بتحريك السين لنافع وابن عامر وعاصم والباقون بالإسكان فعلى الأول جمع وعلى الثانى اسم جمع قطعا من كسفت الثوب قطعته يريدون قوله إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ مقابلة وعياناً فزعم أو شاهداً على صحته ضامناً لدركه وهو حال من الله وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ ذهب هذا أصله ويطلق على الزينة والتمويه ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ تصعد ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ بسلم ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لو رقيت فيها ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا﴾ فيه تصديقك ﴿نَّقْرَؤُهُ قُلْ﴾ ولابن عامر وابن كثير قال أى الرسول ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تعجب من اقتراح الآيات أو تنزيهاً له عن أن يشاركه أحد فى القدرة ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾ كسائر الناس ﴿رَّسُولًا﴾ كسائر الرسل ولم يكونوا يأتون بآية إلا بإذن الله ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ الوحى ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ أى قولهم منكرين ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ولم يبعث ملكا ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ﴾ بدل البشر ﴿مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كما يمشى الناس ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ مستوطنين احتراز من الملائكة

المرسلين لأمر الله والسياحين لسماع الذكر ﴿ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴾ من جنسهم ليسهل الأخذ منهم ، ولذلك كان جبريل يتمثل رجلا فى أكثر الأحيان ، وأما الإنس فعامتهم عماة عن إدراك الملك لعدم التجانس ، و «ملكا» يحتمل أن يكون حالا من «رسولا» وأن يكون موصوفا به وكذا بشراً والأول أوفق لأن مصب الغرض إنكار كون الرسول بشراً واعتقاد كونه ملكا ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ على صدق بإظهار المعجزة على وفق دعواى أو على أنى بلغت وأنكم عاندتم ، وشهيداً نصب على الحال أو التمييز ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ عالماً ببواطنهم وظواهرهم فيجازيهم ، وفيه تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يهدونهم ﴿ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ماشين أو مسحوبين ﴿ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ لأنهم لم يعفروها بالسجود لربهم تواضعاً . قيل لرسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : « إن الذى أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » أخرجه الشيخان ، وفى الترمذى : يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف ركباناً ومشاة وعلى وجوههم . الحديث ﴿ عُمْيًا ﴾ لا يبصرون ﴿ وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ لا ينطقون ولا يسمعون ثم تعاد إليهم هذه الحواس لقوله تعالى «ورأى المجرمون النار ... سمعوا لها تغيظاً ... دعوا هنالك ثبوراً» وقيل معنى الآية لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم ولا ينطقون ما يقبل منهم لأنهم فى الدنيا لم يستبصروا بالآيات وتلاهوا عن استماع الحق وأبوا أن ينطقوا بالصدق ﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ سكن لهبها بأكل جلودهم ولحومهم ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ تلهباً واشتعالا بإعادتها فإنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جزاهم الله بأن لا يزالوا على الإعادة والإفناء . قال فى الجواهر : أى كلما فرغت من إحراقهم سكن اللهيب القائم عليهم قدر ما يعادون ثم يثور فتلك زيادة السعير قاله ابن عباس . اهـ . وقال ابن عطية : الزيادة فى حيزهم وأما جهنم فعلى حالها من الشدة ، وخبت النار معناه سكن اللهيب والجر على حاله ، وخمدت معناه سكن الجر وضعف ، وهمدت معناه طفئت جملة . اهـ . ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الإفناء والإعادة ﴿ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا ﴾ منكرين للبعث ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ فأجابهم الله رداً عليهم بقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا ﴿ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ مع عظمهما ﴿ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ أى الأناسى فى الصغر فإنهم ليسوا أشد خلقاً منها ولا الإعادة أصعب عليه من الابتداء ﴿ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا ﴾ للموت والبعث ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ « وجعل » عطف على « أولم يروا » لأن العطف على الصلة يمنعه الفصل بالخبر ولا يحسن معنى عطفه على ما بعد أن المصدرية والمعنى قائلون بالموت لا محالة وهم لم يخافوا عبثا فلا بد من الجزاء وذلك لا يمكن إلا

بالإعادة فعم الإنكار ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ جحوداً للبعث أتى بالمظهر دلالة على أنهم ظالمون فى الإنكار بعد وضوح الحق ولما كان سياق الآيات استطراد عن سؤالهم تفجير الينبوع لهم من الأرض ونحوه توسعة للرزق عليهم بين الله أنهم أشحة بقوله ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ ﴾ فاعل فعل محذوف يفسره ﴿ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ من الرزق والمطر ﴿ إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ ﴾ لبخلتم ﴿ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ خوف نفادها بالإنفاق فتفتقروا ، المعنى أن هؤلاء الذين طلبوا أن تفجر لهم من الأرض ينبوعاً أرادوا به توسعة الرزق عليهم فهم من الشح بحيث لو ملكوا خزائن رزق الله التى لا تمسكها يد الفناء لبخلوا بها ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ بخيلا لأن بناء أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج إليه وملاحظة العوض فيما يبذله ثم أجاب الله عن قولهم لن نؤمن لك إلى قوله كتاباً نقرؤه بقوله ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ واضحات ولم يؤمن به فرعون وكذلك هؤلاء لا يؤمنون بمجيء الآيات والتسع هى : العصا مع اليد . والطوفان . والجراد . والقمل . والضفادع . والدم . والطمس . والسنون . ونقص من الثمرات . وقيل سأل بعض اليهود رسول الله عنها فقال هى أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان يقتله ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تقذفوا المحصنات ولا تفروا يوم الزحف . وعليكم خاصة معشر يهود أن لا تعدوا فى السبت . قال فى غاية الأمانى : تفسير الآية بها لا يناسب لنبوّ المقام عنها ﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ أى قلنا لموسى اسأل بنى إسرائيل من فرعون وقت مجيئه كقوله إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل وقيل الخطاب لرسول الله أى سلهم عما جرى بين موسى وفرعون إذ جاءهم أو عن الآيات ليظهر للمشركين صدقك ﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ مخدوعا مغلوباً على عقلك حيث تتكلم بما لا يعقل والظن بمعنى العلم عبر به على طريقة الملوك فى أن ظنهم لا يكذب كما أن عسى ولعل عندهم لازم الوقوع ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ بفتح التاء والكسائى بضمها ﴿ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ ﴾ الآيات ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ عبراً ولكنك تعاند ، وانتصاب « بصائر » على الحال ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ هالكا أو مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ما ثبرك عن هذا أى ما صرفك وشتان ما بين الظنين فإن ظن موسى مستند إلى أمارة وظن فرعون كذب محض ﴿ فَأَرَادَ ﴾ فرعون ﴿ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ ﴾ يزعج موسى وبنى إسرائيل ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أرض مصر ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ فى الماء الذى كان يفتخر به أو لما كان عالياً يقصد الصعود إلى السماء ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ التى أراد فرعون إخراجكم منها ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ﴾ الحياة أو الساعة أو الدار ﴿ الْآخِرَةِ ﴾ أى قيام الساعة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ جميعاً أنتم وهم من هاهنا وهاهنا واللفيف الجماعات

من قبائل شتى وأصل اللف الخلط أى جئنا بكم مختلطين ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ أى القرآن بالحق المقتضى لإنزاله ﴿وَبِالْحَقِّ﴾ المشتمل عليه ﴿نَزَلَ﴾ كما أنزل لم يعتره تبديل ولذا ذكره بعد لدفع توهم تطرق التبديل إليه بعد الإنزال وقبل الوصول إليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ من آمن بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ من كفر بالنار فلا عليك بعدهما ﴿وَقُرْآنًا﴾ منصوب بفعل يفسره ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ نزلناه مفرقاً فى عشرين سنة أو وثلاث أوبيناه وشرحناه أو فرقنا الحق فيه من الباطل ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ مهل وتثبت ليفهموه فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ شيئاً بعد شىء على حسب المصالح ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ﴾ بالقرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ تهديد لهم لأن إيمانكم لا يزيده كمالا وعدمه لا ينقصه ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ كعشرين رجلا بعثهم النجاشى إلى رسول الله ليعلموا أمره فوجدوه بمكة فقرأ عليهم القرآن فآمنوا فاعترضهم أبو جهل فى نفر من قريش وقالوا خيبكم الله أرسلكم صاحبكم لتعلموا خبر الرجل فما استقر بكم المجلس حتى فارقتم دينكم، فقالوا ليس لنا مع جاهل كلام كما ذكره محمد بن إسحق، وأما التمثيل بعبدالله بن سلام ونحوه ممن أسلم بالمدينة وهذه السورة مكية وتأويل بعضهم ذلك بأنه إخبار بما سيقع فتكلف لا يحتاج إليه ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ يسقطون على وجوههم شكراً لله على بعثه الموعود المنعوت فى كتبهم ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ تنزيهاً له عن خلف الوعد ﴿إِنْ﴾ مخففة ﴿كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ ببعث الرسول وإنزال القرآن عليه ﴿لَمَفْعُولًا﴾ واقعاً لا محالة ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ كرره لاختلاف الحال أو السبب فإن الأول للشكر عند إنجاز الوعد والثانى لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم ﴿يَبْكُونَ﴾ باكين من خشية الله، وذكر الذقن مع أن السجود بالجبهة والأنف دلالة على تمكينهما حتى يلصق الذقن بالأرض ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ تواضعاً لله كما يزيدهم علماً ويقيناً بالله تعالى. ولما كان صلى الله عليه وسلم يقول يا الله يا رحمن، وقال المشركون ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهاً آخر معه نزل ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ أى سموه بأيهما فهما سواء فى الإفضاء إلى المقصود ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا﴾ فهو حسن دل عليه ﴿فَلَهُ﴾ أى لمسماها ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ وهذان منها، وأو للتخيير والتنوين عوض عن المضاف إليه وأى شرطية و«ما» زائدة لتأكيد إبهام أى والضمير فى «له» للمسمى والجواب محذوف كما قدرنا ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءتك فيها كما رواه البخارى عن ابن عباس، وقيل نزل فى الدعاء رواه البخارى أيضاً عن عائشة قيل له ذلك لئلا يؤذيه المشركون ﴿وَلَا تُخَافِتْ﴾ تسر ﴿بِهَا﴾ لينتفع أصحابك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ قراءة بين القراءتين دون الجهر وفوق المخافتة، أو بالإجهار ليلا والإخفات نهاراً ﴿وَقُلِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ) الألوهية (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ) ينصره (مِنَ) أجل (الذُّلِّ) أى لم يذل فيحتاج إلى ناصر (وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) عظمه عظمة تامة عن اتخاذ الولد والشريك والذل وكل ما لا يليق به ، وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على أنه المستحق لجميع المحامد لكمال ذاته وتفرده فى صفاته . قال عليه السلام « آية العز الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً » إلى آخر السورة رواه أحمد فى مسنده والله أعلم : وإنما بنى الحمد على نفى الأوصاف الثلاثة لكون الحمد كناية عن الوصف بكمال المحمود ، وما نعه إما من هو دون المعطى وهو الولد لأنه مبخلة أو مثله وهو الشريك أو فوقه وهو الولى ، فنفى الكل على طريقة الترقى فانحصر المحمود فيه تعالى كبرياؤه .

[تم تفسير سورة الإسراء]

قال المسوّد لهذا التفسير قد يسر الله [كمال الجزء الأول (١)] من ضياء التأويل فى معانى التنزيل
بحمد الله يوم الأحد فى رمضان لاثنتين بقيتا منه سنة شكرى أو بشكر يسر الله
الجزء الثانى كما يسر الجزء الأول بمنه وكرمه آمين ، وآخر دعوانا
أن الحمد لله رب العالمين

(١) قول كاتب المسودة « الجزء الأول » هو فى الواقع نصف التفسير ، وقد جعلنا التفسير أربعة أجزاء فصادف هذا نهاية الثانى فتنبه . له مصححه .

فهرس
الجزء الثاني
من
ضياء التأويل : فى معانى التنزيل

صفحة	
٢	تفسير سورة الأعراف
٤٦	« « الأنفال
٦٥	« « التوبة
١٠٤	« « يونس
١٢٨	« « هود
١٥٤	« « يوسف
١٨٣	« « الرعد
١٩٥	« « إبراهيم
٢٠٧	« « الحجر
٢١٨	« « النحل
٢٤٤	« « الإسراء